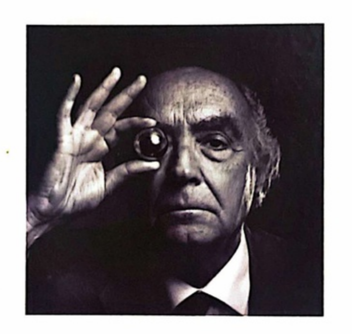
جوزيه ساراماغو

الإنجيل
برواية يسوع المسيح



ترجمة:

خالد الجبيلي

منشورات الجمل

رواية

جوزيه ساراماغو: الإنجيل برواية يسوع المسيح

جوزيه ساراماغو

الإنجيل
برواية يسوع المسيح

ترجمة:
خالد الجبيلي

منشورات الجمل

وُلد الكاتب البرتغالي جوزيه ساراماغو في العام ١٩٢٢، وتوفي العام ٢٠١٠. نال جائزة نوبل للآداب لعام ١٩٩٨. ألف نحو اربعين كتاباً متنوعاً، ما بين دواوين شعرية وأعمال مسرحية ومجموعات قصصية وروايات ومؤلفات تاريخية.

من أعماله الروائية والقصصية المهمة: العمى، سنة موت ريكاردو ريس، الطوف الحجري، مذكرات الدير، الإنجيل طبقاً ليسوع المسيح، كل الأسماء، قصة حصار لشبونة، كتاب الرسم والخط، قصة جزيرة مجهولة، الكهف، موت ذو انقطاعات، رحلة الفيل. قابيل هي آخر رواية كتبها ساراماغو.

جوزيه ساراماغو: الإنجيل برواية يسوع المسيح

ترجمة: خالد الجبيلي

José Saramago: *Œvangelho Segundo Jesus Cristo, 1991*

Universal Copyright Convention in accordance with the Appendix hereto

الطبعة الأولى ٢٠١٧

تلفون وفاكس: ٣٥٣٣٠٤ ـ ٠١ ـ ٠٠٩٦١

ص.ب: ٥٤٣٨ ـ ١١٣ بيروت ـ لبنان

Postfach 1127 - 71687 Freiberg a. N. Germany

www.al-kamel.de

E-Mail: alkamel.verlag@gmail.com

إلى بيلار

كثيرون أخذوا يسجلون قصة الأحداث التي جرت عندنا كما سلّمها إلينا الذين هم شهود عيان الكلمة وخدّامها الأصليون. لذلك، بما أني أنا نفسي فحصتُ كل شيء بدقة من البداية، رأيت أنا أيضاً لك مرتبة، أيها العزيز حبيب الله، لكي تعرف أن الأمور التي تعلمتها هي على أساس صحيح.

لوقا، ١-٤-٤

Quod scripsi, scripsi

ما كتبتُ قد كتبتُ

تظهر الشمس في إحدى زوايا المستطيل العليا من الجهة اليسرى بالنسبة لأي شخص ينظر إلى الصورة. إذ تمثّل الشمس رأس رجل تنبعث منه إشعاعات ضوء برّاق جميل وألسنة نيران متموجة مثل بوصلة تتذبذب حتى تستقر في الاتجاه الصحيح، ولهذا الرأس وجه تسيل منه الدموع، يتلوّى بتشنّجات من الألم تأبى أن تنحسر، ويرسل الفم الفاغر صيحة لن نتحمّل سماعها أبداً، لأنه لا شيء من كلّ هذا حقيقي، بل إن ذلك كله لا يعدو كونه ورقة وحبراً، ولا شيء آخر. وتحت الشمس، نرى رجلاً عارياً مُقيّداً إلى جذع شجرة، وقد لُفت قماشة حول خصره لتغطي تلك المنطقة التي نسميها «حميمية»، وقدماه مسندتان إلى لوح خشبي نُصِب في شكل صليب، لتسنده ولكي لا تنزلق قدماه المثبتتان بمسمارين غائرين عميقاً في قطعة الخشب. من التعابير الحزينة البادية على وجه الرجل، ومن عينيه المرفوعتين باتجاه السماء، لا بدّ أن هذا الرجل هو اللص الطيب: لأن جدائله دليل مطمئن آخر، فمن المعروف أن الملائكة وكبير الملائكة يضفرون شعرهم بهذه الطريقة، لذلك يبدو أنّ المجرم التائب يصعد الآن إلى عالم الكائنات السماوية. ويستحيل أن نعرف هل إن جذع الشجرة لا يزال شجرة استُخدمت أداة للتعذيب وهي لا تزال تمتص العناصر الغذائية من التربة بواسطة جذورها، لأن الجزء

السفلي من اللوحة يُظهر صورة رجل له لحية طويلة، يرتدي عباءة مسترسلة فضفاضة. إنه ينظر إلى الأعلى، لكن ليس نحو السماء. لا بد أن هذه الوضعية المهيبة والطلعة الحزينة هما ليوسف الرّاميّ، لأن الشخص الآخر الوحيد الذي قد يخطر ببالنا هو سمعان القيرواني الذي أُجبر، عندما كان يسير في طريقه، على مساعدة الرجل المتهم في حمل صليبه كما جرت العادة آنذاك عندما تُنفذ أحكام الإعدام هذه. ربما كان يفكّر بأمر يتطلب منه أن يتخذ قراراً سريعاً أهمّ من آلام رجل بائس سيُصلب. ويوسف الرّاميّ هو ذلك الرجل الموسر والطيب الذي تبرّع بقبر لدفن أعظم مجرم، لكن هذا الكرم لن يذهب هباء عندما يحين الوقت للتفكير بتطويبه بالسعادة الأبدية، ناهيك عن إعلان تطويبه في قائمة القديسين. كان كلّ ما يغطي رأسه عمامة دأب على وضعها عندما يخرج من بيته، بخلاف المرأة البارزة في مقدمة اللوحة التي يتدلى شعرها حتى أسفل ظهرها وهي تنحني إلى الأمام، وما يزيدها جمالاً هو المجد السامي لهالة موشّاة بأجمل تطريز. لا بد أن المرأة الجاثية هي مريم، لأننا نعرف أن جميع النساء الموجودات هنا يدعين مريم، إلّا امرأة واحدة ـ تدعى أيضاً مريم المجدلية. إن أي شخص ينظر إلى هذه اللوحة ويعرف حقائق الحياة سيُقسم على الفور بأنّ هذه المرأة تدعى مريم المجدلية، لأنه لن تجرؤ إلّا امرأة ذات ماض مشين مثلها على الظهور في مناسبة مهيبة كهذه وهي ترتدي ثوباً مفتوح الصدر وسترة ضيّقة تُبرز صدرها العامر، وهو أمر لا بدّ أن يجذب نظرات الرجال العابرين ويعرّض أرواحهم لخطر الذهاب إلى نار جهنم. لكن التعابير التي ترتسم على وجهها تشي بالندم، ولا يحمل جسدها الذاوي شيئاً سوى روحها الحزينة التي لا يمكننا تجاهلها، حتى لو كان يخفيها جسد مغرٍ، لأنه يمكن أن تكون هذه المرأة عارية تماماً، حتى لو شاء الفنان

أن يصوّرها هكذا، وبالرغم من ذلك فهي لا تزال تستحقّ كلّ الاحترام والتبجيل. مريم المجدلية، إذا كان هذا هو اسمها، تقبّل يد امرأة أخرى انهارت وتهاوت على الأرض كما لو أنه لم تعد لها قوّة أو أنها أصيبت بجروح مميتة، اسمها أيضاً مريم، وهي تأتي في المرتبة الثانية من حيث الظهور، لكن مما لا شك فيه، فهي أهم مريم من بينهن جميعهن، إذا كان للموقع المركزي في الجزء الأسفل من اللوحة أيّ أهمية. وما عدا قسمات الحزن المرتسمة على وجهها ويديها الهزيلتين، فلا يمكن تبيّن أي شيء من جسدها المغطّى بطيّات كثيرة من عباءتها وبسترة معقودة عند الخصر بحبل خشن مضفور. إنها أكبر من مريم الأخرى سناً، وهو سبب كاف، مع أنه ليس السبب الوحيد لأن تكون هالتها أكثر بروزاً، على الأقل هذا ما يمكن أن يخلص إليه المرء لعدم توفر المزيد من التفاصيل الدقيقة عن مزايا المرتبة والأقدمية المتبعة آنذاك. لكن بسبب التأثير الهائل لهذه الأيقونة، فإنه لا يمكن لأحد أن يعرف، إلّا إذا كان من كوكب آخر لم تجر فيه مثل هذه الأحداث المأساوية، بأنّ هذه المرأة الحزينة هي أرملة رجل نجار يدعى يوسف وأنها أمّ لعدد من الأبناء والبنات، مع أن ابناً واحداً فقط من أبنائها «قرر القدر»، أو من يتحكم بالقدر أن يحظى بصيت كبير أثناء حياته وبشهرة أكبر بكثير بعد موته. متكئة على جانبها الأيسر، تسند مريم، أمّ يسوع المسيح، ساعدها إلى ورك امرأة أخرى جاثية أيضاً وتُدعى مريم كذلك التي قد تكون هي مريم المجدلية الحقيقية مع أننا لا نستطيع رؤية أو تخيّل خطّ عنق ثوبها. ومثل المرأة الأولى في هذا الثالوث، فإنها تترك خصلات شعرها الطويلة مسدلة حتى أسفل ظهرها، لكنها تبدو لكل من يراها، باهتة اللون، إلّا إذا كان ذلك بالمصادفة، فإن ضربات الريشة هي أكثر دقة ورهافة هنا، وتركت فراغات بين خصلات الشعر مما سمح للرسام أن

يجعل اللون هنا فاتحاً أكثر. إننا لا نحاول إثبات أن مريم المجدلية شقراء، بل إننا نلمّح إلى الاعتقاد الشعبي الذي يدّعي أن النساء ذوات الشعر الأشقر، سواء أكان طبيعياً أم مصبوغاً، هن الأدوات الأكثر فاعلية لارتكاب الخطايا. فقد كانت مريم المجدلية، كما يعرف الجميع، امرأة عاشت في الرذيلة، ولا بدّ أنها كانت شقراء إذا أخذنا بالرأي السائد لدى نصف البشر تقريباً. لكننا لا نوحي بأن المرأة الثالثة هي مريم المجدلية لأن بشرتها أكثر بياضاً وشعرها أكثر شقاراً من الأولى، مع أن الدليل الدامغ هو أن صدرها مكشوف. إن ما يؤكّد هويتها هو أن مريم الثالثة هذه، تسند، وهي ساهمة، ذراع أمّ يسوع النحيلة، وهي تنظر ببهجة إلى الأعلى بجهد بالغ لكي ترفع جسدها كله. إن النور المتألق يتجاوز الهالة التي تجلل رأسها، نور يغمر كلّ فكرة وعاطفة. إن امرأة أحبّت بقدر ما أحبّت مريم المجدلية، حسب اعتقادنا، هي المرأة الوحيدة التي يمكن أن تبدو عليها هذه التعابير. إنها هي وهذا ما يؤكد أنها هي ولا أحد غيرها، لذلك، فإننا نستثني المرأة الواقفة إلى جانبها. إنها مريم الرابعة، يداها نصف مرتفعتين في حركة تدلّ على الورع وتعابيرها مضطربة، يصحبها في هذا الجانب من اللوحة شاب في سن المراهقة تقريباً، ركبتاه محنيتان بوهن وهو يقدّم بيده اليمنى بطريقة مفتعلة ومسرحيّة، المرأة الرابعة التي تؤدّي المسرحية المحزنة في مقدمة اللوحة. إنه يوحنا الذي يبدو فتى يافعاً، شعره مضفور في جدائل، وشفتاه ترتعشان. ومثل يوسف الرّاميّ، فهو أيضاً يحجب جزءاً من اللوحة، ويحجب جسده جذع الشجرة السفلي في الجانب الآخر حيث لا يوجد عشّ للطيور. وكلّ ما نراه في الأعلى رجلٌ عارٍ معلق في الهواء ومقيّد وقد ثبتت يداه في الخشب بواسطة مسامير مثل اللص الأول، لكن شعر هذا اللص ناعم، وعينيه مطرقتان، لعله لا يزال يستطيع أن

يرى الأرض تحته. إن وجهه الضامر يثير شفقتنا بعكس اللص الثالث في الجانب الآخر، الذي يبدي وجهه، حتى وهو في سكرات الموت، تحدياً، والذي لم يكن شاحباً دائماً، لأن السرقة كانت توفر له عيشة رغيدة. أما الرجل الثاني فشعره خفيف وناعم، وهو ينحني نحو الأرض التي ستلتهمه. لا بد أن يكون هذا المخلوق المثير للشفقة، المدان بالموت وبالجحيم معاً، هو اللص الشرير، لكنه رجل صادق لأنه تخلّى عن الشرائع السماوية والبشرية، ولم يدّع بأنه يؤمن بأن التوبة المفاجئة تكفي لخلاصه وإنقاذه من حياة حافلة بالشرور. وفوقه يمكننا رؤية القمر وهو يبكي أيضاً مثل الشمس في مقدمة اللوحة، وهو في شكل امرأة تضع في إحدى أذنيها أغرب قرط، بحريّة لم يسبق لها مثيل وليس من المحتمل أن يكررها أي فنان أو شاعر آخر. وينير كل من الشمس والقمر الأرض على نحو متساوٍ، لكن النور دائري ليس له ظلّ، مما يجعل كلّ شيء في الأفق البعيد يظهر بوضوح، أبراج وجدران، وجسر متحرك فوق خندق مائي تلمع مياهه، وأقواس عقود قوطية، وعلى قمة أبعد هضبة، يمكن رؤية أذرع طاحونة هوائية ساكنة. وعلى مسافة أقرب، في هذا المنظور الخادع، يُرى أربعة فرسان يرتدون دروعاً وخوذاً ويحملون رماحاً، يسيرون في موكب على ظهور خيولهم بكبرياء وبمهارة تثير الإعجاب، لكن يبدو أنهم وصلوا إلى نهاية استعراضهم وهم يلوّحون مودعين جمهوراً غير مرئي. ونفس الانطباع بانتهاء المراسم يوحي به جندي مشاة يوشك أن يغادر، وهو يحمل في يده اليمنى شيئاً قد يكون قطعة قماش، بل ربما عباءة أو رداء، في حين يبدو جنديان آخران منزعجين، محبطين، كما لو أنهما خسرا في لعبة قمار، مع أنه يصعب معرفة ما هو ذلك الشيء من وجهيهما الصغيرين جداً. وفوق هذين الجنديين العاديين وفوق المدينة المسوّرة تحوم أربع ملائكة، اثنتان

تظهران بطولهما الطبيعي، تبكيان وتنوحان ماعدا الملاك التي تحمل بوقار قدحاً إلى يمين الرجل المصلوب لتجمع فيه آخر نقطة دم تنزف من الجرح الناجم عن طعنة رمح. وفي هذا المكان الذي يعرف بالجلجثة، لقي الكثير من الأشخاص هذا المصير البشع وسيتبعهم كثيرون آخرون، أما هذا الرجل العاري الذي دُقت يداه وقدماه بالمسامير على صليب، فهو ابن يوسف ومريم، ويدعى يسوع المسيح، الشخص الوحيد من بين هؤلاء الذي ستتذكّره الأجيال القادمة وتشرّفه بكتابة حروف اسمه الأولى. إذاً هذا هو الشخص الذي يحدّق فيه يوسف الرّاميّ ومريم المجدلية، هذا هو الذي يجعل الشمس والقمر يبكيان، والذي، قبل لحظات قليلة، امتدح اللص الطيب ووبّخ اللص الشرير، مع أنه لم يعرف أنه لا يوجد فرق بينهما، وإذا كان هناك فرق، فإنه يكمن في شيء آخر، وهو عدم وجود الخير والشرّ في حد ذاتهما، لأن أحدهما غائب عن الآخر. وعُلّقت فوق رأسه لافتة ذات ألف شعاع، براقة أكثر من شعاع الشمس والقمر كليهما، كُتبت بأحرف رومانية تقول إنه ملك اليهود، ووضع على رأسه تاج من الأشواك كالذي يوضع، حتى من دون علمهم ومن دون دليل مرئي على وجود أية نقطة دمّ، على رأس من لا يُسمح له بأن يكون سيداً على جسده. وبخلاف اللصين، لا يوجد لدى يسوع مكان يسند إليه قدميه، لذلك تركّز ثقل جسمه كله على يديه المثبتتين بالمسامير في الخشب، لأنه لم تبق لديه حياة كافية كي يظل منتصباً على ساقيه المحنيتين، لكن حياته تلك قد اقتربت من نهايتها في حين كان الدم لا يزال يتدفق من الجرح المذكور أعلاه. وبين الوتدين اللذين يجعلان الصليب منتصباً بشكل عمودي واللذين يغوصان كذلك في الأرض المظلمة، الجرح الفاغر الذي لا مفر منه، مثل أيّ قبر بشري، نرى جمجمة وعظم ساق وعظم كتف، لكن

ما يعنينا هو الجمجمة، وهذا ما تعنيه كلمة الجلجثة: الجمجمة. ولا يعرف أحد من وضع رفات البشر هنا، أو لأي سبب، لعلها مجرد رسالة شريرة لهؤلاء المساكين المنكودين بما ينتظرهم قبل أن يستحيلوا إلى تراب في نهاية المطاف، ثمّ إلى عدم. لكن البعض يزعم أن هذه هي جمجمة آدم، وقد صعدت من طبقات الأرض العميقة المظلمة، وبما أنها لا تستطيع أن تعود إلى مكانها، فقد قُدِّر لها أن لا ترى إلّا الأرض، جنتها الوحيدة الممكنة التي فقدتها إلى الأبد. وفي الخلفية، في ذات الحقل الذي يؤدي فيه الفرسان مناورة أخيرة، يُرى رجل يسير مبتعداً لكنه ينظر إلى الوراء في هذا الاتجاه، ويحمل بيده اليسرى دلواً، وبيده اليمنى عصا. وعُلِّقت في قمة العصا إسفنجة، لا يمكن رؤيتها بسهولة من هنا، ويستطيع المرء أن يخمّن بأمان بأن في الدلو ماء ممزوجاً بالخلّ. ففي أحد الأيام، وبعد ذلك إلى الأبد، سيتعرض هذا الرجل إلى الكثير من الإهانات والافتراءات، وسيُتّهم بأنه قدم ليسوع ماء ممزوجاً بالخل بدافع الحقد والاحتقار عندما طلب منه أن يحضر له ماء، لكن في حقيقة الأمر، فقد أعطاه الرجل الماء الممزوج بالخلّ لأن تلك كانت أفضل وسيلة للتخفيف من حدة العطش في ذلك الزمان. ثم يبتعد الرجل، حتى إنه لا ينتظر النهاية، ويفعل كلّ ما بوسعه للتخفيف من عطش الرجال المدانين الثلاثة المعلقين على الصلبان، ولم يميّز بين المسيح وبين اللصين الآخرين، لأن الأمور كانت هكذا على الأرض، وستظل هكذا على هذه الأرض، ومنها سيُكتب التاريخ الوحيد الممكن.

لا يزال هناك وقت طويل لانقضاء الليل. وكان الفانوس الزيتي المعلّق على مسمار بجانب الباب لا يزال متقداً، لكن وميضه المرتعش، مثل لوزة مضيئة صغيرة، لم يكن يكاد ينير العتمة الحالكة التي تغمر أرجاء البيت ويتسلل إلى الزوايا البعيدة حيث يبدو أن الظلال الكثيفة بدأت تشكّل كتلة صلبة. استيقظ يوسف مجفلاً كما لو أن أحداً هزّه بقوة من كتفيه. لا بدّ أنه كان يحلم، لأنه كان يعيش في هذا البيت وحده مع زوجته التي لم تكن تتقلب كثيراً في نومها والتي كانت تغطّ في سبات عميق. لم يكن استيقاظه في منتصف الليل أمراً عادياً، بل كان من النادر أن يفتح عينيه قبل طلوع الفجر عندما يبدأ نور الصباح البارد الرمادي يتسلل عبر شقوق الباب. كم مرة فكّر بأن يصلح الباب، فأي شيء أسهل على نجار من أن يسدّ شقوق باب بيته بقطع خشبية متبقية من أعمال أخرى، لكنه اعتاد الآن على رؤية شريط الضوء العمودي ذاك ما إن يفتح عينيه في الصباح، وقد خلص إلى أنه بدون ذلك الضوء فإنه سيظل حبيساً إلى الأبد في ظلّ النوم، في عتمة جسده، وفي ظلام العالم. لقد أضحى الشقّ في الباب جزءاً من أركان البيت مثل الجدران والسقف، والتنور والأرضية الطينية. وكي لا يزعج زوجته التي كانت لا تزال نائمة، راح يردد همساً عبارات الشكر، العبارات التي يرددها صباح

كلّ يوم بعد أن يرجع من أرض الأحلام الغامضة. الشكر لك يا ربنا، ملك الكون، يا من أعدت برحمتك روحي إلى الحياة. ربما لأنه لم يستعد بعد قوّة الحواس الخمس كلها تماماً، إلّا إذا لم يكن الناس في ذاك الزمان يعرفون أنه توجد خمس حواس، أم أنه كان لديهم عدد أكبر من الحواس وهم على وشك أن يفقدوا تلك الحاسة التي تؤدّي غرضاً ضئيلاً في أيامنا هذه، راح يوسف يراقب جسده من بعيد في الوقت الذي كانت تحتله روح شيئاً فشيئاً حتى تصبح عودته بالتدريج مثل ماء يسيل رقيقاً في غدير أو يجري في جدول قبل أن يتغلغل في أعماق الأرض ليغذّي سوق الأشجار والأوراق بالنسغ. عندما نظر يوسف إلى مريم المستلقية إلى جانبه، بدأ يدرك كم أن العودة إلى اليقظة قد تكون عملاً شاقاً، وخطرت في باله فكرة مزعجة، وهي أن زوجته هذه، التي تغط في سبات عميق، هي حقاً جسد بلا روح، لأنه لا توجد روح في جسد نائم، وإلّا فلن يكون هناك معنى لنشكر الرب عندما نستيقظ صباح كلّ يوم لأنه أعاد إلينا روحنا. ثمّ سأل صوت في داخله، ما هو الشيء أو من هو الشخص الذي في داخلنا الذي يحلم بما نحلم به، ثم تساءل، هل من الممكن أن تكون الأحلام هي ذكريات الروح عن الجسد، وبدا له ذلك تفسيراً معقولاً. تحرّكت مريم، ربما كانت روحها قريبة، هنا في البيت، لكنها لم تستيقظ، لا ريب في أنها كانت في غمرة حلم مزعج. بعد أن أطلقت تنهيدة عميقة مثل نشيج متقطع، اقتربت من زوجها بشهوانية ما كانت تجرؤ على أن تطلق العنان لها وهي مستيقظة. سحب يوسف الملاءة السميكة، الخشنة، حتى كتفيه والتصق بمريم. أحسّ بدفئها، برائحتها العطرة مثل رائحة الصندوق الذي توضع فيه الملاءات والملابس والمليء بأعشاب مجفّفة، تتغلغل شيئاً فشيئاً في

ألياف ثوبه وتلتحم بحرارة جسمه. ثمّ أغمض عينيه ببطء، وتوقّف عن التفكير، ونسي روحه، وعاد ليغطّ في النوم.

كان الديك يصيح عندما استيقظ ثانية. تسلل ضوء رمادي خافت عبر شقّ الباب. بعد أن انتظر بأناة حتى تتبدد ظلال الليل، بدأ الزمن يمهّد السبيل لقدوم يوم آخر إلى العالم. وبما أننا لم نعد نعيش في ذلك العصر الرائع، عندما كانت الشمس التي ندين لها بالشيء الكثير، سخية إلى حد أنها أوقفت رحلتها فوق جبعون لتمنح يوشع متسعاً من الوقت كي يتغلّب على الملوك الخمسة الذين يحاصرون المدينة. انتصب يوسف في جلسته فوق حصيرته، ثم عاد وسحب الملاءة. في تلك اللحظة صاح الديك مرة أخرى، مذكّراً إياه بأن عليه أن يؤدي صلاة الشكر الأخرى. صلّى يوسف، الشكر لك يا إلهي، إلهنا، ملك الكون، الذي منح الديك الذكاء كي يميّز بين الليل والنهار، عندها صاح الديك للمرّة الثالثة. فقد جرت العادة، أن تصيح جميع الديكة في الحيّ تنادي بعضها بعضاً للدلالة على ظهور علامات الفجر الأولى، أما اليوم، فقد صمتت، كأن ليلها لم ينصرم بعد أو أنه قد بدأ للتو. رمق يوسف وجه زوجته، متسائلاً عن سبب نومها العميق، لأن أدنى حركة توقظها عادة، كما لو كانت طيراً. بدا أن قوّة غامضة تحوم فوق مريم، تضغط عليها من دون أن تشلّها تماماً، لأنه يمكن رؤية جسدها، حتى في الظّل، يرتعش ارتعاشات خفيفة، مثل مويجات يحركها نسيم لطيف. هل يمكن أن تكون مريضة، تساءل، لكنّ رغبته المفاجئة في التبوّل أنسته هذه الفكرة المثيرة للقلق، وهذا أيضاً أمر غير معتاد، لأنه نادراً ما يشعر بالحاجة إلى قضاء حاجته في هذه الساعة المبكرة أو بهذه الرغبة الملحة. انسلّ بهدوء من تحت الملاءة كي لا يوقظ زوجته، لأنه مُقدَّر على الرجل أن يبذل كلّ ما بوسعه ليحافظ على احترام ذاته. بحذر شديد،

فتح الباب الذي يصدر صريراً وخرج إلى الفناء. كان كلّ شيء رمادياً كالرماد في تلك الساعة من الصباح. توجّه يوسف إلى الحظيرة الصغيرة الواطئة حيث يربط حماره، وقضى حاجته، وراح ينصت برضاء الحالم إلى الصوت المتفجّر المنبعث من بوله وهو يتدفّق فوق القشّ المتناثر فوق الأرض. أدار الحمار رأسه. عيناه الضخمتان تلمعان في الظلام، ثمّ حرّك بقوة أذنيه المكسوتين بالفراء قبل أن يعود ويلصق أنفه في المعلف لتناول ما تبقى من العلف بشفتين شهوانيتين غليظتين. أحضر يوسف الإبريق الكبير الذي يُستخدم للغسل. أماله جانباً، وصبّ الماء على يديه، ثمّ جفّفهما على ثوبه. شكراً للربّ الذي بحكمته اللانهائية منح البشرية الفوهات والأوعية الدموية اللازمة حتى نعيش، لأنه إذا لم تغلق أو تفتح أي منها كما تقتضي الحاجة، فستكون النتيجة الموت المحقق. عندما رفع يوسف عينيه إلى السماء، اعتراه إحساس غريب. كانت الشمس قد بدأت تبزغ ببطء، ولم تكن في السماء أية إشارة تدل على بزوغ فجر قرمزي، ولم يكن هناك ظلّ وردة أو حبة كرز، لا شيء سوى الغيوم التي تُرى من المكان الذي يقف فيه: سقف شاسع من السحب المنخفضة مثل كرات صوف صغيرة مسطّحة، يشبه بعضها بعضاً ولها نفس ظلّ البنفسج الذي يزداد عمقاً، ويتوهّج على الجانب الذي تتسلل منه الشمس، ثمّ عبر السماء التي بدأت تزداد ظلمة حتى تمتزج مع ما تبقى من الليل في الجانب الآخر. لم ير يوسف سماء كهذه في حياته، مع أن الرجال الطاعنين في السن غالباً ما كانوا يتحدثون عن بشائر تظهر في السماء دليلاً على قدرة الربّ، أقواس قزح تغطّي نصف القبة السماوية، وسلالم شاهقة تصل السماء بالأرض، وأمطار سماوية غزيرة من المنّ، لكن ليس بهذا اللون الغائم الذي قد يشير بسهولة إلى بداية العالم ونهايته، هذا السقف العائم فوق الأرض الذي يتكون من

آلاف الغيوم الصغيرة التي تكاد إحداها تلمس الأخرى وتصل إلى جميع الجهات مثل أحجار أرض يباب. تملكّه الذعر، خيّل إليه أن العالم على وشك أن ينتهي، وأنه الشاهد الوحيد على قضاء الربّ النهائي، الوحيد. خيّم الصمت على السماء وعلى الأرض. ولم تكن تسمع أصوات من البيوت القريبة، لا صوت بشر، ولا بكاء طفل أو صلاة أو لعنة، ولا عصفة ريح أو ثغاء عنزة أو نباح كلب. لماذا لا تصيح الديكة، دمدم لنفسه، وكرّر السؤال بقلق، كما لو أن صياح الديكة هو الأمل الأخير للخلاص. ثمّ بدأت السماء تتغيّر. فقد بدأت خطوط وردية تزحف رويداً رويداً على نحو لا تكاد تدركه العين لتستحيل إلى لون بنفسجي فوق بطن السحب، حتى أصبحت حمراء أخيراً، ثمّ تلاشت، ومن دون سابق إنذار، انفجرت السماء في ضوء شديد اللمعان، واخترقت رماح ذهبية عديدة السحب التي لم تعد نتفاً صغيرة، بل استحالت الآن إلى مراكب ضخمة هائلة ترفع أشرعة متوهجة تشق عنان السماء التي حُزّرت. تلاشى خوف يوسف. اتسعت عيناه بدهشة واستغراب لسبب معقول، لأنه هو الوحيد الذي كان يرى هذا المشهد. وبصوت جهوري شكر إله الخلق على العظمة الأبدية للسماوات، التي يعجز البشر عن وصف روعتها وأبهتها الأقدس وتجعلهم يعبّرون عن امتنانهم له بكلمات بسيطة، شكراً لك يا ربّ على هذا وذاك وذاك. وما إن تكلّم، حتى اندفعت جلبة الحياة، سواء أكانت قد استدعيت بصوته أم أنها اندفعت من باب نسي أحدهم أن يغلقه، وغزا الفضاء الذي كان مغموراً بالصمت قبل الآن، لم يكد يترك مكاناً إلّا وملأه، رقعة هنا ورقعة هناك، مثل تلك المستنقعات الصغيرة التي تبتلعها الغابات المتذمّرة وتخفيها عن مجال الرؤية. بزغت الشمس ونشرت أشعتها المضيئة. مشهد من جمال لا يُحتمل. يدان ضخمتان تطلقان طير الجنة الزاهي الألوان الذي نشر

ذيله العظيم بألف عين بألوان قوس قزح، ما جعل طيراً لا يُعرف اسمه في مكان قريب يغرد، هبّت ريح عاصفة على وجه يوسف، واجتاحت لحيته وثوبه، ودارت حوله مثل زوبعة صغيرة تهبّ في الصحراء. هذا إن لم يكن يتخيّل هذه الأمور، ولم يكن ذلك أكثر من الدم الذي يتدفق إلى رأسه، وسرت رعدة في عموده الفقري مثل لسان لهب أثار فيه حافزاً مختلفاً تمام الاختلاف.

وكما لو كان يتحركُ داخل دوامة من الهواء، دخل يوسف إلى البيت وأغلق وراءه الباب. توقّف لحظة، وانتظر حتى تعتاد عيناه على العتمة. لم يكن الفانوس الزيتي يكاد يلقي أيّ ضوء. كانت مريم مستيقظة، مستلقية على ظهرها، تنصت، تحدّق في الفضاء، كما لو كانت تنتظر. اقترب منها يوسف بهدوء وسحب الملاءة ببطء. أشاحت بعينيها، ورفعت حاشية ثوبها. ولم تكد ترفعه حتى سرتها حتى اعتلاها بعد أن رفع ثوبه إلى وسطه. انفرجت ساقا مريم، لعلهما فُتحتا من تلقاء نفسهما كما حلمت، ولم تغلقهما بسبب هذا التعب المفاجئ، أو بسبب الهاجس الذي يشغل امرأة متزوجة تعرف واجبها. لم يتمكن الربّ الكلي الوجود، مع أنه الروح النقية، من رؤية كيف لامس جسد يوسف جسد مريم، وكيف أن لحمه اخترق لحمها كما كان مُقدراً. لعله لم يكن هناك عندما تدفقت بذرة يوسف المقدّسة في رحم مريم المقدّس، كلاهما مقدّس، ينبوع الحياة وكأس قربان الحياة. لأن هناك في حقيقة الأمر، أشياء لا يفهمها حتى الربّ نفسه مع أنه هو الذي خلقها. وفي الفناء في الخارج، لم يسمع الربّ اللهاث الذي أفلت من شفتي يوسف عندما بلغ لحظة الشغاف ولا التنهيدة الهامسة التي لم تتمكن مريم من كتمانها. مال يوسف على جسد زوجته لفترة لا تزيد على دقيقة واحدة، أو ربما أقل. سحبت ثوبها إلى الأسفل، ورفعت الملاءة إلى الأعلى، وغطّت وجهها

بذراعها. وقف يوسف في منتصف الغرفة، ورفع يديه وراح يحدّق في السقف، وشكر الربّ من أعماق قلبه على كلّ شيء ادخره للرجال، أشكرك يا ربي العظيم، ملك الكون، لأنك لم تجعلني امرأة. في تلك اللحظة، لا بد أن الربّ كان قد غادر الفناء، لأن الجدران لم تهتز ولم تنخسف الأرض ولم تنشق. وكان كلّ ما أُمكن سماعه، مريم تقول بذلك الصوت الخنوع الذي يتوقّعه المرء من النساء، شكراً لك يا ربي لأنك جعلتني حسب مشيئتك. والآن لا يوجد فرق بين هذه الكلمات والكلمات التي قيلت للملاك جبريل، لأنه من الواضح يستطيع أي شخص أن يقول، انظروا فإن خادمة الرب تفعل معي كما تقول هذه الصلاة بسهولة. ثمّ نهضت زوجة النجار يوسف من على حصيرتها، ولفّتها ووضعتها بجانب حصيرة زوجها، ثم طوت الملاءة التي كانا يتدثران بها.

كان يوسف ومريم يعيشان في قرية تدعى الناصرة، وهي قرية ليست ذات شأن كبير، يعيش فيها عدد قليل من السكان في منطقة الجليل. ولم يكن بيتهما يختلف عن بيوت السكان الآخرين. بيت في شكل مكعب غير متناسق مبني من الطوب والطين، وكانا فقيرين كما يكون الفقراء. ولا يمكن للمرء أن يجد هنا أمثلة صارخة من فنون الهندسة المعمارية. وبغية توفير مواد البناء، فقد بني البيت على سفح تلّ يشكّل الجدار الخلفي للبيت ويتصل بسهولة مع السقف المسطح الذي يشكّل شرفة أيضاً. وكما نعرف، فقد كان يوسف نجاراً، وكان يجيد عمله مع أنه لم يكن يمتلك المهارة أو الموهبة التي تتطلبها الحرفيّة. وعلينا ألّا نأخذ هذا الانتقاد بجدية، لأن المرء يحتاج إلى وقت طويل لكي يكتسب الخبرة والمهارات اللازمة، ويجب ألّا ننسى بأن يوسف كان لا يزال في أوائل العشرينيات من عمره، ويعيش في منطقة مواردها شحيحة وفرص العمل فيها نادرة. وينبغي أيضاً ألّا يقاس الرجل بحسب قدراته المهنية فقط. ففي مرحلة شبابه كلّها، كان يوسف هذا واحداً من أكثر الرجال صدقاً وورعاً وتديّناً في الناصرة، وكان يواظب على الصلاة في الكنيس ويؤدي واجباته من دون تلكؤ. ومع أنه قد لا يتمتع بأيّ قدرات خاصة من

الفصاحة وذرابة اللسان، فقد كان باستطاعته أن يجادل ويبدي ملاحظات فطنة، لا سيما عندما تتاح له فرصة استخدام صورة أو استعارة ملائمة حول مهنته، النجارة. لكن لم يكن لديه ما يُدعى بالخيال الخلاق. وخلال حياته القصيرة، لم يأت بحكاية رمزية بارزة يمكنه أن ينقلها إلى الأجيال القادمة، عن أحد تلك الأوهام الذكية التي تقول بوضوح بأنه لم يعد هناك شيء يمكن قوله فضلاً عن أنها كانت غامضة ومبهمة إلى حد أنها ضللت الدارسين في السنوات التالية.

أما مواهب مريم، فهي أقل وضوحاً وجلاء، لكنها لم تكن أكثر مما يمكن أن نتوقّعه من فتاة في السادسة عشرة من عمرها، كانت، بالرغم من أنها متزوّجة، لا تزال طفلة، إذا جاز لنا قول ذلك، لأنه حتى في ذلك الزمن، كان الناس يستخدمون مثل هذه التعابير. وبالرغم من بنيتها الجسدية الضعيفة، فقد كانت تعمل بجدّ مثل جميع النساء الأخريات: في ندف الصوف، وغزل القماش ونسجه، وخَبْز الخبز لأفراد الأسرة صباح كلّ يوم، وجلب الماء من البئر، ثم حمله والصعود به إلى الهضبة المنحدرة وهي تضع جرة على رأسها وتسند أخرى إلى وركها. وفي المساء كانت تنطلق عبر الأزقة الجانبية وفي حقول الربّ، لتجمع الحطب وتقطع بقايا الأعشاب، وتملأ سلة أخرى بروث البقر وبالأشواك والورود البرية التي تزهر فوق المنحدرات العالية في الناصرة، أفضل ما ابتكره الربّ لإيقاد نار أو صنع تاج. كان من الأسهل لها أن تُحَمِّل كلّ ذلك على ظهر حمار، لكن يوسف كان يحتاج إلى الحمار ليُحَمِّل عليه الحطب الذي يجلبه إلى البيت. وكانت مريم تذهب إلى البئر حافية القدمين، وتمشي في الحقول حافية القدمين، ترتدي ثياباً سرعان ما تتلوث وتتمزق وتصبح بحاجة إلى غسيل ورتق باستمرار، لأن الملابس

الجديدة تُدّخر لزوجها، في حين يمكن للنساء مثل مريم أن يتدبرن أمورهن بالنزر اليسير. وعندما تذهب إلى الكنيس، كانت تدخل من الباب الجانبي كما تفرض الشريعة على النساء. وحتى لو كانت هناك ثلاثون امرأة أخرى، أو اجتمعت جميع نساء الناصرة، بل حتى جميع الإناث في منطقة الجليل، فعليهن أن ينتظرن حتى يصل ما لا يقل عن عشرة رجال لأداء الصلاة التي تكون مشاركة النساء فيها سلبية فقط. وبخلاف يوسف، زوجها، لم تكن مريم مستقيمة ولا ورعة، لكنّ ذلك ليس ذنبها، إنما ذنب اللغة التي تتكلّمها، إن لم يكن ذنب الرجال الذين اخترعوها، لأنه لا توجد في هذه اللغة صيغة المؤنث للكلمات التي تعبّر عن الاستقامة والورع.

ذات يوم جميل، بعد أربعة أسابيع من ذلك الصباح الذي لا يُنسى عندما استحال لون السحب في السماء إلى بنفسجي على نحو غامض، صادف أن يوسف كان في البيت. كانت الشمس آفلة إلى الغروب، وكان جالساً على الأرض يأكل بأصابع يديه كما جرت العادة آنذاك، بينما كانت مريم واقفة تنتظره حتى ينهي طعامه لتبدأ بتناول طعامها. لم يقل أحد منهما شيئاً، لأنه لم يكن لديهما شيء يقولانه، ولم يكن بإمكانها أن تعبّر عمّا يجول في خاطرها. ظهر شحاذ فجأة أمام الباب، وهو أمر نادراً ما يحدث في هذه القرية التي يعيش أهلها في فقر مدقع، وهو أمر لا يمكن أن يغيب عن بال أخوية الشحاذين الذين توجههم أنوفهم نحو الأماكن التي تتوافر فيها فضلات طعام، لكن من المؤكد فإن الحالة ليست هكذا هنا. غرفت مريم كمية من العدس والبصل المفروم والحمص المهروس التي كانت قد وضعتها جانباً لإعداد العشاء، وحملتها إلى الشحاذ الجالس على الأرض خارج المنزل. ولكي تفعل

ذلك، لم تكن بحاجة إلى أخذ إذن شفوي من زوجها الذي أومأ لها فقط، لأننا نعرف جميعاً أن الكلمات لم تكن تستخدم كثيراً في ذلك الزمن، عندما كانت إشارة بسيطة بتحريك الإبهام إلى الأعلى أو إلى الأسفل تكفي للحكم على أحدهم بالموت أو إنقاذه من الموت، كما كان يحدث في ميادين روما القديمة. ومع أن مشهد الغروب كان مختلفاً الآن تماماً، فقد كان مشهداً رائعاً أيضاً، لأن خيوط السحب الكثيرة المتناثرة في أرجاء السماء كانت متعددة الألوان من وردي ولؤلؤي وقرنفلي وكرزي، وهي أوصاف نستخدمها هنا على الأرض حتى يفهم أحدنا الآخر، لأنه لا توجد، على حد علمنا، أسماء لهذه الألوان في الجنة. ويبدو أن الشحاذ لم يتناول طعاماً منذ ثلاثة أيام لأنه مسح الطاسة ولعقها بسرعة، وجاء ليعيد الطاسة ويعبّر عن شكره وامتنانه. فتحت مريم الباب ورأته يقف هناك، لكنه بدا لها الآن أكثر عرضاً وطولاً مما كان يبدو. لذلك، لا بد أن هناك فرقاً كبيراً عندما تكون جائعاً وعندما تكون قد شبعت بعد تناولك الطعام، لأن بوادر الصحة عادت تظهر متألقة على وجه هذا الرجل وفي عينيه، وكانت ثيابه الرثّة ترفرف لدى هبوب رياح غريبة غشت عينيها فاتخذت تلك الأسمال البالية هيئة ثياب رجل غني. يجب أن ترى هذا المشهد حتى تصدقه. مدّت مريم كلتا يديها لتأخذ منه الطاسة الفخارية التي ربما بفعل وهم بصري غريب، أو ربما بسبب نور السماء تحوّلت إلى طاسة من أنقى أنواع الذهب، وعندما انتقلت الطاسة من يد الشحاذ إلى يدها، قال لها بصوت رنّان، لأنّ حتى صوت الرجل المسكين قد تغيّر: ليباركك الربّ أيتها المرأة الطيبة، ويمنحك كلّ الأطفال الذين يرغب زوجك في إنجابهم، وليحمك كذلك من قَدَري الحزين، لأنني، وا أسفاه، لا أملك مكاناً

أريح فيه رأسي في هذا العالم البائس. كوّرت مريم يديها وأمسكت الطاسة بيد، وأمسكت باليد الأخرى كأس القربان كما لو كانت تنتظر أن يملأه الشحاذ، وهذا ما فعله حقاً. فقد انحنى فجأة وأخذ حفنة من التراب في يده، ثم رفع ذراعه وترك التراب ينسلّ من بين أصابعه وهو يردد بصوت خفيض: من التراب إلى التراب، من الرماد إلى الرماد، من الغبار إلى الغبار، لا شيء يبدأ من دون نهاية، ولا شيء ينتهي من دون أن تكون له بداية. ارتبكت مريم وسألته، ماذا يعني ذلك، فأجابها الشحاذ بكل بساطة، أيتها المرأة الطيبة، إنك تحملين طفلاً في رحمك وهذا هو قدر الرجل الوحيد، أن يبدأ وينتهي. أن ينتهي وأن يبدأ. وكيف عرفتَ أنني أحمل طفلاً. حتى قبل أن تكبر البطن، يمكن رؤية الطفل متألقاً في عينيْ أمّه. لو كان ذلك صحيحاً، لكان زوجي قد رأى ابنه في عينيّ. لعله لا ينظر في عينيك عندما تنظرين إليه. من أنت حتى تعرف عني كل هذه الأمور من دون أن تسمعها من شفتيّ. أنا ملاك، لكن لا تخبري أحداً بذلك.

ثمّ عاد ثوبه البرّاق إلى أسمال بالية، وانكمش كما لو أنّ النار لعقته. لقد حدث هذا التحول المدهش في الوقت المناسب، شكراً للربّ، لأنه لم يكد الشحاذ يختفي بهدوء حتى ظهر يوسف عند المدخل، بعد أن ساورته الشكوك عندما سمع أصواتاً هامسة ولم يجد مريم. ماذا أراد الشحاذ أيضاً، سأل يوسف مريم، ولم يكن بوسع مريم التي ارتبكت ولم تعرف بما تجيب، إلّا أن تكرّر ما قاله لها، من التراب إلى التراب، من الرماد إلى الرماد، من الغبار إلى الغبار، لا شيء يبدأ من دون نهاية، ولا شيء ينتهي من دون أن تكون له بداية. هل هذا ما قاله. نعم، وقال أيضاً إن ابن الأب يتألق في عينيْ أمّه. انظر إليّ. إني أنظر. أستطيع

أن أرى نوراً في عينيك، قال يوسف. فقالت له مريم، لا بد أنه طفلك. وعندما تغيّر لون السماء عندما حلّ المساء من اللون الأزرق إلى ظلال الليل المتجهمة، بدأت الطاسة تتوهّج بتألق غيّر وجه مريم، فبدت عيناها مثل عيني امرأة مسنة. هل أنت حبلى، سألها يوسف أخيراً. نعم، أجابت مريم. لماذا لم تخبريني من قبل. كنت أنوي أن أخبرك اليوم. كنت أنتظرك حتى تنهي طعامك، ثم ظهر الشحاذ. هذا صحيح، وماذا قال أيضاً، لأنه أمضى وقتاً طويلاً. قال إن الربّ سيمنحني كلّ الأطفال الذين ترغب في أن تنجبهم. ماذا يوجد في تلك الطاسة حتى أصبحت تتوهج هكذا. تراب فقط. التراب أسود، والطين أخضر والرمل أبيض، ومن بين هذه الثلاثة، الرمل وحده هو الذي يلمع في النهار، لكننا أصبحنا في الليل الآن. سامحني فأنا لست سوى امرأة ولا أستطيع أن أفسّر هذه الأمور. تقولين إنه أخذ حفنة من التراب من الأرض وأسقطها في الطاسة وهو ينطق تلك الكلمات، من التراب إلى التراب. نعم، هذه الكلمات بعينها.

ذهب يوسف وفتح الباب. تلفّت يمنة ويسرة، لكنه لم يجد أي إشارة تدلّ على وجود الشحاذ. لقد اختفى، قال لها. بعد أن شعرت بالاطمئنان، دخلت مريم إلى البيت. لو كان الشحاذ ملاكاً حقاً، لما استطاع أحد أن يراه إلّا عندما يشاء. وضعت الطاسة فوق بلاطة الموقد، وتناولت فحمة متقدة من النار المشتعلة وأوقدت بها الفانوس، وراحت تنفخها حتى استحالت إلى لهب صغير. دخل يوسف إلى البيت، مشوش الفكر، محاولاً إخفاء ريبته. تحرّك بوقار أب، وهو أمر يبدو مستغرباً بالنسبة لشاب صغير في عمره. خلسة، راح يتفحّص الطاسة المليئة بالتراب المتوهج. كانت قسمات وجهه تشي بالسخرية والارتياب. لكنه

إن كان يحاول أن يؤكّد تفوقه، فقد كان يضيّع وقته، لأن عينيْ مريم كانتا مطرقتين، وكانت أفكارها سارحة في مكان آخر. بعود صغير، راح يوسف يحرّك التراب، وكانت تصيبه الدهشة كلما رآه يصبح داكناً ثم يستعيد توهجه وينشر نوره الساطع في جميع الاتجاهات فوق السطح الساكن. ثمة لغز هنا لا أستطيع أن أفهمه، فإما أن الشحاذ قد جلب هذا التراب معه الذي خيّل لي أنه جمعه هنا، أو أن هناك سحراً ما، فمن رأى تراباً متوهجاً في الناصرة. لم تنبس مريم ببنت شفة. كانت تتناول ما تبقّى من العدس والخبز المغمّس بالزيت. عندما تناولت كسرة الخبز، راحت تؤدي طقوس الشريعة المقدّسة بشكر الربّ بصوت خاشع يليق بامرأة. الشكر لك يا أدوناي، أيها الربّ وملك الكون، الذي يُخرج الخبز من باطن الأرض. تابعت أكلها بصمت بينما استغرق يوسف في التفكير، كما لو كان يفسّر جزءاً من التوراة في الكنيس، أو عبارة من سفر الأنبياء. نفس الكلمات التي رددتها مريم، ونفس الكلمات التي كان يرددها عندما يأكل الخبز، وحاول أن يتصوّر ما هي تلك الحبوب التي يمكن أن تنبت من تراب متوهج، وما هو هذا الخبز الذي يمكن أن ينتجه، وما هو النور الذي نحمله في داخلنا إذا تناولنا هذا الخبز. هل أنت متأكّدة من أن الشحاذ أخذ التراب من الأرض، سأل مريم ثانية. فأجابت مريم، نعم، أنا متأكّدة. ربما كان متوهجاً على الدوام. لا، لم يكن متوهجاً عندما كان على الأرض. لا بدّ أن ذلك سيهدّئ من مخاوف أيّ زوج، لكن يوسف كان يرى، مثل كلّ الرجال في ذلك العصر وفي ذلك المكان، بأن الرجل الحكيم يجب أن يحذر من مكائد النساء ومكرهن. لأن عدم التحدث إليهن كثيراً وعدم إعارتهن الاهتمام يجب أن يكون شعار الزوج المتعقل حسب نصيحة الحاخام يوسفان بن

يوشانان، لأنه عندما تقترب ساعة الموت، يجب على كلّ رجل أن يقدّم حساباً عن أيّ حديث عقيم دار بينه وبين زوجته. وتساءل يوسف هل هذه المناقشة مع مريم ضرورية. عندما قرّر أنّها كذلك بسبب الطبيعة الاستثنائية لما جرى، فقد أقسم لنفسه بأنه لن ينسى أبداً كلمات الحاخام المقدّسة، الحاخام الذي يحمل اسمه، لأن يوسفان هو نفسه يوسف، بدلاً من أن يعاني من تأنيب الضمير والندم عندما تأتي ساعة الموت التي يأمل أن تكون، بعون الربّ، هادئة. ثمّ تساءل عمّا إذا كان عليه أن يخبر الحاخامات في الكنيس عن هذه المسألة الغريبة المتعلقة بالشحاذ الغامض والتراب المتوهج، وقرّر أخيراً أن يريح ضميره ويحافظ على السلام في بيته.

انتهت مريم من تناول طعامها. أخذت الطاسات لغسلها في الفناء، لكنها لم تأخذ الطاسة التي تناول فيها الشحاذ طعامه. كان في البيت الآن نوران، الضوء المنبعث من الفانوس الذي بدأ يصارع ظلام الليل، والهالة المنبعثة من الطاسة التي تضيء بثبات، مثل شمس تظهر أشعتها رويداً رويداً. كانت مريم جالسة على الأرض، تنتظر أن يتابع زوجها حديثه معها، لكن لم يكن لدى يوسف شيء آخر يمكن أن يقوله لها، وراح يدرّب نفسه على ما سيقوله غداً أمام مجلس الحاخامات. يا له من أمر محبط بأن لا يعرف ما دار بدقة بين زوجته وبين الشحاذ، وألّا يعرف ما قاله أحدهما للآخر، لكنّه قرّر ألّا يسألها. ربما صدّق أيضاً القصّة التي حكتها له الآن مرّتين، لأنها لو كانت تكذب فلن يعرف ذلك أبداً بينما تعرف هي، ولا بد أنها تعرف أنها تسخر منه، لأنها غطت وجهها بثوبها، كما سخرت حواء من آدم، لكن من وراء ظهره، لأن النساء لم يكنّ يرتدين أثواباً آنذاك. فكرة أفضت إلى أخرى، وسرعان ما

أقنع يوسف نفسه بأن الشيطان هو الذي أرسل الشحاذ. الشيطان المغوي الأكبر، الذي يدرك أنّ الزمن قد تغيّر، وأن الناس أصبحوا الآن أكثر حرصاً، ولم يعد يقدم إحدى ثمار الطبيعة فقط، بل أصبح يعد بتربة متوهجة مختلفة، معتمداً مرة أخرى على سذاجة النساء وضعفهن. كان عقل يوسف مشوشاً، لكنّه سعيد بنفسه وبالنتيجة التي توصل إليها.

بدأت تنتاب مريم التي لم تكن تعرف ماذا يدور في خلد زوجها من أفكار ملتوية حول مكيدة الشيطان، مشاعر غريبة مضطربة بالفراغ لأنها أخبرته بحملها. ليس فراغاً داخلياً، بالتأكيد، لأنها تعرف جيداً بأنّ رحمها، بالمعنى الدقيق للكلمة، ممتلىء، إنما فراغ خارجي، كما لو أنّ العالم قد انحسر وأصبح بعيداً. إنها تتذكّر، لكنها كانت تستدعي حياة أخرى، أنها بعد الانتهاء من تناول طعام العشاء وقبل أن تمدّ الحصيرة هذه الليلة، كانت تؤدي بعض الأعمال البيتية العادية لتزجية الوقت، أما الآن فلم تشعر بالرغبة في أن تنهض من جلستها، بل راحت تحدّق في الضوء المتوهج على حافة الطاسة الذي انعكس على وجهها، بانتظار أن تلد طفلها. وإذا قلنا الحقيقة، فلم تكن أفكارها واضحة تماماً، لأن الفكرة بالنتيجة، شأن الأفكار الأخرى، وقد لاحظنا نحن أنفسنا ذلك من قبل، أشبه بكرة كبيرة من الخيط تلتفّ حول نفسها، تصبح مرخيّة في أماكن، ومشدودة بإحكام في أماكن أخرى، داخل رؤوسنا، ويستحيل معرفة مداها بالكامل، إذ كان على المرء أن يفلتها ثم يقيسها. لكن مهما حاول المرء أو تظاهر بأنه يحاول، فلا يمكن القيام بذلك من دون مساعدة أحد. ففي أحد الأيام، سيأتي شخص ويُعلمنا أين يجب أن يُقطع الحبل الذي يربط الرجل بسرته حتى يعيد فكرته إلى أصلها.

في صباح اليوم التالي، بعد ليلة مؤرقة من رؤية نفس الكابوس الذي

أصبح يراه كلّ ليلة. فقد كان يرى نفسه وهو يسقط مرات ومرات داخل طاسة ضخمة مقلوبة كأنها تحت سماء مليئة بالنجوم، ذهب يوسف إلى الكنيس ليلتمس مشورة كبار الحاخامات. كانت قصّته غريبة جداً وغير معهودة، مع أنها كانت أكثر غرابة واستثنائية مما كان يعرف، لأن مريم، كما نعرف، لم تحك له القصّة بأكملها. ولولا التقدير الذي يكنّه له الحاخامات في الناصرة، لعاد إلى البيت وهو يجرّ أذيال الخيبة، وصدى كلمات يوشع بن سيراخ المؤنبة يتردد في أذنيه، إن وثوق الرجل بسرعة بما تقوله المرأة دليل على ضحالة العقل. ولن يكون لهذا الرجل المسكين الذكاء والقدرة على الردّ بكلمات من نفس سِفر يوشع بن سيراخ عن الحلم الذي طارده طوال الليل، إن ما تراه في الحلم ما هو إلّا انعكاس، وجه في مرآة. عندما انتهى من رواية قصّته، نظر الحاخامات أحدهم إلى وجه الآخر، ثم نظروا إلى يوسف، وسأل أكبرهم سناً، محوّلاً سوء الظن الصامت للمجلس إلى سؤال مباشر، هل إن ما ذكرته لنا هو الحقيقة، فأجاب النجار، نعم، الحقيقة، كلّ الحقيقة، ويشهد الربّ على صدق كلامي. ثمّ تناقش الحاخامات في ما بينهم، وانتظر يوسف بعيداً، ثمّ نادوه أخيراً وأبلغوه بإنهم سيرسلون ثلاثة مبعوثين لاستجواب مريم نفسها عن حقيقة هذا الحدث الغامض والكشف عن هوية الشحاذ الذي لم يره أحد غيرها، وتعرف هيئته تماماً والكلمات التي قالها بحذافيرها، وعمّا إذا كان أحد يذكر أنه رآه وهو يتسول في الناصرة أو يمكنه أن يقدّم أيّة معلومات عن هذا الرجل الغريب. كان يوسف سعيداً بذلك لأنه، بالرغم من أنه لن يعترف بذلك، لم يشأ أن يواجه زوجته وحده، خاصة بعد أن بدأت عادتها في خفض عينيها مؤخراً تربكه. إن ذلك ينمّ عن تواضع، لكنه كان ينطوي أيضاً، بوضوح شديد على شيء استفزازي، كما في نظرة امرأة تعرف أكثر

مما هي على استعداد للبوح به أو لا تريد أن يلاحظه الآخرون. حقاً أقول لكم، إن مكر النساء لا يعرف حدوداً، خاصة عندما يتظاهرن بالبراءة.

وهكذا انطلق المبعوثون الثلاثة، وهم أبياثار ودوثان وزكّا وسار يوسف أمامهم يقودهم إلى الطريق. لقد سُجّلت أسماؤهم هنا لتبديد أيّ شكّ بوقوع خطأ تاريخي في عقول الذين سمعوا هذه القصّة تروى من مصادر أخرى، رواية قد تكون متوافقة أكثر مع التقاليد، لكن ليس بالضرورة أن تكون هي الرواية الأكثر صحة. وبعد الكشف عن الأسماء وتثبيت وجود الرجال الذين استخدموها، فلن تكون هناك شكوك كبيرة. إن المشهد غير المعتاد لثلاثة أحبار يسيرون في موكب مهيب عبر الأزقة، والنسيم يهبّ على عباءاتهم ولحاهم، جعل الأطفال الفقراء يجرون وراءهم، وراحوا يقلّدون طريقتهم في المشي كما هو دأب الأطفال، يسخرون ويصيحون ويركضون وراء المبعوثين طوال الطريق من الكنيس حتى بيت يوسف الذي انزعج كثيراً من هذا الاستعراض الصاخب. وخرجت النساء اللاتي جذبهن الضجيج ووقفن عند مداخل البيوت المجاورة، وعندما أحسسن بحدوث شيء ما، أرسلن أطفالهن لمعرفة ماذا يفعل هذا الوفد من الأحبار عند بيت مريم. لكن عبثاً، لأنه لم يسمح لأحد بالدخول إلى البيت سوى الحاخامات. وأُغلق الباب خلفهم بإحكام، ولم تعرف أية امرأة في الناصرة، مهما كانت درجة فضولها، حتى يومنا هذا، ما جرى في بيت يوسف النجار. ولفقت النساء شيئاً لإشباع فضولهن، فاتّهمن الشحاذ الذي لم تقع أعينهن عليه قط بأنه لصّ حقير. لكن هذا ظلم كبير، لأن الملاك، هذا إذا كان ملاكاً حقاً، لم يسرق الطعام الذي تناوله، بل قدم لقاءه نبوءة مقدّسة. وبينما راح الحبران الأكبر سناً يسألان مريم، انطلق الحبر الثالث، أصغرهم

سناً، زكّا، يجوب الأزقة المجاورة ليجمع أي معلومات يمكن أن يتذكرها الناس عن شحاذ تتوافق أوصافه مع الأوصاف التي ذكرتها زوجة النجار، لكن لم يتمكن أحد من الجيران من تقديم أية مساعدة في هذا الأمر. لا يا سيدي، لم نر شحاذاً يمرّ في هذا الطريق البارحة، وإن كان قد مرّ فهو لم يطرق بابي. لا بدّ أنه كان لصّاً عابراً وعندما وجد أحداً في البيت ادّعى بأنه شحاذ ثم غادر بسرعة، أقدم حيلة في الكتاب.

عاد زكّا إلى بيت يوسف لا يحمل في جعبته أية معلومات عن الشحاذ الذي كانت مريم قد أعادت أوصافه للمرّة الرابعة، وهي الحقائق التي نعرفها للتو. كانت تقف كما لو كانت متهمة بجريمة. كانت الطاسة التي تحوي التراب الغريب مثل قلب يخفق لا تزال على الأرض. جلس يوسف جانباً، وجلس الحاخامات في المقدمة مثل قضاة محكمة. قال دوثان، ثاني الثلاثة، ليس الأمر أنّنا لا نصدّق قصّتك، لكنّكِ الشخص الوحيد الذي كلّم هذا الرجل، إذا كان رجلاً حقيقياً، وكلّ ما يعرفه زوجك هو أنه سمع صوته، وها هو زكّا يقول الآن إنّ أحداً من جيرانكما لم يره. بما أن الربّ شاهد عليّ، فإني أقسم بأنني أقول الحقّ. الحقيقة، ربما، لكنّها كلّ الحقيقة. سأشرب ماء الربّ وهو الذي سيثبت براءتي. لا يُقدم الماء المرّ إلّا للنساء اللاتي يُشكّ في خيانتهن، لكن ليس من الممكن أن تكوني غير وفيّة لزوجك، لأنه لم يمنحك الوقت الكافي لكي تفعلي ذلك. يقال إن الكذب مثل الخيانة الزوجية تماماً. إنه نوع آخر من الخيانة الزوجية. إني صادقة في ما أقوله. ثمّ قال لها أبياثار، أكبر الثلاثة سناً، لن نسألك المزيد، وسيكافئك الرب سبعة أضعاف إذا كنت صادقة وسيعاقبك سبعة أضعاف إذا كنت تكذبين علينا وتخدعيننا. ساد صمت، ثمّ التفت إلى زكّا ودوثان وسألهما، ماذا سنفعل بهذا

التراب المتوهج الذي تقتضي الحكمة ألّا نبقيه هنا، لأنه قد يكون واحداً من أحابيل الشيطان وخدعه. فقال دوثان، فليعدْ هذا التراب إلى المكان الذي جاء منه، ليعدْ إلى ظلامه السابق. ثم قال زكّا، إننا لا نعرف ما هي حقيقة الشحاذ، أو لماذا اختار ألّا يراه غير مريم، أو ما معنى التراب المتوهج الذي يضيء في الطاسة. وقال دوثان، لنأخذه إلى الصحراء ونبعثره هناك بعيداً عن عيون الرجال، حتى تبدده الريح ويمحوه المطر. فقال زكّا، إذا كان هذا التراب هبة من الرب فيجب ألّا نتخلص منه، أما إذا كان نذير شؤم، فليتحمل العواقب من أُعطي لهم. ثم سأل أبياثار، ماذا تقترحان إذاً؟ فأجاب زكّا، أن تُدفن الطاسة هنا وتُغطّى بإحكام حتى لا يلامس ترابها التراب العادي، لأن الهبة المرسلة من الربّ، حتّى لو دفنت، لن تضيع أبداً، أما إذا كانت قوّة شريرة فإنها ستتقلص وتتلاشى إذا ما أُخفيت عن الأبصار. سأل أبياثار، ما رأيك يا دوثان، فأجابه الأخير، إني أتفق مع زكّا، دعونا ننفذ ما يقول. فقال أبياثار لمريم: اخرجي كي نواصل عملنا. فسألته: إلى أين أذهب، فقال يوسف غاضباً: إذا كان علينا أن ندفن الطاسة، فلندفنها في مكان خارج البيت، لأنني لن أشعر بالراحة أبداً إذا كان هذا التراب المتوهج مدفوناً تحتي. فطمأنه أبياثار وقال: بإمكاننا أن نفعل ذلك، ثمّ طلب من مريم أن تبقى هنا. خرج الرجال إلى الفناء، وكان زكّا يحمل الطاسة. وسرعان ما سُمع صوت مجرفة تحفر عندما بدأ يوسف عمله بسرعة. وبعد لحظات، سمعت مريم صوت أبياثار يقول: يمكنك أن تتوقّف الآن، فقد أصبحت الحفرة عميقة بما يكفي. نظرت مريم عبر شقّ الباب، ورأت زوجها يغطي الطاسة بقطعة من إناء خزفي مائل، ثمّ أنزلها إلى

الحفرة بعمق ذراعه، ثم نهض وأمسك مجرفته وملأ الحفرة، ثم أخذ يدوس بقدميه بقوة فوق التراب كي يتماسك ويصبح متراصاً.

بقي الرجال في الفناء، يتبادلون الحديث ويحدّقون في رقعة الأرض الجديدة، كما لو أنّهم دفنوا كنزاً ويحاولون حفظ مكانه عن ظهر قلب. لكن لم يكن هذا ما كانوا يتحدثون عنه، لأن زكّا سُمع يقول فجأة بصوت عالٍ، وبنبرة عتاب ماكرة، إذن يا يوسف، أيّ نوع من النجارين أنت، عندما لا تستطيع حتى أن تصنع سريراً لزوجتك الحامل. فضحك الآخرون، وشاركهم يوسف في الضحك كي لا يفقد ماء وجهه ويبدي انزعاجه. ثم رأتهم مريم يسيرون نحو البوابة. جلست الآن فوق بلاطة الموقد، وراحت تتطلع حولها في الغرفة وتتساءل أين يمكنهما أن يضعا السرير إذا قرّر يوسف أن يصنع لها سريراً، وحاولت ألّا تفكّر بالطاسة الفخارية أو بالتراب المتوهج أو بما إذا كان الشحاذ ملاكاً حقاً أم مجرد شخص يمازحهما. فإذا وُعدت امرأة بسرير لبيتها، فيجب أن تبدأ تفكّر بالمكان الذي ستضعه فيه.

بين شهري تموز وآب، عندما بدأ موسم قطاف العنب في الكروم وبدأ التين ينضج وسط أوراق العنب الخضراء الداكنة، وقعت أحداث عديدة، بعضها طبيعي وعادي مثل أن يتلاقى رجل وامرأة معاً في الجسد، وبعد فترة تقول له إنني حامل بطفلك، وبعضها الآخر غير عادي مثل أن تُعهد بشارة العذراء إلى شحاذ عابر جريمته الوحيدة أنه قدمها في شكل ظاهرة غريبة من تراب متوهج أصبح الآن بعيداً عن الأعين المتطفلة المحدّقة بسبب شكّ يوسف وحكمة الحاخامات. وبسرعة حلّت أشدّ الأيام حرارة. لم يكن يغطي الحقول العارية سوى بقايا الزرع والتراب الجافّ. وخلال ساعات النهار اللاهبة، تصبح الناصرة قرية غارقة في الصمت والعزلة. وعندما يهبط الليل وترصع النجوم السماء، يرى المرء مشهداً طبيعياً جميلاً، أو يسمع موسيقى الأجرام السماوية وهي تنساب ويتجاوز أحدها الآخر. بعد أن تناول يوسف طعام العشاء، خرج وجلس في الفناء، إلى الجانب الأيمن من الباب، ليتنشق هواء منعشاً. كان يستمتع بالنسيم المسائي العليل الذي يهبّ على وجهه ولحيته. وسرعان ما انضمت إليه مريم، وقرفصت على الأرض كما يفعل زوجها، لكن على الجانب الآخر من الباب. لبثا صامتين، تتناهى إليهما الأصوات القادمة من البيوت المجاورة، صخب

الحياة المنزلية التي سيعيشانها عندما ينجبان أطفالاً. ليرزقنا الربّ بصبي، دأب يوسف على التضرع إلى الربّ طوال اليوم، وظلت مريم تقول في نفسها أيضاً، ليكن صبياً، يا إلهي. لكنْ كان لرغبتها في إنجاب صبي أسباب أخرى. فلم تكن بطن مريم تكبر وتتكور بسرعة، ولن يظهر أنها حامل إلّا بعد مضي أسابيع وشهور، وبما أنها لم تكن ترى جاراتها كثيراً بدافع التواضع والخجل، فإن أهل القرية سيفاجؤون عندما يرون أن بطنها قد أصبحت مثل منطاد بين عشية وضحاها. وربما كان أحد الأسباب الأخرى لتكتُّمها خشيتها من أنْ يربط الناس بين حملها وبين ظهور ذلك الشحاذ الغامض. قد نعتبر هذه الأفكار سخيفة، لكن في لحظات الإعياء، عندما بدأت تشرد قليلاً، لم تتمالك مريم نفسها عن التساؤل كيف حدث كلّ ذلك ومن هو أب الطفل الحقيقي الذي تحمله في بطنها. وكما يعرف الجميع، فإنه عندما تصبح المرأة حاملاً، فإنها تبدأ تشتهي أشياء غريبة وتنتابها تخيلات معينة، وتنتاب بعض النساء رغبات أسوأ مما انتابت مريم التي لن نتمّ عليها كي لا نسيء إلى سمعة هذه المرأة التي ستصبح أمّاً في القريب العاجل.

مرّ الوقت، مضت أسابيع، وحلّ شهر أيلول قائظاً مثل فرن، وبدأت الرياح الحارقة تهبّ من الصحارى الجنوبية الخانقة، وهو الفصل الذي يقطر فيه التمر والتين عسلاً، وشهر تِشريه الذي يجلب أول أمطار الخريف التي تبلل التربة في الوقت المناسب من أجل الحراثة والبذار، والشهر الذي يعقبه، حِشفان، شهر قطاف الزيتون، ثم يعود البرد أخيراً. ولما كان يوسف غير قادر على صنع أيّ شيء يتسم بالفخامة، فقد قرّر أن يصنع سريراً بسيطاً تستطيع أن تريح عليه مريم جسدها المتورم والمنهك. سقطت أمطار غزيرة في الأيام الأخيرة من شهر كِسليف ومعظم شهر طيفيت الذي اضطره إلى التوقف عن العمل في الفناء.

استغل الأيام التي لم تهطل فيها أمطار ليجمع قطع الحطب الكبيرة الحجم، وراح يعمل داخل البيت حيث يكون الضوء خافتاً، يسحج ويملّس ألواح الخشب الخشنة، فيملأ أرضية البيت بالنشارة التي تكنسها مريم فيما بعد وترميها في الفناء.

وفي شهر شُبَاط، تتبرعم أزهار أشجار اللوز، وفي شهر أدار، وفي عيد بورِيْم، بدأت تقام الاحتفالات وظهر الجنود الرومان في الناصرة، وهو مشهد مألوف في أنحاء الجليل. وكانت كتائب الجنود تنتقل من قرية إلى قرية، ومن مدينة إلى مدينة، وأُرسلت أعداد أخرى من الجنود لتجوب أرجاء مملكة هيرودس وإبلاغ الناس الأمر الصادر عن القيصر أوغسطس بأن على كلّ أسرة تقيم في المناطق التي يحكمها القنصل بوبليوس سولبيسيوس كيرينيوس المشاركة في الإحصاء لتحديث السجلات المتعلقة بالأشخاص الذين لم يسددوا ما عليهم من ضرائب لروما. وعلى كلّ أسرة، بلا استثناء، أن تسجّل مكان ميلادها. لم يبد معظم الناس الذين تجمّعوا في الساحة لسماع الإعلان اهتماماً كبيراً بالمرسوم الإمبراطوري، لأنهم يعيشون في الناصرة منذ أجيال عديدة وسيسجلون فيها. أما بعض الأسر فقد أتت من بقاع أخرى في المملكة مثل سبسطية والسامرة ويهودا وبيرية وأدومية، أو من هذه البلدة أو تلك، من كل حدب وصوب، فبدأت تعدّ العدة من أجل تحمل مشاق الرحلة الطويلة، وراحوا يتذمرون بمرارة من فساد روما وجشعها وضلالها، ويتساءلون عمّا سيحلّ بمحاصيلهم مع اقتراب موعد حصاد الكتان والشعير. وكذلك تساءل الذين تضم عائلاتهم عدداً كبيراً من الأفراد، ولديهم أطفال يحملونهم بين أذرعهم، وآباء وأجداد مسنون، إلّا إذا توفرت لديهم وسائل نقل، مِمَّن يمكنهم أن يستعيروا دوابَّ، أو يستأجروها بأجر معقول، وإذا كانت رحلتهم طويلة وشاقة، فلا بد أنهم

سيحتاجون إلى كميات كبيرة من الطعام وقِرَب الماء لأنهم سيجتازون الصحراء، وسيحتاجون إلى حصر وأغطية للنوم وأدوات للطهي وألبسة إضافية، لأن الفصل البارد لم ينته بعد، وقد يضطرون إلى قضاء ليالٍ في العراء.

لم يعلم يوسف بصدور هذا المرسوم إلّا بعد أن غادر الجنود لنقل أخبارهم السعيدة إلى أماكن أخرى. فجأة ظهر جاره، حنانيا. كان مرتبكاً ومضطرباً عندما أخبره بما حدث. من حسن حظ حنانيا أنه سيسجّل في الناصرة، ولن يحتفل بعيد الفصح في أورشليم هذه السنة بسبب الحصاد، وهكذا وفّر على نفسه كلتا الرحلتين. جاء حنانيا الذي ارتسمت على وجهه تعابير تشي بالاعتداد بالنفس ليحذّر جاره، وبدا كأنه يزف له خبراً سعيداً. واحسرتاه، حتى أفضل الرجال قد يكونون منافقين، بوجهين، لكننا لا نعرف حنانيا هذا معرفة جيدة لكي نقرر ما إذا لم تكن تلك إلّا زلة لسان وسقطة مؤقتة من الفضيلة، أم أنه كان تحت تأثير أحد أعوان الشيطان الأشرار الذين لديهم متسع من الوقت للقيام بذلك. وبما أن يوسف كان منهمكاً في تثبيت مسامير في لوح خشبي، فلم يسمع في البدء حنانيا وهو يناديه من وراء الباب. لكن مريم ذات الأذنين الأكثر رهافة وحدّة، فقد سمعت صوتاً ينادي يوسف، لكن زوجها كان الشخص المنادى، ومن هي حتى تأتي وتجرّه منْ كمّه وتقول له: ألنت أطرش، ألا تسمع أن أحداً يناديك من وراء الباب! عندما رفع حنانيا عقيرته، توقّف يوسف عن عمله ليرى ماذا يريد منه جاره. ودعا حنانيا للدخول إلى البيت. بعد تبادل التحيات المعهودة، استفسر بصوت شخص يريد أن يطمئن على جاره، من أين أنت يا يوسف، فأخبره يوسف الذي فوجئ بالسؤال، أنا من بيت لحم من منطقة يهودا. أليست قريبة من أورشليم. نعم، إنها قريبة جداً. فسأله

حنانيا، وهل ستذهب إليها للمشاركة في الاحتفال بعيد الفصح. فأجابه يوسف، لا، لقد قرّرت ألّا أذهب هذه السنة لأن زوجتي حامل ومن المتوقع أن تلد طفلنا في أيّ يوم. أوه، هكذا هو الأمر إذاً. لكن لماذا تسأل. عندها رفع حنانيا ذراعيه إلى السماء وناح بحزن، يوسف المسكين، إن المتاعب تنتظرك، فبالرغم من كلّ هذا العمل الشاق الذي تقوم به هنا، فإنه ينتظر منك أن تضع أدواتك جانباً وأن تتجشّم عناء كلّ ذاك الطريق، ساعدني يا ربّ الذي يرى ويساعد على كلّ شيء. دون أن يسأل عن سبب هذه الحماسة المفاجئة من جاره، كرر يوسف دعوات جاره وقال، ساعدني يا ربي أنا أيضاً، ثم أجابه حنانيا، من دون أن يخفض صوته، نعم، كلّ شيء ممكن مع الربّ، فهو يعرف ويرى كلّ شيء، سواء في السماء أم على الأرض. الشكر له، لكن اغفر لي عدم التوقير، فأنا لست متأكداً مما إذا كان يستطيع أن يفعل الكثير لمساعدتك هذه المرة، لأنك أصبحت بين يدي القيصر. إلامَ ترمي. أريد أن أقول إن الجنود كانوا هنا *وأعلنوا أنه قبل نهاية شهر نيسان*، يجب *على جميع عائلات بني إسرائيل أن تذهب وتسجّل في مكان ولادتها، التي* هي في حالتك، يا عزيزي يوسف، تعني رحلة طويلة وشاقة.

وقبل أن يتاح ليوسف الوقت ليردّ، ظهرت سفيرة، زوجة حنانيا، واتّجهت مباشرة إلى مريم الواقفة عند المدخل، وراحت تندب بنفس الصوت الحزين، يا طفلتي المسكينة، أيتها الرهيفة، ماذا سيحلّ بك، وأنت على وشك أن تلدي في أيّ يوم وعليك أن تسافري إلى مكان لا يعلم أحد أين. إلى بيت لحم في منطقة يهودا، قال لها زوج سفيرة. يا إلهي، ستقطعين كلّ تلك الطريق، صاحت سفيرة، وقالت إنها عندما ذهبت إلى أورشليم للحجّ، ذهبت أيضاً إلى بيت لحم القريبة لزيارة قبر راحيل. انتظرت مريم زوجها حتى يتكلم أولاً. فقال يوسف الذي غضب

لأنه كان يجب أن يصل هذا الخبر إلى مريم بهدوء وبكلمات مدروسة من شفتيه هو، لكنه وصلها بطريقة فظة من جارين محمومين، بصوت كئيب، صحيح أن الربّ لا يختار دائماً أن يمارس السلطات التي يمارسها قيصر، فإن لدى الربّ قوى تستطيع أن تقضي على قيصر. صمت قليلاً كما لو أنه يدرس عمق ما قاله للتو، قبل أن يضيف، سنحتفل بعيد الفصح هنا في الناصرة ثم سنذهب إلى بيت لحم، وسنعود إن شاء الله في الوقت المناسب كي تلد مريم في البيت، إلّا إذا شاء الربّ أن يولد الطفل في أرض أسلافنا. وربما يولد على الطريق، دمدمت سفيرة، فذكّرها يوسف الذي سمع ما قالته، بأن الكثيرين من أطفال إسرائيل قد ولدوا على الطريق، ولن يكون طفلنا سوى طفل آخر بينهم. لم يكن بوسع حنانيا وزوجته إلّا أن يوافقا على حكمة هذه الكلمات. فقد جاءا لإبداء تعاطفهما مع جاريهما المنكودي الحظ، وليستمتعا بالقلق الذي اعتراهما، فوجدا أنهما قد عوملا بفظاظة. ثم دعت مريم سفيرة إلى داخل البيت لتأخذ نصيحتها حول الصوف الذي تندفه. أما يوسف الذي أراد أن يكفّر عن كلماته الفظة، فقد قال لحنانيا، جاري الطيب، هل يمكنني أن أطلب منك أن تعتني ببيتي خلال فترة غيابي، لأننا سنغيب لمدة لا تقل عن شهر، وذلك بعد حساب المدة التي سنستغرقها في الرحلة، ثمّ أيام الخلوة السبعة، بالإضافة إلى أيام أخرى إذا كان الطفل، لسوء حظهما، بنتاً. وعد حنانيا جاره بأن يعتني ببيته كما لو كأن بيته، وبغتة خطر له أن يسأل يوسف، هل تشرّفني بأن نحتفل بعيد الفصح مع أفراد أسرتي وأصدقائي بما أنه لا يوجد لديك ولا لزوجتك أقرباء هنا في الناصرة. فبعد وفاة والديْ مريم اللذين أنجبا ابنتهما مريم وهما في سن متقدمة، ولا يزال الناس يتساءلون حتى الآن كيف تمكن يوياقيم وحنّة من إنجاب ابنة وهما في أرذل العمر. هيا يا

حنانيا، قال يوسف مذكّراً إياه، هل نسيت كيف دمدم إبراهيم لنفسه غير مصدق أذنيه عندما أخبره الربّ بأنه سيمنحه ذرية، وإذا سمح الربّ القدير لرجل بلغ مئة سنة ولزوجته البالغة تسعين سنة من العمر بأن ينجبا طفلاً، فلمَ لا يفعل الشيء ذاته مع والديّ زوجتي، يوياقيم وحنّة اللذين لم يكونا متقدمين في العمر مثل إبراهيم وسارة. فأجاب حنانيا: كان ذاك زمناً آخر، عندما كان الربّ الدائم الوجود يتجلّى في أعماله فقط. فردّ يوسف، الفقيه في مسائل الدين، إن الربّ هو الزمن نفسه يا جاري حنانيا، لأن الزمن لا يتجزأ بالنسبة للربّ. صمت حنانيا لأنه رأى أن هذا الوقت ليس مناسباً لإثارة الجدال القديم حول قدرات الربّ، هل هي وحيدة الجوهر، أم أن الربّ أوكل بها إلى قيصر. وعلى الرغم من معرفة يوسف باللاهوت العملي، فإنه لم ينس دعوة حنانيا المفاجئة للاحتفال بعيد الفصح مع عائلته. لكنه لم يشأ أن يقبل الدعوة على الفور، لأنه كما يعرف الجميع، فإن الموافقة على دعوات الآخرين على الفور يدلّ على قلة تربية وتهذيب، لأن مقدّم الدعوة سيظن أننا ننتظر أن يوجه لنا الدعوة بفارغ الصبر. تريّث يوسف قليلاً قبل أن يشكر حنانيا أخيراً على اهتمامه به وبزوجته. خرجت المرأتان من البيت ثانية، وقالت سفيرة لمريم: أنتِ خبيرة في ندف الصوف يا فتاتي. فتضرّج وجه مريم خجلاً عندما سمعت أنها تُمتدح أمام يوسف.

ذكرى لطيفة حملتها مريم عن عيد الفصح الميمون هذا وهي أنها لن تساعد في أعمال الطهي أو تقوم بخدمة الرجال على المائدة. وقد وافقت النساء الأخريات على إعفائها من هذه المهام بسبب وضعها. لا تتعبي نفسك، حذّرنها، وإلّا ستؤذين نفسك. لا بدّ أنهن يعرفن ذلك لأن معظمهن أمهات ولديهن أطفال صغار، وأن كلّ ما عليها أنه تفعله هو أن تهتم بزوجها الجالس على الأرض مع الرجال الآخرين. انحنت

مريم بصعوبة، وملأت كأس زوجها وأعادت ملء صحنه بالخبز الفطير ولحم الضأن المطهو على نار هادئة وبالأعشاب المرّة والرقائق المعدّة من جراد أرضي متيبّس، وهي أطعمة يحبها حنانيا كثيراً، لأن هذه الرقائق تعتبر تقليداً عائلياً. لكن الكثير من المدعوين اعتذروا عن تناولها لأن نفوسهم تعافها، وكانوا يدركون على نحو ممض بأنّهم ليسوا بمستوى أولئك الأنبياء في الصحراء الذين كانوا يحوّلون الضرورة إلى فضيلة ويأكلون الجراد كما لو كان المنّ والسلوى. عندما شارف العشاء على الانتهاء، جلست مريم المسكينة وحدها، والعرق يتصبب من وجهها، وبطنها الكبيرة تتدلى حتى وركيها. ولم تكن تسمع الضحكات والدعابات والقصص والقراءات المتواصلة من التوراة، وتملكها إحساس بأنّها ستغادر هذا العالم في أيّ لحظة. كانت حياتها معلّقة بخيط فكرة نقية أخيرة خفيّة. كان كلّ ما تعرفه هو أنّها تفكّر لكنها لا تعرف بما تفكر، أو ما السبب الذي يجعلها تفكر. أفاقت مجفلة. فقد رأت في حلمها وجه الشحاذ يلوح في ظلام دامس، ثمّ ظهر جسده الضخم المكسو بأسمال بالية. لقد زحف الملاك، إن كان ملاكاً حقاً، إلى نومها على نحو مباغت، عندما كان بعيداً عن أفكارها، وراح يمعن النظر فيها. أحسّت بالفضول، لكنها قد تكون مخطئة، فقد جاء بنفس السرعة التي ذهب فيها، وبدأ قلب مريم يخفق مثل قلب طائر صغير. لا يمكن معرفة هل لأنها بوغتت أو أن أحداً همس لها شيئاً محرجاً في أذنها. كان الرجال والفتيان لا يزالون جالسين على الأرض. أما النساء اللاتي كن يعانين من حرارة الجو الخانقة وأصبحن يشعرن بالإرهاق، فلم يتوقفن عن الذهاب والإياب وهن يحملن المزيد من أطباق الطعام. لكن الرجال شبعوا الآن، وازداد حديثهم حماسة بعد أن بدأت الخمرة تجري في عروقهم.

ومن دون أن يلاحظ أحد، نهضت مريم ووقفت على قدميها. خيّم ظلام الليل. لم يكن هناك قمر ينير السماء الصافية ولم تكن تزيّنها سوى النجوم المتلألئة التي بعثت نوعاً من الصدى، همهمة مكتومة لا تكاد تُسمع استطاعت زوجة يوسف أن تشعر بها تسري فوق سطح جلدها وفي عظامها. همهمة يستحيل تفسيرها، مثل رعشة شهوانية خفية سرت في جسدها. اجتازت الفناء وتطلعت حولها. لم تر أحداً. كان الباب مغلقاً، لكن كان هناك اهتزاز في الهواء، كما لو أنّ أحداً قد ركض للتو أو طار، لم يترك سوى إشارة عابرة جعلت الآخرين يشعرون بالحيرة والاضطراب.

بعد ثلاثة أيام، وعد زبائنه بإنهاء أعمالهم بعد عودته، وودّع الناس في الكنيس وعهد إلى جاره حنانيا مسؤولية العناية ببيته والممتلكات الدنيوية الموجودة فيه خلال فترة غيابه، ثم انطلق يوسف النجار مع زوجته من الناصرة متجهاً إلى بيت لحم لتسجيل مكان ولادتهما حسب المرسوم الذي صدر من روما. وإذا لم يكن النبأ قد بلغ السماء بعد، ربما بسبب تأخير في وسائل الاتصالات أو ربما بسبب مشكلة في الترجمة، لا بدّ أن الربّ قد فوجئ عندما رأى أن تغييراً كبيراً قد طرأ على المشهد العام لإسرائيل. فقد كان الناس يسيرون زرافات ووحداناً في جميع الاتجاهات، بينما كانوا في الأيام القليلة الأولى من عيد الفصح ينتقلون بعيداً عن المركز، إذا جاز لنا أن نستخدم هذا التعبير، بادئين رحلة عودتهم من تلك الشمس الدنيوية التي تُعرف بأورشليم. إن قوة العادة، مهما كانت عرضة للخطأ، ومهما كان نفاذ البصيرة الإلهية، وهذه الأخيرة مطلقة، فإنها، بلا ريب، ستساعد الربّ، حتى من الأعلى، على رؤية أن هؤلاء حجاج يسيرون الهوينى عائدين إلى مدنهم وقراهم. لكن ماذا عن هذه المتاهة المحيّرة، وهؤلاء الذين يطيعون أمر القيصر المدنّس وهم يسيرون عشوائياً في طرق مألوفة، إلّا إذا كان القيصر أغسطس يمتثل لإرادة الربّ من دون أن يعي، إذا كان صحيحاً

أنه أمر بموجب حكمته الإلهية بأن يذهب يوسف ومريم إلى بيت لحم في هذا الوقت بالذات، فعلينا أن لا نستبعد بخفةٍ تخميننا الذي قد يبدو اعتباطياً وخارج الموضوع كما يمكن أن يبدو للوهلة الأولى، لأنه يساعدنا على دحض أولئك المفسرين الذين يجعلوننا نتصوّر أن يوسف ومريم عبرا الصحراء القاسية وحدهما، من دون أن يريا وجهاً ودوداً على مرمى البصر، لا يثقان إلّا برحمة الربّ وبحماية ملائكته. لأنهما ما إن بلغا أطراف الناصرة حتى أصبح جلياً أنهما لم يعودا وحدهما. فقد التقى يوسف ومريم بعائلتين كبيرتين، عشيرة حقيقية تتألف من حوالي عشرين فرداً، بمن فيهم أشخاص بالغون وأجداد وأطفال صغار. صحيح أنهم لم يكونوا جميعهم ذاهبين إلى بيت لحم، لأن إحدى العائلتين كانت ستتوقف عند نصف المسافة وستمكث في قرية قريبة من الرامة. أما العائلة الأخرى، فكانت ستتجه جنوباً حتى بئر سبع، لكن حتى لو كانوا سيفترقون قبل وصولهما إلى بيت لحم، لأن هناك دائماً أناساً يسافرون بسرعة أكبر من غيرهم، فإن يوسف ومريم سينضمان إلى مسافرين آخرين على الطريق، وسيلتقيان بأناس متجهين في الاتجاه المعاكس للتسجل في الناصرة. كان الرجال في إحدى المجموعات يسيرون في المقدمة برفقة جميع الفتيان الذين بلغوا الثالثة عشرة من العمر، بينما كانت النساء والفتيات والجدّات من جميع الأعمار يسرن متفرقات مع الفتيان الذين لم يبلغوا الثالثة عشرة من العمر. وفي طريقهم، كان الرجال ينشدون في جوقة مهيبة الأدعية والصلوات التي تلائم هذه المناسبة، بينما كانت النساء يدندن الكلمات فقط، لأنه ما جدوى أن ترفع صوتك إذا لم يكن هناك أحد يسمعك، مع أنهن لم يكن يَطلبنَ شيئاً، بل كن ممتنات لكلّ شيء.

من بين النساء جميعهن، كانت مريم المرأة الوحيدة التي هي في

الأشهر الأخيرة من حملها، وكان الإجهاد بادياً عليها، ولو لم تكن العناية الإلهية قد منحت الحمير القدرة اللامتناهية على الصبر والطاقة، لاستسلمت منذ مدة طويلة وتوسلت للآخرين بأن يتركوها على قارعة الطريق تنتظر حتى تأتي ساعتها التي نعرف نحن أنها وشيكة، لكن من يمكنه أن يعرف متى أو أين، لأن هذا ليس سباقاً على رهان أو تنبؤاً بمتى أو أين سيولد ابن يوسف. يا له من دين حكيم ذاك الذي حرّم القمار. حتى تحين تلك الساعة، ومادام هذا الانتظار القلق مستمراً، فإن المرأة الحامل لن تعتمد كثيراً على انتباه يوسف المشتت المنهمك في الحديث دائماً مع الرجال الآخرين، بل ستعتمد على الدعم الأكيد والموثوق للحمار الذي لا بد أنه كان يتساءل، إذا كانت دواب الحمل حسّاسة لهذه الأمور، فلماذا لا يُستخدم السوط أكثر ولماذا يُسمح له بأن يمضي بسرعته السهلة، السرعة التي يسير بها هذا النوع من الدواب. وغالباً ما تسير النساء ببطء ويتخلفن في الوراء، فيضطر الرجال الذين يسبقونهن بمراحل إلى التوقف حتى تقترب منهم النساء، لكن عليهن ألّا يقتربن كثيراً. وكان الرجال يفضّلون إعطاء الانطباع بأنهم توقّفوا لأخذ قسط من الراحة، لأنه صحيح أن الجميع يستطيعون السير على الطريق حيث تصيح الديكة، فإن على النساء ألّا ينعقن، وأكثر ما يمكن أن يفعلنه هو أن يقوقئن عندما يبضن، لأن هذه هي قوانين الطبيعة التي تحكم العالم الذي نعيش فيه. وهكذا تمضي مريم، تتمايل مع إيقاع دابتها الخفيف. ملكة بين النساء، لأنها هي الوحيدة التي يسمح لها بأن تمتطي دابة، بينما الحمير الأخرى محمّلة بالأثقال. ولتيسير الأمور، كانت مريم تأخذ الأطفال الثلاثة في المجموعة في حضنها بالتناوب لكي تريح أمهاتهم قليلاً وفي الوقت نفسه لكي تهيئ نفسها للأمومة.

في اليوم الأول، شعروا بالتعب ولما يقطعوا سوى مسافة قصيرة.

١ - الخان صوبيت للمسافرين على [illegible]

فلم تكن أرجلهم معتادة على السير ساعات طويلة، ويجب ألّا ننسى أعداد المسنين والأطفال الصغار الذين يشاركون في هذه الرحلة. فقد أنفق المسنون، بعد حياة مديدة، كلّ طاقتهم ولم يعد بإمكانهم الادّعاء بغير ذلك، أما الأطفال فلم يتعلّموا بعد كيف يحافظون على قوّتهم المتزايدة وينهكون أنفسهم بعد دفق قصير من النشاط الزائد، كما لو أنّ الحياة قد شارفت على نهايتها، وعليهم أن يتمتّعوا بها بالكامل حتى نهايتها. عندما بلغوا قرية كبيرة تدعى إسرائيل، توقّفوا في الخان المحلي الذي وجدوه في حالة مزرية من الفوضى والصخب بسبب الازدحام الشديد. ولقول الحقيقة، فقد كان هناك صخب أشدّ من الفوضى هنا، لأنه بعد أن تستقرّ عينا المرء وأذناه، فإن شيئاً من النظام في ذلك الجمع الكبير من الناس والحيوانات يبدأ بالظهور داخل أربعة جدران، مثل كثيب نمل مضطرب يحاول أن يحدّد اتجاهاته ويعيد تجمّعه. وعلى الرغم من الازدحام الشديد، كان من حسن حظ العائلات الثلاث أنها وجدت ملاذاً تحت أحد الأقواس، حيث تكوّم الرجال معاً في جهة، وتكوّمت النساء في جهة أخرى عندما حلّ الظلام، وتهيأ كلّ من في الخان، من بشر وحيوانات، للنوم. لكن كان على النساء أن يحضرّن الطعام أولاً ويملأن قرب الماء من البئر، وكان على الرجال إنزال الأحمال من فوق ظهور الحمير وسقايتها بعد أن تنتهي الجمال من الشرب، لأن جملاً واحداً يمكنه أن يفرغ حوض الماء في جرعتين كبيرتين فيتعين ملؤه عدة مرات كي يروي عطشه. وبعد أن شربت الحمير وتناولت علفها، جلس المسافرون أخيراً لتناول طعامهم، الرجال أولاً، بالطبع. وعلينا أن نتذكّر أيضاً أن حواء خُلقت بعد آدم وأنها خُلقت من ضلعه. هل سنعرف أخيراً أنه لا يمكن فهم بعض الأشياء إلّا إذا تجشمنا عناء تتبعها حتى أصولها.

تناول الرجال طعامهم وعادوا إلى الركن الذي يجلسون فيه، وكانت النساء على وشك إنهاء ما تبقى من الطعام، عندما استغل سمعان، أحد أكبر الحاخامات الذي كان يعيش في بيت لحم، لكنه اضطر للتسجيل في الرامة، السلطة التي منحها له العمر والحكمة والتي يُعتقد بأنها تأتي نتيجة لذلك، بسؤال يوسف ماذا سيفعل إذا ظلت مريم، مع أن سمعان لم يذكرها بالاسم، تنتظر ولادة جنينها حتى آخر يوم للإحصاء. من الواضح أن السؤال كان أكاديمياً، إذا كانت هذه الكلمة ملائمة لذلك الزمان والمكان، مادام المسؤولون عن الإحصاء الذين يعرفون أدق التفاصيل في القانون الروماني، يعرفون كيف يتعاملون مع امرأة حامل خرجت لتسجّل مكان ولادتها وقالت، لقد جئنا للتسجيل، ولا أحد يعرف عمّا إذا كانت حاملاً بصبي أم ببنت، من دون الحاجة إلى ذكر احتمال أن تنجب توأماً. وبما أن يوسف النجار كان يهودياً تقياً، فلم يكن يحلم بأن يشير بالمنطق الغربي البسيط إلى أنه لا يتعين على الذين يطيعون القوانين أن يدافعوا عن العيوب التي تعتريها، وإذا كانت روما عاجزة عن التنبؤ بوجود بعض الصعوبات، فإن مشرّعيها ومفسري التوراة لا يخدمونها جيداً. وإزاء هذه المشكلة الشائكة، فكّر يوسف ملياً وبجديّة، وراح يفتش في ثنايا عقله عن مناقشة حاذقة تقنع المتحلّقين حول نار مهارته في الجدال. وبعد إمعان في التفكير، رفع النجار عينيه عن ألسنة النار المرتعشة وقال لهم: إذا لم يولد طفلي في آخر يوم للإحصاء، فإن هذه ستكون إشارة من الربّ بأنه لا يريد أن يعرف الرومان بولادة الطفل. فأجابه سمعان: إن هذا افتراض، ادعاء بمعرفة ما يريده الربّ أو بما لا يريده. فسأله يوسف: ألا يرى الربّ طريقي ويحسب كلّ خطوة من خطواتي؟ هذه الكلمات التي يمكننا أن نجدها في سِفر أيوب والتي تنطوي، في سياق هذه المناقشة، على أن يوسف

يعترض على طاعته وإذعانه للربّ أمام جميع الحاضرين أو الغائبين، وهي مشاعر تتناقض تماماً مع الفرضية الشيطانية التي حاول سمعان أن يتّهمه بها عندما حاول يوسف أن يسبر أغوار إرادة الربّ العصية على الفهم. بهذه الطريقة، لا بد أن الحبر قد فسّر جوابه، لأنه لاذ بالصمت، منتظراً أن يكمل يوسف كلامه. وقال يوسف إن أيام ولادة كلّ شخص وموته تقبع تحت ختم الملائكة وحراستهم منذ أن بدأت الخليقة ولا يمكن لأحد أن يكسر هذه الأختام إلّا الربّ، الختم الأول أولاً ثم الآخر، مع أنه قد يكسرهما معاً في أحيان كثيرة، بيده اليمنى وبيده اليسرى، وفي بعض الأحيان يكون بطيئاً جداً في كسر ختم الموت إلى حد يبدو أنه نسي وجود بعض الأرواح الحيّة. صمت يوسف ليلتقط أنفاسه، ثمّ قال لسمعان بابتسامة ماكرة، لنأمل أن هذا الحديث الذي يدور بيننا لا يذكّر الربّ بوجودك. فضحك الحاضرون تحت لحاهم، لأن النجار لم يبد الاحترام اللائق للرجل العجوز. لم يبذل سمعان الذي شدّ كمّه بعصبية، أية محاولة لإخفاء انزعاجه عندما قال ليوسف: لعل الربّ استعجل في كسر ختم ولادتك فولدت قبل زمنك، فإن كنت تعامل شيوخك بهذه الطريقة، الشيوخ الذين شهدوا من هذه الحياة أكثر مما شهدته واكتسبوا حكمة أكبر مما اكتسبته. فردّ يوسف، اسمع يا سمعان، لقد سألتني ماذا سأفعل إذا لم يولد طفلي في آخر يوم للإحصاء، ولم أستطع أن أجيبك، فأنا لست فقيهاً بالقانون الروماني وأظنك أنت كذلك. لا، أنا لست فقيهاً به. ثم قلتُ إني أعرف ما قلته، فلا داعي لتكراره. أنت من بدأ ذلك، فقد اتّهمتني بالافتراض بأني أعرف مشيئة الربّ، لذلك، أرجو أن تغفر لي إن كنت قد جرحت كبرياءك. لكنك أنت من أساء إلي أولاً، ولما كنت تكبرني في السن وتفوقني علماً فكان يجب أن تكون لي قدوة حسنة. سمع صوت همهمة

من الرجال المتحلقين حول النار تعبيراً منهم عن الموافقة. يبدو أن يوسف النجار قد انتصر في المناقشة، وانتظر الآخرون لسماع ردّ سمعان الذي قال بحدّة، مفتقراً إلى الروح والخيال: كان كلّ ما عليك أن تفعله هو أن تجيب عن سؤالي باحترام. فأجاب يوسف، لو كنت قد أعطيتك الجواب الذي تريده، لاتضح للجميع غباء سؤالك، لذلك عليك أن تعترف، مهما بلغت حدة غضبك، بأنني أبديت لك أشدّ الاحترام بمنحك فرصة لمناقشة شيء نريد جميعاً أن نعرفه، وهو هل أراد الربّ أن يخفي شعبه عن أعين العدو. إنك الآن تتحدث عن شعب الربّ كما لو كانوا طفلك الذي لم يولد. لا تقوّلني ما لم أقله يا سمعان، لا تقل كلمات لم أقلها ولن أقولها أبداً، بل استمع إلى ما يجب أن تفهمه بمعناه الحقيقي وليس بتأويل آخر. لم يحاول سمعان الإجابة عن ذلك، بل نهض على قدميه والتمس ناصية مع رجال آخرين من عشيرته الذين شعروا أنهم مضطرون لمرافقته بسبب روابط الدم والقرابة، مع أنهم خامرهم الامتعاض من سلوك هذا الشيخ الجليل في المناقشة.

كان الصمت الذي أعقب همهمات وهمسات المسافرين الذين بدؤوا يستعدون للنوم يُكسر، بين الحين والآخر، بأحاديث مكتومة في الخان، وبصيحات مجلجلة وبلهاث الحيوانات وشخيرها، وفي بعض الأحيان، برغاء جمل ينزو. أما المجموعة القادمة من الناصرة، وبعد أن نسوا الخلاف بينهم، سُمعت تمتمة في صوت واحد، آخر صلاة شكر للربّ في نهاية اليوم وأطولها. الشكر لك، يا إلهنا، ملك الكون الذي يغلق عيوننا من دون أن يسلب النور منها. هبنا يا إلهنا القدرة على أن ننام بسلام ونصحو غداً على حياة سعيدة وهادئة، وساعدنا على طاعة وصاياك وأوامرك، ولا تحمّلنا الفتنة ونجّنا من الشرّ، وقدنا على طريق الفضيلة واحمنا من الأحلام السيئة والأفكار الشرّيرة والأمراض المهلكة.

وجنّبنا رؤى الموت. وما هي إلّا دقائق، حتى استسلم أكثر الأشخاص إرهاقاً للنوم وغطّوا في سبات عميق، وراح بعضهم يشخر بشكل لا يشي بالروحانية. ثم انضم إليهم الآخرون الذين لا يستر معظمهم أكثر من أرديتهم، لأن المسنين والصغار، كلاهما مرهف بطريقته، أخذوا يستمتعون بدفء وحماية بطانية خشنة أو عباءة رثّة. وبعد نفاد الحطب، بدأت النار تخبو وتموت، وبقيت بضعة ألسنة نار ضعيفة ترتعش. وتحت القوس، نامت المجموعة القادمة من الناصرة ملء جفونها. جميعهم ماعدا مريم التي لم تكن قادرة على أن تتمدد بسبب انتفاخ بطنها الذي من الممكن أنه يؤوي عملاقاً، واستلقت فوق بعض أخراج الدواب لتريح ظهرها الذي يؤلمها. ومثل الآخرين، سمعت مريم يوسف وهو يجادل سمعان العجوز، وابتهجت لانتصار زوجها، كما ينبغي لأيّ زوجة أن تفعل، مهما كان النزاع غير مؤذ أو غير مهم، لكنّها لم تعد تذكر موضوع المناقشة، فقد غاص تذكّرها لها في خفقان جسدها الذي كان ينتفض جيئة وذهاباً مثل مدّ البحر الذي لم تره قط لكنها سمعت آخرين يصفونه، المدّ والتدفق المضطرب والهائج كما يتحرك طفلها في رحمها. الإحساس الأكثر غرابة، كأنّ ذلك المخلوق الحيّ في رحمها يحاول أن يرفعها على كتفيه. كانت مريم مستلقية، عيناها مفتوحتان، تلمعان في الظّل، وظلتا تلمعان حتى بعد أن خبا آخر لهب. لا يوجد ثمة سبب للتساؤل، لأن هذا يحدث لكلّ الأمهات، وزوجة يوسف النجار ليست استثناء، بعد أن ظهر لها الملاك في هيئة شحاذ.

حتى في الخان، كانت هناك ديكة ترحب بقدوم الصباح، لكن كان على المسافرين والتجار وسُوّاس الماشية وحداة الجمال بدء عملهم في الصباح الباكر والتحضير للجولة التالية من رحلتهم قبل بزوغ الفجر. حمّلوا دوابهم بالأمتعة والبضائع فأحدثوا ضجيجاً وجلبة أكثر مما

أحدثوه ليلة البارحة. عندما غادروا، ساد الهدوء لبضع ساعات في الخان، مثل سحلية بنية اللون مستلقية تحت الشمس. أما النزلاء الذي ظلوا في الخان فقد قرّروا أن يخلدوا إلى الراحة طوال النهار. وعندما حلّ المساء، وصلت مجموعة أخرى من المسافرين الذين يرتدون ثياباً رثة أكثر من سابقيهم وكانوا جميعاً مرهقين، لكن لم يكن لذلك أيّ تأثير على حبالهم الصوتية، لأنهم ما إن وصلوا، حتى تعالى صراخهم كأن ألف شيطان يسكنهم. وعندما انطلقوا في رحلتهم، ازداد عدد المجموعة القادمة من الناصرة بعد أن انضم إليها عشرة أشخاص آخرين. لذلك فإن أي شخص يظن أن هذا المكان كان مقفراً فهو مخطئ، خاصة عندما تزامن عيد الفصح وموعد الإحصاء في وقت واحد.

لا يتعين على أحد أن يطلب من يوسف أن يصالح سمعان العجوز، لا لأنه كان مخطئاً، إنما لأنه تعلّم أن يحترم شيوخه، لا سيما الذين يدفعون ثمن حياة طويلة مقابل أن يخسروا عقولهم وتأثيرهم على الجيل الأصغر. لذلك توجّه يوسف إليه وقال له، جئت لأعتذر منك عن وقاحتي ليلة البارحة، وكانت نيتي هي أن أبدي لك كل الاحترام لكنك تعرف طبيعة البشر. كلمة تؤدّي إلى أخرى، فيفقد المرء أعصابه، ويلقي بالحذر في مهب الريح. من دون أن يرفع عينيه، سمعه سمعان بصمت، ثمّ قال أخيراً، سامحتك. وبأمل أن تكسبه هذه البادرة مودة هذا الرجل العجوز العنيد، لم يفارقه يوسف لمسافة من الطريق. أما سمعان الذي ظلت عيناه مثبتتين على التراب الذي يكسو قدميه، فقد واصل تجاهله ليوسف الذي قرر ساخطاً أن يستسلم. في تلك اللحظة بالذات، يبدو أن أفكاره قد أيقظته، فوضع الرجل العجوز يده على كتف يوسف وقال له، انتظر. مندهشاً، التفت إليه يوسف. توقّف سمعان عن السير وكرّر، انتظر. واصل الآخرون سيرهم وتركوا الرجلين واقفين في منتصف

الطريق، منطقة محايدة بين مجموعة الرجال في المقدمة ومجموعة النساء في الخلف التي أخذت تقترب رويداً رويداً. ومن فوق رؤوس النساء، كان بالإمكان رؤية مريم وهي تتمايل مع إيقاع خطوات الحمار.

تجاوزا وادي إسرائيل. ثم انعطف الطريق الذي تحفّه صخور ضخمة، بحدّة، فوق أول منحدر قبل أن يصلوا إلى جبال السامرة شرقاً، ثمّ على امتداد حافات قاحلة قبل أن ينحدر على الجانب الآخر نحو نهر الأردن حيث يمتدّ السهل المحترق جنوباً وصحراء منطقة يهودا من الأرض الموعودة للقلة المختارة، لكن لن يعرف أحد إلى الأبد لمن يجب أن تستسلم. انتظر، قال سمعان. أطاعه النجار الذي تملّكه شعور بالاضطراب فجأة. بدأت النساء يزددن اقتراباً. ثمّ أمسك الرجل العجوز بكمّ رداء يوسف، وأفضى له، عندما استلقيت لأرتاح الليلة الماضية جاءتني رؤية. رؤية. نعم، رؤية، لكنها ليست رؤية عادية لأنني أستطيع أن أرى المعنى الخفي للكلمات التي قلتها أنت، بأنه إذا لم يولد طفلك حتى آخر يوم للإحصاء فإن سبب ذلك هو أن الرب لا يريد أن يعرف الرومان بوجوده ويضيف اسمه إلى قائمتهم. نعم، هذا ما قلته تماماً، لكن ماذا رأيت. لم أر شيئاً، لكنني أحسست فجأة بأنّ من الأفضل ألّا يعرف الرومان بوجود طفلك، ويجب ألّا يخبر أحد عنه، وإذا كان على هذا الطفل أن يولد ويأتي إلى هذا العالم، فدعه يعيش على الأقل من دون عذاب أو مجد، مثل هؤلاء الرجال الذين يسيرون في المقدمة وتلك النساء اللاتي يسرن في المؤخّرة، اتركه مجهولاً شأن الآخرين حتى تحين ساعة موته وإلى الأبد بعد ذلك. نجار متواضع مثلي من الناصرة، ما هو المصير الذي يمكن أن يأمله طفلي غير الذي وصفته الآن. للأسف، لستَ أنت الشخص الوحيد الذي يتخلّص من حياة طفله. صحيح أن كلّ شيء يكمن بين يديِ الرب وأنه يعلم أكثر مما

نعرف. وأنا أقول كذلك، لكن خبرني عن طفلي، ماذا رأيت. لم أر شيئاً وراء الكلمات التي قلتها أنت والتي حملت لي معنى آخر، كما لو أنني عندما أرى بيضة أستطيع أن أعرف ما هو الفرخ القابع في داخلها. إن الربّ يشاء ما يخلقه ويخلق ما يشاء. إن طفلي بين يديه ولا أستطيع أن أفعل شيئاً. هذا صحيح، لكن الربّ لا يزال يشارك أمّه الطفل الآن. لكن إذا تبيّن أنه ابن، فإنه سيكون لي وللربّ. أو للربّ وحده. جميعنا أبناء الربّ. ليس جميعنا لأن البعض مقسم بين الربّ وبين الشيطان. كيف يمكننا أن نعرف ذلك، لو لم تُسكت الشريعة النساء إلى الأبد، فربما كان بإمكانهن أن يكشفن عمّا نحتاج إلى معرفته، لأن المرأة هي التي اخترعت الخطيئة الأولى والتي انبثقت منها جميع الخطايا الأخرى. ماذا نحتاج أن نعرف. أن أي جزء من طبيعة المرأة هو شيطاني وأي جزء إلهي هو الإنسانية الكامنة فيهن. لم أفهم قصدك، ظننتُ أنّك تتحدث عن طفلي. لا، إني لا أتحدث عن طفلك، بل أتحدّث عن النساء اللاتي يولدن كائنات مثلنا واللاتي قد يكنّ مسؤولات، ربما بدون علمهن، عن هذه الازدواجية في طبيعتنا التي هي أساسية ونبيلة جداً وطاهرة، لكنها مع ذلك شرّيرة جداً وهادئة، ومع ذلك فهي مضطربة، ووديعة لكنها عاصية ومتمردة.

التفت يوسف إلى الوراء. رأى مريم تمتطي الحمار وقد أجلست أمامها صبياً صغيراً مفرشخاً فوق السرج مثل شخص بالغ. لوهلة خيّل إلى يوسف بأنّه يرى ابنه ويرى مريم لأول مرة تتقدم مجموعة النساء. كانت كلمات سمعان الغريبة لا تزال تتردد في أذنيه، لكنّه لم يصدق أن تمتلك أيّ امرأة كل هذه القوّة، خاصة زوجته المتواضعة تلك التي لم تظهر قط أيّ دلالة على أنها امرأة تختلف عن النساء الأخريات. عندما عاد لينظر إلى الطريق أمامه، تذكّر فجأة حادثة الشحاذ والتراب المتوهج.

بدأ يرتعش، وتجمّد الدم في عروقه ووقف شعر رأسه واعترته قشعريرة. وعندما ألقى نظرة أخرى على مريم، رأى، رأى بوضوح، رجلاً غريباً طويل القامة يمشي إلى جانبها، كان فارع الطول إلى حد أن رأسه وكتفيه كانت تعلو جميع النساء. لا شك أنه الشحاذ الذي لم يره في المرّة السابقة. أمعن يوسف النظر فرأى وجوداً مشؤوماً بين تلك النسوة لا يمكن تفسيره. همّ يوسف ليطلب من سمعان أن ينظر حتى يتأكد من أنه لا يتخيّل هذه الأشياء، لكن الرجل العجوز كان قد تقدّمه كثيراً بعد أن قال له رأيه بصراحة، وانضم إلى رفاقه ثانية ليستأنف مكانته رئيساً لعشيرته، وهو دور لا يستطيع أن يأمل في أن يؤديه بشكل أفضل من ذلك. لا يوجد معه شاهد، نظر النجار مرة أخرى نحو زوجته. هذه المرة، كان الشحاذ قد اختفى.

اتجهوا جنوباً. عبروا السامرة كلها بسرعة كبيرة. بعين على الطريق وبالعين الأخرى كانوا يتطلعون حولهم بتوتر وذعر لأنهم كانوا يتوقّعون أن يهاجمهم أهالي هذه المنطقة بدافع الحقد والكراهية، أحفاد الآشوريين القدماء المعروفين بأعمالهم الشرّيرة وبمعتقداتهم الهرطقية الذين استقروا في هذه المنطقة في أثناء عهد شلمنصر، ملك نينوى، بعد أن طرد القبائل الاثنتي عشرة وشتت شملها. كان هؤلاء الناس أكثر وثنية من اليهود ولا يعترفون بأن أسفار موسى الخمسة هي الشريعة المقدّسة، وكانوا يتجاسرون ويقولون إن المكان الذي اختاره الربّ لبناء معبده ليس في أورشليم بل فوق جبل جرزيم الذي يقع في منطقتهم. انطلقت القافلة من الجليل بسرعة لكنها اضطرت لقضاء ليلتين في العراء في أرض هؤلاء الأعداء، وكان الحراس يجوبون المكان لحمايتهم. فلم تكن خيانة هؤلاء الأشرار تعرف حدوداً، فمن الممكن ألّا يقدموا شربة ماء إلى شخص، حتى لو كان من أصل عبري خالص، ويتركونه يموت أمامهم من العطش. كان الخوف يعتري المسافرين طوال الرحلة، فانقسم الرجال إلى مجموعتين، بخلاف العادة المتبعة، مجموعة تسير أمام النساء والأطفال، ومجموعة تسير وراءهم لحمايتهم من أن تنهال عليهم الشتائم والإهانات، أو من أمور أسوأ. لكن يبدو أن أهالي السامرة كانوا

في حالة سلام آنذاك، لأنه في ما عدا نظرات الاحتقار والملاحظات الساخرة الدنيئة، لم تتعرض المجموعة القادمة من الجليل لأيّ اعتداء، ولم تنقضّ عليهم أي عصابة من اللصوص وقطاع الطرق من التلال القريبة، ولم يرجمهم أحد بالحجارة.

قبل أن يصلوا إلى الرامة بمسافة قليلة، أقسم المؤمنون المتعصبون أو الذين يمتلكون حاسة شمّ قوية بأنهم بدؤوا يشمّون رائحة أورشليم المقدّسة. هنا سلك سمعان العجوز ورفاقه طريقاً آخر، لأنه كان عليهم، كما قلنا، التسجيل في قرية تابعة لهذه المنطقة. وراح المسافرون يلهجون بعبارات الشكر للربّ في وسط الطريق وودّع أحدهم الآخر. وحشت النساء المتزوجات رأس مريم بألف نصيحة ونصيحة، ثمرة تجربتهن وخبرتهن. ثمّ تفرقوا، إذ هبط بعضهم إلى الوادي للحصول على قسط من الراحة بعد أربعة أيام من السير المتواصل، بينما اتجه الآخرون إلى الرامة لإيجاد مأوى لهم في أحد الخانات لأن الظلام سيهبط عليهم بعد قليل. وفي أورشليم، ستنفصل المجموعة من الناصرة أيضاً، وسيتجه معظم أفرادها إلى بئر سبع التي يجب أن يصلوا إليها بعد يومين؛ في حين سيتجه النجار وزوجته إلى بيت لحم القريبة. في غمرة فوضى العناق والوداع، انتحى يوسف بسمعان جانباً، وسأله بكلّ تواضع وتهذيب هل يتذكّر شيئاً آخر من الرؤيا التي جاءته. قلت لك إنها ليست رؤيا. مهما كانت، يجب أن أعرف ما القدر الذي ينتظر طفلي. إن كنت لا تعرف قدرك أنت وأنت واقف أمامي الآن تطرح عليّ أسئلة، فكيف تتوقّع أن تعرف قَدَرَ طفل لم يولد بعد. إن عيون الروح ترى أبعد، وبما أن الربّ فتح بصيرتك لرؤية مظاهر معينة لا يراها إلّا المختارون، فإني أظن أنك رأيت شيئاً أراه أنا مجرد ظلام. قد لا تعيش حتى تعرف قدر ابنك، من يعرف، فربما تلقى قدرك بعد فترة قصيرة، لكن لا تسألني

أسئلة أخرى، أرجوك، توقّف عن هذا البحث وعش من أجل الحاضر. وبهذه الكلمات وضع سمعان يده اليمنى على رأس يوسف، ودمدم مباركة لم يتمكن أحد من سماعها، ثم عاد وانضم إلى أقربائه وأصدقائه الذين كانوا ينتظرونه. وفي صف واحد شقّوا طريقهم في درب متعرّج باتجاه الوادي الذي توجد فيه القرية التي يعيش فيها سمعان عند سفح المنحدر المقابل حيث تكاد البيوت تندمج بالصخور الناتئة من الأرض مثل العظام. وبعد فترة غير قصيرة، علم يوسف أنّ الرجل العجوز قد مات قبل أن يُسجّل.

بعد قضاء ليلتين تحت النجوم، وبعد أن نهشهم البرد القارس في ذلك السهل القاحل، من دون نار متقدة كي لا يُكتشف أمرهم، قررت المجموعة القادمة من الناصرة أن تجلس مرة أخرى تحت قوس الخان. ساعدت النساء مريم على النزول من ظهر الحمار، ورحن يطمئنّها ويقلن لها هيا، سينتهي كل شيء قريباً، وردّت الفتاة المسكينة همساً، أعرف، لكن لم يعد بإمكاني أن أنتظر أكثر، وأي دليل أكبر من هذه البطن المنتفخة الكبيرة. بذلت النساء كلّ ما بوسعهن حتى ترتاح مريم في زاوية هادئة، وبدأن يحضّرن طعام العشاء لأن الوقت تأخر، وقرر المسافرون أن يتناولوا الطعام معاً. في تلك الليلة لم تدر أحاديث، ولم تُقم صلوات ولم تُحك قصص حول النار، كأن الاقتراب من أورشليم يقتضي منهم الصمت وإبداء الاحترام، وكان كلّ رجل يفتّش في قلبه ويسأل من هو هذا الشخص الذي يشبهني لكني لم أعرفه بعد. لم يقولوا ذلك حقاً، لأن الناس لا يكلّمون أنفسهم هكذا، حتى إن ذلك لم يكن موجوداً في أفكارهم الواعية. لكن مما لا شكّ فيه أنه بينما نجلس ونحدّق في النار المتقدة، فإننا لا نستطيع أن نعبّر عن صمتنا إلّا بكلمات كهذه التي تقول كلّ شيء. ومن المكان الذي يجلس فيه، كان

يوسف يرى طرف وجه مريم في الضوء المنبعث من النار. فقد أضاء اللهب الأحمر طرف وجهها، فراح يتتبّع قسمات وجهها في الظل والضوء، وبدأ يدرك، بدهشة، أن مريم امرأة جذّابة، إذا كان بإمكان المرء أن يقول ذلك عن امرأة لها هذه القسمات الطفولية. بالطبع كان جسدها منتفخاً الآن، لكن بالرغم من ذلك، فقد رأى تلك القامة الرشيقة الجميلة التي ستستعيدها بعد أن تلد طفلهما. وعلى نحو مفاجئ، كما لو أنّ جسده قد تمرّد بعد كل هذه الشهور من العفة التي فرضت عليه، سرت في عروقه موجة قوية من الشهوة وأصابته بدوار. صاحت مريم متألّمة، لكنّه لم يهبّ لمساعدتها، كأن أحداً قد صبّ عليه ماء بارداً، فقد تذكّر فجأة الرجل الذي كان يسير بجانب زوجته قبل يومين فخبت حماسته وشهوته على الفور. فمنذ أن اكتشفت مريم بأنّها حامل، أصبحت صورة ذلك الشحاذ تطاردهما كلاهما. ولم يكن يساور يوسف أدنى شكّ بأن الغريب أصبح يستحوذ على أفكار مريم خلال الشهور التسعة. لكنه لم يتمكن من أن يسأل زوجته من هو ذلك الرجل أو إلى أين ذهب عندما اختفى فجأة. وكان آخر شيء يريد أن يسمعه منها هو أن تسأله بتردد وحيرة، رجل، أي رجل. وإذا ألحف عليها في السؤال، فمما لا ريب فيه فإن مريم ستطلب من النساء الأخريات أن يشهدن وتسألهن، هل رأت إحداكن رجلاً يسير معنا، لكنهن سينكرن أنهن رأينه وسيهززن رؤوسهن وينفين أي اقتراح من هذا القبيل، وربما أجابت إحداهن بتهكم، إن الرجل الذي يتسكّع حول النساء طوال الوقت لا يسعى إلّا إلى شيء واحد فقط. لكن يوسف لم يصدّق علائم الدهشة التي أبدتها مريم بأنها لم تر الشحاذ، سواء أكان رجلاً أم مجرد طيف. لقد رأيته بأمّ عيني وهو يمشي بجانبك، سيصرّ على القول لها، لكن مريم سترد بلا تردد، كما هو مدوّن في الشريعة المقدّسة، على

الزوجة أن تطيع زوجها، فإن كنت تصرّ على القول إنك رأيت شحاذاً يمشي بجانبي، فلن أعارضك، لكن صدّقني أنني لم أره. إنه نفس الشحاذ. لكن كيف يمكنك أن تعرف أنه هو إن كنت لم تره عندما ظهر أول مرة. قد يكون هو نفسه. وربما كان أحد المسافرين يسير ببطء شديد فتجاوزناه جميعاً، في البداية الرجال، ثمّ النساء، وربما كان يسير بالقرب من مجموعة النساء عندما صادف أن نظرتَ إلى الوراء. آه، إذاً تعترفين أنه كان هناك. لا أبداً، لكن بما أنني زوجة مطيعة، فإني أحاول أن أجد تفسيراً يرضيك. بدأ النعاس يداعب جفني يوسف فأخذ يراقب مريم من وراء عينين نصف مغمضتين راجياً أن يعثر على الحقيقة في قسمات وجهها، لكن ظلاً كان يغلف وجهها الآن ويبدا مثل قمر شاحب، ويبدا جانب وجهها كأنه خط مبهم في ضوء الجمرات التي بدأت تبهت وتنطفئ. هزّ يوسف رأسه، وقد غلبه الجهد لمحاولة أن يفهم وأخذ معه، وهو يغط في النوم، الفكرة السخيفة بأن الشحاذ قد يكون صورة عن ابنه يخرج من المستقبل ليقول له، هكذا سأبدو عندما أكبر، لكنك لن تعيش لتراه. ونام يوسف ملء عينيه وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة مستكينة، ابتسامة حزينة. وخيّل إليه أنه سمع مريم تقول، ربما لم يكن لدى هذا الشحاذ، لا سمح اللّه، مكان يريح فيه رأسه. لأن الحق أقول لكم إن أشياء كثيرة في هذا العالم يمكن أن تُعرف قبل فوات الأوان إذا أفضى الأزواج والزوجات لأحدهم الآخر عن مكنونات صدورهم كأزواج وزوجات.

في وقت مبكّر من صباح اليوم التالي، غادر معظم المسافرين الذين أمضوا الليلة في الخان باتجاه أورشليم، وبقي الذين كانوا يسيرون على أقدامهم معاً، لمرافقة يوسف هذه المرة، حتى لا يغيب عن عينيه أهل بلدته الذاهبون إلى بئر سبع. مشى يوسف بجانبها كما كان قد رأى

الشحاذ يفعل، أو مهما كان. اقتنع يوسف الآن بأن الربّ منّ عليه بأن جعله يرى ابنه حتى قبل أن يولد، لا ابناً ملفوفاً بالقماط، مخلوقاً صغيراً لا شكل له تفوح منه رائحة كريهة ولا يكفّ عن الصراخ، إنما جعله يراه رجلاً بالغاً، أطول قامة من أبيه ومن معظم الذكور من بني جنسه. وأحسّ يوسف بالسعادة لأنه سيأخذ مكان ابنه، فهو في الوقت نفسه أب وطفل، وكان هذا الشعور قوياً إلى درجة أن طفله الحقيقي، الطفل الذي لم يولد بعد، القابع داخل رحم أمّه، الذاهب إلى أورشليم، لم يعد مهماً فجأة.

أورشليم، أورشليم، صاح الحجاج بورع وخشوع عندما لاحت أمامهم معالم المدينة، لاحت أمامهم مثل طيف فوق قمة التلّ وراء الوادي، مدينة سماوية حقاً، مركز الكون. يتلألأ في جميع الاتجاهات، تحت شمس الظهيرة، تاج من البلّور الشفاف، سيتحوّل إلى أنقى أنواع الذهب عندما تميل الشمس إلى الغروب، وإلى عاج تحت ضوء القمر. أورشليم، أورشليم، فيظهر الهيكل في هذه اللحظة تماماً، كأن الربّ أقامه هناك. وقد يكون النسيم العليل الذي هبّ فجأة وبدأ يداعب وجوه المسافرين وشعرهم وملابسهم، بادرة إلهية، لأننا إذا نظرنا جيداً إلى الغيوم المتناثرة في السماء، فإننا سنرى يداً ضخمة تنسحب، أصابعها ملوّثة بالطين، وقد ارتسمت على راحتها خطوط الحياة والموت مثل كلّ إنسان ومخلوق في هذا العالم، لكن الوقت حان أيضاً كي نتتبّع خطوط حياة وموت الربّ نفسه. سرت في أجساد المسافرين رعدة من حماستهم، ورفعوا أذرعهم إلى السماء وعلت عقيرتهم ابتهالاً. لم يعد ذلك في جوقة واحدة، بل تملكت النشوة كل واحد منهم وراح يبتهل على حدة. ولم يكد العقلاء فيهم يتحركون من مكانهم، بل رفعوا أبصارهم إلى السماء وراحوا يصلّون بورع شديد، كما لو أنه سُمح لهم

بأن يكلّموا الربّ. كان الطريق منحدراً. عندما هبط المسافرون إلى الوادي وتسلّقوا المنحدر التالي المفضي إلى أبواب المدينة، بدأ الهيكل يزداد ارتفاعاً، وكذلك قلعة أنطونيا المهيبة التي يستطيع المرء، حتى من هذه المسافة، أن يرى ظلال الجنود الرومان الواقفين وهم يحرسون المدرجات، وأسلحتهم اللامعة. وكان على المجموعة من الناصرة أن تودعهم هنا لأن مريم أصبحت منهكة ولم يعد بإمكانها أن تهبط المنحدر بتلك الخطوات السريعة التي كانت تزداد سرعة حتى تصبح اندفاعاً متهوراً عندما تبدأ تلوح أسوار المدينة.

وهكذا وجد يوسف ومريم نفسيهما وحيدين على الطريق، هي تحاول استجماع طاقتها، وهو نافد الصبر لأنهما تأخرا، لا سيما أنهما اقتربا كثيراً من مقصدهما. كانت أشعة الشمس مسلطة على رؤوس المسافرين الصامتين. أفلتت صرخة مكتومة من شفتي مريم. فسألها يوسف قلقاً، هل الألم يزداد، لكن لم يكن بمقدورها أن تقول نعم. ثمّ زحفت إلى وجهها قسمات بأنها لا تصدّق ما سمعته، كأنها صادفت شيئاً يتجاوز قدرتها على الفهم. من المؤكد أن الألم كان يعتصر جسدها، لكنّه أصبح يبدو الآن أنه يخصّ شخصاً آخر. يخصّ من إذاً. الجنين القابع في رحمها. كيف يمكنها أن تشعر بألم ليس ألمها إنما ألم كائن آخر. بالرغم من ذلك فقد تكون هي، مثل صدى يتردد نتيجة خدعة صوتية غريبة أعلى من الصوت الذي أصدره. سألها يوسف بحذر، ألا يزال الألم شديداً، لكن مريم لم تعرف بما تجيب. لأنها ستكذب إذا قالت له لا، وإذا قالت نعم فإنها لا تقول الحقيقة أيضاً، لذلك قرّرت أن تصمت، فالألم موجود، وهي تشعر به، لكنّه أصبح بعيداً جداً إلى حد أنه تكوّن لديها انطباع بأنها ترى طفلها وهو يتألم في رحمها لكنها لا تستطيع مساعدته. ومع أنها لم تأمر الحمار ولم يلكزه

يوسف، راح يهبط المنحدر الشديد المؤدّي إلى أورشليم، كأنه يأمل في أن يحظى بمعلف مليء وباستراحة طويلة. لكنه لم يكن يعرف بأنه لا يزال أمامهم طريق طويل قبل أن يصلوا إلى بيت لحم، وأنهم عندما يصلون، فإن الأمور لن تكون في غاية السهولة. فعلى سبيل المثال قال يوليوس قيصر «فيني، فيدي، فيتشي» (أتيت، رأيت، انتصرت) عندما كان في ذروة مجده، ثم أتى ابنه واغتاله. كان عذره الوحيد أنه ابنه بالتبنّي. إن الصراع بين الآباء والأبناء، وتوارث الإحساس بالذنب، وحرمان ذوي القربى من الميراث، والتضحية بالأبرياء، يعود إلى زمن سحيق في القدم، ويعد بأن يستمر في المستقبل.

عندما دخلا باب المدينة، لم يعد باستطاعة مريم أن تكتم صيحاتها التي أصبحت الآن تمزق نياط القلب كأنّ رمحاً قد اخترقها. لكن لم يكن يسمعها أحد سوى يوسف لأن الضجيج المنبعث من الناس، مع أنه كان أقل بقليل من ضجيج الحيوانات، كان كالذي يُسمع في سوق مزدحم. عندها قرر يوسف وقال: إن وضعك لا يسمح بأن تمضي أبعد من هنا، لذلك يجب أن نبحث عن خان قريب، وسأذهب غداً وحدي إلى بيت لحم وسأقول لهم إنك ستلدين طفلك، ويمكنك أن تسجلي لاحقاً إذا كان ذلك ضرورياً فعلاً، لأني لا أفقه شيئاً في القانون الروماني، ومن يعرف، فربما كان ربّ الأسرة فقط هو الذي يجب أن يسجل، خاصة في حالتنا. طمأنته مريم وتلاشى الألم وهي تقول الحقيقة، لأن الألم الذي يشبه طعنات الرمح والذي جعلها تصرخ خفّ كثيراً الآن واستحال إلى مجرد خفقان مزعج يمكن احتماله، أشبه بارتداء قميص من الوبر. اعترى يوسف شعور بالارتياح لأن البحث عن خان في أورشليم، بمتاهتها من الأزقة الضيّقة، عملية مضنية، خاصة الآن وزوجته في غمرة مخاض الولادة وقد أصيب بالذعر من فكرة

تحمّل المسؤولية مع أنّه لن يعترف بذلك أبداً. قال لنفسه إن الأمور ستكون أسهل بكثير عندما يصلان إلى بيت لحم التي هي ليست أكبر من الناصرة بكثير، لأن سكان المدن الصغيرة أكثر لطفاً ومودة. ولم يعد يهمّ كثيراً ما إذا كانت مريم لم تعد تتألّم أم أنها كانت تتظاهر بالشجاعة، فهما يواصلان طريقهما وسيصلان قريباً إلى بيت لحم. تلقى الحمار صفعة على مؤخرته، صفعة لا تدل كثيراً على حثّه لزيادة سرعته وسط كلّ هذا الارتباك، إنما يمكن اعتبارها إيماءة حنونة تشير إلى شعور يوسف بالارتياح. كانت الشوارع الضيّقة تعجّ بالتجار، وكان الناس من كلّ لسان وعرق يتدافعون، لكن الشوارع تكاد تصبح خاوية بأعجوبة عندما تظهر دورية من الجنود الرومان أو قافلة من الجمال، فتتبدد جموع الناس كما انشقت مياه البحر الأحمر. وبخطوات وئيدة ثابتة، خرج الزوجان من الناصرة وحمارهما من السوق المكتظ الذي يعجّ بالناس الجهلة العديمي الإحساس الذين لا جدوى من القول لهم، انظروا إلى ذلك الرجل هناك، إنه يوسف، وإن المرأة التي يبدو أنها ستلد في أيّ لحظة، هي مريم، وهما في طريقهما للتسجيل في بيت لحم. إذا مرت محاولتنا اللطيفة للتعرف عليهما ولم يفطن إليهما أحد، فإن سبب ذلك يعزى ببساطة إلى أننا نعيش في عالم فيه الكثير من الأشخاص الذين يحملون اسم يوسف ومريم ومن شتى الأعمار والطبقات، وقد يصادفهم المرء عند كل زاوية ومنعطف، وهما ليسا الزوجين الوحيدين اللذين يُدعيان يوسف ومريم وينتظران مولوداً، ومن يعرف، فربما أنجبا طفلين من نفس الجنس، يفضّل أن يكونا ذكرين، ويخرجان إلى هذا العالم في الساعة نفسها لا يفصل بينهما إلّا طريق أو حقل ذرة. لكن الأقدار التي تنتظر هذين الطفلين ستكون مختلفة، حتى لو أطلقنا عليهما كليهما اسم يشوع الذي هو نفسه يسوع. ولكي لا نُتّهم

بتوقّع الأحداث بتسمية طفل لم يولد بعد، فإن اللوم يقع على النجار الذي قرر منذ فترة أن يطلق هذا الاسم على ابنه البكر.

غادر المسافران من الباب الجنوبي، وسلكا الطريق المفضي إلى بيت لحم. كانا سعيدين بأنهما سيصلان إلى غايتهما بعد فترة قصيرة وسيرتاحان أخيراً من عناء رحلتهما. بطبيعة الحال، لم تنته متاعب مريم عند هذا الحد، لأن عليها هي، وهي وحدها، أن تتحمّل آلام المخاض، ومن يعرف أين ومتى. وبحسب التوراة، فإن بيت لحم هي المكان الذي يوجد فيه بيت داوود، السلالة التي يدّعي يوسف أنه يتحدّر منها، لكن مع مرور الزمن مات جميع أقارب النجار، أو أنه فقد أي اتصال بهم، وهو وضع غير مريح يقودنا إلى الاعتقاد، حتى قبل أن نصل إلى هناك، بأن هذين الزوجين سيواجهان مشكلة في العثور على مكان يأويان إليه. فعندما يصلان إلى بيت لحم، لن يكون بمقدرة يوسف أن يقرع أول باب يصادفه ويقول لصاحبة البيت، أريد أن يولد طفلي هنا. ولا نتوقّع أنها ستقابله بالترحاب وبابتسامة عريضة وتقول له، تفضل، تفضل يا سيد يوسف، فالماء يغلي، والحصيرة ممدودة على الأرض، والقماط جاهز، اعتبر نفسك في بيتك. من الممكن أن تحدث أشياء كهذه في عصر ذهبي، عندما لا ترى الذئب يأكل الحمل، إنما يرعى الأعشاب في الحقول. لكن هذا العصر هو عصر الحديد والقسوة وبلادة الشعور. أما عصر المعجزات، فإما أنه ولّى أو أنه لم يأت بعد. فضلاً عن ذلك، فإن المعجزات، المعجزات الحقيقية، مهما قال الناس عنها، فهي ليست فكرة جيّدة إذا كانت تعني تحطيم نظام ترتيب الأشياء حتى يحسّنها. لم يكن يوسف في لهفة لمواجهة المشاكل التي تنتظره، لكنّه كان يعرف أن الوضع سيزداد سوءاً إذا ولد طفله على قارعة الطريق، فراح يحثّ الحمار، الحيوان المسكين، للسير بسرعة أكبر. ولا

يعرف أحد سوى الحمار نفسه ما أصابه من تعب وإرهاق، وإن البشر هم من يرعاهم الربّ، لكن ليس جميع البشر، لأن بعضهم يعيشون كالحمير، بل حتى أسوأ من الحمير، ولا يبذل الربّ أيّ جهد لمساعدتهم. كان أحد رفاق السفر قد أخبر يوسف بأنه يوجد خان في بيت لحم، ضربة حظّ يبدو أنها جاءت استجابة لحلّ مشكلته. لكن حتى نجار متواضع سيشعر بالحرج عندما يرى زوجته الحامل مكشوفة أمام أعين سُوّاس الدواب وحداة الجمال الفضوليين السقيمين وألسنتهم التي لا تكفّ عن لوك سير الناس، الذين يتصف بعضهم بالشراسة كالدواب التي يسوسونها، بل حتى إن سلوكهم أكثر قذارة وخسة. وبما أنهم بشر، فقد وهبهم الربّ نعمة الكلام التي لم يهبها للحيوانات. لذلك، قرّر يوسف أخيراً أن يلتمس مشورة كبار الأحبار في الكنيس والحصول على نصحهم وتوجيهاتهم، وتساءل لماذا لم تخطر له هذه الفكرة من قبل. أحسّ بشيء من الراحة، وهمّ بأن يسأل مريم هل لا تزال تشعر بالألم، لكنه عدل عن ذلك ولم يقل شيئاً، ويجب ألّا يغيب عن بالنا أن هذه العملية برمتها، منذ لحظة الحبل حتى لحظة الولادة، ليست نظيفة، وأن ذلك العضو الأنثوي القذر، الدوّامة والهاوية، مكمن جميع شرور العالم، المتاهة الداخلية من الدم والإفرازات والسوائل المتدفقة، مشيمة مقززة، يا إلهي، كيف تسمح لأطفالك المحبوبين أن يولدوا وسط هذه النجاسة. ألم يكن من الأفضل لك ولنا لو أن تخلقهم من نور شفيف، البارحة واليوم وغداً. البداية والمنتصف والنهاية كلها يشبه بعضها بعضاً بالنسبة للجميع، من دون تمييز بين علية القوم وعامة الناس، وبين الملوك والنجارين. لذلك سألها يوسف فقط، وبلا مبالاة ظاهرة، كأنه مشغول بأمور أكثر أهمية. كيف تشعرين الآن. جاء السؤال في حينه لأن

مريم لاحظت الآن شيئاً مختلفاً عن الألم الذي كان يعتريها، بل الذي يعتريه هو بسببها.

واصلا سيرهما لأكثر من ساعة، واقتربا كثيراً من بيت لحم. ولدهشتهما كان الطريق من أورشليم شبه مقفر. وبما أن بيت لحم قريبة جداً من المدينة، فإن المرء يتوقّع وجود حركة دائبة من البشر والحيوانات. وفي النقطة التي يتفرّع فيها الطريق، طريقاً إلى بئر سبع، وطريقاً إلى بيت لحم، بدا أن العالم بدأ يتقلّص وينطوي على نفسه. وإذا كان عليك أن تتصوّر العالم شخصاً، فإن ذلك يبدو كأنك تراقب رجلاً يغطّي عينيه بعباءته ويستمع إلى وقع أقدام المسافرين، تماماً كما ننصت إلى زقزقة العصافير على أغصان الأشجار، ومثل ذلك يجب أن نبدو للطيور المتوارية بين الأشجار.

إلى اليمين يقع قبر راحيل، العروس التي انتظرها يعقوب طوال أربع عشرة سنة، وبعد سبع سنوات من الخدمة، زُوّج لَيْئَة، وكان عليه أن ينتظر سبع سنوات أخرى قبل أن يُسمح له بالزواج من حبيبته التي ماتت في بيت لحم أثناء وضعها ابناً سمّاه يعقوب بنيامين الذي يعني «ابن يدي اليمنى»، لكن راحيل أطلقت عليه وهي تحتضر اسم بنوني الذي يعني «طفل أحزاني»، حاشى للّه أن يكون ذلك نذير شؤم. بدأت البيوت تظهر الآن، بلون الطين مثل بيوت الناصرة، لكن لون الطين هنا في بيت لحم أكشف، مزيج من اللونين الأصفر والرمادي. كانت مريم على وشك أن تنهار، وبدأ جسمها يزداد انحناء على السرج في كلّ لحظة تمرّ. هرع يوسف لمساعدتها. وضعت ذراعاً حول كتفه لتثبّت نفسها. لكن لسوء الحظ لم يكن هناك أحد يمكنه أن يرى هذا المشهد المؤثّر الذي يندر وقوعه. وأخيراً، دخلا بيت لحم.

على الرغم من حالة مريم، سأل يوسف هل يوجد خان في مكان قريب يرتاحان فيه حتى صباح اليوم التالي. كانت مريم تعاني من ألم شديد، لكن علائم المخاض لم تظهر عليها بعد. عندما وصلا إلى خان في الجانب المقابل من القرية، كان وسخاً وصاخباً. جزء منه سوق، والجزء الآخر إسطبل. لم يعثرا فيه على ركن هادئ، مع أن الوقت كان مبكراً وسيبدأ معظم سُوّاس الدواب وحداة الجمال بالوصول بعد قليل. عادا، وترك يوسف مريم تحت ظلّ شجرة تين في فناء صغير وانطلق لاستشارة أحد الحاخامات. لم يكن هناك أحد في الكنيس سوى خادم نادى فتى واقفاً في مكان قريب وطلب منه أن يرافق الرجل الغريب إلى أحد الحاخامات الذي قد يتمكن من مساعدته. قرر الحظ الذي يحمي الأبرياء عندما يتذكّرهم، بأن يمرّ يوسف من الساحة التي ترك فيها زوجته، لينقذها في الوقت المناسب من الظلّ القاتل لشجرة التين الذي كان يقضي عليها ببطء. إنه خطأ لا يغتفر، بما أن أشجار التين تنمو بكثرة في هذه الأراضي وكان يجب أن يعرفا ذلك جيداً، ومثل روحين مدانتين، فقد انطلقا للبحث عن الحاخام الذي قالوا إنه ذهب إلى الريف ولا يتوقّع أن يعود إلّا بعد فترة من الزمن.

عندما سمع يوسف ذلك، استجمع شجاعته وصاح، هل بإمكان أحد أن يوفّر لنا مأوى، بحق الربّ، لزوجتي العزيزة التي على وشك أن تلد. إن كلّ ما طلبه هو ركن هادئ، لأنهما أحضرا معهما حصيرتهما. وهل بوسع أحد أن يخبره أين يستطيع أن يجد قابلة في القرية تساعدها على ولادة طفلها. تضرّج وجه يوسف المسكين خجلاً عندما سمع نفسه يفضي بهمومه ومخاوفه هذه على الملأ. دخلت الجارية التي كانت تقف عند باب البيت لتخبر سيدتها، وعادت بعد قليل وأخبرتهما بإنهما لا يمكنهما البقاء هنا وأنه يجب أن يبحثا عن

مكان يأويان إليه في مكان آخر. وبما أنه لا توجد فرصة كبيرة للعثور على مكان يؤويهما في القرية، فإن سيدتها تقترح بأن يلجآ إلى أحد الكهوف العديدة المتناثرة عند السفوح القريبة. وماذا عن القابلة، سألها يوسف. فأجابت الجارية بأنه إذا وافقت سيدتها، وهي تتمنّى ذلك، فإنها تستطيع أن تساعدها هي نفسها، لأنها عملت خادمة طوال حياتها وساعدت نساء كثيرات في ولادتهن. يا لها من أوقات عصيبة حقاً عندما تأتي امرأة حبلى وتقرع بابنا ولا نسمح لها بأن تأوي إلى ركن في الباحة إنما يرسلونها لتلد في كهف كما تلد الدببة والذئاب. ثمة شيء وخز ضميرنا، فنهضنا من مكاننا ودنونا من الباب لنرى بأمّ أعيننا هذين الزوجين اللذين يحتاجان إلى سقف يقي رأسيهما. كان الحزن البادي على وجه تلك الفتاة المسكينة يكفي لإثارة غريزتنا الأمومية، لذلك أوضحنا لهما بأناة السبب الذي لم يمكنّا من دعوتهما إلى بيتنا لأنه يعجّ بالأبناء والبنات والأحفاد والأنسباء. وكما تريان، لا يوجد مكان يتسع لكما هنا، لكن جاريتنا ستأخذكما إلى كهف نستخدمه إسطبلاً، لكن لا توجد فيه حيوانات الآن، ويمكنكما أن تمكثا فيه. أعرب الرجل والمرأة عن امتنانهما لهذا العرض السخي، فانسحبنا ونحن نشعر بأنّنا قد بذلنا كلّ ما بوسعنا وأنّ ضميرنا أصبح مرتاحاً الآن.

مع كلّ هذا الذهاب والإياب، والسير والراحة، والاستفسارات والتوسلات، فقدت السماء الداكنة الزرقة لونها وسرعان ما ستختفي الشمس وراء ذلك الجبل. سارت الجارية سالومي، وهذا هو اسمها، أمامهما تقود الطريق. كانت تحمل بضع قطع من الفحم الحار لإشعال النار، وإناءً فخارياً لتسخين الماء، وقليلاً من الملح لتفرك به المولود الجديد لكي لا يصاب بالالتهابات. ولما كانت مريم قد أحضرت معها قطعة من القماش ويوجد في جعبة يوسف سكين لقطع الحبل السري،

إلّا إذا كانت سالومي تفضّل استخدام أسنانها، فقد كان كلّ شيء جاهزاً لولادتها. وفي جميع الأحوال، فإن الإسطبل مكان جيّد كأنه بيت، ويعرف أي شخص نام في معلف بأنّه مكان جيّد كالمهد. ومن المرجح أن الحمار لن يلاحظ أيّ فرق، لأن التبن في الجنة هو نفسه على الأرض. وصلوا إلى الكهف عندما كان الغسق لا يزال يلقي لوناً ذهبياً فوق التلال. وإذا كانوا يسيرون ببطء، فلم يكن ذلك لأن المسافة كانت بعيدة، إنما لأنه أصبح لدى مريم الآن مكان ترتاح فيه، تستطيع أخيراً أن تترك نفسها فيه لمعاناتها. رجتهما أن يسيرا ببطء أكثر، لأنه كلما لم يجد الحمار موطئاً على حجرة، كانت تشعر بألم شديد. لم يتسلل الضوء الخافت في الخارج إلى عتمة الكهف، لكن بقليل من التبن والفحم المشتعل وبكثير من النفخ وشيء من الاشتعال الجاف، تمكنت الجارية من إذكاء نار بسرعة مثل أيّ فجر، ثمّ أضاءت الفانوس المتدلي من صخرة ناتئة من الحائط، وبعد أن ساعدت مريم على أن تستلقي، ذهبت لتجلب ماء من آبار سليمان القريبة. عندما عادت، وجدت يوسف غارقاً في القلق، لكن يجب ألّا نقسو عليه كثيراً، لأنه ليس من المتوقع أن يكون بمقدرة الرجل أن يجيد التصرف في أزمة كهذه، وكلّ ما يستطيع أن يفعله هو أن يمسك بيد زوجته ويأمل في أن يسير كلّ شيء على ما يرام. لكن مريم كانت تشعر بأنها وحيدة، لأن العالم سينهار إذا حاول رجل يهودي في ذلك الزمان أن يقدم على أيّة بادرة كهذه كي يجعلها تشعر بالراحة. جاءت الجارية وهمست بضع كلمات لتشدّ من أزر مريم ثمّ جثت بين ساقي مريم، لأنّ ساقي المرأة يجب أن تظلا متباعدتين عندما يدخل فيها أو يخرج منها شيء. لم تعد سالومي تتذكر عدد الأطفال الذين ساعدت في إخراجهم إلى هذا العالم، ولم تكن معاناة مريم المسكينة تختلف عن معاناة أيّة امرأة أخرى، لأنه كما حذّر

الربّ حواء بعد أن ارتكبت الخطيئة، سأضاعف ألمك وفي الحزن ستلدين. وبعد قرون من الحزن والمعاناة، لم يرض الله عنها واستمرت المعاناة. لم يكن يوسف هناك، ولا عند مدخل الكهف، بل هرب كي لا يسمع صراخ مريم، لكن صياحها تبعه كما لو كانت الأرض نفسها هي التي تصرخ. كان الصراخ عالياً جداً إلى حد أن ثلاثة رعاة كانوا مارين مع قطعانهم اقتربوا من يوسف وسألوه، ماذا يجري، لأن الأرض يبدو أنها تصرخ، فقال لهم إن زوجتي تلد في ذلك الكهف. فسألوه، من الواضح أنك لست من هذه البقاع. فأجاب نعم، لقد جئنا من الناصرة في الجليل، لنسجل مكان ولادتنا للإحصاء، وعندما وصلنا بدأت حالة زوجتي تزداد سوءاً وهي الآن في مرحلة مخاض. كان من الصعب رؤية وجوه الرجال الأربعة في هذا الضوء الخافت، وسرعان ما اختفت قسماتهم بالكامل، لكن أصواتهم ظلت مسموعة. هل لديك طعام، سأله أحد الرعاة. لديّ القليل من الطعام، أجاب يوسف. فقال له نفس الصوت، عندما يولد الطفل، أبلغني وسأجلب لك قليلاً من حليب الغنم. ثمّ قال صوت ثانٍ، وسأجلب لك بعض الجبن. ساد صمت طويل، ثمّ تكلم الراعي الثالث، بصوت بدا أنه قادم من أحشاء الأرض وقال، وأنا سأجلب لك بعض الخبز.

ولد ابن يوسف ومريم، كما يولد أيّ طفل آخر، يغطيه دم أمّه، ويقطر سائلاً مخاطياً، ويتألم بصمت. بكى لأنهم جعلوه يبكي، وسيبكي لهذا السبب الوحيد. لُفّ بالقماط ووضع في المعلف والحمار واقف بالقرب منه، لكن لم تكن هناك إمكانية لأن يعضّه لأنه مربوط ولا يستطيع الاقتراب منه. خرجت سالومي لتدفن المشيمة عندما اقترب يوسف. انتظرت حتى دخل إلى الكهف، راحت تتمشى هناك لتتنشق هواء الليل البارد وكانت تشعر بالإرهاق كما لو أنها هي

التي ولدت، لكنها تستطيع أن تتخيّل هذا الأمر فقط، لأنها لم تلد طفلاً في حياتها.

هبط ثلاثة رجال من السفح. إنهم الرعاة. دخلوا الكهف معاً. كانت مريم مستلقية على جانبها، وعيناها مغمضتان. كان يوسف جالساً على صخرة يسند ذراعه إلى حافة المعلف كأنه يحرس ابنه. تقدّم الراعي الأول وقال، ها هو الحليب من غنماتي وقد حلبته بيدي. فتحت مريم عينيها وابتسمت. ثمّ تقدّم الراعي الثاني وقال، لقد مخضت الحليب بنفسي لأصنع لك هذا الجبن. فأومأت مريم وابتسمت ثانية. ثمّ تقدّم الراعي الثالث الذي بدا أن جسده الضخم سيملأ الكهف، ومن دون أن ينظر كثيراً إلى والدِي المولود الجديد، قال، لقد عجنت هذا الخبز بيدي وخبزته في النار التي تشتعل تحت التراب. لم يكد يتكلّم حتى عرفته مريم.

منذ بداية الكون، كلّ شخص يموت يولد إزاءه شخص آخر. والشخص الذي على فراش الموت الآن هو الملك هيرودس، الذي بالإضافة إلى كلّ الشرور التي ارتكبها والتي يمكن تخيّلها، كان يعاني من حكّة مروّعة كادت تصيبه بالجنون. كان يعتريه شعور بأنّ مئات آلاف النمل لا يتوقف عن نهش جسمه. وبعد أن استعمل جميع أنواع المراهم والبلاسم المعروفة للبشر والأدوية التي جلبوها من مصر والهند والتي لم تجده نفعاً، حكّ أطباء البلاط رؤوسهم، أو لكي نكون أكثر دقّة، كانوا معرضين لخطر أن يفقدوا رؤوسهم وهم يجربون بشكل مسعور كلّ أنواع الغسول والشرابات المركبة الممزوجة بالماء أو بالزيت مع جميع أنواع الأعشاب التي كانت تعطي مفعولاً عكسياً. وهدد الملك الذي امتلأ فمه بالزبد مثل كلب مسعور، بألم وغضب شديدين، بأنه سيصلبهم جميعاً إذا لم يخففوا من آلامه غير المحتملة التي تجاوزت احتراق جلده والتشنّجات التي جعلته مرهقاً، مستنزفاً، يتلوّى على الأرض، عيناه جاحظتان من محجريهما بينما كانت أعداد النمل الذي يقضم جلده من تحت ثوبه تتضاعف. والأسوأ من كلّ هذا وذاك، الغرغرينا التي أصيب بها مؤخراً. من هذه المأساة الغامضة بدأت الألسن في القصر تلوك عندما بدأت الديدان تجتاح العضو الجنسي لهذه

الشخصية الملكية وتلتهمه وهو حيّ يرزق. بدأ يتردد صدى صيحات هيرودس في قاعات القصر وأروقته، وبقي الخصيان الذين يقومون على رعايته يقظين ليلاً ونهاراً، أما العبيد والخدم الأدنى مرتبة فكانوا يهربون عندما يسمعونه يقترب، يجرّ جسمه الذي تفوح منه رائحة نتنة على الرغم من العطور التي ترشّ على ثوبه بكثرة ويُفرك بها شعره المصبوغ. الغضب وحده هو الذي أبقى هيرودس حياً. يجوب القصر من أقصاه إلى أقصاه محمولاً على نقالة يرافقه الأطباء والحرّاس المدججين بالسلاح بحثاً عن الخونة الذين يخيّل إليه أنهم يترصّدونه في كل مكان، وسواس استبدّ به منذ فترة ليست ببعيدة. وكان بإمكانه أن يؤشّر بإصبعه فجأة، ربما إلى كبير المخصيين، ويتهمه بأنه أصبح له نفوذ، أو إلى فَرِيسِيّ عنيد ينتقد من يعصون الشريعة الذين يجب أن يكونوا هم أول من يطبقونها، ولسنا بحاجة هنا إلى الكشف عن اسماء المتهمين. وقد أشار بتلك الإصبع أيضاً إلى ابنيه ألكسندر وأرستوبولوس اللذين زجهما في السجن وحكم عليهما بالموت بعد محاكمة سريعة أقامها النبلاء لهذا الغرض. فماذا يفعل هذا الملك المسكين بعد أن رأى في هذيانه هذين الابنين الشريرين يهاجمانه بسيوف مسلولة. وكان أكثر الكوابيس رعباً عندما رأى في المرآة رأسه المقطوع. لقد نجا من تلك النهاية الشنيعة، ويمكنه الآن أن يتأمّل بهدوء جثتي الشابين اللذين كانا وريثي العرش قبل أن يُقتلا. ابناه من لحمه ودمه اتُّهما بحياكة مؤامرة ضد أبيهما وبسوء السلوك والغرور، وخُنقا حتى الموت.

ومن ظلمة عقله المضطرب أتى كابوس آخر ليؤرق لحظات نومه المتقطع الذي يغطّ فيه من شدة الإعياء. لقد بدأ النبي ميخا يطارده في نومه، ذلك النبي الذي عاش في زمن أشعيا وشهد الحروب الفظيعة التي شنّها الآشوريون في السامرة ويهوذا. كان ميخا يظهر أمامه، ينفد

١- الاشارة لسفر ميخا اصحاح ٢ اية ١ الى اية ٢

بالأغنياء وبأصحاب النفوذ كما يليق بنبي، لاسيما في هذا العصر اللعين. يكسوه غبار المعارك، وثوبه ملطخ بالدم، كان ميخا يقتحم حلمه بصيحة تصمّ الآذان من عالم آخر. وبيدين من برق، يفتح البوابات البرونزية الضخمة ويطلق تحذيراً شديداً، إذ سينزل الرب من معبده المقدّس وسيطأ الأماكن المرتفعة من الأرض، ثمّ يهدد قائلاً وُيل للذين يمارسون الظلم ويصنعون الشرّ على أسرّتهم، عندما يكون الصباح مضيئاً، يزاولونه لأنه في قوّة أيديهم. ويشجب الذين يطمعون في الحقول ويسلبونها بالعنف، والذين يستولون على البيوت، ويظلمون رجلاً وبيته، بل رجلاً وكل ما يملك. وبعد أن كان يردد هذه العبارات ليلة بعد ليلة، كان ميخا يتبخّر في الهواء كأنه يستجيب إلى إشارة معينة. لم تكن هذه الصيحات التنبؤية هي التي كانت توقظ هيرودس الغارق في عرقه البارد، بقدر ما كانت توقظه الفكرة التي تعذّبه بأن هذا الزائر الليلي يختفي عندما يوشك أن يكشف المزيد. فيرفع النبي يده وتنفرج شفتاه ويختفي فجأة، ويترك الملك يتخبط في هواجسه ووساوسه. وكما يعرف الجميع، لم يكن من المحتمل أن تخيف هذه التهديدات هيرودس ولم يكن يشعر بأدنى ندم على الأشخاص الذين أمر بقتلهم. فهذا هو الرجل الذي أمر بحرق شقيق زوجته مريامنة التي كان يحبّها أكثر من أي امرأة أخرى وهو حيّ، وهو الرجل الذي أمر بقتل جدّها خنقاً، وأخيراً هو الذي أمر بقتل مريامنة نفسها عندما اتهمها بالزنا. صحيح أنه أصيب لاحقاً بالجنون ولم يكن يتوقف عن ترديد اسم مريامنة كما لو كانت لا تزال على قيد الحياة، لكنّه شفي من ذلك الجنون، واكتشف أن حماته كانت تحيك مؤامرة ضده، ولم تكن تلك أول مؤامرة للإطاحة به عن العرش. وعلى الفور، أُرسلت هذه الأفعى إلى مدفن العائلة التي تزوّج هيرودس ابنتها بالرغم من النتائج المؤسفة التي أدت إلى هذا الزواج،

لأن أبناء الملك الثلاثة أصبحوا ورثة العرش، ألكساندر وأريستوبولوس اللذين ذكرنا للتو نهايتهما الحزينة، وأنتيباس الذي سيلقى قريباً مصيراً مشابهاً. لكن علينا ألّا ننسى، بما أن في الحياة أشياء أكثر مما يوجد في المأساة وسوء الحظ، بأنه كان لدى هيرودس لا يقل عن عشر زوجات جميلات يدلّلنه ويثرن شهوته، لكن لم يعد بإمكانهن أن يفعلن له الكثير وهو في هذه الحالة. لذلك، فإن ظهور نبي غاضب في الليل عازم على مطاردة ملك يهودا والسامرة وبيرية وأدوم والجليل والجولان واللجاة وحوران وباشان، سيعطي شيئاً من الانطباع بأن انقطاع الحلم المفاجئ الذي يتركه متشوقاً، يجعله ينتظر تهديداً جديداً، لكن أي تهديد، وكيف ومتى.

في تلك الأثناء، في بيت لحم، وعلى عتبة قصر هيرودس، ظل يوسف وأسرته في الكهف الذي لم يتوقّعوا أن يمكثوا فيه لمدة طويلة، لذلك لم يكن من الضروري البحث عن بيت، لاسيما في زمن كانت البيوت فيه نادرة ولم تكن ممارسة تأجير الغرف المربحة قد اخترعت بعد. وفي اليوم الثامن، أخذ يوسف ابنه البكر إلى الكنيس لختانه. وبسكين من الصوان، أزال الحبر بمهارة تثير الإعجاب، قلفة الطفل، ويجدر أن تُكتب رواية كاملة عن مصير تلك القلفة التي منذ لحظة إزالتها، وهي ليست إلّا حلقة جلدية شاحبة، وحتى تقديسها المجيد في عهد البابا باسكال الأول في القرن التاسع. وعلى كل من يرغب في رؤية تلك القلفة اليوم، أن يزور كنيسة أبرشية كالكاتا القريبة من فيتربو في إيطاليا، حيث يُحتفظ بها في وعاء الذخائر المقدسة من أجل الفائدة الروحية للمؤمنين، ومن أجل تندر الملحدين الفضوليين. وأعلن يوسف بأنه سيطلق على ابنه اسم يسوع، وهو الاسم المكتوب في سجل الربّ بعد أن أضيف إلى السجل المدني عند القيصر. وبعيداً عن الاستسلام

لهذا الغضب الذي تملك شخصه من دون أن يحظى بأيّ منفعة روحية ملموسة لقاء ذلك، أخذ الطفل يبكي وهو عائد إلى الكهف حيث كانت أمّه، لا داعي لقول ذلك، تنتظره على أحرّ من الجمر، لأنه طفلها البكر. يا طفلي الصغير المسكين، يا طفلي الصغير المسكين، راحت تهدهده، ثم فتحت ثوبها وراحت ترضع الطفل، أولاً من الثدي الأيسر، ربما لأنه أقرب إلى قلبها. أطلق يسوع، مع أنه لم يكن يعرف اسمه بعد لأنه لم يكن سوى طفل رضيع تحمله أمه بين ذراعيها، تنهيدة عميقة تشي بالرضا عندما شعر بثدي أمّه يضغط برقة على خدّه وأحسّ بدفء بشرتها الرطبة على بشرته. وعندما امتلأ فمه بطعم حليب أمّه الحلو، تلاشى في الحال ألم الختان ومهانته وأصبح بعيداً، وغمرته متعة لا شكل لها طفت على السطح واستمرت تعوم، كما لو أنها توقفت في البداية ولم يسمح لها بأن تعرّف نفسها بالكامل. وعندما يكبر فإنه سينسى تلك المشاعر الأولى وسيجد صعوبة في التصديق بأنها راودته في الأصل، وهذا ما يحدث لنا جميعاً، أينما ولدنا ومهما كان قدرنا. أما يوسف، إذا كنا نملك الشجاعة لكي نسأله عن ذلك، حاشا لله أن نرتكب أيّ عمل طائش، فإنه سيخبرنا بأن هموم الأب أكثر رهافة، لأنه أصبح يواجه الآن مشكلة توفير الطعام لفم آخر، وهو تعبير ليس صحيحاً تماماً لأن الطفل كان يرضع من صدر أمّه. في واقع الأمر، كان لدى يوسف سبب يجعل من حقه أن يشعر بالقلق. فكيف سيعيشون إلى حين عودتهم إلى الناصرة؟ فلا تزال مريم ضعيفة الجسم ووضعها لا يسمح لها بتكبد مشاق رحلة طويلة. بالإضافة إلى ذلك، عليها أن تنتظر حتى تتطهر لأنها ستبقى في دم طهارتها في الأيام الثلاثة الأولى وفي الأيام الثلاثين التي تعقب ختان طفلها. لم ينفقوا كلّ المبلغ القليل الذي جلبوه معهم من الناصرة، ولا يستطيع يوسف أن يعمل في النجارة هنا

لأنه لا توجد عنده أدوات نجارة أو نقود لشراء عدة وأخشاب. في ذلك الزمن، كانت الحياة قاسية على الفقراء، ولا ينتظر من الربّ أن يهتم بإعالة كلّ شخص. من داخل الكهف، سُمع صوت أنين خافت مفاجئ، لكنه سرعان ما توقّف، وهذه دلالة على أن مريم قد نقلت يسوع الصغير إلى ثديها الأيمن، لكن هذا الشعور بالإحباط لفترة قصيرة كان كافياً لإعادة الشعور بالألم في البقعة التي خُتن فيها الطفل. وبعد أن يرضع حتى يشبع، سينام يسوع الطفل ملء جفنيه بين ذراعي أمّه، ولن يكاد يفتح عينيه عندما تضعه برفق في المعلف كأنها تضعه في رعاية مرضعة حنونٍ وفية. كان يوسف الذي كان لا يزال جالساً عند مدخل الكهف يحاول أن يقرر ماذا سيفعل. كان يعرف أنه لا يوجد له عمل هنا في بيت لحم، حتى لو عمل أجيراً، لأنه عندما كان يسأل، كان يتلقى الجواب ذاته باستمرار. إذا احتجتُ إلى أيّ مساعدة فإني سأبعث في إثرك. وعود جوفاء لا تملأ بطن رجل، مع أن هذه الذرية تعيش على الوعود منذ أن جاءت إلى الوجود.

مراراً وتكراراً، يرى المرء، حتى الأشخاص الذين لم يُمنحوا القدرة على التفكير بأن أفضل وسيلة لإيجاد حلّ هو أن يدع أفكاره تنجرف حتى تأتي اللحظة المناسبة لينقضّ عليها، مثل نمر يفاجئ فريسته. وهكذا قادت الوعود الزائفة التي قُدمت إلى يوسف، المعلّم في مهنة النجارة، القادم من بيت لحم، لأن يفكر بوعود الربّ الحقيقية، ففكّر بالهيكل الذي كان لا يزال قيد البناء، وقال لنفسه لابدّ أنهم بحاجة إلى عمّال، لا إلى عمال بناء وحجّارين فقط، إنما إلى نجارين أيضاً لتربيع العوارض وتمليس وسحج ألواح الخشب، وهي أعمال رئيسية يتقنها يوسف النجار. لكن المشكلة الوحيدة، إذا وافقوا على تشغيله، تكمن في وقت مجيئه إلى موقع العمل الذي يستغرق ساعة ونصف الساعة

مشياً بخطوات سريعة، لأن معظم الطريق تتخلله تلال عليه أن يصعدها، ولا يوجد هناك قدّيس شفيع لصاعدي التلال ليساعده. وإذا صعد يوسف التل ووصل إلى ذلك المكان، فهل هذا يعني أنه سيجد مكاناً آمناً يترك حماره فيه. قد تكون هذه الأرض هي التي اختارها الربّ، لكن لا يزال فيها عدد كبير من الأوغاد إذا صدّقنا التحذيرات الهامة التي أطلقها النبي ميخا. كانت هذه الأفكار تدور في عقل يوسف عندما خرجت مريم من الكهف بعد أن أرضعت طفلها وجهّزته للنوم. كيف حال يسوع، سأل أبوه، وعرف بأن السؤال يبدو غبياً، لكنه لم يتمالك نفسه من الشعور بفخر أب حصل ابنه على اسم. الطفل في صحة جيدة، أجابت مريم التي لم يكن الاسم مهماً بالنسبة إليها، لأنها ستكون سعيدة بنفس القدر إذا نادته طفلي طوال حياتها، لولا الواقع بأنها إذا أنجبت أطفالاً آخرين، فإن مناداتهم جميعاً بطفلي، ستُثير نفس البلبلة والاضطراب التي جرت في برج بابل. قال يوسف الذي ترك الكلمات تنطلق من فمه كأنه يفكّر بصوت عال، وهي طريقة تُظهر قدراً كبيراً من عدم الثقة، عليّ أن أبحث عن رزق خلال إقامتنا هنا، لكن لا يوجد عمل مناسب في بيت لحم. لم تنبس مريم بكلمة، ولم يكن يتوقع منها ذلك، فهي هنا لتنصت فقط، مع أن زوجها تنازل لها للتو كثيراً لأنه وثق بها. نظر يوسف إلى الشمس ليعرف ما إذا كان لديه وقت كاف للذهاب والعودة. دخل إلى الكهف ليجلب عباءته وصرته، وعندما ظهر ثانية قال لمريم، أنا ذاهب. وقد وضع ثقته في الربّ ليجد عملاً لهذا النجار الصادق في الهيكل الذي يشيّد له، إذا كان يرى أنه يستحقّ هذا الشرف. ألقى يوسف عباءته على كتفه اليسرى، وعدّل صرّته وانطلق من دون أن يفوه بكلمة أخرى.

لم يكن كلّ شيء كئيباً. فعلى الرغم من أن العمل في الهيكل كان

يحرز تقدّماً جيداً، فقد كانوا لا يزالون يقبلون عمّالاً جدداً، خاصة إذا قبلوا بأجور زهيدة. لم يجد يوسف صعوبة في اجتياز الاختبار البسيط الذي أجراه له كبير النجارين، وهو شيء يجب أن يجعلنا نفكّر ملياً فيما إذا كانت تعليقاتنا السابقة حول مهارات يوسف المحترفة مبرّرة. وراح هذا العامل الأخير الذي بدأ يعمل في موقع بناء الهيكل يغدق الشكر على الربّ. وراح يوقف في طريقه بعض المسافرين ويطلب منهم أن يشاركوه في شكر الربّ، ففعلوا ذلك ببهجة لأنهم كانوا يرون أن عليهم أن يشاركوا هذا الرجل بهجته. بالطبع، فإننا نشير إلى أناس ينتمون إلى طبقة متواضعة. وعندما وصل يوسف إلى المكان الذي دُفنت فيه راحيل، خطرت له فكرة نبعت من القلب لا من الرأس، وهي، أن هذه المرأة المتلهّفة لإنجاب طفل آخر قد تموت، إذا غفرت له هذا القول، بين يديه، حتى قبل أن تتعرّف عليه. ومن دون أن تقول حتى كلمة واحدة أو تلقي نظرة واحدة، ينفصل جسد عن جسد آخر، بلا مبالاة مثل ثمرة تسقط من شجرة. ثمّ خطرت له فكرة أشدّ حزناً، وهي أن الأطفال يموتون لأن آباءهم وأمهاتهم يجلبونهم إلى هذا العالم، وأسف لحال ابنه الذي حكم عليه بالموت مع أنه بريء. عندما كان واقفاً ممتلئاً بالحيرة والأسى أمام قبر زوجة يعقوب المحبوبة، تهدّلت كتفا يوسف النجار وغاص رأسه وراح جسمه كلّه ينضح بعرق بارد. لم يعد هناك أحد يمرّ في الطريق يستطيع أن يطلب منه مساعدته. ولأول مرة في حياته، ساوره الشكّ في ما إذا كان للعالم أيّ معنى، وقال بصوت مسموع، مثل شخص فقد كلّ أمل، سأموت في هذا المكان. ربما كانت هذه الكلمات، لو قيلت في ظروف أخرى وبشجاعة أولئك الذين ينتحرون وبيقينهم، كلمات مجردة من الحزن والبكاء، لكانت تكفي لفتح الباب الذي نغادر منه أرض الأحياء، لكنّ أغلب الرجال متقلّبون

وقد يكون جلّ انتباههم مركزاً على غيمة في أعالي السماء، أو على عنكبوت ينسج خيوطه، أو على كلب يطارد فراشة، أو على دجاجة تخمش التراب وتنادي فراخها، أو على شيء شائع مثل حكّة مفاجئة على وجه أحدهم وهو يتساءل، الآن بماذا كنت أفكر. لذلك تحوّل قبر راحيل في الحال إلى بناء صغير لا نوافذ له، مطلي بالكلس مثل نرد منسي لأنه لم تكن هناك حاجة إليه في اللعبة الحالية. وكانت ترتسم على الحجارة عند مدخل الكهف آثار أيد متعرّقة ومتسخة تركها الحجاج الذين يؤمون هذا المكان منذ عصور قديمة، المحاط بأشجار الزيتون التي ربما كانت قديمة أيضاً عندما اختار يعقوب أن يكون هذا المكان المثوى الأخير لكي ترقد فيه الأمّ المسكينة براحة، وأزال عدة أشجار ليفسح مكاناً لدفنها. بالنتيجة، يمكننا القول بثقة إن القدر موجود وإن قدر كلّ إنسان يقبع في أيدي الآخرين. ثمّ ذهب يوسف، لكن ليس قبل تلاوة الأدعية التي كانت تناسب ذلك العصر وذلك المكان. وقال، الشكر لك يا ربّ، إلهنا وربّ أجدادنا وآبائنا، إله إبراهيم، وإله إسحاق، وإله يعقوب، العظيم، القدير، المعجز، الحمد والشكر لك. وعندما عاد إلى الكهف، ذهب ليلقي نظرة على ابنه الصغير، النائم في المعلف، قبل أن يخبر زوجته بأنّه وجد عملاً. ودمدم لنفسه، إنه سيموت، يجب أن يموت وقلبه مكروب. لكنه عاد يفكّر بأنه حسب النظام الطبيعي للأشياء فإنه هو نفسه سيموت أولاً وأن مغادرته أرض الأحياء ستمنح ابنه خلوداً محدوداً، تناقض مشروط، خلود يتيح للمرء أن يستمر فترة أطول قليلاً عندما لا يعود هناك وجود للذين نعرفهم ونحبّهم.

حرص يوسف على ألّا يذكر لكبير النجارين أنه لن يبقى في العمل إلّا بضعة أسابيع، خمسة أسابيع على الأكثر، وهو وقت كاف ليأخذ ابنه

إلى الهيكل لإكمال تطهّر مريم، ويحزم أغراضهم. لم يقل شيئاً سوى أنه أُبعد من العمل، مما يظهر أنّ النجار من الناصرة لم يكن على علم بظروف العمل هنا، لا ريب لأنه اعتبر نفسه، وهذا صحيح، بأنه معلّم نفسه ولم يعر اهتماماً كبيراً لباقي العمال الذين يعملون هنا واللذين كانوا جميعاً عمالاً مؤقتين. وظل يعدّ ما تبقى من أيام، أربعة وعشرون، ثلاثة وعشرون، اثنان وعشرون، لكي لا يرتكب أي خطأ، ورسم لنفسه تقويماً على أحد جدران الكهف، تسعة عشر، يرسم خطوطاً ثمّ يمحوها في كل مرة، ستّة عشر، تراقبه مريم بإعجاب، أربعة عشر، ثلاثة عشر، وشكرت الربّ لما منحها، تسعة، ثمانية، سبعة، ستّة، هذا الزوج الذكي الذي يستطيع أن يفعل كلّ شيء. أخبرها يوسف بأننا سنغادر بعد أن نذهب إلى الهيكل، لأن الوقت حان لأعود إلى عملي في الناصرة حيث ينتظرني زبائني. لكنها اقترحت بلباقة، لكي لا يبدو أنها تنتقده، لكننا لا نستطيع أن نغادر من دون أن نشكر المرأة صاحبة الكهف والجارية التي ساعدتني على ولادة طفلنا والتي تأتي كلّ يوم للاطمئنان علينا. لم يحر يوسف جواباً، لأنه لن يعترف قط بأنه نسي القيام بهذه المجاملة المعتادة، مع أنه كان ينوي تحميل الأمتعة على ظهر الحمار مسبقاً ويربطه في أثناء أداء تلك المراسم، ثمّ ينطلقون إلى الناصرة من دون إضاعة مزيد من الوقت في الشكر والوداع. كانت مريم محقة، فليس من اللائق أن نذهب من دون أن نعبّر عن امتناننا وشكرنا، حتى بكلمة واحدة، لكن في الحقيقة، كان يوسف يفتقر إلى بعض آداب السلوك. إن تذكيرها له بهذا الأمر الذي غاب عن باله جعله متجهماً عصبي المزاج مع زوجته، وهو السلوك الذي يساعده عادة على إراحة ضميره وإسكات صوت الندم فيه. لذلك، سيبقون يومين أو ثلاثة أيام أخرى، ثم يؤدون مراسم الوداع لأنه الأمر الواجب والصحيح، لترك

انطباع جيد لدى أهالي بيت لحم بأن هذه الأسرة المؤمنة، المهذبة الدمثة، القادمة من الجليل تختلف كثيراً عن الآخرين، خاصة عندما يعرف المرء أن سكّان أورشليم وضواحيها ينظرون إلى سكّان الجليل بشيء من الدونية.

جاء اليوم المشهود عندما حُمل يسوع الطفل إلى الهيكل بين ذراعيْ أمّه، ممتطياً الحمار الصبور الذي رافق هذه الأسرة وساعدها منذ البداية. قاد يوسف الحمار وأخذ يجره من رسنه. كان في عجلة ليصل إلى الهيكل حتى لا يضيع عليه عمل يوم كامل، مع أن مغادرتهم أصبحت وشيكة. انطلقوا في اليوم التالي عندما بدّد الفجر آخر آثار لانقشاع الليل. اقتربوا من قبر راحيل. عندما تجاوزوه، اتخذت الواجهة لوناً نارياً بلون الرمان، بخلاف اللون الذي يظهر فيه في الليل. فعندما يصبح القبر معتماً يفقد بريقه، وعندما يكون تحت ضوء القمر يبدو شاحباً كالأموات. بعد قليل استيقظ يسوع الرضيع. لم يكد يفتح عينيه حتى لفّته أمّه بالقماط استعداداً للرحلة، ولكي ترضعه أمه راح يبكي بذلك الصوت الشجي، الصوت الوحيد الذي كان يمتلكه حتى ذلك الحين. ففي ذات يوم، مثلنا جميعاً، سيتعلّم الطفل كيف يتكلم بأصوات أخرى للتعبير عن أشكال أخرى من الجوع، ويذرف دموعاً أخرى.

على الطرق الشديدة الانحدار القريبة من أورشليم، اختلطت الأسرة مع الحجاج والباعة المتوجهين إلى المدينة، كلّ واحد يسعى لأن يكون أول الواصلين، لكنهم كانوا يسيرون ببطء وبحذر ويكبحون جماح حماستهم واندفاعهم عندما يصادفون مجموعة من الجنود الرومان الذين يسيرون اثنين اثنين بين جموع الناس، أو عندما يشاهدون مجموعة من جنود هيرودس المرتزقة الذين يضمون جنوداً من كلّ عرق يمكن تصوّره، الكثير منهم من اليهود كما يمكن للمرء أن يتوقّع، وكان من

أداة نحت وقطع تشبه الفأس [illegible] يدق بها الوتد

بينهم أيضاً أفراد من الإيدوميين والغلاطيين والتراقيين والألمان والغاليين، بل حتى من البابليين الذين لم يكن يجاريهم أحد في فن الرماية. أما النجار الذي لم يكن يتعامل إلّا بأسلحة سلمية كالمسحجة والقدّوم[1] والمدقة[2] والمطرقة، فكان يمتلئ رعباً وتقززاً عندما يصادف هؤلاء الأجلاف، فلا يعرف كيف يتصرّف بشكل طبيعي أو كيف يخفي مشاعره الحقيقية، فيطرق بعينيه إلى الأسفل. أما مريم التي عاشت في الكهف لعدة أسابيع دون أن يكلّمها أحد سوى الجارية، فقد كانت تتطلع حواليها بنظرات متفحصة، ذقنها الصغير الرقيق مرفوع عالياً بافتخار مفهوم سببه، لأنها تحمل وليدها البكر، وهي وإن كانت مجرد امرأة لكنها قادرة على إنجاب أطفال للربّ ولزوجها. كانت متألقة وسعيدة إلى درجة أن بعض الجنود الغاليين الشرسين، ببشرتهم البيضاء وسوالفهم الضخمة وبأسلحتهم المشرّعة المعدة للقتال، كانوا يبتسمون عندما تمرّ هذه الأسرة، وتلين قلوبهم القاسية عندما يبصرون تلك الأمّ الشابة مع طفلها البكر. يبتسمون لتجديد هذا العالم، ويكشفون عن أسنان منخورة، لكن الفكرة هي المهمة.

ها هو الهيكل. عندما يراه المرء عن قرب فإنه يصاب بدوار. جبل من أحجار متراصة فوق بعضها بعضاً يبدو أنه لا توجد قوّة دنيوية قادرة على ترتيبها ورفعها ورصفها وتركيبها بهذا الشكل، لكن بالرغم من ذلك، فها هي ملتحمة مع بعضها من ثقلها بدون ملاط، كما لو أنّ العالم كله مجموعة من كتل من البناء. وإذا نظر المرء إلى الأفاريز العليا من الأسفل، خيّل إليه أنها تلامس السماء، مثل برج بابل آخر، لكنه مختلف كل الاختلاف، الذي حتى الربّ لن يتمكن من إنقاذه لأنه مقدر له أن يُدمر وتعمّ البلبلة والاضطراب في أرجائه وتراق فيه دماء كثيرة. وسوف تسأل الأصوات، لماذا، ألف مرة، ظناً منها أنه لابدّ أن يكون

هناك جواب، لكن تلك الأصوات ستخبو في النهاية، لأنه من الأفضل أن تلوذ بالصمت. ذهب يوسف ليربط الحمار في المكان المخصص للحيوانات في الخان. فخلال عيد الفصح وفي الأعياد الدينية الأخرى، يصبح المكان شديد الازدحام إلى حد أنه لا يبقى متسع لكي يهزّ جمل ذيله لينشّ الذباب عنه، لكن الأمر أضحى أسهل الآن لأن آخر يوم للإحصاء قد انتهى وعاد الناس إلى مدنهم وقراهم. في القاعة المخصصة للأغيار، غير اليهود، المحاطة بالأعمدة من جوانبها الأربعة، وقاعة الهيكل في الوسط، كانت تحتشد جموع هائلة من الناس: صرّافون وصائدو طيور وتجار غنم وحملان، وأطفال وحجاج يحتشدون هنا لسبب أو لآخر، بالإضافة إلى أعداد كبيرة من الأجانب كانت ترغب في زيارة الهيكل المشهور الذي شيّده الملك هيرودس. أما القاعة فكانت واسعة جداً بحيث لم يكن يبدو أي شخص واقف على الجانب البعيد منها أكبر من حشرة صغيرة، كما لو أن مهندسي هيرودس الذين كانوا يرون من خلال عيون الرب، قد أرادوا أن يظهروا ضآلة البشر في حضور الربّ القدير، خاصة إذا صادف أنهم من الأغيار والوثنيين. أما اليهود، فإذا لم يكونوا قد أتوا إلى الهيكل للتنزه والتسكع، فهم يأتون إلى القاعة الوسطى، مركز عالمهم، سرّة السُرّات، قدس الأقداس. اتّجه النجار وزوجته إلى هذا المكان، أي المكان الذي حُمل إليه يسوع بعد أن اشترى والده يمامتين من القيّم على الهيكل، إذا كان هذا اللقب يلائم الشخص الذي يستفيد من احتكار هذه الصفقات الدينية. فهذه الطيور المسكينة تجهل المصير الذي ينتظرها مع أن رائحة اللحم والريش المحترق التي يعبق بها المكان وتملأ الهواء لا تخدع أحداً، هذا إن لم نقل شيئاً عن رائحة الدم الكريهة القوية ورائحة الغائط عندما تُجرّ الثيران لذبحها كقرابين للربّ، توسّخ تحتها من شدة الرعب. أمسك

يوسف اليمامتين في راحتي يديه بجلدهما السميك، وراح الطائران المسكينان، بكل براءتهما، ينقران برضاء أصابعه التي يقوّسها ليشكّل منها قفصاً. كانا كأنهما يحاولان أن يقولا له، إننا سعيدان بسيّدنا الجديد. لكن بشرة يوسف كانت قاسية فلم يشعر بنقرات الحمامتين الحنونة.

دلفوا من البوابة الخشبية، أحد المداخل الثلاثة عشر إلى الهيكل، المنقوش عليه عبارات بأحرف يونانية وحُفرت على المبنى الحجري كتابات بأحرف لاتينية تقول: *لا يسمح للأغيار اجتياز هذه العتبة والسور المحيط بالهيكل، وكلّ من يتجاوزه يُحكم عليه بالموت*. دخل يوسف ومريم وهما يحملان يسوع بينهما، ثم سيخرجون بأمان، أما اليمامتان، كما نعرف، فيجب أن تُذبحا بحسب الشريعة قبل أن يقرّ الأحبار بتطهّر مريم. إن أيّ تلميذ ساخر أو عديم الاحترام من تلاميذ فولتير سيجد صعوبة في ألّا يبدي الملاحظة البديهية بأنه، كما هي طبيعة الأشياء، فلا يمكن الاحتفاظ بالطهارة إلّا إذا ضُحّي بمخلوقات بريئة في هذا العالم، سواء أكانت يمامات أم حملان أم أشياء أخرى. صعد يوسف ومريم الدرجات الأربع عشرة إلى منبسط درج الهيكل حيث توجد قاعة النساء. إلى اليسار، يوجد مكان يُخزَّن فيه الزيت والنبيذ اللذان يستخدمان في القربان المقدس. وإلى اليمين، توجد غرفة كهنة النذير، وهم الكنهة الذين لا ينتمون إلى قبيلة ليفي، والذين يُحظر عليهم أن يقصوا شعرهم، أو يشربوا خمرة، أو يقتربوا من جثة. وفي الجانب الآخر، وإلى اليسار واليمين، على التوالي، عند الباب المقابل، توجد الغرفة التي يجلس فيها الأشخاص المصابون بالجذام ممن يظنون أنهم تماثلوا للشفاء بانتظار أن يأتي الأحبار لفحصهم والتأكد من شفائهم. وفي كل يوم يُفحص الخشب المخزن في الغرفة، لأنه يجب عدم إلقاء الخشب

المتعفّن الذي ينهشه الدود في نار المذبح. لم يعد على مريم الذهاب أبعد من ذلك، بل كان عليها أن تصعد الدرجات الخمس عشرة، النصف دائرية، المفضية إلى باب نيكانور الذي يعرف أيضاً باسم الباب الجميل. لكنها ستتوقّف هناك لأنه يمنع دخول النساء إلى قاعة بني إسرائيل وراء هذه الباب. وعند المدخل، يستقبل اللاويّون الأشخاص الذين جاؤوا لتقديم قرابين، لكن الأجواء هنا أقل دينية، إلّا إذا كانت التقوى تعني شيئاً آخر فيَ ذلك الزمان. فلا يوجد هنا الدخان المنبعث من الدهن المحترق أو رائحة الدم الطازج والبخور فحسب، إنما تتعالى أصوات صياح الرجال، وعواء وثغاء وخوار الحيوانات حتى يأتي دورها في الذبح، وآخر صيحة صاخبة لطير تمكّن من أن يصيح آخر صيحة. تقول مريم للاويّ الواقف هنا بأنها جاءت لتتطهر ويعطيه يوسف اليمامتين. للحظات قصيرة، وضعت مريم يديها على الطائرين، الحركة الوحيدة التي تفعلها قبل أن يستدير اللاويّ وزوجها ويختفيا وراء الباب. لا تبرح مكانها حتى يعود يوسف. كانت تتنحّى جانباً لتفسح الطريق أمام الآخرين منتظرة وهي تحمل ابنها بين ذراعيها.

أما في داخل قاعة بني إسرائيل، فيوجد فرن ومسلخ، وفوق حجرتين ضخمتين، تُذبح الحيوانات الأضخم حجماً كالثيران والعجول، وكذلك الخراف والنعاج والماعز. وإلى جانب المناضد، تنتصب أعمدة طويلة تُعلّق عليها الذبائح من خطّافات مثبّتة في الحجر. هنا يستطيع المرء رؤية النشاط المسعور للجزارين وهم يعملون سكاكينهم وسواطيرهم وفؤوسهم ومناشيرهم اليدوية، والهواء عابق بالأدخنة المتصاعدة من الخشب والجلود المحروقة وبرائحة الدمّ والعرق. إن كلّ من يرى هذا المشهد يجب أن يكون قدّيساً ليفهم كيف يمكن أن يسمح الربّ بهذه المجزرة المروّعة إذا كان هو، كما يدّعي،

أب كلّ البشر والحيوانات. كان على يوسف أن ينتظر خارج السور الذي يفصل قاعة بني إسرائيل عن قاعة الأحبار، لكن من المكان الذي يقف فيه، كان يستطيع أن يرى بوضوح المذبح الرئيسي الذي يزيد طوله أربعة أضعاف أطول رجل ووراءه الهيكل الرئيسي، لأن الترتيب يشبه ترتيب العلب الصينية التي يؤدي كلّ تجويف فيها إلى تجويف آخر. نرى المبنى من بعيد ونقول لأنفسنا، آه، إنه الهيكل، ثمّ ندخل إلى القاعة المخصصة للأغيار، ونقول لأنفسنا مرة أخرى، آه، إنه الهيكل. والآن ينظر يوسف النجار، المتّكئ إلى السور، إلى الأعلى ويقول، آه، إنه الهيكل، وهو محقّ، فهناك الواجهة العريضة بأعمدتها الأربعة وبتيجانها الملفوفة بأوراق الغار على الطراز اليوناني، والمدخل الضخم الذي ليس له باب. إن دخول معبد المعابد هذا الذي يقيم فيه الربّ يشكل تحدّياً لجميع المحرمات، وبغية اجتياز المكان المقدّس الذي يدعى هيريل والوصول أخيراً إلى ديبير، التي هي آخر حجرة، قدس الأقداس، وهي حجرة مشيدة من حجارة ضخمة خاوية مثل الكون، بلا نوافذ ومظلمة كالقبر، لم يتسلل إليها ضوء النهار قط، ولن يتسلل إليها أبداً، حتى ساعة تدمير الهيكل، عندما تحولت الحجارة كلها إلى مجرد ركام. وكلما ازداد الهيكل بعداً، ازداد قدسية، بينما لم يكن يوسف إلّا والد طفل يهودي من بين آباء كثيرين. وسيشهد بعد قليل التضحية بحمامتين بريئتين، أي الأب لا الابن، لأن الابن الذي لا يزال بريئاً، بين ذراعي أمه، ربما كان يفكّر، إذا كان هذا الشيء ممكناً في عمره، فإن العالم يجب أن يكون هكذا إلى الأبد.

إلى جانب المذبح المبني من كتل حجرية هائلة لم تلمسها أدوات منذ أن اقتُطعت من مقلع الحجارة ووضعت في هذا الصرح الهائل، يقف كاهن حافي القدمين يرتدي سترة من الكتّان ينتظر أن يسلمه

اللاويّ اليمامتين. يأخذ اليمامة الأولى. يحملها إلى ركن المذبح، وبضربة واحدة يفصل رأسها عن جسمها. يتناثر الدم في كل مكان. يرشّ الكاهن الدمّ على الجزء الواطئ من المذبح ثم يضع الطير المقطوع الرأس فوق صحن كي يصفى ما تبقى من الدم. وفي نهاية اليوم سيأخذ الطير المذبوح لأنه أصبح ملكاً له. أما اليمامة الأخرى فلها الشرف في أن يضحّى بها بالكامل، وهذا يعني أنها ستُحرق. يصعد الكاهن إلى العلية المؤدية إلى أعلى المذبح حيث تشتعل النار المقدّسة. وعلى الحافة اليمنى من المذبح، يُقطع رأس الطائر، ويُرشّ دمه على القاعدة الحجرية المزدانة في كلّ زاوية بقرون كبش، ثمّ تُستخرج أحشاؤه. لا يعير أحد أيّ انتباه إلى ما يحدث، لأنه لا توجد عواقب لهذا الموت. رفع يوسف رقبته يحاول التعرف، في وسط كلّ هذا الدخان وهذه الروائح، على دخان أضحيته وروائحها، عندما ألقى الكاهن رأس الطير وجسده بعد أن رشّ عليهما الملح في النار. لا يمكن ليوسف أن يكون متأكّداً. صوت الطقطقة في النار المشتعلة التي يؤججها الدهن، لأن ذبيحة الحمامة الصغيرة المفرغة الأحشاء لا تستطيع أن تملأ حتى فجوة في أحد أسنان الربّ. وفي أسفل العلية، ينتظر ثلاثة كهنة. عجل يتهاوى على الأرض بعد أن يهوي فوقه ساطور، يا إلهي، يا إلهي، كم جعلتنا هشين وضعفاء وعرضة للموت. لم يعد ليوسف عمل يقوم به هنا، وكان عليه أن ينسحب. يأخذ زوجته وطفله ويعودون أدراجهم إلى البيت. لقد عادت مريم وقد تطهّرت الآن، لكنها لم تتطهّر بكل معنى الكلمة، لأن الطهارة شيء قلما يستطيع معظم البشر، وعلى رأسهم النساء، أن يأملوا في بلوغها. ومع مرور الزمن وبعد فترة من الخلوة، استقرّ جسدها ومزاجها، وعاد كلّ شيء إلى طبيعته، لكن الفرق الوحيد هو أن حمامتين نقصتا الآن من هذا العالم وزاد طفل هو الذي سبّب موتهما.

غادرت الأسرة الهيكل من نفس الباب الذي دخلت منه، وذهب يوسف ليجلب الحمار. داست مريم فوق حجرة كبيرة، وامتطت الدابة بينما حمل يوسف الطفل. لم تكن هذه هي المرة الأولى، لكن ذكرى تلك اليمامة التي أُفرغت أحشاؤها ربما جعلته يتباطأ الآن قبل أن يعيد يسوع إلى أمه، كما لو أنه كان على قناعة بأنه لا يمكن لأي ذراعين أن تحميا ابنه أفضل من ذراعيه. مشى مع زوجته وطفله حتى باب المدينة قبل أن يعود إلى موقع عمله في الهيكل. سيذهب إلى هناك غداً أيضاً ليكمل عمل الأسبوع، بعدها سيعودون، بمشيئة الربّ، إلى الناصرة بسرعة.

في تلك الليلة، كشف النبي ميخا همّاً لم يبح به حتى الآن. فبينما انتظر الملك هيرودس، الذي كان قد استسلم الآن إلى أحلامه المعذّبة، حتى يختفي الطيف بعد كل ذلك الصراخ والهيجان المعتاد الذي لم يعد له تأثير كبير، تضخم شكل النبي الضخم أصلاً أكثر فجأة، وقال كلمات لم ينطقها من قبل: يا بيت لحم، مع أنك صغيرة بين مدن يهوذا، فمنك يأتي لي من سيكون حاكماً على بني إسرائيل. في تلك اللحظة استيقظ الملك. ومثل أعمق وتر في قيثارة، ظل صدى كلمات النبي يتردد في الغرفة. استلقى هيرودس وعيناه مفتوحتان، يحاول أن يفهم معنى ما رآه في حلمه، إن كان هناك حقاً أيّ معنى، واستغرق في التفكير فلم يعد يشعر بالنمل ينهش تحت جلده أو بالديدان وهي تحفر نفقاً في أحشائه. كانت النبوءة معروفة لكلّ يهودي ولم تكشف شيئاً لا يعرفه هيرودس. بالإضافة إلى ذلك، لم يكن من أولئك الأشخاص الذين يضيعون وقتهم في القلق بما يقوله الأنبياء. لكن ما أزعجه هو شعور مبهم بالضيق، إحساس ممض بالغرابة، كأن كلام النبي ينطوي على معنى آخر وأنه في مكان ما، فإن تلك الكلمات والأصوات تشكل تهديداً وشيكاً ومفزعاً. حاول أن يتخلص من هذا الهوس ويعود إلى

النوم، لكن جسمه لم يطعه، وراح يتوجع حتى النخاع. لقد منحه التفكير نوعاً من الراحة، فراح يحدّق في العوارض الخشبية في السقف حيث بدت له الزخارف تتذبذب في ضوء المشاعل التي تنبعث منها روائح عطرية يحميها ستار من النار. بحث الملك هيرودس عن جواب لكنه لم يجد شيئاً. ثمّ نادى كبير المخصيين، وهو واحد من الذين يقومون على رعايته بجانب سريره، وأمره بأن يذهب ويأتي في الحال بأحد الكهنة من الهيكل ومعه سِفْر ميخا.

استمر هذا الذهاب والإياب من القصر إلى الهيكل، ومن الهيكل إلى القصر قرابة ساعة. اقرأ، أمر هيرودس الكاهن عندما دخل إلى حجرة الملك، فبدأ الكاهن يقرأ: هذا كلام الله الذي أوحى به إلى ميخا المورشتّي عن طريق رؤيا بشأن السامرة وأورشليم. وكان ذلك في أيام يوتام وآحاز وحزقيا ملوك يهوذا. واستمر الكاهن يقرأ حتى طلب منه هيرودس أن يواصل القراءة، فقفز الكاهن الذي كان مضطرباً وقلقاً لأنه لم يكن يعرف سبب دعوته، إلى فقرة أخرى: «الويل لمن يدبرون السوء، لمن يتآمرون بالشر في فراشهم». لكنه توقّف هنا مذعوراً من هذه الصفاقة غير المقصودة، فانعقد لسانه وتمنى أن ينسى هيرودس ما قرأه للتو، ثم تابع، «وفي الأيام الأخيرة يكون جبل بيت الله أهم كلّ الجبال، ويرتفع عالياً فوق كلّ التلال، وتتوافد إليه الشعوب». واصل القراءة، زمجر هيرودس، نافد الصبر حتى يصل إلى الفقرة التي تهمه، والتي وصل إليها الكاهن أخيراً: «يا بيت لحم، مع أنك صغيرة بين مدن يهوذا، فمنك يأتي لي من سيكون حاكماً على بني إسرائيل». هنا رفع هيرودس يده وقال بإصرار أعد قراءة هذه الجملة، فأطاعه الكاهن وقرأها. ثم أمره مرّة أخرى، فقرأها الكاهن للمرّة الثالثة. فقال الملك بعد صمت طويل، يكفي، يمكنك أن تنصرف. لقد أصبح كلّ شيء

واضحاً الآن. فالسِفْر يعلن ولادة أخرى، لا شيء آخر، وقد جاءه طيف ميخا ليحذره بأن هذه الولادة قد تمت فعلاً. لا يمكن أن تكون كلماتك، مثل كلمات جميع الأنبياء، أكثر وضوحاً، حتّى عندما لا نفسرها جيداً. فكّر هيرودس مرات ومرات، وتجهم وجهه وأضحت قسماته أكثر تهديداً. ثمّ استدعى قائد الحرّاس وأصدر له أمراً يجب تنفيذه في الحال. وعندما عاد القائد ليعلن أن المهمّة قد أُنجزت، أصدر هيرودس أمراً آخر يجب تنفيذه عند شروق الشمس، أي بعد ساعات من الآن. لذلك سنعرف بعد قليل ما هو هذا الأمر، غير الأمر المتعلق بالكاهن الذي قتله الجنود بوحشية قبل أن يعود إلى الهيكل. هناك سبب يجعلنا نعتقد بأنّ هذا هو الأمر الأول من بين الأمرين اللذين أصدرهما. إن السبب المحتمل والتأثير المنطقيّ قريبان جداً. أما سِفْر ميخا، فقد اختفى، وتخيّل مدى الخسارة التي يمكن أن تكون لو بقيت نسخة واحدة منه فقط.

نجار بين النجارين، أنهى يوسف طعام غدائه. كان لا يزال لدى يوسف ورفاقه بعض الوقت قبل أن يطلب منهم مراقب العمال أن يعودوا إلى عملهم. كان لدى يوسف الوقت الكافي كي يتمدد ويأخذ قيلولة أو يستغرق في أحلام يقظة جميلة. تخيّل نفسه وهو يسير في العراء، يطوف وسط تلال السامرة، ثم تخيّل نفسه وهو يطلّ من مكان مرتفع على قرية الناصرة التي اشتاق إليها كثيراً. ابتهجت روحه عندما قال لنفسه إن هذا الفراق الطويل سينتهي قريباً، وإنه سيعود إليها عندما يبزغ نجم الصباح في السماء، وراح يرتل أناشيد الشكر للربّ الذي يحمي بيوتنا ويوجّه خطواتنا. فتح عينيه فجأة خشية أن يكون قد غفا ولم ير إشارة المراقب، لكنّه كان مستغرقاً في أحلامه، وكان رفاقه لا يزالون هناك، بعضهم يدردشون، وبعضهم الآخر لا يزالون يأخذون قيلولة. وبدا أن المراقب البشوش سيمنح عمّاله إجازة لما تبقى من اليوم. كانت الشمس عمودية فوق رؤوسهم، والرياح القوية تدفع الدخان المنبعث من نيران القرابين في الاتجاه المعاكس في هذا الوادي الذي يطلّ على الموقع الذي تقام فيه ساحة سباق حتى لا يُسمع ضجيج الباعة في الهيكل. كان يبدو أن آلة الزمن قد توقّفت كأنّها تنتظر أيضاً إشارة من مراقب المكان والزمان الكونيين القدير. اضطرب يوسف فجأة بعد أن كان سعيداً قبل لحظات.

تطلع حوله ورأى موقع البناء الذي اعتاد على رؤيته في الأسابيع الأخيرة. كانت كتل الحجارة والألواح الخشبية وطبقة سميكة من التراب الأبيض ونشارة خشب يبدو أنها لن تجفّ أبداً متناثرة في كل مكان. حاول أن يجد تفسيراً لهذا الشعور المفاجئ بالاكتئاب. ربما كان ردّ فعل طبيعي لرجل سيترك عمله الذي لم ينجزه بعد، حتى لو لم يكن مسؤولاً عنه ولديه كلّ الأسباب التي تجعله يغادر. استوى يوسف واقفاً، وحاول أن يحسب كم تبقى من الوقت. عندما لم يلتفت المراقب وينظر باتجاهه، قرّر يوسف أن يلقي نظرة أخيرة على الجزء الذي عمل فيه، ليودّع، إذا جاز لنا قول ذلك، الأخشاب التي ملّسها والعوارض التي ثبّتها، إذا كان بإمكانه أن يحدّدها ويتعرّف عليها، فأين هي تلك النحلة التي يمكن أن تدّعي وتقول أنا من صنع هذا العسل.

بعد أن ألقى نظرة متفحصة حوله، عاد يوسف إلى موقع العمل حيث توقّف لحظة وراح ينظر بإعجاب إلى المدينة القابعة على السفح المقابل التي شُيّدت على مراحل والتي كان لون أحجارها بلون الخبز. لا بدّ أن المراقب أعطى الآن إشارة لاستئناف العمل، لكن يوسف لم يكن في عجلة من أمره، بل راح ينظر إلى المدينة، ينتظر شيئاً لا يعرف أحد ما هو. مرّت دقائق ولم يحدث شيء. دمدم يوسف لنفسه، حسناً، لعل من الأفضل أن أعود إلى عملي. في تلك اللحظة بالذات، تناهت إليه أصوات منبعثة من الدرب أسفل المكان الذي يقف فيه، وعندما أطلّ من فوق الحائط الحجري، رأى ثلاثة جنود. لا بدّ أنهم توقفوا قليلاً لأخذ قسط من الراحة. كان جنديان يتكئان على رمحيهما وينصتان إلى الرجل الثالث الذي كان يبدو أكبر سناً منهما وربما كان قائدهما، مع أنه ليس من اليسير معرفة ذلك إلّا إذا كنت تعرف جيداً الفروق في لباسهم والشارات والأشرطة والضفائر التي تدلّ على رتبهم. بدت الكلمات التي

لم يكن بمقدرة يوسف أن يقولها، مثل سؤال، شيء أشبه بذلك، سيتم ذلك، أجاب أصغر الجنود سناً بصوت واضح، في بداية الساعة الثالثة بعد أن يكون الجميع قد عادوا إلى بيوتهم. فسأل الجندي الآخر، كم عدد الجنود الذين أرسلوا. فقال له أحدهما لا أعرف بعد، لكن عدداً يكفي لتطويق القرية. وهل صدر الأمر بقتلهم كلّهم. لا، ليس كلّهم، فقط الذين تقل أعمارهم عن ثلاث سنوات. يصعب تمييز بين طفل في السنتين من العمر وطفل في الرابعة من العمر. وكم عددهم، أراد الجندي الثاني أن يعرف. حسب الإحصاء، قال لهما قائدهما، لابدّ أنه يوجد حوالي خمسة وعشرين. اتسّعت عينا يوسف كما لو أنهما سمعتا الحديث الدائر أفضل مما لو كانت قد سمعته أذناه. سرت رعدة في جسده من قمة رأسه حتى أخمص قدميه، لأن من الواضح أنّ هؤلاء الجنود يتحدّثون عن قتل أشخاص. أشخاص، من هم أولئك الأشخاص، تساءل وقد تملكه الاضطراب والحزن، لا، لا، ليسوا أشخاصاً، إنما أطفال. أطفال تقل أعمارهم عن ثلاث سنوات، قال القائد، أو ربما قال ذلك أحد الجنود. لكن أين، أين يمكن أن يحدث ذلك. لم يكن باستطاعة يوسف الانحناء فوق الحائط ويسأل هل توجد حرب. أحسّ بساقيه ترتعشان. سمع أحد الجنود يقول بأسى، لكن بشيء من الارتياح، من حسن حظنا وحظ أطفالنا أننا لا نعيش في بيت لحم. هل يعرف أحد لماذا قرروا قتل الأطفال في بيت لحم، سأل أحد الجنديين. لا، لم يقل القائد سبب ذلك، وأراهن بأنّه لم يكن يعرف، لأن الملك نفسه هو الذي أصدر الأمر، وهذا كلّ ما علينا أن نعرفه. ثم رسم برمحه خطاً على الأرض، كأنه يقسّم ويرسم مصائر البشر. ثم قال الجندي الآخر، ويح لنا نحن الذين لا نمارس الشرّ الذي هو في طبعنا فحسب، بل علينا أن نكون كذلك أداة لتنفيذ الشرّ الذي يأمرنا به ممن

يسيئون استخدام سلطتهم. لكن هذه الكلمات لم يسمعها يوسف الذي كان قد ابتعد عن المكان الذي يراقب منه خلسة، بحذر في البداية، ثم انطلق باندفاع جنوني مثل عنزة مذعورة، مبعثراً الحجارة في جميع الاتجاهات عندما أطلق ساقيه للريح. لسوء الحظ، لولا شهادة يوسف لما كان هناك سبب يدعونا للشكّ في صحة هذه الملاحظة الفلسفية التي أبداها الجندي، من حيث الشكل والمضمون، بالرغم من التناقض الواضح بين الموافقة بين الشعور وبين المكانة المتواضعة للشخص الذي قالها.

محموماً، راح يرتطم بكلّ ما يصادفه في طريقه، فقلب عربات بيع الفاكهة وأقفاص الطيور، حتى إنه قلب منضدة صرّاف، غير عابئ بصيحات الغضب التي أطلقها الباعة في الهيكل. كان كلّ ما يشغل بال يوسف هو أن حياة ابنه معرضة للخطر. لم يستطع أن يتخيّل لماذا يريد أيّ شخص أن يفعل شيئاً كهذا. تملكه اليأس. فبعد أن أصبح أباً لطفل، يأتي أحد ليسلبه منه. رغبة واحدة صحيحة مثل أخرى. تكون لك آمال ثم يأتي أحد ويحطم آمالك. تربط وتحلّ. تخلق وتحطم. توقّف فجأة، عندما أدرك الخطر الذي يزحف إليه إذا واصل هذا الهرب المتهوّر، فقد يراه حرّاس الهيكل ويقبضون عليه. دُهش لأن كلّ هذه الجلبة التي أحدثها لم تثر انتباههم. بذل كلّ ما بوسعه لكي يتوارى عن الأنظار، مثل قملة تختبئ في درزة ثوب. أن يختفي بين الجموع ويصبح نكرة على الفور. الفرق الوحيد هو أنه كان يمشي بخطوات أسرع من الآخرين، لكن أحداً لن يلاحظ ذلك في هذا المتاهة من البشر. كان يعرف أنه يجب ألّا يركض إلّا بعد أن يبلغ باب المدينة، لكن حزناً شديداً اعتراه عندما تذكر أن الجنود في طريقهم الآن إلى بيته، مدججين بالرماح وبالخناجر وبالكراهية بلا سبب. إذا كانوا ذاهبين إلى هناك على

ظهور خيولهم، فمن المؤكد أنه لن يستطيع اللحاق بهم، وعندما يصل إلى هناك، يكون ابنه المسكين، يسوع الصغير الجميل، قد مات. في هذه اللحظة التي شعر فيها بأشدّ أنواع الألم، خطرت له فكرة حمقاء. لقد تذكّر الأجر الذي لم يتقاضاه بعد. سيخسر أجر أسبوع كامل من العمل. هكذا هي قوّة الأشياء المادية الحقيرة. لم يتوقّف تماماً، لكنه بدأ يسير ببطء ليقرر إن كان بإمكانه أن ينقذ نقوده وحياة طفله معاً. تلاشت هذه الفكرة السخيفة بالسرعة التي طفت فيها على السطح، ولم يشعر بالخجل، ذلك الشعور الذي يثبت غالباً، لكن ليس غالباً بما يكفي، وجود ملاكنا الحارس الذي يمكننا الوثوق به.

أخيراً، أصبحت المدينة وراء يوسف. لم يكن هناك جنود في الطريق على مرمى النظر، ولم تكن هناك جموع يظن المرء أنها استعراض عسكري، لكن المشهد الذي جعله يشعر بالاطمئنان هو رؤية أطفال يلعبون ألعاباً بريئة من دون أن يُظهروا تلك الحماسة التي يبدونها عادة عندما يمرّ من أمامهم جنود يحملون الرايات ويعزفون بالأبواق والطبول. ولو كان الجنود قد عبروا هذا الطريق، لما رأيت فتياناً على مرمى البصر، لأنهم كانوا سيلحقون بالجنود، على الأقل حتى أول منعطف في الطريق، كما جرت العادة، وربما كان برفقتهم طفل يتمنى في أعماقه أن يصبح جندياً عندما يكبر، لكنه لا يعرف القدر الذي ينتظره وهو إما أن يقتل أو يُقتل. الآن أصبح بإمكان يوسف أن يسلم ساقيه للريح، أن يستغل انحدار السفح. لم يكن يعوقه إلّا ثوبه فرفعه فوق ركبتيه. وكما لو كان في حلم، اعتراه إحساس مؤلم بأن ساقيه لا تستطيعان مجاراة باقي أجزاء جسمه. كان قلبه ورأسه وعيناه ويداه في حماسة شديدة لحماية ابنه، بالرغم من أن حركتها كانت بطيئة على نحو ممض. كان بعض الناس يتوقّفون في الطريق ويهزّون رؤوسهم

مستنكرين هذا التصرف الذي يدعو للخجل، لأن هؤلاء الناس يُعرفون بهدوئهم ورزانتهم وانتمائهم إلى الطبقة النبيلة. لم يفسّروا تصرف يوسف الأرعن هذا بأنه ربما كان يجري لإنقاذ حياة ابنه، إنما فسّروا ذلك لأنه رجل من الجليل، واحد من الكثيرين الذين لم يحظوا بتربية حقيقية، كما كانوا ينظرون إلى أهل الجليل. تجاوز قبر راحيل. لم يكن بالإمكان توقع أن تكون تلك المرأة الطيبة هي السبب الرئيسي في هذا البكاء والنواح على أطفالها، وتملأ التلال القريبة بصراخها وعويلها وتخمش وجهها وتشدّ شعرها ثمّ تضرب جمجمتها العارية.

قبل أن تلوح أمامه البيوت الأولى على مشارف بيت لحم، ترك يوسف الطريق الرئيسي وسار عبر الحقول. وإذا سألناه عن السبب الذي دعاه إلى تغيير اتجاهه المفاجئ، لأجاب سأسلك طريقاً مختصراً، طريقاً قد يكون أقصر لكنه أكثر صعوبة ووعورة. وحرص على تفادي الفلاحين الذين يعملون في الحقول. وكان كلما رأى راعياً من بعيد، توارى خلف صخرة. كان يوسف يريد أن يصل إلى المغارة في الوقت الذي لم تكن زوجته تتوقع قدومه، ولا ابنه الذي يغطّ في النوم. عند منتصف سفح آخر تلّ، في المكان الذي يستطيع أن يرى منه هوّة المغارة المعتمة، دهمت يوسف فكرة فظيعة. فقد افترض أن زوجته ذهبت إلى القرية وأخذت معها الطفل، وهذا أمر طبيعي تماماً، لاسيما أننا نعرف طبيعة النساء. فلا بد أنها استغلت الفرصة لكونها وحدها وجرت لتودع سالومي وبعض النساء الأخريات اللاتي تعرفت عليهن في الأسابيع الأخيرة، وتركت يوسف ليشكر المرأة التي سمحت لهم المكوث في المغارة. فرأى نفسه يجري في الأزقة ويقرع أبواب البيوت، بيتاً بيتاً، ويسأل، هل زوجتي هنا. من الغباء أن يسأل بهذه الطريقة، بل من الأفضل عليه أن يسأل، هل ابني موجود هنا. وإذا كانت هناك امرأة تحمل طفلاً بين

ذراعيها، فإنها تسأله مثلاً، عندما تراه مكتئباً، هل هناك شيء على غير ما يرام. فيجيب، لا، لا شيء، لا شيء على الإطلاق، فقط علينا أن ننطلق عند الفجر ولم نحزم أمتعتنا بعد. إن القرية التي يراها من هذا المكان، بأسطحها المسطحة المتشابهة، تذكّر يوسف بموقع البناء الذي كان يعمل فيه، وبالحجارة المتناثرة التي يجمعها العمّال ويرصفونها ويضعون الواحدة فوق الأخرى لإقامة برج أو مسلّة لإحياء ذكرى نصر ما، أو لإقامة حائط يبكون عليه. نبح كلب من بعيد، فنبحت كلاب أخرى استجابة له، لكن صمت المساء الدافئ كان لا يزال يخيّم فوق القرية مثل بَرَكَة على وشك أن ينتهي مفعولها، أو مثل ذيل غيمة على وشك أن تتلاشى.

توقف هنا قليلاً. وفي اندفاعة أخيرة، وصل النجار إلى مدخل الكهف وصاح، مريم، هل أنت هنا. فأجابته، نعم أنا هنا. عندها شعر يوسف بأن ساقيه أصبحتا واهنتين، ربما من الجري كلّ هذه المسافة، لكن كذلك لشعوره بالاطمئنان عندما عرف أن طفله في مأمن. داخل الكهف، كانت مريم تفرم بعض الخضراوات لتعدّ وجبة الطعام المسائية. كان الطفل نائماً في المعلف. تهاوى يوسف على الأرض لكنه سرعان ما تمالك نفسه ووقف على قدميه ثانية. علينا أن نغادر هذه المغارة، يجب أن نخرج من هذا المكان. نظرت إليه مريم بارتياع، وسألته، هل سنغادر. فقال نعم، الآن، في هذه اللحظة. لكنّكَ قلتَ. اصمتي واحزمي أغراضنا ريثما أجهّز رسن الحمار. ألن نأكل أولاً. لا، سنأكل شيئاً في الطريق. لكن الليل سيهبط قريباً وقد نضل طريقنا. هنا ثارت ثائرة يوسف، وقال لها اصمتي يا امرأة، قلت لك إننا سنغادر، فافعلي ما أقوله لك. نفرت الدموع من عيني مريم، لأن هذه هي أول مرة يرفع فيها زوجها صوته عليها. دون أن تنبس بكلمة أخرى، بدأت تجمع

أغراضها القليلة. أسرعي، أسرعي، ظلّ يقول لها وهو يثبّت سرج الحمار ويشدّ الأربطة ويحشر كل ما تقع عليه يده في السلة، وراحت مريم تنظر إلى هذا الزوج بدهشة. أصبحوا مستعدّين للذهاب، وكان كلّ ما تبقى عليهما هو إخماد النار بإهالة التراب عليها. أشار يوسف إلى زوجته بأن تنتظر قليلاً حتى يلقي نظرة على خارج المغارة.

دمجت ظلال الغسق الرمادية السماء بالأرض. لم تبزغ الشمس بعد، لكن الضباب الكثيف الذي كان عالياً جداً لا يمكنه أن يحجب رؤية الحقول المحيطة، لكنه حجب نور الشمس عنهم. أرهف يوسف السمع، تقدم بضع خطوات، تجمّد الدم في عروقه. سُمعت صرخة من القرية، مجلجلة إلى حد أنها لم تكن تبدو أنها انطلقت من بشر، وتردّد صداها من تلّ إلى آخر، وأعقبتها صرخات أخرى وأصوات نواح أمكن سماعها في جميع الأصقاع. لم تكن تلك الأصوات أصوات ملائكة تبكي حزناً على مصائب ونكبات البشر، إنما كانت أصوات رجال ونساء أفقدهم الحزن صوابهم تحت سماء خاوية. شيئاً فشيئاً، خائفاً من أن يُسمع ويكتشف أمره، عاد يوسف إلى الكهف فارتطم بمريم التي تجاهلت تحذيره. كانت ترتعش. ما هذه الصيحات، سألته. لكنّه دفعها إلى داخل الكهف ولم يحر جواباً، وأهال التراب على النار بسرعة. ما هذا الصراخ، سألته مريم التي حجبها الظلام للمرة الثانية. فأجابها يوسف أخيراً، أناس يُقتلون. صمت قليلاً ثم أضاف هامساً، أطفال، بأمر من هيرودس. قال ذلك بصوت كاد أن يختلط ببكاء جاف. لذلك قلت إننا يجب أن نغادر. سُمع صوت مكتوم من الثياب والقشّ. حملت مريم ابنها من المعلف وضغطته على صدرها. يسوعي الصغير الجميل، من يريد أن يؤذيك. غرقت كلماتها في الدموع. فقال يوسف، لا تصدري أي صوت، آمل ألّا يعثر الجنود على هذا المكان، لأن الأوامر

صدرت لهم بقتل جميع أطفال بيت لحم الذين تقل أعمارهم عن ثلاث سنوات. كيف عرفت ذلك. سمعت ذلك بالصدفة في الهيكل، لذلك عدت وأنا أجري. ماذا يمكننا أن نفعل الآن. إننا على مشارف القرية ولا يحتمل أن يفتشوا في داخل هذه الكهوف، لأن الأوامر تقول أن يفتشوا البيوت، بيتاً بيتاً، وإذا لم يشِ بنا أحد فلن يصيبنا مكروه. ألقى نظرة حذرة أخرى على خارج المغارة. توقّف الصراخ، ولم يعد يُسمع شيء الآن سوى أصوات عويل ونواح، وشيئاً فشيئاً تلاشت تلك الأصوات. لقد انتهت مذبحة الأبرياء.

كانت السماء لا تزال ملبّدة بالغيوم. لقد محا الظلام الهابط والسحب في السماء بيت لحم من رؤية الذين يسكنون السماء. قال يوسف لمريم محذراً، لا تتحرّكي من هنا. سأخرج إلى الطريق لأرى إن كان الجنود قد ذهبوا. انتبه، قالت مريم، ناسية أن زوجها لم يكن معرضاً لأي خطر، بل الأطفال الذي تقلّ أعمارهم عن ثلاث سنوات، إلّا إذا خرج شخص آخر إلى الطريق ووشى به، وقال للجنود هذا هو يوسف النجار الذي لم يبلغ طفله الثلاث سنوات من العمر، صبي، اسمه يسوع وقد يكون هو الطفل المذكور في النبوءة، لأنه لا يمكن أن يُكتب على أطفالنا المجد لأنّهم أصبحوا أمواتاً الآن.

داخل الكهف، يستطيع المرء أن يلمس الظلام. فقد اعتادت مريم التي كانت تخشى الظلام على وجود نور في البيت، سواء أكان منبعثاً من نار متقدة أم من فانوس، أو من كليهما. غمرها الخوف الذي ازداد الآن، لأنّها مختبئة هنا في جوف الأرض، وخيّل إليها أن أصابع الظلام ستمتدّ إليها وتلمس شفتيها. لم تشأ أن تعصي أمر زوجها أو أن تعرّض طفلها للخطر وتغادر الكهف، لكنّ فزعها كان يزداد مع كل دقيقة. وسرعان ما قهر الخوف دفاعاتها الهشّة لفطنتها، أليس من الأجدى أن

تقول لنفسها، إذا لم يكن هناك شيء في الكهف قبل أن تُطفئ النار، فلمَ يجب أن يكون هناك شيء الآن. لقد منحتها هذه الفكرة قدراً كافياً من الشجاعة فراحت تتلمّس طريقها إلى المعلف حيث وضعت طفلها، ثمّ، زحفت بحذر إلى البقعة التي كانت النار متقدّة فيها، فحركت الرماد بعود حتى ظهرت بضع جمرات لم تكن قد خمدت تماماً بعد. تلاشى خوفها على الفور، وتذكّرت التراب المتوهج. راحت تراقب هذا الوهج المرتعش بومضات متصالبة مثل مشعل يشتعل فوق حافة جبل. راودتها صورة الشحاذ، لكن الرغبة الشديدة في إنارة ذلك الكهف المرعب جعلت تلك الفكرة تتلاشى. راحت مريم تتحسّس طريقها واتجهت نحو المعلف لتجلب حفنة من القشّ. مسترشدة بالوهج الضعيف المنبعث من الأرض، عادت ووضعت الفانوس في زاوية الكهف ليلقي نوراً خافتاً لكنه مطمئن على الجدران القريبة من دون أن يجلب انتباه أحد خارج الكهف. توجّهت مريم نحو طفلها النائم الذي لم يكن يعي المخاوف والهموم وحوادث الموت العنيفة التي تجري حوله. ضمته بين ذراعيها وعادت لتجلس بجانب الفانوس وراحت تنتظر.

مرّ الوقت. استيقظ طفلها من دون أن يفتح عينيه تماماً. عندما رأت مريم بأنّه على وشك أن يبكي، فتحت ثوبها، وقرّبت فم الطفل النهم من صدرها. كان يسوع لا يزال يرضع من صدر أمّه عندما سمعت وقع أقدام. كاد قلبها يتوقّف عن الخفقان. هل يمكن أن يكونوا جنوداً. لكن تلك الخطوات هي خطوات شخص واحد، أما الجنود الذين يقومون بالتفتيش، فهم يكونون عادة جنديين على الأقل حتى يساعد أحدهما الآخر إذا تعرضا لاعتداء. لا بدّ أنه يوسف، قالت لنفسها، وخشيت أنْ يوبّخها لأنها أشعلت الفانوس. ازدادت الخطوات قرباً. دخل يوسف إلى الكهف، لكن رعشة سرت في عمودها الفقري فجأة، لأن هذا الصوت

ليس صوت خطوات يوسف الثابتة والثقيلة. لعله صوت وقع خطوات عامل متجول يبحث عن مكان يأوي إليه هذه الليلة، كما حدث مرّتين قبل الآن، على الرغم من أنها لم تخف آنذاك، لأنه لم يخطر ببالها بأن أحداً، مهما بلغت به القسوة والوحشية، يمكن أن يلحق الضرر بامرأة تحمل طفلاً بين ذراعيها. فكّرت بالأطفال الذين يُذبحون في بيت لحم، ربما كان بعضهم بين أذرع أمهاتهم، كما تحمل يسوع بين ذراعيها الآن. أطفال أبرياء لا يزالون يرضعون حليب الحياة بينما تخترق السيوف لحمهم الغض، لكن هؤلاء القتلة هم جنود، وليسوا من الرعاع. لا، إنه ليس يوسف، وليس جندياً يبحث عن غنيمة لا يريد أن يتقاسمها مع أحد، وليس شخصاً لا عمل أو ملجأ له. إنه نفس الرجل، مرة أخرى في هيئة راعٍ، الذي ظهر لها سابقاً في هيئة شحاذ والذي يدّعي بأنه ملاك، ولا تعرف حتى الآن إن كان قد جاء من الجنة أم من جهنم. في بادئ الأمر، قالت مريم لنفسها من غير الممكن أن يكون هو، لكنّها سرعان ما أدركت بأنّه لا يمكن أن يكون أحداً آخر.

قال الملاك، السلام عليكِ يا زوجة يوسف، والسلام على طفلك. يا لحسن حظكما أنكما وجدتما ملاذاً آمناً في هذا الكهف، وإلّا لكان أحدكما الآن محطّماً ميتاً، والآخر محطّماً وهو لا يزال حيّاً. فقالت له مريم، لقد سمعت صيحات تستغيث. فقال الملاك، ذات يوم، ستُرفع تلك الصيحات إلى السماء باسمك، وحتى قبل ذلك، ستُسمع آلاف الصيحات بالقرب منك. فقالت له مريم، لقد خرج زوجي ليستكشف هل غادر الجنود، ويجب ألّا يجدك هنا عندما يعود. فقال الملاك، لا تقلقي، سأذهب قبل أن يعود. لقد جئت لأخبرك بأنك لن تريني مرة أخرى لفترة من الزمن، وبأن كلّ ما أمرت به السماء قد تم، وأن هذه الوفيّات محتومة مثل جريمة يوسف. فسألته مريم، أي جريمة؛ إن

زوجي لم يرتكب أي جريمة، إنه رجل صادق. فقال الملاك، إنه رجل صادق لكنه ارتكب جريمة؛ إنك لا تعرفين كم عدد الرجال الصادقين الذين ارتكبوا جرائم؛ إن جرائمهم لا تعد ولا تحصى، وبعكس الاعتقاد السائد فإن هذه الجرائم هي الوحيدة التي لا تُغتفر. فسألته مريم، وما هي الجريمة التي ارتكبها زوجي. فأجاب الملاك، هل عليّ أن أخبرك؛ من المؤكد أنك لا تريدين أن تشاركيه في إثمه. فقالت مريم، أقسم بأني بريئة. فقال لها الملاك، اقسمي كما تشائين، لكن أيّ قسم يتم أمامي ليس إلّا هبة ريح لا تعرف إلى أين تذهب. فتوسلت مريم قائلة، ما هي الجريمة التي ارتكبناها. فأجاب الملاك، إن وحشيّة هيرودس استلّت تلك السيوف، أما أنانيتكما وجبنكما فقد كانا الحبال التي قيّدت أيدي وأقدام الضحايا. فسألت مريم، ماذا يمكن أن أكون قد فعلت. فقال لها الملاك، لم يكن بوسعك أن تفعلي شيئاً، لأنك اكتشفتِ ذلك في وقت متأخر جداً، لكن كان بإمكان النجار أن يفعل شيئاً. كان بوسعه أن يحذّر أهل القرية بأنّ الجنود سيأتون ليقتلوا أطفالهم عندما كان لا يزال لدى الآباء متسع من الوقت للهرب مع أطفالهم والاختباء في البريّة مثلاً، أو الهرب إلى مصر والانتظار فيها حتى يموت هيرودس الذي أصبحت ساعة موته وشيكة. فقالت مريم، لم يخطر ذلك ببال يوسف. فردّ الملاك، لا، لم يفكّر بذلك، لكن هذا ليس عذراً. فتوسلت مريم والدموع تسيل من عينيها، وقالت بما أنك ملاك فاغفر له. فأجاب الملاك، أنا لست ملاكاً يمكنه أن يمنح المغفرة. لكن مريم توسلت، اغفر له. لكن الملاك لم يتزحزح عن موقفه، وقال، قلت لك، إن هذه الجريمة لا تُغتفر، وسوف يُغفر لهيرودس قبل أن يُغفر لزوجك، لأن المغفرة لوغد أسهل من المغفرة لجاحد. فسألته مريم، ماذا نفعل الآن. فقال لها الملاك، ستعيشين وستعانين شأن الآخرين. ثمّ سألته مريم،

وماذا عن ابني. فقال الملاك، إن خطيئة الأب تسقط على رؤوس أبنائه، وظلّ خطيئة يوسف ستُظلم حاجب ابنه. تنهّدت مريم، يا لنا من بائسين. حقاً، قال الملاك، ولا يمكن عمل شيء حيال ذلك. أطرقت مريم برأسها، وضمت ابنها إليها وألصقته بصدرها، كأنها تريد أن تحميه من الشرّ الموعود. وعندما التفتت، كان الملاك قد اختفى، لكن هذه المرة لم يُسمع وقع خطواته. لا بدّ أنه حلّق بعيداً، قالت مريم لنفسها. نهضت وتوجهت إلى مدخل الكهف لترى إن كان هناك أيّ أثر لطيران الملاك في السماء أو أيّ إشارة تدل على وجود يوسف في مكان قريب.

انقشع الضباب، وتلألأت النجوم الأولى مثل معدن. كان لا يزال بالإمكان سماع أصوات نحيب وعويل من القرية. ثمّ حجبت فكرة فيها شيء من الكبرياء الروحي التحذير القاتم الذي أعلنه الملاك وجعلت رأس مريم تدور. فقد يكون خلاص ابنها إشارة من الربّ، لأنه لا بد أن نجاة الطفل من موت شنيع تعني شيئاً عندما لم يكن بوسع الآخرين الذين لقوا حتفهم أن يفعلوا شيئاً سوى أن ينتظروا حتى تحين الفرصة ليسألوا الربّ نفسه، لماذا قتلتنا، وأن يرضوا ويقنعوا بأي جواب. لكن سرعان ما تلاشى هذيان مريم، وخطرت ببالها فكرة أنها هي.أيضاً قد تحمل طفلاً ميتاً مثل جميع الأمهات في بيت لحم، وذرفت فيضاً من الدموع لخلاص روحها. كانت لا تزال تجهش في البكاء عندما عاد يوسف. سمعته قادماً لكنها لم تتحرّك، ولم تعبأ إذا وبّخها لأنها كانت تبكي الآن مع النساء الأخريات المتحلقات جميعهن في دائرة وأطفالهن يرقدون في أحضانهن بانتظار يوم القيامة. عندما رأى يوسف أنّها تبكي، فهم، ولم ينبس ببنت شفة.

عندما دخل يوسف إلى الكهف، بدا أنه لم يلاحظ الفانوس المشتعل. لقد غطّت الجمرات الآن طبقة رقيقة من الرماد، وفي الوسط

كانت ارتعاشة ضعيفة من اللهب لا تزال تكافح لتبقى مشتعلة. عندما بدأ يُنزل الأمتعة من على ظهر الحمار، قال يوسف لمريم مطمئناً، لم نعد في خطر الآن، فقد ذهب الجنود، ومن الأفضل أن نمضي الليلة هنا؛ سنغادر قبل طلوع الفجر، وسنتحاشى الطريق الرئيسية، وسنسلك طريقاً مختصرة. لا بد أننا سنجد طريقاً بوسيلة ما. دمدمت مريم جميع أولئك الأطفال الذين قُتلوا. فاستفزّ ذلك يوسف وسألها بفظاظة، كيف عرفتِ، هل أحصيتهم. فتابعت مريم، حتى إنني أعرف عدداً من هؤلاء الأطفال، يجب أن تشكر الربّ لأنه أنقذ ابنك. سأشكره، وكفيّ عن التحدّيق بي كما لو أنني ارتكبت جريمة. لم أحدّق بك. لا تردّي ونبرة اتهام في صوتك. حسناً، لن أنبس بحرف واحد. حسناً. ربط يوسف الحمار بجانب المعلف الذي كان لا يزال فيه قليل من التبن. لا يستطيع الحمار أن يتذمر لأن لديه الكثير من العلف والكثير من الهواء النقي، لكنّه لم يكن جائعاً الآن، وبدأ يتهيأ لرحلة العودة الشاقة بحمل ثقيل. أنزلت مريم طفلها وقالت، سأشعل النار. لماذا. لأعدّ طعام العشاء. لا أريد ناراً هنا لكي لا تجلب انتباه عابري السبيل، ولنأكل أي شيء لدينا لا يحتاج إلى طهي بالنار. وهكذا تناولا طعامهما.

جعل الضوء المنبعث من الفانوس ساكني الكهف الأربعة يبدون مثل أشباح. كان الحمار ساكناً لا يتحرك مثل تمثال. ومع أن أنفه كان مدفوناً في التبن فإنه لم يكن يأكل. وكان الطفل نائماً، أما الرجل والمرأة فكانا يسدان رمقهما ببضع حبات من التين الجافّ. مدّت مريم حصيرة على الأرض الرملية، وألقت فوقها غطاء. وكما جرت العادة، فقد انتظرت حتى ينام زوجها. في البداية، خرج يوسف ليلقي نظرة أخرى على سماء الليل. كان كلّ شيء هادئاً في السماء وعلى الأرض، ولم تعد تُسمع صرخات وأصوات العويل والنحيب المنبعثة من القرية. ظلت لدى

راحيل وحدها القوّة الكافية لتتأوه وتنشج داخل البيوت حيث الأبواب والأرواح موصدة بإحكام. تمدد يوسف على حصيرته وشعر بالإرهاق بعد كلّ ما انتابه من قلق ورعب. حتى إنه لم يجرؤ على القول إن هروبه هو الذي أنقذ حياة ابنه. لقد نفّذ الجنود الأوامر الصادرة إليهم بحذافيرها، اقتلوا جميع الأطفال في بيت لحم، ولم يفعلوا شيئاً آخر، مثل تفتيش الكهوف القريبة من القرية بحثاً عن الأسر المختبئة أو الأسر التي تتخذ تلك الكهوف مسكناً لها. في العادة، لم يكن يوسف عادة يعبأ إذا أوت مريم إلى فراشها بعد أن يغطّ هو في النوم، لكن هذه المرّة، لم يحتمل أن تراقبه وهي حزينة بينما ينام هو ملء جفنيه. فقال لها، لا أريد أن تنتظرني حتى أنام، تعالي ونامي. لم تبد مريم أي اعتراض، وبعد أن تأكدت، كدأبها، من أن الحمار مربوط جيداً، استلقت على حصيرتها وأطلقت تنهيدة وأغمضت عينيها وانتظرت حتى يأتيها النوم.

في منتصف الليل، حلم يوسف بأنه يسير في طريق يفضي إلى قرية، ولاحت له أولى بيوت القرية. كان يرتدي لباساً عسكرياً ومسلّحاً بسيف وبرمح وبخنجر. كان جندياً بين الجنود. سأله القائد، إلى أين تظن أنك ذاهب أيها النجار، فأجاب يوسف، يملأه الفخر بأنه مستعدّ لتنفيذ المهمّة الموكلة إليه، إني ذاهب إلى بيت لحم لأقتل ابني؛ عندما نطق هذه الكلمات استيقظ بهدير مخيف، وكان جسمه ينتفض ويتلوّى من شدة الذعر. سألته مريم بذعر، ما خطبك، ماذا حدث. لكن يوسف ظل يردد، لا، لا، لا. وفجأة انفجر في بكاء شديد. نهضت مريم، وأحضرت الفانوس وقرّبته من وجهه وسألته، هل أنت مريض. غطى وجهه بكلتا يديه وصاح، أبعدي هذا الفانوس عن وجهي فوراً يا امرأة. نهض واتجه إلى المعلف وهو لا يزال ينشج ليتأكد أن طفله في مأمن. إنه بخير، يا معلّم يوسف، لا تقلق، لأن الطفل في الحقيقة لا يسبب

أي مشاكل، فهو طفل أنيس، دمث، هادئ، وكلّ ما يريده هو أن يرضع وينام، وها هو مستلق بهدوء، لا يعرف عن الموت الشنيع الذي أُنقذ منه بأعجوبة. فكّر فقط بأن والده الذي وهبه الحياة هو الذي سيسلبه حياته، لأنه على الرغم من أن الموت هو القدر الذي ينتظرنا جميعاً، فإن هناك أشكالاً عديدة للموت. خشي أن يعاوده الحلم، لم يضطجع يوسف، بل جلس متدثراً في عباءته عند مدخل الكهف تحت صخرة تتدلّى مشكّلة مدخلاً مسقوفاً طبيعياً، وكان القمر في الأعلى يلقي بظلّ أسود على باب مدخل المغارة لم يتمكن من تبديد الوهج الضعيف المنبعث من الفانوس. حتى لو أتى هيرودس بنفسه يحمله عبيده وترافقه جحافل البرابرة المتعطشين للدم، لقال لهم بهدوء، لا تشغلوا أنفسكم بتفتيش هذا المكان، تابعوا طريقكم، فلا يوجد هنا شيء سوى الحجارة والظلّ، أما ما نبحث عنه فهو اللحم الغض لأطفال حديثي الولادة. إن مجرد تذكّر هذا الحلم جعل رعدة تسري في أوصال يوسف. تساءل ماذا يعني، لأنه كما تشهد السماوات، فقد انطلق يجري مثل مجنون يهبط ذلك السفح الوعر، درب الآلام، ثم تسلق الصخور والجدران في اندفاعه المحموم لإنقاذ طفله، مثل أي أب صالح، وبالرغم من ذلك، فقد رأى نفسه في الحلم شيطاناً شريراً يريد أن يرتكب جريمة قتل. يا لحكمة المثل الذي يذكّرنا بعدم وجود ثبات في الأحلام. وقال لنفسه، لا بد أن هذا من عمل الشيطان، ولوّح بيده لطرد الأرواح الشرّيرة.

ملأت الهواء صيحة ثاقبة أطلقها طير غير مرئي، أو ربما كان راعياً يصفر، لكن بالتأكيد ليس في هذه الساعة، عندما تكون القطعان نائمة والكلاب تحرسها. ومع ذلك فقد أظهر الليل الساكن والبعيد عن كلّ المخلوقات الحيّة، أنّ اللامبالاة الأسمى التي نربطها بالكون، أو تلك اللامبالاة المطلقة الأخرى، لامبالاة الفراغ التي ستبقى، إن كان هناك

شيء كالفراغ، أن كلّ شيء قد أُنجز. تجاهل الليل معنى النظام العقلاني الذي كان يبدو أنه يحكم العالم في تلك اللحظات عندما لا نزال نعتقد بأن العالم قد خُلق ليأوينا ويأوي جنوننا. لقد أصبح الحلم المرعب غير واقعي وغير منطقي، بذّده الليل، والقمر الساطع، وطفله النائم في المعلف. كان يوسف مستيقظاً يقود نفسه وأفكاره مثل أيّ رجل آخر، وقد هدأت الآن أفكاره التي قد تكونُ بغيضة في الوقت نفسه، مثل امتنانه للربّ بأنّ طفله المحبوب قد أُنقذ وأنه لم يقع في أيدي الجنود الذين ذبحوا عدداً كبيراً من الأطفال الأبرياء. إن الليل الذي هبط على النجار يوسف، هبط أيضاً على جميع أمهات الأطفال في بيت لحم، ونسي آباءهم، بل نسي مريم للحظة، لأنه لم يأخذها في الحسبان لسبب غريب. انقضت الساعات بهدوء شديد. ثم نهض يوسف عند الفجر، وبدأ يحمّل الحمار. على ضوء القمر الأخير، انطلقت الأسرة كلها، يسوع ومريم ويوسف، عائدة إلى الجليل.

انسلّت الجارية سالومي من بيت سيّدها الذي قُتل فيه طفلان، وهرعت إلى الكهف في صباح ذلك اليوم، يخيّل إليها بأنّ الطفل الذي ساعدت على جلبه إلى هذا العالم قد لقي ذات المصير الحزين الذي لقيه الأطفال الآخرون. فوجدت المكان مهجوراً، ولم يتبق فيه شيء سوى آثار حوافر الحمار، وبعض الجمرات التي بدأت تخبو تحت الرماد، لكنها لم تر بقع دمّ. فقالت لنفسها لقد ذهبوا، لقد نجا يسوع الصغير من الموت الأول هذا.

مرّت ثمانية شهور على ذلك اليوم السعيد. عندما وصل يوسف إلى الناصرة مع زوجته وابنه بخير وسلام بالرغم من المخاطر العديدة التي واجهتهم، وكان الحمار أقل سعادة لأنه بدأ يعرج قليلاً على حافره الأيمن، وصل خبر بأن الملك هيرودس مات في أريحا، في أحد قصوره التي لجأ إليها هرباً من شدة برد فصل الشتاء في أورشليم، البرد الذي لا يرحم الضعيف ولا العاجز. وأشيع بأن المملكة التي تخلصت من ملكها الطاغية الآن، ستُقسَّم بين أبنائه الثلاث الذين نجوا من النزاعات والبغضاء والدمار، وهم: هيرودس فيليب الذي سيحكم الأراضي الواقعة إلى شرقي الجليل، وهيرودس أنتيباس الذي سيرث الجليل وبيرية، وأرخلاوس الذي سيحكم يهوذا والسامرة وإدوم. وفي أحد الأيام، سيقدّم بغّال يحبّ رواية الحكايات، الحقيقية منها والخيالية، لسكان الناصرة وصفاً تفصيلياً عن جنازة هيرودس، ويقسم بأنّه رآها بأمّ عينه. وقال إن الجثمان الذي وضع في تابوت فخم مصنوع من الذهب الخالص ومُطعّم بالأحجار الكريمة، نُقل على عربة مطلية بالذهب ملفوفة بقماش أرجواني اللون يجرّها ثوران أبيضان. وكان الجثمان مغطّى بقماش أرجواني أيضاً، وكان كلّ ما يمكن رؤيته هو هيئة إنسان وتاج في المكان الذي يوجد فيه الرأس. وكان يسير وراءه

الموسيقيون الذي يعزفون على المزامير والنادبون المحترفون الذين كانت تهبّ عليهم رائحة نتنة فظيعة. وما إن وقفت هناك على قارعة الطريق حتى أصابني شعور بالغثيان. ثمّ جاء حرّاس الملك على ظهور خيولهم، ثمّ تلاهم الجنود المشاة يحملون الرماح والسيوف والخناجر كأنهم ذاهبون إلى معركة. موكب لا نهاية له يشقّ طريقه الرهيب مثل ثعبان لا يظهر رأسه ولا ذيله. برعب رحت أراقب أولئك الجنود يزحفون وراء جثمان لكنهم كانوا أيضاً يزحفون إلى حتفهم، إلى الموت الذي سيطرق باب الجميع عاجلاً أم آجلاً. ثم حان وقت الوداع. وعلى الفور صدر الأمر للملوك وأفراد الحاشية الذين لم يكونوا يميّزون بين الجثة المتفسخة الموجودة في مقدمة الموكب وبين الذين يسيرون في مؤخّرة الموكب، يخنقهم التراب الذي يثيره وراءه جيش كامل، وهم لا يزالون أحياء لكنهم ذاهبون إلى مكان سيبقون فيه إلى الأبد. من الواضح أن هذا البغّال كان يعرف هذا المكان جيداً على عكس أحد تلاميذ أرسطو الذي كان يسير في تلك اللحظات تحت تيجان كورنثية في إحدى الأكاديميات بدلاً من أن ينخز حماراً ليدفعه إلى السير بسرعة على طرق ودروب إسرائيل، وينام في خانات.تفوح منها روائح كريهة، ويروي حكايات لفلاحين مثل فلاحي الناصرة أولئك.

كان بين الجموع الواقفين في الساحة أمام الكنيس، يوسف الذي صادف أنه كان ماراً ووقف ليستمع. لم يعر انتباهاً كبيراً لتفاصيل موكب الجنازة، وفقد الاهتمام عندما بدأ الشاعر ينشد قصيدة رثاء، لأن التجربة الحزينة جعلت النجار حكيماً حول ذلك الوتر المعيّن في القيثارة. لم يكن على المرء إلّا أن ينظر إليه، شبابه الذي اختفى بعد أن أصبح يفكر كثيراً، المرارة التي ارتسمت على وجهه وشكلّت خطوطاً أعمق من الندب. أما الشيء المزعج حقاً في وجه يوسف، فهما هاتان العينان

الكابيتان الخاليتين من أي تعبير، وتلك الرجفة الطفيفة الناجمة عن الأرق. صحيح أن ساعات نوم يوسف كانت قليلة، لأن النوم هو العدو الذي كان يواجهه في كلّ ليلة، كما لو كان يكافح للبقاء على قيد الحياة، وهي معركة كان ينهزم فيها باستمرار، لأنه حتى عندما يبدو أنه ينتصر ويغطّ في النوم من شدة الإعياء، فما إن كان يغمض عينيه حتى يرى مجموعة من الجنود على الطريق، ويرى يوسف نفسه ممتطياً حصاناً يسير في وسطهم، يلوّح أحياناً بالسيف فوق رأسه، لكن في تلك اللحظة بالذات، كان يتملكه الرعب، ويسأله قائد الحملة، إلى أين تظن أنك ذاهب أيها النجار. بكلّ ما أوتي من قوّة، يقاوم الرجل المسكين الذي يفضّل ألّا يقول شيئاً، لكن الأرواح الخبيثة في الحلم أقوى منه بكثير، فتفتح فمه بأيد فولاذية، فينفجر في البكاء ويغرق في اليأس ويعترف ويقول، أنا ذاهب إلى بيت لحم لأقتل ابني. لن نسأل يوسف هل يتذكّر كم عدد الثيران التي كانت تجرّ العربة التي تحمل جثمان هيرودس، أو هل كانت بيضاء أم مرقّطة. في طريقه إلى البيت، كان كلّ ما يتذكره هو العبارات الأخيرة في حكاية البغّال، عندما وصف الأعداد الغفيرة التي كانت ترافق الموكب من عبيد وجنود وحرّاس الملك ونادبين محترفين وعازفين وحكّام وأمراء وملوك في المستقبل، وجميع ما تبقّى منا، مهما كنّا، فإننا لا نفعل شيئاً في الحياة سوى أننا نبحث عن المكان الذي سنأوي إليه إلى الأبد. لو كان الأمر كذلك فقط، قال يوسف لنفسه، بمرارة شخص فقد الأمل في كلّ شيء. لو كان الأمر كذلك فقط، كرّر لنفسه، متذكّراً جميع الذين لم يغادروا الأماكن التي ولدوا فيها قط، ومع ذلك فقد ذهب الموت إليهم وقبض على أرواحهم، مما يثبت أنّ القدر هو الحقيقة الحقيقية الوحيدة. إن الأمر في غاية السهولة يا إلهي العزيز، فما علينا إلّا أن ننتظر حتى يتحقق كلّ

شيء في الحياة ونقول إنه القدر. لقد كان مُقدَّراً على هيرودس أن يموت في أريحا وأن يُحمل جثمانه على عربة إلى قلعة هيروديون، لكن الموت حرم أطفال بيت لحم من السفر إلى أي مكان. وتبين أن رحلة يوسف التي بدت في البدء جزءاً من خطة إلهية لإنقاذ أولئك الأبرياء المقدّسين، عديمة الجدوى. استمع النجار ولم يقل شيئاً، بل راح يجري لينقذ طفله، وترك الأطفال الآخرين يلقون مصيرهم. هكذا إذاً أصبحنا نعرف الآن السبب الذي حرم يوسف من النوم، وحتى عندما كان يغمض له جفن، سرعان ما يصحو على الحقيقة التي لن تدعه ينسى حلمه. وحتى عندما يكون مستيقظاً، كان يأتيه نفس الحلم ليلة بعد ليلة، وعندما يغطّ في النوم، كان يعرف، مع أنه كان يبذل كلّ ما بوسعه لتحاشيه، بأن الحلم نفسه سيعود إليه، لأنه كان يحوم فوق العتبة الفاصلة بين النوم واليقظة وكان عليه أن يجتازها عندما يدخل وعندما يخرج منها. ويمكن تعريف هذا الاضطراب على أحسن وجه بأنه تبكيت الضمير، مع أن التجربة الإنسانية والتواصل على امتداد العصور تثبت أن تلك التعاريف ما هي إلّا وهم، كما لو أن فيك عيب في الكلام وتحاول أن تقول كلمة حبّ لكنك لا تستطيع أن تُخرج الكلمة، أو هنا مثال أفضل، وهو أن يكون لدى المرء لسان في رأسه لكنه لا يستطيع أن يحبّ.

حبلت مريم مرة أخرى. لم يأت هذه المرة ملاك متنكّر في هيئة شحاذ يطرق على باب البيت ليبشّر بقدوم الطفل، ولم تهبّ فجأة ريح على مرتفعات الناصرة، ولم يُكتشف وجود تراب متوهج. قالت مريم ليوسف بأبسط العبارات، أنا حامل بطفل، ولم تقل له مثلاً انظر في عينيّ وشاهد كيف أن طفلنا الثاني يشعّ فيهما، ولم يجب هذه المرة، ألا ترين أنني لاحظت، هل أنتظرك حتى تقولين لي. اسمع فقط. لاذ بالصمت، ثم قال أخيراً، هل الأمر كذلك، وواصل تمليس قطعة

الخشب بلا مبالاة ظاهرة. لكننا نعرف بعد ذلك أنّ أفكاره كانت تجول في مكان آخر. كانت مريم تعرف أيضاً، منذ تلك الليلة من العذاب عندما أفشى لها زوجها بالسرّ الذي كان يحتفظ به لنفسه. لم تفاجئ على الإطلاق، فقد كانت تتوقّع شيئاً كهذا بعد أن أخبرها الملاك في الكهف، ستسمعين من حولك ألف صيحة وصيحة. كان من واجب الزوجة الصالحة أن تقول لزوجها، لا تجزع، فما جرى قد جرى، وأن واجبك الأول هو أن تنقذ طفلك. لكن مريم تغيّرت ولم تعد تلك المرأة التي يقال عنها عادة بأنها زوجة مطيعة، ربما لأنها سمعت الملاك يقول تلك الكلمات الخطيرة التي لا تستثني أحداً، أنا لست ملاكاً يمنح المغفرة. لو أتيح لها أن تناقش هذه الأمور العميقة مع يوسف، الضليع بالتوراة، لربما تأمّل في طبيعة هذا الملاك الذي ظهر فجأة ليقول إنه لا يمنح المغفرة، عبارة يبدو أنها غير ضرورية، لأن الجميع يعرفون أن القدرة على المغفرة تكمن بيد الربّ وحده. وعندما يقول ملاك بأنّه لا يمنح المغفرة فإما أن كلامه لا معنى له أو أنه ينطوي على معانٍ كثيرة. فلو كان ملاكاً حكيماً، لربما صاح، أتتوقّعين أن أغفر لك، يا لها من فكرة سخيفة، فأنا لم آتِ لأغفر، بل جئت لأعاقب فقط. لكن الملائكة، بحسب التعريف، ولندع جانباً تلك الملائكة التي تحمل السيوف اللاهبة التي وضعها الربّ لحراسة الطريق المؤدية إلى شجرة الحياة، كي لا يحاول آباؤنا الأوائل أو نحن، أحفادهم، العودة وسرقة الفاكهة. إن الملائكة كما كنّا نقول، ليست حراساً مهمتها معاقبة الفاسدين، بالرغم من ضرورة ذلك من الناحية الاجتماعية، بل حتى ممارسة القمع. لقد وجدت الملائكة لتيسير أمور حياتنا، لتحمينا عندما نوشك أن نقع في بئر، لتساعدنا على اجتياز جسر فوق جرف، لتشدنا إلى بر الأمان عندما نكون على وشك أن تدهسنا عربة طائشة أو سيارة

لا توجد فيها مكابح. كان بإمكان ملاك يحمل اسمه بجدارة أن ينقذ يوسف من كلّ هذا العذاب لو ظهر في حلم كلّ أب من آباء أطفال بيت لحم وحذرهم، خذ زوجتك وطفلك واهرب إلى مصر وامكث هناك إلى أن أخبرك متى تعود لأن هيرودس ينوي أن يذبح طفلك. بهذه الطريقة كان بإمكانه أن ينقذ جميع الأطفال. يسوع مختبئ في الكهف مع أمه وأبيه والآخرون في طريقهم إلى مصر ليمكثوا فيها حتى يعود نفس الملاك ليقول لآباء الأطفال، هيا انهضوا، اجمعوا زوجاتكم وأطفالكم وعودوا إلى إسرائيل لأن الذي حاول أن يقتل أطفالكم مات. وهكذا كان الأطفال سيعودون إلى الأماكن التي جاؤوا منها وحيث سيلقون حتفهم في النهاية عندما تحين ساعتهم المحددة، لأن لدى الملائكة حدودها، مهما كانت قويّة، مثل الربّ تماماً. وبعد تفكير عميق، ربما خلص يوسف إلى أن الملاك الذي ظهر في الكهف كان مخلوقاً من جهنم، أحد أعوان الشيطان متنكّراً هذه المرة في هيئة راع، وهذا دليل آخر على ضعف عقول النساء وسذاجتهن اللاتي يمكن أن يضللهن ملاك ساقط. ولو كان بوسع مريم أن تتكلم، ولو كانت أقل قدرة على الكتمان وكشفت عن تفاصيل تلك البشارة الغريبة، لاختلفت الأمور، ولاستخدم يوسف حججاً أخرى لدعم نظريته التي أهمها الحقيقة بأنّ هذا الذي ادّعى أنه ملاك لم يقل إنه ملاك أرسله الربّ، أو إنه جاء باسم الربّ، بل كلّ ما قاله، أنا ملاك، قبل أن يضيف محذراً، يجب أن تكتمي هذا السر، كما لو كان يخشى أن يعرف أحد آخر بذلك. وقد يجادل البعض بأنّ هذه التفاصيل لن تساعد في تقديم شيء جديد لفهمنا للقصّة المألوفة التي يعرفها الجميع، لكن بقدر ما يتعلق الأمر بهذا الراوي، فمن المهم معرفة، عند تفسير الأحداث التي جرت في الماضي والتي ستجري في المستقبل، سواء جاء الملاك من الجنة أم من جهنم. لأن هناك فرقاً بين

ملائكة النور وملائكة الظلام، لا من حيث الشكل فحسب، إنما من حيث الجوهر والمضمون والفحوى أيضاً، بالرغم من أنه صحيح أن من خلق الأولى هو الذي خلق الثانية أيضاً. لقد حاول أن يصحح خطأه بعد ذلك.

ومثل يوسف، كانت مريم تبدو في أحيان كثيرة، لكن لأسباب مختلفة، شاردة الذهن وتخلو تعابير وجهها من أي تركيز، وكانت تتدلى يداها وهي في وسط عمل تقوم به، وتتوقف فجأة عن الحركة، وتحدّق بعيداً. وليس هذا أمراً مفاجئاً لامرأة في وضعها، تدور في رأسها أفكار مختلفة يمكن تلخيصها في السؤال التالي، لماذا أعلن الملاك عن ولادة يسوع ولم يذكر شيئاً عن ولادة الطفل الثاني. كانت مريم ترمق ابنها البكر وهو يحبو على ساقيه ويديه كما يفعل الأطفال عادة في ذلك العمر، تحاول أن ترى ميّزة خاصة، علامة أو إشارة ما، نجمة على جبهته، إصبعاً سادساً في يده، لكنّها كانت ترى طفلاً مثل جميع الأطفال الآخرين، يسيل لعابه، ويوسّخ نفسه، ويبكي، لكن الفرق الوحيد هو أنه ابنها. كان شعره أسود بلون شعر والديه، وبدأت قزحيّتا عينيه تفقدان تلك الصبغة الضارية إلى البياض التي يطلق عليها من دون دقة، حليبية اللون، وبدأتا تأخذان لونهما الطبيعي الموروث، بني غامق يتحوّل شيئاً فشيئاً إلى أخضر كالح إذا كان بوسع أحد أن يصف لوناً هكذا، لكن هذه القسمات نادراً ما تكون فريدة، ولا تكون مهمة إلّا عندما يكون الطفل طفلنا، أو كما في هذه الحالة، طفل مريم. وبعد عدة أسابيع سيبدأ محاولاته الأولى في الوقوف على قدميه والمشي، وسيسقط على يديه عدداً لا يحصى من المرات، وسيقف هناك محدّقاً، يرفع رأسه بقدر من الصعوبة وهو يسمع أمّه تقول، تعال إلى هنا، تعال إلى هنا يا بني. وسيبدأ يشعر بالحاجة إلى الكلام، وستتشكّل أصوات

في حنجرته، في البداية لن يعرف ماذا سيفعل بها، وسيمزجها بأصوات أصبح يعرفها للتو، فيصدر أصواتاً كالغرغرة والصياح، حتى يبدأ يدرك بأنه يجب أن يضعها بشكل مختلف وبشكل متعمّد، فيحرّك شفتيه كما يفعل أبوه وأمّه حتى يتمكن من نطق كلمته الأولى، ربما كانت دا أو دادا أو دادي، بل حتى مامي. وفي جميع الأحوال، لن يعود يسوع الصغير يغرز سبّابة يده اليمنى في راحة يده اليسرى إذا سألته أمّه وجيرانها للمرة المائة، أين تضع الدجاجة بيضها. هذه واحدة أخرى من تلك الأشياء المهينة التي يتعرض لها الإنسان أو يتدرّب عليها مثل كلب صغير ليردّ على بعض الأصوات، نبرة صوت، أو صافرة، أو لسعة سوط. وأصبح بوسع يسوع أن يجيب الآن بأن الدجاجة تستطيع أن تضع بيضها حيثما تشاء ما دامت لا تضعها في راحة يده. كانت مريم تنظر إلى ابنها الصغير، تتنهّد، شاعرة بالاكتئاب لأن الملاك قد لا يعود. لن تريني مرة أخرى لفترة من الزمن، قال لها، لكنه إذا ظهر الآن، فإنها لن تشعر بالخوف كما شعرت من قبل، وسوف تنهال على الملاك بالأسئلة حتى يجيبها، فقد أصبحت أمّاً وها هي تنتظر طفلها الثاني. ولم تعد مريم حملاً بريئاً بعد أن تعلّمت، على حسابها، ماذا تعني المعاناة والخطر والقلق. ومع كلّ تلك الخبرة التي امتلكتها، أصبح بإمكانها أن ترجّح كفّة الميزان بسهولة لصالحها. ولن يكون كافياً أن يجيب الملاك، إن شاء الربّ فلن يدعك ترين طفلك كما ترينني الآن، وأنه لا يوجد مكان أضع فيه رأسي. فعلى الملاك أولاً أن يعرّف من هو هذا الربّ الذي يدّعي بأنه يتحدّث باسمه، وأن يقنعها ثانياً بأنه صادق عندما قال إنه لا يوجد مكان يضع فيه رأسه، وهو أمر يبدو أنه غير محتمل بالنسبة لملاك إلّا إذا كان يقصد بذلك عندما يؤدي دوره كشحاذ، وثالثاً، ما هو المستقبل الذي تتنبأ فيه تلك الكلمات المهدّدة المظلمة لابنها،

والأسرة، وما هو اللغز الذي يكتنف ذلك التراب المتوهج المدفون بالقرب من الباب حيث نما نبات غريب بعد أن عادوا من بيت لحم، مجرد ساق وأوراق، وتوقفا عن تقليمه لأنه بعد أن حاولا اقتلاعه من جذوره عدة مرات، كان يعود وينمو بقوة أشدّ. وجاء كاهنان من الكنيس، زكّا ودوثان، لدراسة هذه الظاهرة الغريبة. ومع أنّهما لم يكونا يعرفان الكثير عن النباتات، فقد اتفقا على أن البذرة لا بدّ أن تكون موجودة في التربة الغامضة، ثم أورقت في حينها، لأن هذا، كما قال زكّا، هو قانون الحياة عند الربّ. وعندما ألفت مريم هذه النبتة العنيدة، قالت إنها أضافت لمسة بهيجة عند مدخل البيت، بينما نقل يوسف الذي كان لا يزال مرتاباً، طاولة النجارة إلى الطرف الآخر من الفناء. ولكي لا يرى ذلك الشيء مرة أخرى، قطعها بفأس وبمنشار وصبّ عليها ماء مغلياً ونثر قليلاً من الفحم المحترق حول ساق النبتة، لكن إيمانه الغيبي جعله لا يأخذ مجرفة ويحفر في الأرض ويخرج الطاسة التي يوجد فيها التراب المتوهج الذي سببّ كلّ هذه المشاكل. هكذا كانت الأمور تسير عندما ولد طفلهما الثاني الذي أطلقا عليه اسم يعقوب.

في السنوات القليلة القادمة، لم تطرأ تغييرات مهمة على الأسرة، غير إنجاب المزيد من الأطفال، بمن فيهم ابنتان، وفقد الأبوان علائم الشباب الأخيرة. لم يكن ذلك مفاجئاً في حالة مريم لأننا نعرف كيف أن الحمل، بعد أن أنجبت عدة أطفال، يستنزف المرأة شيئاً فشيئاً مهما كانت تتمتع بطراوة وجمال، ويُظهر علائم الشيخوخة والترهل على وجهها وجسدها. وحسبنا القول إنه بعد يعقوب، جاءت ليسا، وبعد ليسا جاء يوسف، وبعد يوسف جاء يهوذا، وبعد يهوذا جاء شمعون، ثمّ جاءت ليديا وبعدها يوستس ثمّ صموئيل. وإذا كانت قد أنجبت عدداً

آخر من الأطفال بعد ذلك، فقد ماتوا جميعاً ولم يبق لهم أثر. إن الأطفال مصدر فخر وبهجة لآبائهم، كما يقول المثل، وقد بذلت مريم كلّ ما بوسعها كي تبدو راضية، لكن بعد حملها لشهور لا نهاية لها وإنجابها كلّ تلك الثمار التي استنفذت بجشع كلّ طاقتها، أصبحت تبدو في أحيان كثيرة مستاءة، برمة. لكن في تلك الأيام، لم يخطر ببالها قط أن تنحي باللائمة على يوسف، ناهيك عن الربّ العظيم الذي يتحكم بحياة وموت مخلوقاته، ويؤكد لنا أن الشعر في رؤوسنا محسوب. ولم يكن يوسف واسع الاطلاع في موضوع إنجاب الأطفال، ما عدا المبادئ الأساسية العملية التي تحوّل جميع الألغاز إلى حقيقة بسيطة واحدة، وهي أنه إذا التقى رجل وامرأة معاً، فربما حبِلها، وبعد تسعة شهور، أو في أحيان نادرة بعد سبعة شهور، تلد طفلاً. إذ تتحوّل بذرة الذكر، الدقيقة وغير المرئية، التي تندفع إلى رحم الأنثى، إلى كائن جديد اختاره الربّ كي يظل العالم مأهولاً بالسكان. لكن ذلك لا يتحقق أحياناً، لذلك حرّم الربّ إهدار البذرة التي يجب أن تُرسل إلى الرحم من أجل خلق طفل جديد، كما فعل أونان التعيس الذي عاقبه الربّ بالموت لأنه رفض أن يمنح أرملة أخيه نسلاً بهذه الطريقة كي لا يقيم منها نسلاً. وكما قال أحدهم ذات يوم، فإن الإبريق يذهب إلى النافورة حتى لا يعود فيه ماء ويعود فارغاً. لأن الربّ العزيز هو الذي وضع إسحاق في البذرة الصغيرة التي كان إبراهيم لا يزال قادراً على إنتاجها، والتي صبّها الربّ في رحم سارة لأنها تجاوزت السن الذي يمكنها أن تنجب فيه أطفالاً. وإذا نظرنا إلى الأمور من منظور وراثي، إذا جاز لنا التعبير، فقد نستنتج من دون أن نسيء إلى المنطق الذي يجب أن يكون فوق كلّ اعتبار في هذا العالم، وفي كلّ عالم آخر، بأن الربّ ذاته هو الذي شجع يوسف على مواصلة مضاجعة مريم لينجبا أطفالاً كثيرين

للتخفيف من تأنيب الضمير الذي اعتراه عندما سمح أو أراد، من دون التفكير في العواقب، بأن يُقتل أولئك الأطفال الأبرياء في بيت لحم. لكن أغرب شيء على الإطلاق الذي يظهر أن أساليب الربّ ليست غامضة فحسب، إنما محيرةُ أيضاً، هي أن يوسف كان يخيّل إليه حقاً بأنه يتصرّف من تلقاء نفسه، وبأنه يطيع مشيئة الربّ، عندما بذل جهوداً دؤوبة لإنجاب المزيد من الأطفال للتعويض عن كلّ الذين قتلهم جنود هيرودس حتى تُدوّن الأعداد الجديدة في الإحصاء القادم. كان ندم الربّ ويوسف ذاته، إذا كان الناس يعرفون في تلك الأيام عبارة إن الربّ لا ينام أبداً، فقد أصبحنا نعرف الآن أن سبب مجافاة النوم له هو لأنه ارتكب خطأً لا يغتفر. فمع كلّ طفل كان يوسف ينجبه، كان الرب يرفع رأسه إلى الأعلى قليلاً، لكنّه لن يرفعه تماماً لأن سبعة وعشرين طفلاً ذُبحوا في بيت لحم، ولم يعش يوسف حياة كافية حتى ينجب من امرأة واحدة هذا العدد من الأطفال، ولم يكن بمقدرة مريم، المنهكة جسداً وروحاً، تحمّل حالات الحمل الكثيرة. فعلى الرغم من أن بيت وفناء بيت النجار كان مليئاً بالأطفال، فقد كان فارغاً في حقيقة الأمر.

بدأ ابن يوسف يذهب إلى المدرسة عندما بلغ الخامسة من العمر. فقد بدأت أمّه تأخذه إلى الكنيس صباح كلّ يوم وتتركه في عهدة القيّم الذي يعلّم المبتدئين. وفي الكنيس تعلّم يسوع والصبية الصغار الآخرون في الناصرة الذين تقل أعمارهم عن عشر سنوات نصيحة الرجل الحكيم: يجب أن يتعلّم الطفل من التوراة كما يُرّبى الثور في الحظيرة. وكانت الدروس تنتهي في الحصة السادسة التي نطلق عليها في وقتنا الحالي منتصف النهار. كانت مريم تنتظر طفلها. ولم يكن يُسمح للمرأة المسكينة أن تسأله ماذا يتعلّم. كان يحرم عليها حتى هذا الحقّ البسيط، لأن حكمة الرجل الحكيم تقول بشكل قاطع، من الأفضل أن تلتهم

النيران الشريعة على أن تكون في عهدة النساء. فضلاً عن ذلك، لو كان يسوع الصغير قد تعلّم المكانة الحقيقية للنساء في هذا العالم، بمن فيهن الأمهات، فلربّما قدّم لها الجواب الخاطئ. ذلك النوع من الإجابات التي تحوّل المرء إلى شيء لا أهمية له. خذ هيرودس مثلاً، بكلّ ثروته وجبروته، فإذا رأيناه الآن، فإننا لن نستطيع أن نقول إنه ميت وأصبحت عظامه رميم، لأنه لم يعد سوى عفن وتراب وعظام وخرق وسخة. وعندما كان يسوع يعود إلى البيت، كان أبوه يسأله، ماذا تعلّمت اليوم، فيتلو عليه يسوع الذي وُهِب ذاكرة رائعة، حرفياً وبدون تلكؤ، الدروس التي تعلمها اليوم. ففي البداية، يتعلّم الأطفال أحرف الأبجدية، ثمّ الكلمات المهمة، وأخيراً يتعلّمون جملاً وفقرات كاملة من التوراة. وكان يوسف يرددها معه وهو يضرب بيده اليمنى ويهزّ رأسه ببطء إلى الأعلى وإلى الأسفل على إيقاع تلك الكلمات. وكانت مريم، الواقفة جانباً، تنظر إليهما وتتعلّم منهما الأشياء التي يُحرّم عليها أن تسألها، وهي حيلة ذكية من جانب النساء ويمارسنها إلى درجة الكمال طوال العصور. فمن خلال الاستماع كنّ يتعلّمن بسرعة كلّ شيء، حتى الفرق بين الحق والباطل التي هي قمة الحكمة. لكن الشيء الذي لم تفهمه مريم، أو أنها لم تفهمه تماماً، هو الرابطة الغامضة بين زوجها وبين يسوع، مع أن أي شخص، حتى لو كان غريباً، سيلاحظ تلك النظرة الرقيقة الحزينة المرتسمة على وجه يوسف وهو يكلّم ابنه البكر، كأنه يكلّم نفسه، هذا الابن المحبوب هو حزني. وكان كلّ ما تعرفه مريم عن الكوابيس التي تنتاب يوسف، أنها مثل سيف مسلّط على روحه، لا تغادره، وقد بدأت تتكرر الآن كثيراً إلى حد أنها أصبحت عادة كما هو معتاد على النوم على الجانب الأيمن أو على الاستيقاظ ليشرب في منتصف الليل. ولما كانت مريم زوجة طيبة ومطيعة، فقد كانت قلقة على زوجها، لكن الأمر

الأكثر أهمية بالنسبة لها هو أن ترى ابنها يعيش في حالة جيدة، وهي إشارة بأن جريمة يوسف لم تكن بتلك الدرجة من الخطورة، وإلّا لكان الربّ قد عاقبه من دون رحمة، كعادته. خذ أيوب مثلاً، الرجل المحطم المصاب بالجذام الذي كان رجلاً تقياً وصالحاً، يعبد الله ويبتعد عن ممارسة الشر. لكن من سوء حظ أيوب أنّه أصبح، لا حول له في ذلك ولا قوة، سبب نزاع بين الشيطان وبين الربّ نفسه، وتمسّك كلّ منهما بعناد بفكرته وبسلطته. وعلى الرغم من ذلك، فقد فوجئنا عندما أصيب هذا الرجل باليأس وراح يصرخ، ليته هلك اليوم الذي ولدتُ فيه والليلة التي تكونتُ فيها، إنه يوم مظلم، لا يهتم به الربّ من فوق، ولا يشرق فيه نور، بل يُطبق عليه الظلام والسواد، يحلّ عليه السحاب وتغطيه الظلمة. تلك الليلة هي ليلة سوداء، لا تُحسب بين أيام السنة، وتُمحى من كل الشهور، هي ليلة لا يولد فيها أحد، ولا يُسمع فيها هتاف. صحيح أن الربّ عوّض أيوب بأن كافأه ضعف ما أُخذ منه، لكن ماذا عن باقي الرجال الآخرين جميعاً الذين لم يُكتب سِفر باسمهم قط، رجال حُرموا من كلّ شيء، ولم يُمنحوا شيئاً بالمقابل، رجال وعدوا بكلّ شيء لكن لم يتحقق لم أي شيء.

أما في بيت أسرة هذا النجار، فقد كانت الحياة هادئة، ومهما كانت مواردها ضئيلة، فقد كان هناك خبز على المائدة وطعام يكفي لإبقاء الجسد والروح معاً على الدوام. أما الممتلكات، فقد كان الشيء الوحيد الذي يجمع بين يوسف وبين أيوب هو عدد الأبناء. فقد كان لأيوب سبعة أبناء وثلاث بنات، وكان لدى يوسف سبعة أبناء وابنتان، مما منح النجار الامتياز بأنه أنجب أنثى أقل إلى هذا العالم. لكن قبل أن يضاعف الربّ ممتلكاته، كان أيوب يملك سبعة آلاف من الغنم، وثلاثة آلاف جمل، وخمسمائة زوج من البقر، وخمسمائة حمار، وكانت أعداد

خدمه كثيرة جداً، في حين لم يكن يوسف يملك سوى حماره ولا شيء سواه. ولا ينكر أحد أن إطعام فمين اثنين ثم فم ثالث، حتى لو كان بشكل غير مباشر خلال السنة الأولى، شيء، وأن تجد نفسك مثقلاً ببيت مليء بأطفال يحتاجون إلى طعام أكثر فأكثر عندما يبدأون يكبرون، شيء آخر. وبما أن مورد يوسف لم يكن كافياً حتى يمكّنه من تعيين أجير له، فقد كان من الطبيعي أن يدفع أولاده إلى العمل. كما كان ذلك واجبه الأبوي، لأن التلمود يقول، كما على الرجل أن يطعم أطفاله، عليه أيضاً أن يعلّمهم على العمل، وإلّا فإنه يجعل أبناءه لا يصلحون لشيء. ومتذكّراً نصيحة الأحبار بأنّ الأجير يجب ألّا يعتبر نفسه أدنى مرتبة من أعظم حبر، فإننا نستطيع أن نتخيّل كيف أن يوسف بدأ يعلّم أبناءه الأكبر سنّاً بكل فخر، الواحد تلو الآخر، بعد بلوغهم سن الرشد، أولاً يسوع، ثمّ يعقوب، ثمّ يوسف، ثمّ يهوذا، على أسرار حرفة النجارة، ومدركاً باستمرار المثل القديم القائل، إن خدمة طفل تكون صغيرة، لكن الأحمق الصغير هو الذي يحتقرها. عندما عاد يوسف إلى العمل بعد أن تناول طعام الغداء، ساعده أبناؤه، وهو مثال جيد للاقتصاد المنزلي ووسيلة لتأسيس سلالة كاملة من النجارين تخدم الأجيال القادمة، إذا لم يكن الربّ قد قرر في حكمته غير ذلك.

كأنّ المهانة التي لحقت بالعرق العبري لأكثر من سبعين سنة لم تكن كافية لإرضاء غرور الإمبراطورية، فقد قرّرت روما أن تستغل تقسيم مملكة هيرودس السابقة كذريعة لتحديث الإحصاء السابق. لكن في هذه المرة، لم يكن على الرجال التسجيل في أماكن ولادتهم، فلم يتعرضوا للآثار المدمرة التي لحقت بالزراعة والتجارة والقلاقل الأخرى التي رأينا يوسف وأسرته يعانون منها في السابق. ونصّ المرسوم الجديد على أنّ ينتقل مسجلّو الإحصاء من قرية إلى قرية، ومن بلدة إلى بلدة، ومن مدينة إلى مدينة، يجمعون جميع الرجال في كلّ منها، مهما بلغت مكانتهم الاجتماعية، في الساحة الرئيسية أو في أي مكان آخر مناسب في العراء، وتُدّون أسماؤهم ومهنهم وثرواتهم التي تخضع للضريبة في السجلّ العامّ تحت أعين الحرّاس. الآن، علينا أن نقول إنه لم يكن يُنظر إلى إجراءات كهذه بعين الرضى في هذا الشطر من العالم. وليس هذا شيئاً جديداً، لأن التوراة يورد قصة القرار المؤسف الذي اتخذه الملك داوود عندما أمر يوآب، قائد جيشه، وقال له اذهب وعدّ الرجال في كلّ قبائل إسرائيل من دان إلى بئر سبع. وبما أنه لا يمكن مناقشة الأمر الملكي، أسكت يوآب شكوكه وجمع جيشه وانطلق لتنفيذ ما أمر به الملك. وبعد تسعة شهور وعشرين يوماً عاد يوآب إلى أورشليم وقدّم

للملك نتائج الإحصاء الذي أجراه مبوباً ومحققاً بعناية. فقد كان في إسرائيل ثمانمائة ألف جندي مسلّح، وفي يهوذا خمسمائة ألف من الرجال المسلحين. الآن نعرف أن الربّ لا يريد أن يغتصب أحد سلطته، لاسيما عندما يتعلق الأمر بشعبه المختار الذي لن يسمح بأن يحكمه ربّ أو سيد آخر، ناهيك أن تحكمه روما التي تنحني أمام آلهة ورجال زائفين، أولاً لأنه لا يوجد وجود حقيقي للآلهة الزائفة، وثانياً بسبب الغطرسة التي تتملك تلك الفئة الوثنية. لكن لننس روما للحظة ونعود إلى الملك داوود الذي هبط قلبه ما إن بدأ قائد جيشه يتلو التقرير، لكن قد فات الأوان، وقال معترفاً، لقد أخطأت كثيراً في ما فعلت، لذلك أرجوك يا ربّ أن تغفر لعبدك الإثم الذي ارتكبه لأني تصرفت بغباء شديد. وفي صباح اليوم التالي، كلّم الربّ نبياً يدعى جاد الذي كان رائي الملك داوود ووسيطه مع الربّ القدير، فجاء إلى داوود قبل أن ينهض في الصباح وقال له إن الربّ يريد أن يعرف ماذا تختار؟ أن تأتي عليك ثلاث سنين مجاعة في بلادك، أو أن تهرب طوال ثلاثة أشهر أمام أعدائك وهم يطاردونك، أو أن يحلّ ببلادك وباء لمدة ثلاثة أيام. لم يسأل داوود كم عدد الناس الذين سيموتون في كلّ حالة من تلك الحالات الثلاث؛ وخمّن أنه في حالة الثلاثة أيام، فإن عدد الذين سيموتون سيكون أقل من عدد الأشخاص الذي سيموتون في ثلاث سنوات سواء بسبب الحرب أم بسبب المجاعة. فقال من الأفضل أن نقع في يد الربّ لأن رحمته واسعة، ولا نقع في يد إنسان. فأرسل الربّ وباء في إسرائيل مات فيه سبعون ألف رجل، ماعدا النساء والأطفال الذين لم يُسجّلوا. وأخيراً وافق الربّ على أن يرفع الطاعون إذا أقيمت منصة تقدم عليها قرابين من أجله. لكن الموتى كانوا قد ماتوا، وإمّا أن الربّ قد نسيهم أو أنه لم يكن من الملائم أن يبعثهم ثانية، بما أننا

نستطيع أن نفترض بأمان أن نزاعات كثيرة كانت تدور حول عدد لا يحصى من المواريث وتقسيم الأملاك، لأنه لا يوجد سبب يجعل شعب الله المختار يتخلى عن الأمور والحاجات الدنيوية التي يمتلكونها والتي تعتبر ملكاً لهم شرعاً، سواء كسبوها من عرق جبينهم أم حصلوا عليها من أحكام المحكمة أو من غنائم الحرب. النتيجة هي التي تهمّ.

لكن قبل أن نحكم على الأعمال البشرية والإلهية، يجب أن نأخذ في الاعتبار أيضاً أنّ الربّ الذي لم يضع أي وقت ليجعل داوود يدفع غالياً ثمن الخطأ الذي ارتكبه، كان يبدو أنه لم ير المهانة التي ألحقتها روما بأطفاله المختارين. والأمر المحيّر أكثر، هو أنه كان يبدو غير مكترث لعدم تبجيل اسمه وسلطته. وعندما يحدث أمر كهذا، بعبارة أخرى، عندما يتبين أن الربّ لا يبدي أي علامة أو إشارة بأنه قادم قريباً، فليس أمام الإنسان إلّا أن يأخذ مكانه. أن يغادر البيت ويعيد النظام في عالمنا القديم المسكين هذا. وكما أسلفنا، فقد كان مسجلو الإحصاء يجوبون المنطقة بكلّ غطرسة الذين يملكون السلطة، بدعم من جنود يرافقونهم، أي أن الجنود يرافقونهم لحمايتهم لكي لا توجّه إليهم إهانات أو يتعرضون لتهجم الأشخاص الذين بدأوا يتمردون في الجليل ويهودا. ولاختبار مدى قوّتهم، بدأت تظهر بعض الاحتجاجات، بهدوء في بادئ الأمر، ثمّ ازدادت حدة وتحدياً شيئاً فشيئاً. فهذا حرفيّ يضرب على طاولة مسجل الإحصاء ويقسم بأنه لن يذكر له اسمه، وذاك تاجر يعود إلى خيمته مع جميع أفراد أسرته ويهدّد بأنه سيحطّم كلّ شيء وسيمزّق كلّ ملابسه، وفلاح يضرم النار بمحصوله ويحضر سلة مليئة بالرماد، ويقول هذه هي النقود التي ستدفعها إسرائيل للذين يسيئون إليها. لكن سرعان ما أُلقي القبض على مثيري الشغب هؤلاء، وزُجّ بهم في السجن، وجُلدوا بالسوط وأُهينوا. وبما أنه توجد حدود لمقاومة

البشر، تلك المخلوقات الضعيفة التي تتصف بها طبيعتنا، سرعان ما خذلتهم شجاعتهم، فكشف الحرفيّ بلا خجل عن أسراره الدفينة، وأبدى التاجر استعداداً للتضحية بعدد من بناته بالإضافة إلى تسديد ما عليه من ضرائب، أما الفلاح فقد غطّى نفسه بالرماد وعرض نفسه كعبد. وقُتلت القلة القليلة من الرجال الذين واصلوا مقاومتهم، بينما حُمل آخرون ممن تعلّموا منذ زمن بعيد بأنّ المحتل الجيد الوحيد هو المحتل الميت، فهربوا إلى الجبال. كانت أسلحتهم عبارة عن حجارة ومقالع وعصي وهراوات وبضعة أقواس وسهام، لا يمكن شنّ حرب بها، ولم يكن السيف أو الرمح الذي كانوا يستولون عليه في بعض المناوشات القصيرة تساعد المتمردين كثيراً، لأنهم كانوا معتادين، منذ عهد داوود، على استعمال الأسلحة البدائية التي يستخدمها الرعاة المسالمون، ولم يكونوا معتادين على أسلحة هؤلاء المحاربين المدربين. لكن سواء أكان الرجل يهودياً أم من الأغيار، فإنه يتجه إلى الحرب بسهولة أكثر مما يتجه إلى السلم، لاسيما إذا وجد زعيماً يشاركه قناعاته. بدأ التمرد ضدّ الرومان عندما كان الابن البكر ليوسف في الحادية عشرة من عمره، وكان بقيادة رجل يدعى يهوذا، جاء من الجليل، لذلك أصبح يُعرف باسم يهوذا الجليلي. كانت هذه الطريقة البسيطة في تسمية الأشخاص متبعة في ذلك الحين، كما يمكننا أن نرى من أسماء أشخاص مثل يوسف الرّاميّ (من الرامة)، وسمعان القيراوني (من القيروان) ومريم المجدلية (من مجدل). ولو عاش ابن يوسف وحقق نجاحاً في حياته، لأُطلق عليه اسم يسوع الناصري أو يسوع من الناصرة، أو شيئاً أكثر سهولة. لكن هذا مجرّد تخمين، ويجب ألّا ننسى أبداً بأنّ القدر يشبه الصندوق، ولا شيء آخر، يُفتح ويُغلق في وقت واحد، نستطيع أن ننظر في داخله ونرى كلّ ما يحدث، الماضي يتحوّل إلى قدر متحقق،

لكن لا توجد لدينا وسيلة تمكننا من النظر إلى المستقبل، باستثناء الإحساس الداخلي المسبق أو الحدس في بعض الأحيان، كما نجد في هذا الإنجيل الذي لم يكن ليكتب لولا تلك الإشارات والمعجزات التي تنبأت بقَدَرٍ قد يكون أعظم من الحياة نفسها. لكن بالعودة إلى ما كنّا نقوله، فقد كان التمرد يسري في دم يهوذا الجليلي الذي كان والده، حزقيا العجوز، قد شارك في القلاقل الشعبية التي قامت ضدّ ورثة هيرودس المفترضين بعد موته وقبل أن تقرّ روما بتقسيم المملكة وبسلطة الحكام الأربعة الجدد. إن هذا الأمر يتجاوز قدرتنا على الفهم، لأنه بالرغم من أننا خُلقنا جميعاً من نفس المادة والعناصر الإنسانية: نفس اللحم والعظام والدم والجلد والضحك والدموع والعرق، يصبح بعضنا جبناء، وبعضنا الآخر أبطالاً، ويصبح بعضنا عدوانيين وبعضنا الآخر سلبيين. إن العناصر التي خلقت يوسف هي نفس العناصر التي خلقت يهوذا. وفي حين نقل يهوذا إلى أبنائه حبّ التعطش إلى المعارك الذي ورثه من أبيه، وتخلّى عن الحياة السلمية ليدافع عن حقوق الربّ، لاذ يوسف النجار في بيته مع أطفاله التسعة الصغار وأمّهم، وانكبّ على عمله ليكسب رزقه ويوفر الطعام لأسرته، لأن أحداً لا يعرف من سينتصر غداً، إذ يقول البعض إن الربّ سينتصر، بينما يقول البعض الآخر لن ينتصر أحد. الفرضية الأولى صحيحة شأن الفرضية الأخرى، لأنك عندما تتحدث عن البارحة وعن اليوم وعن الغد فإنك تطلق ببساطة أسماء مختلفة على الوهم ذاته.

أما الرجال في قرية الناصرة الذين معظمهم من الشباب، فقد التحقوا بيهوذا الجليلي واختفوا كلّهم في غمضة عين ولم يعد لهم أثر. وقد أقسمت أسرهم على كتمان الأمر إلى حد أن أحداً لم يكن يحلم بأن يسأل، أين هو نثانئيل، فلم أره منذ أيام. وإذا لم يظهر نثانئيل في

الكنيس أو في صفوف الفلاحين في حقول الحصاد، فكان يُعتبر رجلاً غائباً ويواصل الآخرون عملهم كأن نثانئيل لم يكن موجوداً أصلاً. حسناً، لم تكن الأمور تسير بهذا الشكل تماماً، لأن بعضهم رأوه يدخل القرية تحت جنح الظلام ثم غادر قبل طلوع الفجر. ومع أن الدليل الوحيد لمجيئه وذهابه هو الابتسامة التي ترتسم على محيا زوجته، ابتسامة قد تكون شديدة الإيحاء، امرأة قد تراها واقفة لا تأتي بحركة، ساهمة تحدّق في الفضاء، في الأفق، أو في الجدار أمامها، ثمّ تراها تبتسم فجأة، ابتسامة فيها شيء من التأمل، مثل صورة تطفو وتتأرجح فوق سطح المياه المتماوجة، ولا بد أن يكون المرء أعمى ليخمّن أن زوجة نثانئيل كانت قد أمضت الليلة بدون زوجها. لكن الطبيعة البشرية منحرفة، فتبدأ بعض النساء اللاتي لم يغادرهن أزواجهن قط بإطلاق التنهّدات وهن يتخيّلن تلك اللقاءات، ويحمن حول زوجة نثانئيل كما يحوم النحل حول زهرة مثقلة بحبوب الطلع. أما مريم فكان وضعها مختلفاً. فقد كان عليها أن تعتني بتسعة أطفال وبزوج يمضي لياليه وهو يتقلّب في الفراش مغتماً، يوقظ الأطفال الصغار في أحيان كثيرة ويثير الذعر في نفوسهم. وبعد فترة من الزمن، اعتادوا على ذلك، إلى حد ما، لكن الصبي البكر الذي عكّر أحلامه وجود شيء لا يعرف كنهه، فقد كان يستيقظ باستمرار. في البداية، كان يسأل أمّه، ما خطب أبي، لكنها كانت تتحاشى الرد على سؤاله وتقول تطمئنه إنه مجرد كابوس. فهي لا تستطيع أن تقول لابنها إن والدك يحلم بأنه يسير مع مجموعة من جنود هيرودس متجهين إلى بيت لحم. من هو هيرودس. والد الملك الحالي. ألهذا السبب كان يئنّ ويصرخ. نعم، هذا صحيح. لا يمكنني أن أتصوّر أن أحد جنود ملك ميت يرى كوابيس. لم يكن أبوك قط واحداً من جنود هيرودس، بل كان نجاراً طوال حياته. إذاً لماذا يرى كوابيس.

لا يختار الناس أحلامهم، إنما الأحلام تختار الناس. لم أسمع أحداً قط يقول ذلك. لكنّ الأمر يجب أن يكون هكذا. وماذا عن كلّ ذلك الأنين يا أمّي. لأنه يحلم بأنه ذاهب ليقتلك. لا بدّ أن مريم لم تكن لتقول أشياء كهذه أبداً، تكشف عن سبب الكابوس الذي يراه زوجها ليسوع الذي اختير، مثل إسحاق بن إبراهيم، ليؤدي دور الضحية، وبالرغم من ذلك، فهو مدان.

في أحد الأيام، عندما كان يساعد والده في صنع باب، استجمع يسوع شجاعته وسأله. بعد صمت طويل ودون أن يرفع عينيه، أجابه يوسف، يا بني، إنك تعرف واجباتك والتزاماتك، فأدّيها لكي تكون جديراً في عيون الربّ، لكن افحص ضميرك واسأل نفسك عمّا إذا لم تكن هناك واجبات والتزامات أخرى لم تؤدّها. أهذا ما تحلم به يا أبي. لا، الخوف من أنّني قد أهملت واجباً ما، أو أسوأ، هذا سبب أحلامي. ماذا تقصد بالأسوأ. لم أفكّر، والحلم نفسه، الحلم هو الفكرة التي لم يُفكّر بها عندما كان ينبغي أن يتم ذلك، وهي تلاحقني ليلة بعد ليلة ولا أستطيع أن أنساها. وبماذا فكرت. لا يحقّ لك أن تسألني هذا السؤال، ولا يوجد عندي جواب لك. كانا يعملان في الظلّ في فناء البيت، لأن الفصل كان صيفاً والشمس لاهبة. كان إخوة يسوع يلعبون في مكان قريب، ماعدا أصغر أخ كان مع أمه في البيت يرضع. كان يعقوب يساعدهما أيضاً، لكنّه سرعان ما تعب وأحسّ بالملل، فلا عجب، لأن السنة التي تفصل بينهما أحدثت فرقاً كبيراً بينهما، وسرعان ما سيصبح يسوع في سنّ تؤهله لدراسة المسائل الدينية المتقدمة لأنه أنهى دراسته الابتدائية. وبالإضافة إلى دراسة التوراة، الشريعة المدّونة، بدأ يسوع يدرس الشريعة الشفوية، وهي الأكثر صعوبة وتعقّيداً، وهذا ما يفسر قدرته، وهو في هذه السن المبكّرة، على أن يدير حديثاً جدّياً مع أبيه،

ويستخدم الكلمات الملائمة، ويناقش بتفكير عميق وبمنطق. وبعد فترة وجيزة، سيبلغ يسوع الثانية عشرة، وعندما يصبح في مصاف الرجال فربما استأنف هذا الحديث الذي قُطع، إذا وجد يوسف الشجاعة الكافية لأن يفضي لابنه ويعترف بذنبه، تلك الشجاعة التي خذلت إبراهيم عندما واجهه إسحاق. لكن يوسف اكتفى في هذه اللحظة بالإقرار بقوّة الربّ والثناء عليه: لا يمكن أن يكون هناك أدنى شكّ في أن خط كتابة الربّ مستقيم لا يشبه الخطوط الملتوية التي يكتب بها الرجال. فكّر فقط بإبراهيم الذي ظهر له الملاك وقال له في آخر لحظة، لا تضع يدك على الطفل، وفكّر بيوسف الذي لم يغتنم الفرصة لينقذ لأطفال في بيت لحم عندما أرسل له الربّ قائداً وثلاثة جنود ثرثارين بدلاً من أن يرسل له ملاكاً يحذّره. وإذا استمرّ يسوع كما بدأ، فإنه سيجرؤ على أن يسأل ذات يوم لماذا أنقذ الربّ إسحاق ولم يفعل شيئاً لحماية أولئك الأطفال المساكين الأبرياء كما كان حال ابن إبراهيم، ومع ذلك لم يبد أي رحمة أمام عرش الربّ، عندها سيكون يسوع قادراً على أن يقول ليوسف، أبي، يجب ألّا تتحمّل كلّ الوزر، وفي أعماقه، من يعرف، فقد يتجاسر ويسأل، متى، يا إلهي، ستظهر أمام البشر وتعترف بأخطائك.

بينما كان يوسف النجار وابنه يسوع المسيح يتناقشان في هذه الأمور المهمة، كانت الحرب ضدّ الرومان تتواصل. كانت قد بدأت قبل أكثر من سنتين، وفي بعض الأحيان كانت تصل إلى الناصرة أنباء عن وقوع إصابات. فقد لقي إفرايم حتفه، ثمّ أبيعازر، ثمّ نافتالي، ثمّ أليعازار، لكن لم يكن أحد يعرف أين دفنت جثثهم بالتحديد، بين صخرتين فوق قمة جبل، أم في سفح واد، أم أن تيار ماء جرفها، أم أنها تقبع تحت ظلّ شجرة عقيمة. ولما كانوا غير قادرين على إقامة جنازات للذين لقوا حتفهم، فقد أراح أهالي الناصرة القرويون ضمائرهم بالإصرار على

القول إننا لم نتسبب في إراقة الدماء هذه، ولم نرها بأمّ أعيننا. ووصلت أنباء أيضاً عن تحقيق انتصارات عظيمة، فقد دُحر الرومان من مدينة صفورية القريبة ومن أقاليم شاسعة في يهوذا والجليل ولم يعد العدو يجرؤ على الاقتراب منها الآن. أما في القرية التي يعيش فيها يوسف، فلم ير أحد الجنود الرومان منذ أكثر من سنة. من يعرف، ربما كان هذا ما دفع جار النجار، حنانيا الفضولي والخدوم، الذي لم نأت على ذكره منذ حين، إلى أن يظهر في الفناء ذات يوم ويهمس في أذن يوسف، اتبعني إلى خارج البيت. ولا عجب من ذلك، لأن هذه البيوت صغيرة ويستحيل أن تكون فيها أيّ خصوصية لأن جميع أفراد الأسرة يُحشرون في غرفة واحدة ليل نهار، مهما كانت الظروف أو المناسبات. لذلك عندما يأتي يوم الحساب في نهاية المطاف، لن يجد الربّ صعوبة في تحديدها. لذلك لم يفاجئ هذا الطلب يوسف، ولا حتّى عندما قال له خلسة، لنذهب إلى الصحراء. لم تكن الصحراء ذلك المكان القاحل، ذلك الامتداد الشاسع من الرمال أو ذلك البحر الواسع من الكثبان الرملية التي نتصوّرها عادة عندما نقرأ أو نسمع هذه الكلمة، أما الصحراء، كما نعرفها هنا، فمن الممكن أن توجد في أرض الجليل الخضراء أيضاً، لأنها تعني حقولاً غير مزروعة لا توجد فيها دلائل على وجود سكن بشري أو عمل. ولا تعود صحراء عندما يأتي إليها بشر ويقيمون فيها. لكن بما أننا نرى رجلين وحيدين يسيران في هذا القفر ولا تزال الناصرة على مرأى بصرهما في طريقهما إلى مكان فيه ثلاث صخور ضخمة على قمّة تلّ، فليس هناك ما يوحي بأن المكان مأهول، وعندما يرجع الرجلان، تعود الصحراء صحراء مرة أخرى.

جلس حنانيا على الأرض، وجلس يوسف إلى جانبه. وعلى الرغم من أنهما كانا في نفس العمر، فإن النتائج قد تتفاوت مع مرور الزمن

بالنسبة لكلّ شخص منهما. لم يكن حنانيا يبدو في عمره الحقيقي عندما التقينا به أول مرة، أما الآن فقد أصبح يبدو أكبر سناً بكثير، مع أن السنوات تركت آثارها أيضاً على يوسف. تردّد حنانيا. تغيّر أسلوبه الحاسم الذي أبداه عندما جاء إلى بيت النجار عندما راحا يسيران في الطريق. كان على يوسف أن يشجعه على الكلام من دون أن يبدو متطفلاً، فقال لحنانيا، لقد قطعنا مسافة طويلة. لا يمكنني أن أناقش هذا الأمر في بيتك أو في بيتي، أوضح حنانيا. الآن، وفي هذا المكان البعيد، أصبح بإمكانهما أن يتحدّثا بحرية دون الخشية من أن يسمعهما أحد. لقد طلبت مني أن أعتني ببيتك في أثناء غيابك، ذكّره حنانيا. نعم، أجاب يوسف، وأقدّر لك مساعدتك عالياً. ثمّ تابع حنانيا، لقد حان الوقت الآن لأن أطلب منك أن تعتني ببيتي. هل ستأخذ زوجتك سفيرة معك. لا. سأذهب وحدي. بالتأكيد إذا بقيت، فلا توجد مشكلة. لا، ستذهب لتقيم مع أقربائها في قرية لصيد السمك. هل تريد أن تخبرني أنك ستطلّق زوجتك. لا، إن كنت لم أطلّقها عندما اكتشفت أنّها لا تستطيع أن تنجب لي ابناً، فلماذا أطلّقها الآن. كلّ ما في الأمر أنّني سأسافر لفترة قصيرة وأفضّل أن تكون سفيرة مع أقربائها. هل ستسافر لمدة طويلة. لا أعرف، إن ذلك يتوقف على المدة التي ستدوم فيها الحرب. وما علاقة الحرب بغيابك، سأله يوسف مندهشاً. سأذهب للبحث عن يهوذا الجليلي. ماذا تريد منه. سأطلب منه أن يسمح لي بأن ألتحق في صفوفه. لا أصدق ما تقول، رجل مسالم مثلك، يا حنانيا، يشارك في الحرب ضد الرومان، هل نسيت ماذا حلّ بأفرايم وأبيعازر ونافتالي والعازار. لا. إذاً استمع إلى صوت العقل. لا، أنت استمع إليّ يا يوسف، واستمع إلى الصوت الذي يخرج من شفتيّ، فقد بلغت الآن العمر الذي مات فيه أبي الذي حقّق في الحياة أكثر بكثير مما حققه ابنه

الذي لم يستطع حتى أن ينجب ابناً واحداً، وأنا لست متعلّماً مثلك، ولا يمكن أن أصبح حبراً في الكنيس، وكلّ ما أتطلّع إليه هو الموت، وأنا مرتبط بامرأة حتى إني لا أحبّها. إذن لماذا لا تطلّقها. ليست المشكلة في أن أطلّق سفيرة، إنما المشكلة هي كيف أطلّق نفسي، وهو أمر مستحيل. لكن كيف يمكنك أن تقاتل وأنت في هذا العمر. لا تقلق، سأشارك في المعركة بتصميم كما لو كنت أريد أن أحبّل امرأة. لم أسمع تعبيراً كهذا من قبل. ولا أنا، لقد خطر ببالي في الحال. حسناً يا حنانيا، يمكنك أن تعتمد عليّ للاعتناء ببيتك حتى تعود. إذا لم أرجع ووصلت إليك أخبار بأنّني قتلت، عدني بأن ترسل في إثر سفيرة لتستعيد كل ممتلكاتي. أعدك بذلك. لنرجع الآن بعد أن أصبح عقلي في سلام. في سلام بعد أن قرّرت المشاركة في الحرب، إني لا أفهمك تماماً. آه، يوسف، يوسف، إلى كم قرن يجب أن ندرس التلمود قبل أن نبدأ نفهم أبسط الأمور. لماذا كان علينا أن نقطع كلّ هذه المسافة ونأتي إلى هنا. أردت أن أكلمك بحضور شهود. الشاهدان الوحيدان اللذان نحتاج إليهما هما الربّ العظيم وهذه السماء التي تغطّينا أينما كنا. وماذا عن هذه الصخور. هذه الصخور صمّاء بكماء ولا تستطيع أن تشهد. قد يكون الأمر كذلك، لكننا إذا قدمنا أنا وأنت رواية غير صحيحة عن حديثنا هنا، فإن هذه الأحجار سوف تديننا وستظل تديننا حتى نصبح تراباً ثم نستحيل إلى عدم. هل نرجع إلى البيت. نعم، هيا بنا.

في طريق عودتهما، راح حنانيا يتلفت لينظر إلى الأحجار حتى اختفيا وراء رابية. هل تعرف سفيرة، سأله يوسف. نعم، إنها تعرف. وماذا قالت عن ذلك. في البداية لم تقل شيئاً، ثمّ قالت إنه كان عليّ أن أتركها منذ سنوات وأن أدعها لمصيرها. سفيرة المسكينة. عندما تذهب لتعيش مع أقربائها فإنها سرعان ما ستنساني، وإذا متُّ في المعركة فإنها

ستنساني إلى الأبد، فالنسيان سهل للغاية، هكذا هي الحياة. دخلا إلى القرية، وعندما وصلا إلى بيت النجار الذي كان أول البيتين من جهة واحدة، قال لهما يسوع الذي كان يلعب في الطريق مع يعقوب ويهوذا بأن أمّه عند جارتهما في البيت المجاور. عندما التفت الرجلان، سمعا صوت يهوذا يعلن بصوت مهيب، أنا يهوذا الجليلي. عند ذاك تطلع حنانيا حوله وقال مبتسماً ليوسف، انظر هذا هو قائدي، لكن قبل أن يجيب النجار، سمع صوت المسيح يقول، إذاً أنت لا تنتمي إلى هنا. أحسّ يوسف بسيف يخترق قلبه، كأنّ هذه الكلمات كانت موجهة إليه، كما لو كانت اللعبة التي يلعبها ابنه تهدف إلى نقل حقيقة أخرى. ثمّ فكّر بالأحبار الثلاثة وحاول، دون معرفة السبب، أن يتخيّل كيف يمكن أن تبدو عليه الحياة إذا كان عليه أن يقول كلّ كلمة ويؤدّي كلّ عمل في وجودهم، وفجأة تذكّر الرب، فتملكه الخوف. في بيت حنانيا وجدا مريم تواسي سفيرة الحزينة التي سرعان ما جفّفت دموعها عندما دخل الرجلان، لا لأنها لم تعد تبكي، إنما لأن النساء يعرفن من التجربة المريرة متى يخفين دموعهن، ومن هنا جاء القول الشهير، إمّا أنهن يضحكن أو يبكين، لكن هذا القول غير صحيح لأنهن يبكين بصمت. لكن لم يكن هناك شيء هادئ في حزن سفيرة، فعندما غادر حنانيا، بكت بكل جوارحها. وبعد أسبوع، جاء أقرباء سفيرة ليأخذوها معهم. رافقتها مريم إلى أطراف القرية، حيث تعانقتا وودعت إحداهما الأخرى. لم تعد سفيرة تبكي، لكن عينيها لم تجفّا ثانية. لم يكن هناك شيء يمكن أن يخفّف من وطأة حزنها أو يطفئ اللهب الذي يحرق دموعها قبل أن تظهر وتسيل على خديها.

مرّت شهور، وكانت أخبار المعارك لا تزال تترى، أخبار جيدة أحياناً، وأخبار سيئة أحياناً أخرى، لكن الأخبار الجيدة لم تكن تتعدى تلميحات غامضة عن انتصارات تبيّن في ما بعد بأنها لم تكن سوى انتصارات هزيلة، أما الأخبار السيئة فكانت تتحدث عن إراقة الكثير من الدماء، وعن تكبد جيش المتمرد يهوذا الجليلي خسائر كبيرة. وفي أحد الأيام، وصل خبر مفاده أن ألداد لقي حتفه عندما شنّ الرومان هجوماً مباغتاً على كمين للمتمردين ووقعت إصابات كثيرة، لكن كان ألداد الشخص الوحيد من الناصرة الذي قُتل. وفي يوم آخر، قال أحدهم إنّه سمع من صديق سمع من شخص آخر أن فاروس، حاكم سوريا الروماني في طريقه بقيادة فيلقين ليضع حداً لهذا التمرد الذي لم يعد محتملاً منذ ثلاث سنوات. إنّ خبر تقدم فاروس بقيادة فيلقين من الجنود وعدم توفر تفاصيل دقيقة عنه بثّ الرعب في نفوس السكان الذين كانوا يتوقّعون ظهور شارة الحرب المخيفة التي تحمل الحروف SPQR (مجلس شيوخ وشعب روما) في أيّ لحظة، والتي تنذر بوصول قوة رادعة. تحت هذا الرمز وتحت تلك الراية، انطلق الرجال يقتل أحدهم الآخر، ويمكن أن يقال الشيء نفسه عن الحروف الأولى الأخرى الشهيرة INRI (يسوع الناصري، ملك اليهود)، لكنّ يجب ألّا نستبق

الأحداث، لأن العواقب المريعة لموت يسوع ستظهر في حينها. وفي كل مكان، كان الحديث يدور عن وقوع معركة وشيكة، وكان الأشخاص الأكثر تديناً وإيماناً بالربّ يتوقّعون أن الرومان سيُطردون من أرض إسرائيل المقدّسة قبل نهاية السنة، أما الآخرون، الأقل تديناً وثقة، فكانوا يهزّون رؤوسهم حزناً ولا يتوقعون شيئاً سوى الموت والخراب، وهذا ما حدث.

لم يحدث شيء بعد أسابيع عديدة من توارد الأخبار عن تقدم فاروس وجنوده، فكثّف المتمردون هجماتهم على القوّات المشتتة التي كانوا يحاربونها، لكن سرعان ما اتضح التكتيك الذي يكمن وراء هذه السلوك السلبي للجيش الروماني، فعندما نقل كشّافة يهوذا الجليلي بأن أحد الفيلقين توجّه جنوباً في حركة دائرية بمحاذاة ضفة نهر الأردن، ثمّ انعطف يميناً عند أريحا ليكرر المناورة شمالاً، مثل شبكة أُلقيت في الماء ثم سحبتها يد خبيرة، أو حبل في نهايته أنشوطة أُلقي لتمسك كلّ شيء حولها. أما الفيلق الآخر الذي كان ينفذ مناورة مشابهة، فقد اتجه جنوباً. تكتيك يمكن وصفه بأنه يشبه حركة الكماشة، لكنّه كان أشبه بجدارين مطبقين في وقت واحد، يهاجمان الذين لم يتمكنوا من الهرب ثم يسحقونهم أخيراً. وفي منطقتي يهوذا والجليل، كانت الفيالق الزاحفة تحمل صلباناً عُلّق عليها رجال يهوذا الجليلي وقد غُرزت المسامير في أرساغهم وأقدامهم، وهُشّمت عظامهم بالمطارق للتعجيل في موتهم، وسلب الجنود ونهبوا القرى التي فتّشوها بيتاً بيتاً. لم يكن الجنود بحاجة إلى دليل لاعتقال المشتبه بهم وإعدامهم. وكان من حسن حظ هؤلاء التعساء، إذا غفرتم لي هذه الملاحظة الساخرة، بأنهم سيُصلبون بالقرب من بيوتهم، لذلك سيتمكن أقرباؤهم من دفن جثامينهم. ويا له من مشهد حزين عندما ترى الأمهات والأرامل والعرائس الشابات والأيتام

المكلومون الجثث المكدومة وهي تُنزَل من على الصلبان، لأنه لا يوجد شيء محزن بالنسبة للأحياء أكثر من رؤية جثمانٍ لم يدفن، ثمّ يُحمل الرجل المصلوب إلى قبره بانتظار يوم القيامة. وكان هناك أيضاً رجال مثخنون بالجروح التي أصيبوا بها أثناء المعارك، في الجبال أو في بقاع منعزلة أخرى، وقد تركهم الجنود أحياء في أشدّ الصحارى قيظاً، يلقون حتفهم وحدهم، يحترقون تحت الشمس اللاهبة، وتنقضّ عليهم الطيور الجارحة، ثم يُسلخ لحمهم عن عظمهم ويصبحون مجرد بقايا متعفنة مقززة تفقد أي شكل أو هيئة. أما الأرواح المتسائلة، إن لم تكن تلك الأرواح المرتابة التي تقاوم تقبّل هذه الكتب المقدسة بسهولة، فإنها ستسأل كيف تمكن الرومان من صلب هذا العدد الكبير من المتمردين اليهود في مناطق جرداء شاسعة لا توجد فيها أشجار، ناهيك عن الشجيرات والأعشاب الصغيرة النادرة التي لا تستطيع أن تُصلب عليها فزّاعة. لكنّهم ينسون أنه كانت لدى جيش الرومان كلّ مهارات وتنظيم جيش معاصر. فقد دأب الرومان على جلب الصلبان الخشبية معهم طوال فترة حملتهم، كما يلاحظ من كلّ تلك الحمير والبغال الكثيرة التي كانت تسير وراء الجنود محمّلة بالعواميد والعوارض التي يمكن جمعها وتركيبها بسرعة، وما كان عليهم إلّا أن يثبّتوا ذراعي الرجل المدان الممدودتين على طول العارضة، ثم يرفعون العمود بشكل عامودي ويجعلون المصلوب يضم ساقيه ويثبتون قدميه، الواحدة فوق الأخرى، بمسمار طويل واحد. إن الجندي الذي يقوم بهذه المهمة سيقول لك قد تبدو هذه العملية معقّدة، لكن وصفها، في حقيقة الأمر، أصعب من تنفيذها بكثير.

كان المتشائمون الذين توقّعوا وقوع كارثة محقين. فمن الشمال إلى الجنوب، ومن الجنوب إلى الشمال، كان الرجال والنساء والأطفال

يهربون قبل أن تصل جحافل جيش الرومان، لأن بعضهم كانوا يخشون أن يُتهموا بأنهم متعاونون مع المتمردين، وكان بعضهم الآخر خائفين، لأنهم، كما نعرف، معرضون للهلاك بلا محاكمة. توقف أحد هؤلاء الهاربين وقرع باب بيت يوسف وأبلغه رسالة من جار يوسف، حنانيا الذي أصيب بجروح بالغة في صفورية. أراد حنانيا أن يبلغ يوسف أنهم انهزموا، وأنه لا يوجد أمل في الهرب، وأنه يطلب منه أن يبعث في إثر زوجته ويطلب منها أن تستعيد ممتلكاته. أهذا كلّ ما قاله، سأله يوسف. لم يقل شيئاً آخر، أجابه الرسول. لماذا لم تحضره معك إلى هنا وأنت تعرف بأنّك ستأتي من هذا الطريق. سيكون عائقاً بالنسبة لي، وعليّ أن أضع سلامة أسرتي في المقام الأول. في المقام الأول، ربما، لكن بالتأكيد يجب ألّا تستثني الآخرين. ماذا تقصد، فأنت نفسك محاط بأطفالك، وإن كنت قد بقيت هنا، فهذا يعني أنك لست في خطر. لا يوجد وقت يمكن إضاعته، اذهب وليذهب الربّ معك لأنه بدونه فإن الخطر جاثم دائماً. يبدو أنك رجل عديم الإيمان لأنك يجب أن تعرف أن الربّ موجود في كل مكان. بالفعل، لكنّه يتجاهلنا في أحيان كثيرة. لا تحدّثني عن الإيمان بعد أن تركتَ جاري لمصيره. إذاً، لماذا لا تذهب وتنقذه بنفسك. هذا تماماً ما أنوي عمله. دار هذا الحديث عند العصر. كان يوماً مشمساً جميلاً، تتناثر في السماء بضع غيوم بيضاء وتنجرف مثل مراكب لا يسيّرها بشر. ذهب يوسف ليفكّ الحمار، ونادى زوجته وقال لها سأذهب إلى صفورية لأبحث عن جارنا حنانيا الذي أصيب بجروح بليغة ولا يمكنه أن يتجشم عناء رحلة العودة بمفرده. كان كل ما فعلته مريم هو أنها هزت رأسها رداً على كلامه، أما يسوع فقد تشبث بأبيه وقال له متوسلاً خذني معك. نظر يوسف إلى ابنه، ووضع يده اليمنى على رأسه، وقال له ابق هنا، سأعود قريباً،

وإذا استطعت فإني سأعود قبل الفجر. قد يكون مصيباً في ذلك لأن المسافة بين الناصرة وصفورية لا تتجاوز خمسة أميال، أي نفس المسافة تقريباً بين أورشليم وبيت لحم، وهذا دليل آخر على أن العالم مليء بالمصادفات. لم يركب يوسف الحمار لأنه أراد أن تكون الدابة نشيطة في رحلة العودة، وأن تكون بكامل طاقتها وثابتة على حوافرها مستعدة لحمل رجل مريض برفق، أو لكي نكون أكثر دقة، جندي جريح، وهو ليس الأمر نفسه تماماً.

عند سفح التلّة، بالقرب من المكان الذي أخبره فيه حنانيا بقراره بالالتحاق في صفوف المتمرد يهوذا الجليلي، رفع النجار عينيه إلى الصخرات الثلاث الضخمة فوق القمّة التي ذكّرته بشرائح فاكهة. جاثمة في أعلى التلة، بدا أنها تنتظر رداً من السماء والأرض على الأسئلة التي تطرحها كلّ مخلوقات هذا العالم، مع أنّ هذه المخلوقات لا تستطيع أن تعبّر عنها، من أنا، لماذا أنا هنا، ما هو العالم الآخر الذي ينتظرني، وهذا العالم بكل علاّته. لو سأل حنانيا أسئلة كهذه، لكان بوسعنا أن نقول له إن الصخرات على الأقل ستبقى ثابتة لا تزحزحها الرياح القوية والأمطار الغزيرة والحرارة القائظة، قرابة عشرين قرناً، لذلك، فقد تظل راسخة هنا بعد حوالي عشرين قرناً في حين سيتغير العالم من حولها. أما بالنسبة للسؤالين الأولين، فلا يوجد جواب عليهما.

كانت حشود الهاربين تُرى على الطريق، تبدو على وجوههم نفس نظرة الرعب التي كانت ترتسم على وجه الرسول الذي أرسله حنانيا. نظروا إلى يوسف بدهشة، وسأله أحد الرجال الذي أمسكه من ذراعه، مستفسراً، إلى أين أنت ذاهب. فأجاب النجار، إلى صفورية لأنقذ صديقاً. إذا كنت تعرف مصلحتك، فلا تفعل ذلك. لمَ لا. الرومان يقتربون الآن، ولا يوجد أدنى أمل للدفاع عن المدينة. يجب أن أذهب،

لأن جاري بمثابة أخ لي ولا يوجد أحد يمكن أن يحضره. اسمع نصيحتي. قال الحكيم ذلك ومضى في طريقه، وترك يوسف واقفاً في منتصف الطريق، مستغرقاً في أفكاره، متسائلاً هل يستحق الأمر أن ينقذ حياته من الهلاك مقابل أن يحتقر نفسه طوال عمره. بعد أن فكّر في الأمر ملياً، وجد أنّه يشعر بلا مبالاة شديدة، مثل شخص يواجه خواء ليس قريباً منه وليس بعيداً عنه، لا يوجد أمامه مكان ينظر إليه، لأنّ من هو الشخص الذي يستطيع أن يركّز على الخواء. ثمّ قال لنفسه بما أنه أب فمن واجبه أن يحمي أطفاله، لذلك يجب أن يعود إلى البيت بدلاً من أن يجري وراء جار، بالرغم من أنه، أي حنانيا، لم يعد كذلك، لأنه هجر بيته وأرسل زوجته إلى قرية بعيدة. أما أطفال يوسف فهم في أمان ولن يمسهم الرومان بسوء لأنهم منهمكون في ملاحقة المتمردين والقضاء عليهم. توصل أخيراً إلى نتيجة، فقد سمع يوسف نفسه يقول بصوت مسموع، كأنه يتصارع مع أفكاره، كما أنني لا أنتمي إلى المتمردين. وبلا تردد، صفع دابته على مؤخرتها، وصاح هيا أيها الحمار، وواصل طريقه.

وصل إلى صفورية في وقت متأخّر من المساء. كانت الظلال الطويلة للبيوت والأشجار التي لاحت في البداية قد بدأت تختفي شيئاً فشيئاً في الأفق مثل مياه هاطلة مظلمة. كانت شوارع المدينة شبه مقفرة، لاسيما من النساء والأطفال. كان هناك بضعة رجال مرهقين وضعوا أسلحتهم البسيطة وتمددوا على الأرض يلهثون. كان من الصعب معرفة عمّا إذا كانوا مرهقين من مشاركتهم في المعركة أم لأنهم هربوا. سأل يوسف أحدهم، هل الرومان يقتربون. أغمض الرجل عينيه، ثم فتحهما ببطء، وقال إنهم سيصلون غداً، ثمّ، متحاشياً النظر في وجهه، قال ليوسف، ابتعد من هذا المكان، خذ حمارك وغادر بسرعة. فقال له يوسف، لكني

أبحث عن صديق جريح. إذا حسبت كلّ الجرحى أصدقاء لك، فإنك ستكون أغنى رجل في العالم. أين هم الجرحى. هنا، هناك، في كل مكان. لكن هل يوجد مكان يعتنى فيه بالمصابين. نعم، وراء تلك البيوت المغلقة ستجد مستودعاً لجأ إليه عدد كبير من الجرحى، فربما تجد صديقك فيه، لكن أسرع، لأن عدد الجثث التي تُجلب إلى هنا يزيد على عدد الأحياء. كان يوسف يعرف هذه المنطقة جيداً لأنه كان يزورها للعمل الذي كان متوفراً بكثرة في مدينة غنية ومزدهرة مثل صفورية، وكان يزورها أيضاً في بعض الأعياد الدينية البسيطة حتى لا يتجشم عناء القيام برحلة طويلة وشاقة إلى أورشليم. لم يجد يوسف صعوبة في العثور على المستودع الذي يُعالج فيه الجرحى، فكلّ ما كان عليه أن يفعله هو أن يتعقب رائحة الدم والقيح الكريهة الفظيعة التي تعبق في الهواء، مثل لعبة الغميضة. حار، بارد. حار، بارد، يؤلم، لا يؤلم، لكن الألم أصبح لا يطاق الآن. ربط يوسف الحمار بعمود طويل رآه بالقرب من المستودع ودخل إليه. كانت توجد بين الحصر الممدودة على الأرض فوانيس صغيرة جداً تكاد لا تضيء، نجوم متلألئة إزاء سماء سوداء، تساعد على توجيه خطوات متعثرة. سار يوسف ببطء بين صفوف الرجال الجرحى يبحث عن حنانيا. ملأت الهواء روائح قوية أخرى مثل رائحة الزيت والنبيذ اللذين يستخدمان في علاج الجروح، ورائحة العرق والبراز والبول لأنه لم يكن باستطاعة بعض هؤلاء الرجال التعساء أن يتحرّكوا من أماكنهم، فكانوا يتغوطون ويبولون في ذلك الزمان والمكان. ليس هنا، قال يوسف لنفسه عندما وصل إلى نهاية الصفّ. عاد بخطواته إلى الخلف، وسار هذه المرة ببطء أكثر، يدقق في وجوه كل شخص. للأسف، كانوا جميعاً يشبهون بعضهم بعضاً، بلحاهم الطويلة، وخدودهم وعيونهم الغائرة، وأجسادهم الوسخة

المكسوة بالعرق. كانت عيون بعض المصابين تتبعه بقلق، آملين أن يكون هذا الرجل المتين البنية قد جاء من أجلهم، لكن سرعان ما كان ذلك الوميض المؤقت الذي يظهر في عيونهم يتلاشى ويواصلون أحلام يقظتهم الطويلة. توقّف يوسف أمام رجل عجوز له لحية بيضاء وشعر أبيض. إنه هو، قال لنفسه. لكن قسمات حنانيا تغيّرت كثيراً منذ أن رآه يوسف عندما ودعه. كانت لحيته بيضاء وشعره أبيض كالثلج من قبل، أما الآن فقد أصبحا متسخين، وكان حاجباه اللذان ظلا أسودين، غير طبيعيين. كانت عينا الرجل العجوز مغمضتين، وكان يتنفّس بصعوبة. بصوت خفيض نادى يوسف، حنانيا، واقترب منه أكثر، ثم كرر الاسم بصوت أعلى. رويداً رويداً، كما لو كانا ينبثقان من أعماق الأرض، بدأ جفنا الرجل العجوز يتحركان. عندما فُتحت العينان على وسعيهما، لم يعد هناك أدنى شكّ بأنه حنانيا، الجار الذي هجر بيته وزوجته وذهب ليحارب الرومان، وها هو الآن يستلقي مثخناً بجراح أسفل بطنه، وتفوح رائحة نتن كريهة من لحمه المتعفّن. في البداية، لم يعرف حنانيا يوسف، لأن الضوء الخافت لم يساعده في رؤيته جيداً، زد على ذلك أن بصره ازداد ضعفاً، لكنّه عرفه عندما كرّر النجار اسمه بعدة نبرات صوت تكاد تشي بالمودّة. اغرورقت الدموع في عيني الرجل العجوز، وردد قائلاً، هذا أنت، هذا أنت، ماذا تفعل هنا، لماذا جئت إلى هنا. حاول أن ينهض قليلاً على أحد مرفقيه ومدّ ذراعه، لكنه لم يجد القوّة الكافية، فتهدّل جسمه، وتلوى وجهه من الألم. جئت من أجلك، قال النجار، وحماري مربوط في الخارج، ويمكننا أن نعود إلى الناصرة بسرعة. لم يكن عليك أن تأتي إلى هنا، لأن الرومان قد يصلون في أيّ دقيقة، لا يمكنني أن أغادر هذا المكان، لقد قضي عليّ. وبيديه المرتعشتين فتح ثوبه. تحت الخرق المبللة بالنبيذ والزيت كان يقبع

جرحان غائران تنبعث منهما رائحة مقزّزة فحبس يوسف أنفاسه وأشاح بوجهه بعيداً. غطّى الرجل العجوز نفسه، وسقطت ذراعاه على جانبيه، كما لو كان المجهود الذي بذله يفوق طاقته. الآن أصبحتَ تعرف لماذا لا يمكنني أن أغادر هذا المكان، وإذا حاولت أن تحركني، فإن أحشائي ستندلق إلى الخارج. ستكون الأمور على ما يرام إذا شددت ضماداً بإحكام حول بطنك وإذا سرنا ببطء، قال يوسف بإصرار، على نحو غير مقنع، لأنه حتى لو تمكن من إيصال الرجل العجوز إلى حماره وأجلسه على ظهره، فلن يتمكنا من الوصول إلى الناصرة. أغمضت عينا حنانيا، ومن دون أن يفتحهما قال ليوسف، يجب أن تعود، إني أحذّرك، سيصل الرومان إلى هنا قريباً. لا تقلق، إنهم لا يهاجمون في الليل. عد إلى بيتك، عد إلى بيتك، همس حنانيا، فردّ عليه يوسف وقال، حاول أن تنام قليلاً.

سهر يوسف بجانبه طوال الليل. باذلاً جهده لأن يظل صاحياً، ووجد نفسه يتساءل لماذا جاء إلى هذا المكان، لأنه لم تجمعه قط صداقة عميقة مع حنانيا. بالإضافة إلى الفارق الكبير في عمريهما، فضلاً عن أنه كانت لديه دائماً بعض التحفّظات حول حنانيا وزوجته الفضولية المتطفّلة التي حتى إذا صنعت معروفاً مع أحد، فإنها تعطي الانطباع بأنها تكافئه. لكنّه جاري، قال يوسف لنفسه، ولم يخطر بباله ردّ أفضل لإسكات مخاوفه، إنه أخي في الإنسانية، رجل يحتضر، بعينيه المغمضتين، كأنه يريد أن يشعر بلذة كلّ دقيقة من احتضاره، لا يمكنني أن أتركه الآن. كان يوسف يجلس في الفراغ الضيّق بين الحصيرة التي يستلقي عليها حنانيا والحصيرة التي يستلقي عليها فتى صغير لا يمكن أن يزيد عمره على عمر ابنه يسوع، يئن بصوت خفيض ويتمتم لنفسه، شفتاه مشققتان من شدة الحمّى. أمسكه يوسف بيده ليريحه، وبدأت يد

حنانيا تتحرك كأنها تمتد لتمسك سلاحاً للدفاع عن نفسه. بقي ثلاثتهم هناك، يوسف حيّاً بين شخصين يحتضران، حياة واحدة بين موتين. وفي غضون ذلك، أرسلت سماء الليل الهادئة النجوم والكواكب إلى المدار، وطاف قمر أبيض مشرق في الفضاء من الجانب الآخر من العالم، يسفح البراءة فوق الجليل برمته. بعد ذلك، خرج يوسف من السبات الذي سقط فيه مكرهاً. استيقظ وقد تملكه إحساس بالراحة لأنه لم يحلم هذه المرة بالطريق إلى بيت لحم. عندما فتح عينيه، رأى حنانيا الذي كانت عيناه مفتوحتين أيضاً، ميتاً. في اللحظة الأخيرة، لم يكن قادراً على احتمال رؤية الموت، فأمسكت يده بيد يوسف بإحكام إلى حد أن يوسف شعر بأنه عظامه ستُسحق. وليخفف من شدة القبضة المؤلمة، حرّر يده الأخرى التي كانت تمسك بيد الصبي، ولاحظ أن حمّى الصبي قد انحسرت. نظر يوسف عبر الباب المفتوح. كانت الشمس مضيئة، وكانت السماء تتدرج في ألوان البني الداكن. أطياف بشرية تتحرّك في أرجاء المستودع، وخرج الذين كان بمقدورهم أن ينهضوا وحدهم بدون مساعدة ليشاهدوا شروق الشمس. ربما سأل أحدهم الآخر، أو حتى السماء نفسها، ماذا سيجلب لنا هذا الفجر الجديد. في يوم ما، سنتعلّم ألّا نسأل أسئلة عقيمة، لا جدوى منها، لكن حتى يأتي ذلك اليوم، دعونا نستغل هذه الفرصة ونسأل أنفسنا، ماذا سيجلب لنا هذا الفجر الجديد. سأل يوسف نفسه، أستطيع أن أذهب الآن، فلم يعد لديّ ما أفعله هنا. لكن كانت هناك نبرة تساؤل في هذه الكلمات التي جعلته يفكّر، يمكنني أن أنقل جثمانه إلى الناصرة. بدت الفكرة شديدة الوضوح بحيث كاد أن يقنع نفسه بأنه جاء لهذا السبب، لأن يجد حنانيا حياً ويعيده ميتاً. طلب الصبي ماء. حمل يوسف طاسة فخارية وقرّبها من شفتي الصبي، ثم سأله، كيف تشعر الآن. أفضل. على الأقل، يبدو أن

الحمّى قد تلاشت. دعني أرى إن كنتِ أستطيع أن أنهض، قال الصبي. انتبه، قال يوسف، محاولاً أن يمنعه من النهوض. ثمّ طرأت له فكرة أخرى. فكلّ ما يستطيع أن يفعله لحنانيا هو أن يدفنه في الناصرة، لكنه لا يزال يستطيع إنقاذ حياة الصبي. فإذا تمكن يوسف من إنقاذه من بيت الموت هذا، فإن بإمكانه أن يحلّ إنساناً محل إنسان آخر على نحو ما. لم يعد يشعر بالشفقة على حنانيا الذي تحوّل جسده الآن إلى صدفة فارغة، وبدأت روحه تبتعد أكثر فأكثر كلّما نظر إليه يوسف. يبدو أن الصبي شعر بأن شيئاً جيداً سيحدث له، فأشرقت عيناه، لكن قبل أن يتمكن من أن يسأل أيّ سؤال، خرج يوسف ليجلب الحمار. مبارك هو الرب الذي يضع أفكاراً رائعة كهذه في رؤوس البشر، لكن الحمار لم يكن هناك، وكان كلّ ما تبقى من أثره قطعة حبل قصيرة مربوطة بالعمود. لم يُضع السارق وقته ويحاول أن يفكّ العقدة، فاستخدم سكيناً حادّة، وقطع الحبل بكل بساطة.

هذه المصيبة الأخيرة استنزفت كل ما تبقى من طاقة في جسد يوسف. ومثل ذلك العجل الذي طُرح أرضاً عندما رآه ليذبح كأضحية في الهيكل، جثا على ركبتيه، وغطّى وجهه بيديه، وذرف كلّ الدموع التي كانت تترقرق في عينيه طوال الثلاث عشرة سنة الماضية، منتظراً ذلك اليوم الذي سيكون بإمكانه أن يغفر لنفسه أو أن يواجه الإدانة النهائية. فالربّ لا يغفر لنا الذنوب التي يجعلنا نرتكبها. لم يعد يوسف إلى المستودع لأنه أدرك أن أعماله لم يعد لها معنى إلى الأبد، وأن العالم نفسه أصبح لا معنى له. بدأت الشمس تشرق، لكن لماذا يا ربي، هناك آلاف الغيوم الصغيرة المتناثرة في أرجاء السماء التي تشبه الأحجار في الصحراء. إن أيّ شخص يرى يوسف واقفاً هناك يجفف دموعه بكمّ ثوبه، سيظن أنه حزين على موت أحد أقاربه من بين الرجال المصابين

الآخرين في المستودع، أما في الحقيقة فقد كان يوسف يذرف دموعه الطبيعية الأخيرة، دموع حزن الحياة.

بعد أن تجوّل في أزقة المدينة لأكثر من ساعة، راجياً أن يجد الدابة المسروقة، كان على وشك أن يستسلم ويعود إلى الناصرة عندما اعتقله الجنود الرومان الذين استولوا على صفورية. سألوه ما اسمك. اسمي يوسف بن إلي. ثم سألوه أين تعيش. في الناصرة. وإلى أين أنت ذاهب. إني عائد إلى الناصرة. وما الذي جاء بك إلى صفورية. قال لي أحدهم إن جاراً لي موجود هنا. ومن هو هذا الجار. اسمه حنانيا. وهل وجدته. نعم. وأين وجدته. في مستودع مع أشخاص آخرين. ومن يمكن أن يكونوا هؤلاء الآخرين. رجال جرحى. وفي أي جزء من المدينة. في ذلك الاتجاه. اقتادوه إلى ساحة جُمع فيها عدد من الرجال. اثنا عشر أو خمسة عشر رجلاً يجلسون القرفصاء على الأرض، بعضهم جرحى. أمره الجنود بأن ينضم إلى الرجال الآخرين. عندما أدرك أن الرجال الجالسين هم من المتمردين، احتجّ وقال أنا نجار ورجل مسالم. وقال أحد المتمردين بصوت عال، إننا لا نعرف هذا الرجل. لكن الجندي المسؤول عن السجناء رفض أن يسمع ذلك، فدفع يوسف بقوة فوقع على الأرض وانتهى به الأمر بين الآخرين. المكان الوحيد الذي ستذهب إليه هو حتفك، قال له الجندي. الصدمة المضاعفة لهذه المصيبة والمصير الذي ينتظره أصابا يوسف بالذهول. لكنه عندما استعاد رباطة جأشه، أحسّ بطمأنينة عظيمة، واقتنع بأن ما يجري ليس إلّا كابوساً سيزول سريعاً، ولم يكن هناك داع ليعذّب نفسه بهذه التهديدات لأنها ستتلاشى عندما يفتح عينيه. ثمّ تذكّر أنه عندما حلم بالطريق إلى بيت لحم، كان مقتنعاً أيضاً بأنّه سيستيقظ. بدأ يرتجف عندما حلّت عليه أخيراً حقيقة قدره القاسية. سأموت، سأموت مع أنني بريء. أحسّ بيد

على كتفه، يد السجين الجالس بجانبه الذي قال له، عندما يأتي القائد سنقول له إنك لست واحداً منا، عندها سيأمر بإطلاق سراحك. وماذا عنكم أنتم. لقد صلب الرومان كلّ متمرد وقع في أيديهم، وليس من المحتمل أن يعاملوننا بطريقة أفضل. سينجيك الربّ. لا بد أنك نسيت أن الربّ ينجي الأرواح لا الأجساد. وصل الجنود مع عدد آخر من السجناء، اثنين أو ثلاثة، ثم جاء آخرون ومعهم حوالي عشرين أسيراً آخر. تجمّع أهالي صفورية في الساحة، وكان بينهم نساء وأطفال أيضاً. سُمعت دندنة قلقة، لكن لم يجرؤ أحد على أن يتحرّك من دون إذن الجنود الرومان الذين كانوا لا يزالون يبحثون عن أي شخص يشتبه في أن يكون قد ساعد المتمردين. بعد قليل، دُفع رجل آخر إلى الساحة، وأعلن الجنود الذين أمسكوا به، هذا كلّ شيء الآن. عندها صاح الضابط المسؤول، انهضوا على أقدامكم، جميعكم. ظنّ السجناء أنّ قائد المجموعة قد وصل، فقال الرجل الجالس بجانب يوسف، هيّئ نفسك. كان يقصد هيّئ نفسك للإفراج عنك، كأن المرء بحاجة إلى تهيئة نفسه حتى يُطلق سراحه. لكن إذا كان قد جاء أحدهم، فلم يكن القائد، ولم يعلم أحد من هو، لأن الضابط أصدر فجأة أمراً باللغة اللاتينية للجنود. لا يمكن القول إن كلّ ما كان الرومان يقولونه كانوا يقولونه باللاتينية، لأنه يستحيل أن يتحدّث أحفاد الذئبة بألسنة بربرية، ولديهم مترجمون لهذا الغرض، لكن بما أن الحديث هنا كان يدور بين الجنود أنفسهم، فلم تكن ثمة حاجة إلى الترجمة. نفّذ الجنود أوامر رئيسهم وجمعوا السجناء بسرعة. إلى الأمام سر. سار موكب الرجال المدانين باتجاه خارج المدينة، وسارت جمهرة الناس خلفهم. لم يكن لدى يوسف الذي أرغم على السير مع السجناء الآخرين ملاذ يلجأ إليه لالتماس الرحمة، فرفع ذراعيه نحو السماء وصاح، أنقذني، أنا لست

واحداً منهم، ساعدني، أنا بريء. في تلك اللحظة، نكزه جندي من الخلف بعقب رمح فكاد يطرحه أرضاً. يائساً، اعترى يوسف شعور بالكراهية تجاه حنانيا الذي أوقعه في هذه الورطة، لكن سرعان ما تلاشى هذا الشعور، وحلّ محله شعور بالخواء. قال لنفسه، لا يوجد مكان آخر يمكنني أن ألجأ إليه. لكنّه كان مخطئاً، لأنه سيكون هناك مكان قريباً. بشكل غريب كما قد يبدو، فقد هدأت حقيقة الموت من جزعه. نظر حوله إلى رفاقه المنكودين الذين بدوا رابطي الجأش. كان بعضهم، بشكل طبيعي، حزينين، مكسوري الخاطر، لكن كان بعضهم الآخر يسيرون رافعين رؤوسهم عالياً بتحدٍ، وكان معظم هؤلاء من الفريسيين. ثمّ، للمرة الأولى، تذكّر يوسف أطفاله، وللحظة عابرة خطرت له زوجته، لكن كلّ تلك الوجوه والأسماء شكلت عبئاً ثقيلاً على دماغه المتعب. كان بحاجة إلى النوم وإلى الطعام. أحسّ بأنه ضعيف لا يستطيع أن يركّز، لكن الصورة الوحيدة التي بقيت في مخيلته هي صورة يسوع، ابنه البكر وعقابه النهائي، وتذكّر حديثهما عن حلمه، وتذكّر أنه قال ليسوع، لا يمكنك أن تسألني كلّ هذه الأسئلة، ولا يمكنني أن أعطيك كلّ الأجوبة، أما الآن فقد انتهى الوقت للإجابة عن الأسئلة.

على امتداد أرض مرتفعة تطلّ على المدينة، نُصب أربعون عاموداً سميكاً قوياً يكفي كلّ عامود منها لحمل وزن رجل في ثمانية صفوف. وفي أسفل كلّ عمود وضعت عارضة طويلة تكفي لأن يمدّ الرجل المدان ذراعيه. لدى رؤية آلات التعذيب هذه، حاول بعض السجناء الهرب، لكن الجنود الذين استلّوا سيوفهم أعادوهم. حاول أحد المتمردين أن يخوزق نفسه على سيف، لكنه لم يتمكن من ذلك وجرّوه على الفور إلى الصليب. ثمّ بدأت المهمة الشاقة بغرز مسامير في رسغي

كلّ رجل مدان على العارضة الخشبية قبل أن يُرفع على العواميد المنتصبة. كان بالإمكان سماع أصوات النواح والأنين في أرجاء الريف، وبكى سكان صفورية أمام هذا المشهد الحزين الذي أُرغموا على مشاهدته ليكون عبرة لهم. واحداً تلو الآخر، نُصبت الصلبان، وعُلّق رجل على كلّ منها بعد أن دُفعت ساقاه إلى الداخل كما رأينا من قبل، لا يعرف أحد السبب، ربما كان ذلك بأمر من روما لجعل العملية أسهل ولتوفير مواد، لأنه ليس على المرء أن يعرف الكثير عن عمليات الصلب ليرى أن صنع صليب وفق مقاييس رجل عادي يتطلّب عملاً أكثر وسيكون حمله أثقل، ماعدا الألم المبرح الذي سيصيب الضحيّة، لأنه كلما اقتربت قدماه من الأرض، سهل عليه أن يدلّي جسمه بعد ذلك، ولن تكون هناك حاجة إلى استخدام سلّم لانتقاله مباشرة، إذا أمكننا قول ذلك، من ذراعي الصليب إلى ذراعي أقربائه، إذا كان عنده أسرة، أو إلى ذراعي حفّار القبور الذي لن يتركه مستلقياً هناك. وصادف أن يوسف كان آخر رجل يصلب، وهذا يعني أنه كان عليه أن ينتظر ويرى رفاقه التسعة والثلاثين الذين لا يعرفهم، الذين كانوا يُعذّبون الواحد تلو الآخر ثم يلقى بهم إلى حتفهم. وعندما جاء دوره أخيراً، استسلم لقدره ولم يعد يحتجّ على براءته، وهكذا أضاع فرصته الأخيرة للنجاة بنفسه، عندما قال الجندي الذي كان يدّق المسامير في رسغيه للضابط المسؤول، هذا هو الرجل الذي قال إنّه بريء. فتوقّف الضابط للحظة، وأعطى يوسف وقتاً كافياً ليصيح أنا بريء، لكن يوسف آثر أن يلوذ بالصمت. رفع الضابط عينيه إلى الأعلى ولعله قرّر أنّ التناظر لن يكتمل إذا لم يُرفع الصليب الأخير، لأن العدد أربعين يشكل عدداً مدوّراً لطيفاً، فأعطى الإشارة، فدُقّت المسامير، وأطلق يوسف صيحة وواصل الصراخ، ثمّ رفعوه. كان ثقله يتدلى من المسامير التي ثقبت رسغيه،

وندت منه صيحات أشد ألماً بينما كان مسمار طويل يخترق قدميه. أيها الربّ، هذا هو الرجل الذي خلقته، مبارك هو اسمك المقدّس، لأنه يُحرِّم أن توجّه اللعنات إليك. وفجأة، كما لو أنّ أحداً أعطى إشارة أخرى، تملّك الرعب سكّان صفورية، لا من الصلب الذي شاهدوه أمامهم الآن، إنما لأنهم رأوا ألسنة النيران تلتهم المدينة بسرعة، نار راحت تدمّر البيوت والمباني الحكومية، بل حتى الأشجار في باحات البيوت. غير مبالين بالحريق الذي أشعله رفاقهم، تحرك أربعة جنود من المجموعة بين صفوف الرجال المحتضرين، وراحوا يهشمون عظام سيقانهم بقضبان حديدية. كانت صفورية تحترق حيثما ولّى المرء نظره، بعد أن مات الرجال المصلوبون الواحد تلو الآخر. كان النجار المدعو يوسف، ابن إلي، شاباً في ريعان الصبا، قد أصبح في الثالثة والثلاثين للتو.

عندما تنتهي هذه الحرب، ولن يكون ذلك بعيداً لأنها، كما نستطيع أن نرى، فقد كانت على وشك الانتهاء، سيكون هناك حساب نهائي للذين فقدوا حياتهم، الكثير منهم هنا، والكثير منهم هناك، بعضهم في أماكن قريبة، وبعضهم الآخر في أماكن بعيدة. وإذا كان صحيحاً أنه مع مرور الزمن، فإنه لا تعود هناك أهمية لأعداد الذين قُتلوا في الكمائن أو في الحروب ويصبحون في طي النسيان. أما الذين صُلبوا، ويبلغ عددهم قرابة الألفين حسب الإحصاءات الموثوقة، فإن أهالي منطقتي يهوذا والجليل سيتذكّرونهم لفترة طويلة، حتى لو اندلعت حروب أخرى وأريق المزيد من الدماء. إن ألفي شخص مصلوب عدد كبير حقاً، لكنهم سيبدون أكثر من ذلك بكثير لو تخيّلناهم وهم يسيرون مسافة بميل آخر على طول طريق سريع أو حول بلد، مثل بلد سيُعرف ذات يوم بالبرتغال يبلغ محيطه نفس تلك المسافة تقريباً. وبين نهر الأردن وبحيرة طبريا، ستبكي أرامل وأيتام، وهي عادة قديمة. وعندما يكبر الصبية ويخوضون حرباً جديدة، سيزداد عدد الأرامل والأيتام الذين سيحلون مكانهم. وحتى لو تغيرت العادات، ولو أصبح الأسود لون الحداد بدلاً من اللون الأبيض، وإذا بدأت النساء يضعن طرحة سوداء على رؤوسهن

بدلاً من أن يقتلعن شعرهن، فإن دموع الحزن المخلصة ستبقى ذاتها ولن تتغيّر.

حتى الآن، لم تبك مريم. لكن قلقاً بدأ يتسرب إلى روحها لأن زوجها لم يرجع بعد، وقد أشيع في الناصرة بأن صفورية أحرقت وصُلب رجالها. برفقة أكبر أبنائها، انطلقت في الطريق الذي سلكه يوسف البارحة. من المرجح أن قدميها ستلامسان، في لحظة أو أخرى، آثار قدمي زوجها، لأننا لسنا في الفصل الماطر ولا يوجد ما يعكّر صفو التربة إلّا هبات رقيقة من النسيم. إن آثار قدميّ يوسف هنا أشبه بآثار أقدام حيوان يعود إلى ما قبل التاريخ سكن هذه الأصقاع في أزمان غابرة، لأننا نقول البارحة فقط، ويمكننا أن نقول أيضاً منذ ألف سنة، لأن الزمن ليس حبلاً يستطيع المرء أن يقيسه من عقدة إلى عقدة، إنما الزمن هو سطح مائل متموّج لا يمكن لشيء أن يخترقه إلّا الذاكرة. رافق عدد من القرويّين من الناصرة مريم ويسوع، بعضهم بدافع الشفقة، وبعضهم بدافع الفضول، وكان من بينهم عدد من أقرباء حنانيا البعيدين، لكنّهم سيعودون أدراجهم وقد تملكهم القلق كما غادروا، لأنه بما أنهم لم يعثروا على جثمانه، فقد يكون لا يزال حيّاً. لم يخطر ببالهم أن يبحثوا في الأنقاض في ذلك المستودع حيث كان من الممكن أن يجدوا جثمانه بين بقايا الأجساد المتفحّمة. لم يكن سكان الناصرة هؤلاء قد قطعوا سوى نصف الطريق عندما ظهرت أمامهم مجموعة من الجنود الذين أُرسلوا من أجل تفتيش قريتهم، فعاد بعضهم وقد اعتراهم القلق لما يمكن أن يكون قد حدث لممتلكاتهم، لأن أحداً لا يتوقّع ماذا يمكن أن يفعله الجنود إذا قرعوا باباً ولم يجدوا أحداً في البيت. سأل الضابط المسؤول هؤلاء القرويين عن سبب ذهابهم إلى صفورية، فأجابوه، نريد أن نرى النيران المندلعة، وهو تفسير قبله الضابط، لأن

للنار جاذبية لا تُقاوم بالنسبة للبشر منذ أن بدأت الخليقة، حتى إن هناك أناساً يقولون إن النار هي نوع من نداء داخلي، ذاكرة فطرية للنار الأصلية كما لو أنّ الرماد يحتفظ بطريقة ما بذكرى كيف أُحرق، وهذه النظرية تفسر نظرة الافتتان التي ترتسم على وجوهنا عندما نرى نار مخيم أو شمعة تومض في غرفة مظلمة. ولو كنّا، نحن البشر، متهوّرين أو جريئين كالفراشات والعثّ والحشرات المجنّحة الأخرى، لألقينا بأنفسنا معاً في النار، فمن يعرف، فربما تشتد النيران أكثر فيصبح الضوء قوياً جداً فيفتح الربّ عيونه ويستيقظ من سباته، حتى لو كان الوقت متأخراً جداً، طبعاً، لا ليعرف من نحن، إنما ليرى، في الوقت المناسب، الفراغ الوشيك الذي حدث بعد أن استحلنا إلى دخان.

ومع أنّها تركت وراءها بيتاً يعجّ بالأطفال ولا يوجد أحد يرعاهم، رفضت مريم أن تعود أدراجها لأن الجنود لا يحتلون قرية كلّ يوم ويذبحون الأطفال الصغار. لم يكن أولئك الرومان يرغبون في رؤية الأطفال وهم يكبرون فقط، بل كانوا أيضاً متحمسين لذلك، شريطة أن يظلوا أذلاء ويدفعوا ضرائبهم في موعدها. كانت الأمّ والابن يسيران على الطريق وحدهما لأن أقرباء حنانيا، حوالي ستة منهم، كانوا منهمكين في الحديث فتخلفوا في سيرهم. لم يكن لدى مريم والمسيح كلمات يتبادلانها سوى كلمات الألم، فآثرا أن يصمتا كي لا يصيب أحدهما الآخر بالحزن. صمت غريب خيّم على المكان برمته، فلم تعد هناك طيور تغرّد، وسكنت الريح، ولم يعد يُسمع شيء سوى وقع خطوات، وحتى هذه، كانت تنسحب مثل متطفل مهذب دخل بيتاً لا يوجد فيه أحد بالخطأ. وفجأة لاحت صفورية على مرأى بصرهما عندما انعطفا عند انحناءة في الطريق. كانت بيوت عديدة لا تزال تحترق، وكانت أعمدة دخان رقيقة تتصاعد هنا وهناك. اسودّت الجدران،

واحترقت الأشجار من الأعلى إلى الأسفل، أما الأوراق الخضراء فظلت سليمة، لكن لونها أصبح بلون الصدأ. وعلى اليمين، امتدت صفوف الصلبان.

غذّت مريم خطاها، لكن كانت لا تزال أمامها مسافة غير بعيدة، فراحت تسير الهوينى لتلتقط أنفاسها. فبعد ولادة كلّ هؤلاء الأطفال بلا توقف ضعف قلبها. وأراد يسوع، الابن البار، مرافقة أمّه والبقاء إلى جانبها، الآن وفي ما بعد، يقاسمها أفراحها وأحزانها. لكنّها راحت تمشي بخطى وئيدة، تجرّ قدميها جرّاً. بهذه السرعة يا أمّي لن نصل إلى هناك. فأشارت مريم بيدها كأنها تريد أن تقول له، امض أنت وسألحق بك. ترك يسوع الطريق وسار عبر الحقل توفيراً للوقت، أبي، أبي، راح ينادي، راجياً ألّا يكون أبوه هناك. كان يخشى أن يجده. وصل إلى الصفّ الأول من الصلبان. كان بعض الرجال المصلوبين لا يزالون يتدلّون من صلبانهم، وأُنزل آخرون من على صلبانهم وكانوا مستلقين على الأرض. كان لعدد قليل منهم أقارب وقد تحلّقوا حولهم، لأن أغلب هؤلاء المتمردين جاؤوا من مناطق بعيدة. تشكيلة مختلطة شنت هجومها الموحد الأخير لكنها تبددت الآن، وتُرك كلّ رجل وحده يواجه الموت الذي لا يمكن وصفه. لم ير يسوع والده. ابتهج قلبه لكن عقله كان يقول له، انتظر، لم نبلغ نهاية الصفّ بعد. في نهاية صف الصلبان، كان الأب الذي يبحث عنه ممدداً على الأرض. لم يكن هناك دم كثير، فقط جروح ناكئة عند الرسغين والقدمين. لعلك نائم يا أبي، لكن لا، لستَ نائماً، فكيف يمكنك أن تنام وقد لُفّت ساقاك هكذا. يا لهم من رجال طيبين لأنهم أنزلوك من على الصليب، لكن بما أن هناك أجساداً كثيرة لم يتح لتلك الأرواح الطيبة أن تعالج عظامك المكسورة. جثا الصبي الذي يدعى يسوع بجانب أبيه وأجهش في البكاء، لم يجرؤ

على أن يلمس الجثمان، لكن حزنه تغلّب على خوفه وضم الجسد الهامد إليه. أبي، أبي، وراح ينشج بصوت مرتفع، ثم رافق بكاء آخر بكاءه. ماذا فعلوا بك يا يوسف. إنه صوت مريم التي وصلت أخيراً، منهكة وراحت تبكي بكلّ جوارحها عندما رأت ابنها توقّف من مسافة بعيدة. كانت تعرف ما ينتظرها. فاضت الدموع من عيني مريم عندما رأت وضع ساقي زوجها الذي يدعو للرثاء. إننا لا نعرف ماذا يحدث لأحزان الحياة بعد الموت، لاسيما لحظات المعاناة الأخيرة. يحتمل أن ينتهي كلّ شيء مع الموت، لكن لا يمكننا أن نكون واثقين من أن ذاكرة المعاناة لا تستمر لعدّة ساعات على الأقل في هذا الجسد الذي نصفه بأنه ميت، ولا يمكننا أن نستبعد الاحتمال بأنّ المادة تستخدم تفسّخ الجسد كسبيل أخير لإنهاء المعاناة. برقة لم تكن تسمح لنفسها أن تبديها عندما كان زوجها على قيد الحياة، شدّت مريم ثوب يوسف إلى الأسفل بعد أن حاولت أن تمدّ الساقين المكسورتين باستقامة مما منحه مظهراً مشوّهاً لدمية محطمة. ساعد يسوع أمّه في شدّ الثوب إلى الأسفل فوق عظام الساقين النحيفتين اللتين ربما كانتا أكثر أجزاء الجسم الإنساني ضعفاً وتذكيراً مؤلماً بحالتنا الهشّة. كانت القدمان تتدليان إلى الجانبين، وظل الذباب الذي جذبته رائحة الدم يعجّ حول الجروح التي أحدثها المسمار. وقع خفّا يوسف على الأرض بجانب جذع الشجرة السميك الذي تناول منه فاكهته الأخيرة. كانا مهترئين يكسوهما التراب، وكانا سيبقيان هناك لو لم يأخذهما يسوع من دون تفكير، كأنه يطيع أمراً. ومن دون أن تلاحظ مريم، دسّ الخفين تحت حزامه. بادرة تشي برمزية مثالية، ابن يوسف البكر يستعيد ميراثه، لأن بعض الأشياء تبدأ ببساطة هكذا، وحتى يومنا هذا، يقول الناس، أصبحتُ رجلاً في حذاء أبي.

من مسافة غير بعيدة، كان الجنود الرومان يراقبون ما يحدث، متأهبين للتدخّل إذا اشتبهوا بسلوك مريب في صفوف الثكالى اللاتي يبكين على جثامين موتاهم. لكن لم يبد هؤلاء الناس أي مشكلة، وكان كلّ ما يفعلونه هو الصلاة على موتاهم متنقلين من جثمان إلى آخر. استمر ذلك أكثر من ساعتين. كانوا يرتلون الصلاة على أمواتهم وهم يمزقون ثيابهم. فوق كلّ جثة، أقرباء إلى اليسار، وآخرون إلى اليمين، أصواتهم تمزّق سكون المساء وهم ينشدون، يا ربّ، من هو الإنسان الذي تحرص عليه، وابن الإنسان الذي يجب أن تزوره، فما الإنسان إلّا هبّة ريح، تمرّ أيامه مثل ظلّ، يعيش ولا يرى الموت، وينقذ روحه بالهرب إلى القبر. الإنسان الذي تلده امرأة يُمنح القليل من الوقت، والكثير من القلق، يُزهر مثل زهرة، ومثل زهرة يموت، من هو الإنسان الذي تحرص عليه، وابن الإنسان الذي يجب أن تزوره. وبالرغم من ذلك، وبعد الإقرار بتفاهة الإنسان المطلقة في نظر الربّ، وبنغمات عميقة جداً كان يبدو أنها تنطلق من الأعماق لا من الأصوات نفسها، ارتفعت أصوات الجوقة تبجيلاً للإعلان أمام الربّ العظيم عن قيمتنا التي لا ريب فيها، لا تنس يا ربّ أنك جعلت الإنسان في مرتبة أدنى قليلاً من مرتبة الملائكة وتوّجته بالمجد والشرف. عندما وصل النادبون إلى جثة يوسف الذي لم يكونوا يعرفونه والذي كان آخر الرجال الأربعين، فتركوه بسرعة، لكن النجار كان قد أخذ معه إلى العالم الآخر كلّ ما يحتاج إليه. كانت عجلتهم مبرّرة، لأن القانون لا يسمح ببقاء المصلوبين بلا دفن حتى اليوم التالي، وقد بدأت الشمس تميل نحو الغروب. ولما كان يسوع شاباً، فلم يكن عليه أن يمزّق ثيابه لأنه معفى من مراسم الحداد هذه، لكن صوته الواضح القوي كان يعلو فوق أصوات الآخرين عندما راح يرتّل، مبارك أنت أيها الربّ، إلهنا، ملك

الكون، الذي خلقك بالعدل، وأبقاك حياً بالعدل، وغذّاك بالعدل، الذي بالعدل جعلك تعرف هذا العالم، وبالعدل سيبعثك، مبارك هو الربّ الذي يبعث الموتى. ممدداً على الأرض، ربما كان يوسف يسمع، إن كان لا يزال يحسّ بالألم الذي سببته له المسامير، هذه الكلمات أيضاً، وكان يجب أن يعرف أي جزء من عدالة الربّ يكمن في حياته، بعد أن لم يعد قادراً على أن يتوقع شيئاً آخر من أحد. أنهى النادبون الصلاة، وأصبح عليهم الآن أن يدفنوا موتاهم، لكن كان هناك عدد كبير من الموتى، وبدأ الليل يقترب بسرعة. فلم يعد بالإمكان إيجاد مكان ملائم لهم جميعاً، بعبارة أخرى، قبر حقيقي تغطيه حجارة، أما بالنسبة للفّ الجثامين بقماش الموتى أو حتى لفّهم بكفن بسيط، فلم يعد هناك أمل في ذلك أيضاً، لذلك قرّروا أن يحفروا خندقاً طويلاً يسعهم جميعاً، وهذه ليست المرة الأولى التي يدفن فيها الرجال بهذه الطريقة ولن تكون الأخيرة. وأُعطي يسوع أيضاً مجرفة، وشرع يحفر بقوة بجانب الكبار.

هكذا أقرّت حكمة القدر بأن يُدفن يوسف في قبر يحفره له ابنه، لتتحقق النبوءة القائلة بأن ابن الإنسان سيدفن الإنسان، بينما يبقى هو نفسه بلا دفن. ومهما شاب هذه الكلمات من الغموض في البداية، فإنها لا تبين إلّا الواضح، لأن الإنسان الأخير، لكونه الأخير، لن يجد من يدفنه. لكن هذا لا ينطبق على الصبي الذي دفن والده للتو، والعالم لن ينتهي به، وسنكون هنا لآلاف وآلاف من السنين في تعاقب متواصل من الولادات والوفيّات، وإذا كان الإنسان دائماً هو الخصم العنيد وقاتل الإنسان، فهو السبب الذي يجعله يستمر في أن يكون حفّار قبور الإنسان.

اختفت الشمس وراء الجبل. كانت سحب داكنة ضخمة فوق وادي

الأردن تتجه غرباً، كما لو كان هذا الضوء الباهت الذي يلوّن حافاتها العليا بلون قرمزي تسحبها. بغتة أصبح الجو بارداً، وبدا أن المطر سيهطل قريباً هذه الليلة مع أنه لم يكن فصل الأمطار. مستغلّين الضوء المتضائل المتبقي، انسحب الجنود ليعودوا إلى معسكرهم الذي لم يكن يبعد كثيراً والذي وصل إليه رفاقهم في السلاح بعد قيامهم بمهام تفتيش مماثلة في الناصرة. هكذا ينبغي أن تخاض الحرب، بأقصى درجات التنسيق، لا بالأسلوب العشوائي الذي يتبعه متمردو يهوذا الجليلي، وها هي النتيجة جلية أمام الجميع. فقد صُلب تسعة وثلاثون رجلاً من رجاله، وكان الرجل الأربعون رجلاً بريئاً جاء يحمل أفضل النوايا ولقي حتفه البائس. وسيبحث أهالي صفورية بين حطام مدينتهم المحترقة عن مكان يقضون فيه ليلتهم، وعندما يطلع النهار، ستنتشل كلّ عائلة الممتلكات التي يمكنها أن تحصل عليها من تحت ركام بيوتها المحترقة، ثمّ تنطلق لتبدأ لنفسها حياة جديدة في مكان آخر، لأن صفورية لم تدمر عن بكرة أبيها ولم تسوّ بالأرض تماماً إلّا لأن روما كانت حريصة على ألّا يعاد بناء المدينة لفترة من الزمن. لم تكن مريم ويسوع سوى ظلين في وسط غابة مظلمة لا تضم إلّا جذوع أشجار. ضمت الأمّ ابنها إلى صدرها. روحان خائفتان تفتّشان كروح واحدة عن الشجاعة. قال يسوع لأمّه، لنمض الليلة في المدينة، لكن مريم قالت، لا نستطيع، فإخوتك وأخواتك وحدهم في البيت ولا بد أنهم جائعون. كانا يريان موطئ قدميهما بصعوبة. وبعد الكثير من التعثّر، وصلا أخيراً إلى الطريق الذي امتدّ في الظلام مثل قاع نهر جافّ. ما إن غادرا صفورية حتى بدأت الأمطار تهطل، قطرات ثقيلة في البداية، تبعث صوتاً لطيفاً عندما تلامس التراب السميك على الأرض. ازداد المطر عناداً، سرعان ما تحوّل التراب إلى طين، فاضطرت مريم وابنها إلى

خلع نعليهما كي لا ينسلّا من قدميهما ويفقدانهما. راحا يمشيان بصمت، الأمّ تغطّي رأس ابنها بعباءتها، لا يوجد لديهما شيء يقوله أحدهما للآخر، بل ربما كانا يفكران في سريرتهما بأن يوسف لم يمت، وعندما يصلان إلى البيت، سيجدانه يعتني بالأطفال، وسيسأل زوجته، ما الذي جعلك تخرجين بحق السماء بدون إذني، لكن الدموع ملأت عيني مريم مرة أخرى، لا من حزنها فقط، إنما من هذا التعب اللانهائي أيضاً، وهذا المطر الذي يهطل بغزارة بلا هوادة، والظلام الدامس أيضاً، وجميعها شديدة الحزن والسواد من شأنها أن تزيل أيّ أمل بأن يكون يوسف لا يزال حياً.

في أحد الأيام، سيخبر أحدهم الأرملة عن المعجزة التي شوهدت عند أبواب صفورية، عندما مدّت جذوع الأشجار التي استُخدمت لصلب السجناء جذورها من جديد ونمت على أغصانها أوراق جديدة، والمعجزة هي الكلمة الملائمة، أولاً، لأن الرومان اعتادوا على حمل الصلبان معهم عندما يغادرون، وثانياً، لأنه لم يعد في تلك الجذوع التي قُطعت من أعلاها ومن أسفلها نسغ أو فسائل قادرة على تحويل عامود غليظ ملطّخ بالدم إلى شجرة تنبض بالحياة. وقد نسب الساذجون هذه الأعجوبة إلى دمّ الشهداء، وعزاها المشككون إلى المطر، لكن لم يسمع أحد قط بأن الدم أو المطر يستطيعان أن يعيدا الحياة إلى الأشجار بعد أن تُحوّل إلى صلبان ثم تُترك على سفح جبل أو في صحراء جرداء. ولم يجرؤ أحد على أن يلمح إلى أن تلك هي مشيئة الربّ، لا لأن مشيئته، مهما كانت، غامضة ومبهمة فقط، إنما لأنه لا يمكن لأحد أيضاً أن يفكّر بأيّ سبب وجيه يجعل المصلوبين في صفورية يفيدون من هذا الكشف الغريب للنعمة الإلهية الذي يتفق أكثر مع أسلوب الآلهة الوثنية. ستعيش هذه الأشجار هنا لفترة طويلة، وسيأتي اليوم الذي تُنسى

فيه هذه القصة، وبما أن الإنسان يبحث عن تفسير لكلّ شيء، سواء أكان صحيحاً أم خاطئاً، فإنه ستُخترع حكايات وأساطير تحتوي على حقائق في بدايتها، ثمّ تبتعد شيئاً فشيئاً عن الحقائق إلى أن تصبح محض خيال. في النهاية، ستموت الأشجار بسبب تقدمها في العمر أو لأنها ستُقطع من أجل شقّ طريق أو بناء مدرسة أو بيت أو مركز تسوق أو قاعدة عسكرية، وسيكتشف المنقّبون هياكل عظمية طُمرت منذ ألفيْ سنة، وسيأتي علماء الأنثروبولوجيا، وسيفحص خبير في علم التشريح الرفات ويعلن أمام عالم مشدوه أن هناك دليلاً قاطعاً بأنّ رجالاً صُلبوا في تلك الأيام وثُنيت سيقانهم عند ركبهم. ولن يتمكن الناس من دحض هذه النتائج العلمية، مع أنهم يجدونها بائسة من الناحية الجمالية.

عندما وصلت مريم ويسوع إلى البيت مبللين بشدة بماء المطر، يكسوهما الطين، يرتعشان من شدة البرد، وجدا الأطفال في حال أفضل مما يمكن أن يتوقعه المرء، بفضل سعة حيلة يعقوب وليسا، أكبر الأطفال الآخرين سناً. فقد أوقدا النار عندما اشتدت حدة البرد في الليل، وجلسوا جميعاً حولها وقد التصق أحدهم بالآخر، وحاولوا أن ينسوا وخزات الجوع. عندما سمعوا أحداً يقرع الباب، هرع يعقوب ليفتحه. كان المطر لا يزال ينهمر بغزارة عندما اجتازت أمّهم وشقيقهم عتبة البيت، وبدا أن هذا المطر سيُغرق البيت. حدّق الأطفال وعرفوا أن والدهم لم يعد عندما أغلق يسوع الباب، لكنّهم لم يقولوا شيئاً، حتى سأل يعقوب أخيراً، أين والدنا. تشرّبت أرضية الغرفة قطرات الماء التي تساقطت من ملابسهما المبللة، وكسرت قرقعة الحطب الرطب في الموقد الصمت. حدّق الأطفال في أمّهم. كرّر يعقوب السؤال، أين والدنا. فتحت مريم فمها لتقول شيئاً، لكن الكلمة، مثل أنشوطة الجلاد، خنقتها، فتدّخل يسوع وقال لهم لقد مات. ومن دون ن يعرف

السبب الذي جعله يفعل ذلك، ربما كإثبات بأن يوسف مات، أخرج خفّيه المبللين من حزامه وأراهم إياهما، وقال لهم لقد أعدتهما. كان الأطفال الأكبر سناً على وشك البكاء، لكن مشهد هذين الخفين المهترئين كان أكثر مما يتحملونه جميعاً، وسرعان ما أجهشت الأرملة وأطفالها التسعة في البكاء بحرقة شديدة. لم تعرف من ستواسي منهم، فجثت على ركبتيها، منهكة، وتحلّق أطفالها حولها، مثل عنقود عنب ليس بحاجة إلى أقدام تدوسه لاستخراج نبيذ الدموع الذي لا لون له. وحده يسوع ظل واقفاً، حاملاً الخفين، يفكّر بأنه سينتعلهما ذات يوم، أو في هذه اللحظة إذا تمكن من استجماع شجاعته. ابتعد الأطفال الواحد تلو الآخر عن أمّهم. تركها الأبناء الأكبر سناً بلباقة لحزنها، وحذا الأبناء الأصغر سناً حذوهم. لم يتمكنوا من مشاركة أمّهم حزنها، فراحوا يبكون. في هذه الحالة، مثل الأبناء الأكبر سناً راح الأطفال الأصغر الذين لم يكونوا يكون على شيء، يبكون أكثر.

جثت مريم في وسط الغرفة، كأنها تنتظر قراراً أو حكماً. عندما تذكّرت ملابسها المبللة، نهضت على قدميها. مرتجفة، فتحت صندوقاً وأخرجت منه ثوباً مرقّعاً قديماً لزوجها. أعطته ليسوع وقالت له اخلع ثوبك المبلل، والبس هذا، واذهب واجلس بجانب الموقد. ثمّ نادت ابنتيها، ليسا وليديا، وطلبت منهما أن ترفعا حصيرة لتشكلا حاجزاً لأنها ستغير ثيابها أيضاً قبل أن تبدأ بتحضير العشاء من الطعام المتبقي. جلس يسوع الذي ارتدى ثوب أبيه بجانب الموقد. كان الثوب طويلاً جداً عند الحاشية والأكمام، وفي أحوال غير هذه، كان أخوته سيسخرون منه لأنه أصبح يبدو مثل فزّاعة، لكن لم يكن هذا الوقت وقت مزاح، لا لأنهم كانوا حزينين فقط، بل بسبب الهيبة التي ظهرت على الفتى الذي بدا أن بنيته كبرت فجأة، وازداد هذا الانطباع عندما أخذ، بتمهل وبتعمد، أحد

خفّي أبيه المبللين ووضعه أمام الموقد. جاء يعقوب وجلس بجانب يسوع وسأله بصوت خفيض، ماذا حدث لأبينا. لقد صلبوه مع المتمردين الآخرين، همس يسوع. لكن لماذا. من يعرف، كان هناك أربعون رجلاً، وكان والدنا واحداً منهم. ربما كان هو أيضاً من المتمردين. عمّن تتحدّث. عن أبي طبعاً. مستحيل، لم يكن يبرح البيت وكان يعمل باستمرار. وماذا عن الحمار، هل وجدته. لم نجده في أي مكان، حيّاً أو ميتاً. أصبح العشاء جاهزاً. جلسوا جميعاً حول الطاسة وأكلوا الطعام القليل الموجود فيها. عندما انتهوا من تناول الطعام، غفا الأطفال الأصغر. كانت أرواحهم لا تزال مضطربة لكن أجسادهم كانت تحتاج إلى الراحة. مُدَّت الحصر التي ينام عليها الصبية على طول الحائط في زاوية الغرفة. قالت مريم للفتاتين، ستنامان معي هنا الليلة، وسأنام أنا في وسطكما حتى لا تغار إحداكما من الأخرى. تسلل هواء بارد من شق الباب، لكن البيت ظلّ دافئاً، من الحرارة التي كانت لا تزال تنبعث من الموقد. شيئاً فشيئاً، غطّ الأطفال في النوم وقد تكدس أحدهم فوق الآخر بالرغم من أنينهم. حبست مريم دموعها وانتظرتهم حتى يغطّوا في النوم، لأنها كانت تريد أن تحزن وحدها. كانت عيناها مفتوحتين على وسعيهما وهي تفكّر بمستقبلها من دون زوج ومع تسعة أفواه يجب إطعامها. لكن فجأة غادر الحزن روحها، واستسلم جسدها للتعب الشديد، وما هي إلّا لحظات حتى كانوا جميعاً يغطون في سبات عميق.

في منتصف الليل، صحت مريم على صوت أنين. خيّل إليها أنّها حلمت بأنها تسمعه، لكنّها لم تكن تحلم، لأنها سمعته مرة أخرى، هذه المرة بصوت أعلى. بذلت كل ما بوسعها لكي لا تزعج ابنتيها، انتصبت في جلستها، وتطلعت حولها، لكن الضوء المنبعث من

الفانوس لم يكن يصل إلى الطرف الآخر من الغرفة. أيّهم يا ترى، تساءلت، لكنها عرفت في قلبها أن يسوع هو الذي أطلق الأنين. نهضت بهدوء. ذهبت لتجلب الفانوس المعلّق على مسمار بالباب. رفعته فوق رأسها وراحت تمعن النظر في أطفالها واحداً تلو الآخر. كان يسوع يتقلّب في نومه، يتمتم لنفسه كما لو كان يرى كابوساً. لا بدّ أنه يحلم بأبيه. فمع أنه كان لا يزال فتى صغيراً، فقد رأى الكثير من الألم والموت والدم والتعذيب. فكّرت مريم بأنْ توقظه كي توقف معاناته هذه، لكنها سرعان ما غيّرت رأيها لأنها لم تكن تريد أن تعرف بما يحلم ابنها. ثمّ لاحظت أنّه، يا لها من حماقة، أمر لا مبرر له، أمر مهين، ينتعل خفّي والده. وجدت الأمر غريباً، وقد أحزنها موت هذا الرجل المسكين. لم تعرف بما تفكّر، عادت إلى حصيرتها. ربما بسبب هذين النعلين وذلك الثوب بدأ ابنها يعيش مرة أخرى مغامرة والده المميتة منذ اليوم الذي غادر فيه يوسف البيت. لقد انتقل الصبي إلى عالم الرجال حسب شريعة الربّ، وورث الآن ممتلكات يوسف القليلة، ثوب فيه رقع كثيرة وخفان باليان وأحلامه. إن يسوع يتتبع خطوات والده الأخيرة على الأرض. لم يخطر لمريم بأن ابنها يمكن أن يحلم بشيء آخر.

عندما طلع النهار كانت السماء صافية. كان النهار دافئاً وصافياً، ولم يكن ثمة ما يشير إلى هطول مزيد من الأمطار. في الصباح الباكر، انطلقت مريم مع أبنائها الذين هم في سن الدراسة، يصحبهم يسوع الذي، كما ذكرنا، أنهى تعليمه. في الكنيس، أخبرت مريم الأحبار عن موت يوسف والظروف المحتملة التي أدّت إلى صلبه، وأضافت بحذر، بأنها التزمت، بقدر الإمكان، بمناسك الدفن، مع أن ذلك قد تم بعجلة كبيرة. عندما أصبحت وحدها مع يسوع في طريق عودتهما إلى البيت، خطر لها أن تسأله لماذا قرّر أن ينتعل خفّي أبيه، لكن شيئاً أثناها عن

سؤاله في اللحظة الأخيرة. فمن الممكن أنه لن يستطيع أن يوضح لها سبب ذلك، وقد يشعر بالإحراج. وبعكس الطفل الذي يستيقظ في منتصف الليل ليسرق طعاماً ثم يُقبض عليه مُتلبساً، قد لا يستطيع تبرير فعلته لأنه كان جائعاً، إلّا إذا كان يقصد نوعاً من الجوع نجهله نحن. طرأت فكرة أخرى لمريم. فبعد أن أصبح ابنها ربّ الأسرة، فمن واجبها، باعتبارها أمّه وتابعة له، أن تبدي له كلّ الاحترام والاعتبار، وأن تبدي اهتماماً بالحلم الذي عكّر صفو نومه. هل كنتَ تحلم بأبيك، سألته، لكن يسوع تظاهر بأنه لم يسمعها وأشاح بوجهه عنها. لكن أمّه كرّرت السؤال بتصميم: هل كنتَ تحلم. دُهشت عندما أجابها ابنها، نعم. ثمّ أردف على الفور، لا. وتجهمت تعابير وجهه كأنه رأى والده الميت مرة ثانية. سارا صامتين. عندما وصلا إلى البيت، بدأت مريم تمشّط الصوف، وقالت لنفسها يجب أن تستغل مهاراتها وتبدأ تعمل لإعالة أولادها. في أثناء ذلك، أحضر يسوع، بعد أن نظر إلى السماء ليتأكد من أن الطقس جيد، طاولة عمل أبيه، وفكّر في الأعمال التي عليه أن ينجزها، وتفحص الأدوات المختلفة. سُرّت مريم لرؤية ابنها يتحمّل مسؤولياته الجديدة بجدية. عندما عاد الأولاد الأصغر من الكنيس وجلسوا جميعاً لتناول الطعام، لا يستطيع إلّا المراقب الدقيق أن يخمّن بأنّ هذه الأسرة قد فقدت زوجاً وأباً للتو. فقد بدا على حاجبي يسوع الداكنين المرتعشين القلق، في حين بدا الهدوء على وجوه الآخرين، بمن فيهم مريم، لأنه كما هو مدوّن في الكتب، ابكِ بمرارة وانتحب بحرقة، ولا تجعل حزنك وحدادكَ يزيد على يوم أو يومين، كي لا يتحدّثوا عنك بالسوء وأرح نفسك من حزنك، لأنه مكتوب أيضاً أن لا تسلم قلبك للحزن. أبعده عنك، وتذكّر النهاية الأخيرة، ولا تنس بأنه لن يعود ثانية، وأنك لن تربحه بحزنك، ولن تؤذي إلّا نفسك. وسيكون

هناك وقت للضحك والابتهاج، كما هو أكيد بأن يوماً سيعقبه يوم آخر، وفصلاً سيعقبه فصل آخر، وأن أفضل هذه الدروس قاطبة تأتي من «سِفر الجامعة» الذي يقول، لا يستطيع الإنسان أن يتمتع بتناول ثمار تعبه، لأن الربّ هو الذي ينعم عليه بها، وبدونه من يستطيع أن يأكل ويتمتع. إن الربّ يعطي لمن يرضيه حكمة ومعرفة وفرحاً. في عصر ذلك اليوم، خرج يسوع ويعقوب إلى الفناء لإصلاح السقف الذي تسرّب منه ماء المطر طوال الليل. وإذا تساءل أحدكم لماذا لم نذكر هذه المشكلة المنزلية البسيطة من قبل، فدعني أذكّره بأن موت كائن بشري يحظى بأسبقية على كلّ الأمور الأخرى.

هبط الليل مرة أخرى، وسرعان ما سيبزغ يوم آخر. تناول أفراد الأسرة أفضل ما يمكنهم تناوله من طعام على العشاء، ثمّ استلقوا على حصرهم ليخلدوا إلى النوم. استيقظت مريم، مجفلة، في الساعات الأولى، لا، لم تكن هي التي تحلم، بل يسوع. كان سماع أنينه يمزق نياط القلب الذي أيقظ أخوته الكبار، لكنّه سيأخذ وقتاً أطول بكثير لإيقاظ الأطفال الصغار المستمتعين بنوم بريء هانئ عميق. رأت مريم ابنها يتقلّب على حصيرته، رافعاً ذراعيه كأنه يدفع عنه سيفاً أو رمحاً، لكنّه هدأ شيئاً فشيئاً، إمّا لأن الذين كان يهاجمونه قد انسحبوا أو لأن حياته بدأت تنحسر. فتح يسوع عينيه وراح يبكي بين ذراعي أمّه مثل طفل صغير. حتى الرجال يصبحون أطفالاً عندما يشعرون بالخوف أو بالانزعاج، لكنهم لا يعترفون بذلك، هؤلاء المساكين لكن لا يوجد شيء أفضل من البكاء للتخفيف من حزن إنسان. ما خطبك يا بني، ما الذي يزعجك، سألته مريم جزعة. لم يستطع يسوع أن يردّ أو أنه لم يشأ أن يردّ، فلم يعد هناك شيء طفولي في هاتين الشفتين المزمومتين. قل لي بماذا كنت تحلم، أصرّت مريم، محاولة أن تشجعه على أن يتكلم،

هل رأيتَ أباك. هزّ الصبي رأسه، وحرّر ذراعيه، وتهاوى على حصيرته. حاولي أن تنامي قليلاً، قال لها، ثم التفت نحو إخوته، لا شيء، عودي إلى نومك، سأكون على ما يرام. عادت مريم إلى ابنتيها لكن لم يغمض لها جفن حتى الصباح، لأنها كانت تتوقع أن يعود حلم يسوع في أيّ لحظة. تساءلت ماذا يمكن أن يكون هذا الحلم حتى يعاني من كلّ هذا الألم. لكن لم يحدث شيء آخر. لم يخطر ببالها أنّ ابنها قد يكون لا يزال صاحياً أيضاً حتى لا يعاوده الحلم. قالت لنفسها يا لها من صدفة غريبة أن يبدأ يسوع الذي يستغرق عادة في النوم برؤية كوابيس بعد موت أبيه مباشرة، وتضرعت بألّا يكون نفس الحلم. وإن كانت فطرتها السليمة تؤكد لها بأن الأحلام لا تورّث ولا تنتقل بالوراثة، فإنها في وهم كبير، لأن الآباء ليسوا بحاجة إلى أن يفضوا بأحلامهم إلى أبنائهم حتى يحلموا بنفس الحلم في الساعة ذاتها.

طلع النهار أخيراً، وتسلل ضوء الصباح عبر الشقّ في الباب. عندما فتحت مريم عينيها، لم تر يسوع مستلقياً على حصيرته. إلى أين ذهب، تساءلت. نهضت ونظرت خارج البيت. رأته جالساً على سرير من القشّ تحت العريشة، دافناً رأسه بين ذراعيه. متأثرة من برودة هواء الصباح ومن رؤية عزلة ابنها، توجهت إليه وسألته، هل أنت مريض. رفع الصبي عينيه وقال، لا، لستُ مريضاً. إذاً ما الذي يزعجك. تلك الأحلام التي أراها باستمرار. تقول أحلام. لا، رأيت الحلم نفسه في الليلتين السابقتين. هل حلمت بأن والدك مصلوب. لا، قلت لك للتو، إني أحلم بأبي لكني لا أراه. قلت لي إنك لم تكن تحلم به. لأنني لا أراه، لكنّه موجود في أحلامي. وما هو هذا الحلم الذي لا ينِي يعذّبك.

لم يجب يسوع على الفور، بل نظر إلى أمّه بعينين بائستين، وأحسّت مريم بأن إصبعاً لمس قلبها. هنا كان ابنها أشبه بصبي صغير،

بذلك التعبير الشاحب لشخص لم يعرف النوم، لكن بوادر ظهور لحية على وجهه أثارت مشاعر حنونة فيها، فهذا ابنها البكر الذي ستعتمد عليه طوال حياتها. احك لي كلّ شيء، قالت متوسلة، فتكلّم يسوع أخيراً وقال، أحلم بأنني في قرية ليست الناصرة وبأنّك معي، لكنّكِ لم تكوني أنتِ، لأن المرأة التي هي أمّي في الحلم تبدو مختلفة تماماً، وهناك فتيان آخرون في عمري، يصعب تحديد عددهم، مع نساء قد يكنّ أمهاتهم، وجمعنا أحدهم في ساحة وكنا ننتظر وصول الجنود لقتلنا. كان بإمكاننا أن نسمع وقع خطواتهم على الطريق عندما اقتربوا، لكنّنا لم نكن نستطيع أن نراهم. لم أكن خائفاً لأني أعرف أنّه مجرد حلم، وفجأة، تأكّدت من أن أبي يرافق الجنود، فاستدرت نحوك لتحميني، مع أنك قد لا تكونين أمّي الحقيقية، لكني لم أرك لأن جميع الأمهات كن قد ذهبن وتركننا نحن الأطفال وحدنا. لم نكن صبية بل أصبحنا أطفالاً صغاراً. كنت مستلقياً على الأرض وبدأت أبكي، وبدأ جميع الأطفال الآخرين يبكون أيضاً، لكني كنت الطفل الوحيد الذي يرافق والده الجنود. رحنا ننظر إلى الفتحة في الساحة التي سيأتي منها الجنود، لكن لم تكن هناك أي إشارة تدّل على مجيئهم، وظللنا ننتظر لكن لم يحدث شيء، ومع ذلك، كانت خطواتهم تزداد قرباً، إنهم هنا، لا، لم يصلوا بعد، ثمّ رأيت نفسي كما أنا الآن، محصوراً داخل الطفل الرضيع، أكافح حتى أخرج. كنت كما لو كانت يداي وقدماي مغلولة. ناديتك، لكنّك لم تكوني هناك. ناديت أبي القادم ليقتلني، عندها استيقظت في الليلة الماضية والليلة التي قبلها. عندما قال ذلك، ارتجفت مريم رعباً، وأخفضت عينيها ألماً، فقد تأكدت لها أسْوَأ مخاوفها. لقد حلم يسوع بشكل لا يمكن تفسيره، حلم أبيه، لكن بشيء من الاختلاف. سمعت ابنها يسألها، بمَ كان أبي يحلم كلّ ليلة. كان

كابوساً مثل أيّ كابوس آخر. لكن بأي شيء كان يحلم. لا أعرف، لم يخبرني. هيا يا أمي، لا تخفي عن ابنك الحقيقة. من الأفضل نسيانه، وليس من الجيد أن تعرفه. كيف تعرفين ما هو الشيء الجيد أو السيئ بالنسبة لي. أظهر شيئاً من الاحترام لأمّك. بالطبع إني أحترمك، لكن لماذا تخفين عني أشياء تخصني. لا ترغمني على قول المزيد. ذات يوم سألت أبي لماذا يأتيه ذلك الحلم بالذات، فقال لي لا يحق لي أن أسأله، وبأنه لن يخبرني بأي شيء. حسناً إذاً، لماذا لا تقبل كلمات أبيك. لقد قبلتها عندما كان حياً، لكني أصبحت رجلاً الآن، وورثت ثوبه ونعليه وحلمه، وأصبح بإمكاني أن أخرج بها إلى العالم، لكن يجب أن أعرف المزيد عن الحلم. ربما لن يعود. محدّقاً في عيني أمّه، قال لها يسوع، لن أصرّ على معرفته إذا لم أر الحلم مرة أخرى، لكن إذا رأيته ثانية، اقسمي لي بأنك ستحكين لي كلّ شيء. أقسم، أجابت مريم، راضخة لإصرار ابنها وسلطته عليها. من أعماق قلبها انطلقت صلاة صامتة إلى الربّ، صلاة بدون كلمات، لعلها الصلاة التالية: يا ربّ، اجعل هذا الحلم يؤرق لياليّ حتى يوم مماتي، لكنّي أتضرع إليك، أنقذ ابني، أنقذ ابني. قال يسوع محذراً: لا تنسي وعدك. لن أنساه، قالت مريم تطمئنه، مكرّرة لنفسها، أنقذ ابني، يا رب، أنقذ ابني.

لكن ابنها لم يُنقذ. هبط الليل، وصاح ديك أسود عند الفجر، وعاد الحلم، وظهر رأس أول حصان عند الناصية. سمعت مريم أنين ابنها لكنها لم تنهض لتريحه. كان يسوع يرتعد خوفاً وينضح عرقاً، وعرف أنّ أمّه مستيقظة تسمعه. بمَ ستخبرينني، تساءل. بينما قالت مريم لنفسها، بمَ سأخبره، وفكرّت كيف يمكنها ألّا تخبره بكلّ شيء. في الصباح، عندما كانت تجهّز أولادها للذهاب إلى الكنيس، قال لها يسوع، سآتي

معك، عندها يمكننا أن نتحدّث في الصحراء. أحست بتوتر شديد، وظلت أشياء تقع منها عندما كانت تعدّ الطعام، لكن خمرة المصائب قد صُبّت وعليها أن تشربها الآن. عندما أوصلا الصغار إلى الكنيس، غادرت مريم ويسوع القرية، وجلسا تحت شجرة زيتون حيث لا يوجد أحد غيرهما إلّا الربّ، إذا صادف أن كان هناك، ولعله سمع حديثهما. لأنه لا يمكن للأحجار، كما نعرف، أن تتكلم، حتى لو فركنا الواحدة بالأخرى، وفي التراب تحتهما، فإن كلّ كلمة يقولانها تتحوّل إلى صمت. قال يسوع، يجب أن تفي بوعدك الآن. فأخبرته مريم على الفور، وقالت كان أبوك يحلم بأنه جندي يسير مع جنود آخرين متوجهين لقتلك. لقتلي. نعم، لقتلك. لكن هذا حلمي أيضاً. أعرف، قالت له وأطلقت تنهيدة ارتياح. إنه أسهل مما تخيّلت، قالت لنفسها قبل أن تقول ذلك بصوت مسموع، الآن، بعد أن عرفت، قالت له: لتذهب إلى البيت، فالأحلام مثل الغيوم، تأتي وتذهب، لقد ورثت هذا الحلم عن أبيك لأنك كنت تحبّه كثيراً، إنه لمْ يكن يريد أن يقتلك، ولا يمكنه أن يفعل شيئاً كهذا في حياته، وحتى لو أمره الربّ نفسه بذلك، فإن ملاكاً كان سيوقف يده، كما فعل مع إبراهيم عندما همّ بأن يضحّي بابنه إسحاق. لا تتحدثي عن أشياء لا تعرفينها، قال يسوع بفظاظة. فأدركت مريم بأنّ الخمرة المرّة يجب أن تُشرب حتى الثمالة. ما أعرفه يا بني أنّ مشيئة الرب يجب أن تتحقق، مهما كانت، وإذا أمر بشيء الآن وبشيء مختلف تماماً بعد ذلك، فإننا لا نستطيع أن نفعل شيئاً. عندما أنهت كلامها، شبكت مريم يديها في حضنها وجلست تنتظر. سألها يسوع، هل ستجيبين عن كلّ أسئلتي. قالت، طبعاً. منذ متى بدأ أبي يرى هذا الحلم. منذ عدة سنوات. منذ كم سنة. منذ اليوم الذي ولدت فيه. هل كان يأتيه الحلم كلّ ليلة. نعم، أظن ذلك، وبعد فترة لم يعد يهتم بأن

يناديني ويقول لي، لأن الناس يعتادون على الكوابيس. أخبريني يا أمّي، هل ولدتُ في بيت لحم في منطقة يهوذا. هذا صحيح. ماذا حدث عندما ولدتُ حتى يحلم أبي بأنه سيقتلني. لم يحدث ذلك عندما ولدت. لكنّكِ قلتِ ذلك. لقد بدأ يرى الحلم بعد عدّة أسابيع. بعد أي شيء. لقد أمر هيرودس بقتل جميع الأطفال دون الثالثة من العمر. لماذا. كنت أتمنّى أن أعرف. هل كان أبي يعرف. لو كان يعرف، فلم يخبرني بذلك قط. إذاً لماذا لم يعثر عليّ جنود هيرودس. لأننا كنّا نعيش في كهف عند مشارف القرية. أتقصدين أن الجنود لم يقتلوني لأنهم لم يعثروا عليّ. نعم. هل كان أبي جندياً. لا أبداً. ماذا كان يفعل آنذاك. كان يعمل في موقع بناء الهيكل. لم أفهم. إني أحاول أن أجيب على أسئلتك. لكن إذا لم يعثر الجنود عليّ لأننا نعيش خارج القرية، وإذا لم يكن أبي جندياً، فلم يكن مذنباً، وإذا لم يكن يعرف لماذا أمر هيرودس بقتل الأطفال. صحيح، لم يفهم والدك لماذا أمر هيرودس بقتل هؤلاء الأطفال. إذن. لا يوجد شيء آخر يمكنني أن أخبرك به، وإذا كانت لديك أسئلة أخرى تريد أن تسألها، فقد أخبرتك بكلّ ما أعرفه. إنك تخفين شيئاً عني. ربما أنّك أعمى.

لم يقل يسوع شيئاً آخر، وشعر بأن سلطته بدأت تتبخر مثل الرطوبة في التربة، وأحسّ بأن فكرةٍ تافهة لكنها بشعة كانت لا تزال تتردد في عقل منذ لحظة ولادتها. فقد رأى قطيع أغنام تجتاز سفح التلة المقابلة، وكان لون الراعي والخراف بلون التراب، مثل تراب يتحرّك فوق تراب. زحفت المفاجأة فوق وجه مريم المتوتر، ذاك الراعي الطويل القامة، طريقة مشيته تلك، بعد عدة سنوات وفي هذه اللحظة بالذات، هل هذا فأل حسن، لكنها حدّقت بعد ذلك بقوة، ولم تكن متأكدة تماماً لأن الراعي بدا الآن مثل أيّ راعٍ آخر في الناصرة وهو يقود قطيعه إلى

المرعى، وكانت الخراف تتوقف مثل صاحبها. كانت الفكرة التي خطرت ببال يسوع، التي بذل جهداً كبيراً لإخراجها تقول إن والده كان يعرف أن أولئك الأطفال سيُقتلون. لم يكن سؤالاً، لذلك لم يتعين على مريم أن تجيب. كيف عرف. هذه المرة كان سؤالاً. كان أبوك يعمل في موقع الهيكل بأورشليم عندما سمع بعض الجنود يناقشون الأمر الذي صدر لهم وكان عليهم أن ينفذوه، ثمّ هرع لإنقاذك، بعدها قال إنه لا داعي لأن نهرب إذا مكثنا في الكهف. ثمّ. هذا كلّ شيء، فقد نفّذ الجنود الأوامر التي صدرت لهم ثمّ غادروا، بعدها عدنا إلى الناصرة. ومتى بدأ الحلم. كانت المرة الأولى في الكهف. مفعماً بالحزن، غطّى يسوع وجهه بيده وصاح، لقد قتل أبي أطفال بيت لحم. ماذا تقول يا بني، لقد قتلهم جنود هيرودس. لا، أبي هو المسؤول، يوسف بن إلي هو الذي يتحمّل مسؤولية قتلهم لأنه كان يعرف أن هؤلاء الأطفال سيُقتلون ولم يفعل شيئاً ليحذّر ذويهم. ما إن قيلت هذه الكلمات، حتى ضاع كلّ أمل بالعزاء إلى الأبد. ألقى يسوع بنفسه على الأرض وأجهش في البكاء. كان هؤلاء الأطفال أبرياء، أبرياء، راح يردد بمرارة. من المثير للدهشة أنّ فتى بسيطاً في الثالثة عشرة من عمره يتفاعل بهذه الحدة، عندما يتخيّل المرء إلى أي درجة يمكن أن يكون الأطفال في هذا العمر أنانيين، وكيف يمكن أن يكون معظم الناس غير مبالين بما يصيب الآخرين من مصائب. لكن ليس جميع الناس على شاكلة واحدة، فهناك استثناءات للأفضل وللأسوأ، ومن الواضح أن هذا واحد من أفضلهم، فتى صغير يبكي بكلّ جوارحه لأن والده ارتكب خطأً منذ سنوات، لكنّه من الممكن أنه يبكي على نفسه أيضاً، إذا كان، كما يبدو، أنه يحبّ هذا الأب المذنب. مدّت مريم يدها لتهدئ من روعه، لكن يسوع أبعد يدها وقال، لا تلمسيني، فأنا مجروح. ابني يسوع. لا

تدعيني ابنك، فأنتِ مذنبة أيضاً. هكذا يطلق المراهقون أحكامهم السريعة لأن مريم بريئة مثل الأطفال الذين قُتلوا، فكما تعرف كلّ امرأة، فإن الرجال هم من يتّخذون القرارات. جاء زوجي وقال، سنغادر، ثمّ غيّر رأيه وبدون ذكر تفاصيل عاد وقال لن نغادر، بل إني سألته، ما ذاك الصراخ الذي أسمعه في الخارج. لم تحاول مريم أن تدافع عن نفسها. كان من السهل أن تثبت براءتها، لكنّها تذكرت زوجها المصلوب الذي قُتل هو أيضاً مع أنه كان بريئاً، وبالرغم من خزيها وحزنها أدركت أنها أصبحت تحبّه الآن أكثر مما كانت تحبّه عندما كان على قيد الحياة، ولم تنبس ببنت شفة، لأن ذنب شخص قد يتحمله شخص آخر. فقالت ببساطة، لنعد إلى البيت، فلم يعد هناك شيء نناقشه. فأجاب ابنها، اذهبي أنتِ واتركيني وحدي. لم يعد هناك أثر للراعي أو للخراف التي كانت تسير، وأقفرت الصحراء تماماً، وحتى البيوت القليلة المتناثرة فوق المنحدر في الأسفل أصبحت تبدو مثل كتل من الحجارة في موقع بناء مهجور، تغوص شيئاً فشيئاً في الأرض. عندما اختفت مريم عن الأنظار في أعماق الوادي الرمادي، جثا يسوع على ركبتيه وصاح، وجسمه كله يحترق كما لو كان ينضح دماً، أبي، أبي، لماذا تركتني، لأنه هكذا كان يشعر الصبي المسكين، مهجوراً، ضائعاً في العزلة اللانهائية لبريّة أخرى، بلا أب، بلا أمّ، بلا إخوة أو أخوات، وأصبح يسير على طريق الموت. مختفياً وراء خرافه، جلس الراعي يراقبه من بعيد.

بعد يومين، خرج يسوع من البيت. خلال تلك الفترة، لم يتكلم إلّا قليلاً. لم يغمض له جفن فأمضى الليالي مستيقظاً. كان يتخيّل المذبحة المريعة، الجنود يقتحمون البيوت ويفتشونها بحثاً عن الرضع، وسيوفهم تهوي وتطعن الأجساد الصغيرة الغضة. الأمهات بائسات والآباء يجأرون مثل ثيران مقيّدة بالسلاسل. وتخيّل نفسه أيضاً في داخل كهف لم يره من قبل. في تلك اللحظات، كما لو أنّ موجات ضخمة كانت تبتلعه ببطء، تمنّى أن يكون قد مات، أو على الأقل ألّا يكون حياً. سؤال واحد كان يؤرقه لم يسأل أمّه عنه وهو كم عدد الأطفال الذين قُتلوا. في عين رأيه كان الأطفال مكدسين فوق بعضهم بعضاً، مثل حملان مقطوعة الرؤوس مرمية في كومة وعلى وشك أن تُحرق في حريق هائل، وبعد أن تستحيل رماداً ستصعد إلى السماء في هيئة دخان. لكن بما أنه لم يسألها هذا السؤال عندما حكت له هذه القصة، شعر بأنّه لا يستطيع أن يذهب إليها الآن ويقول لها، بالمناسبة يا أمّي، لقد نسيت أن أسألك في ذلك اليوم، كم طفلاً في بيت لحم نُقلوا إلى حياة أفضل، فتجيبه، آه يا بني، حاول أن تنسى الأمر، فلم يكن عددهم يزيد على ثلاثين طفلاً، وإذا كانوا قد ماتوا، فإنها مشيئة الربّ، لأنه كان باستطاعته أن يمنع حدوث هذه المذبحة لو شاء. لكن يسوع لم يكفّ

عن التساؤل، كم كان عددهم، وسينظر إلى إخوته ويسأل نفسه، كم كان عددهم. كم جسداً. أراد أن يعرف لكي يرجّح كفّة الميزان لصالح خلاصه. وفي صباح اليوم التالي، قال لأمّه، لم أعد أجد السلام وراحة البال في هذا البيت. ابقي هنا مع إخوتي، أما أنا فسأرحل. رفعت مريم يديها إلى السماء، مرعوبة وقد ترقرقت الدموع في عينيها. ماذا تقول يا بني البكر، هل يمكنك أن تترك أمّك الأرملة، من سمع بشيء كهذا، ماذا حلّ بالعالم، كيف يمكن أن يخطر ببالك أن تترك بيتك وأهلك، ماذا سيحلّ بنا من دونك. إن يعقوب يصغرني بسنة واحدة ويمكنه أن يحلّ مكاني ويعيلكم، كما كنت أفعل بعد وفاة زوجك. كان زوجي والدك. لا أريد أن أتحدّث عنه، لا يوجد لديّ ما أقوله أكثر من ذلك، امنحيني بركتك من أجل الرحلة التي أنا ذاهب بها أو بدونها. وإلى أين ستذهب يا بني. لا أعرف، ربما إلى أورشليم وربما إلى بيت لحم لأرى الأرض التي ولدتُ فيها. لكن لا أحد يعرفك هناك. ربما، لكن قولي لي يا أمي، ماذا يمكن أن يحدث إذا عرفني أحدهم. اصمت كي لا يسمعك إخوتك. سيأتي يوم سيعرفون فيه الحقيقة أيضاً. لكن هل فكّرت بالمخاطر التي قد تعترضك وأنت تسافر في مثل هذا الوقت عندما تمتلئ جميع الشوارع بالجنود الرومان بحثاً عن متمردي يهوذا الجليلي. الرومان ليسوا أسوأ من الجنود الذين كانوا يخدمون الراحل هيرودس، وليس من المحتمل أن يقتلوني بسيوفهم أو يسمّروني على صليب لأني لم أرتكب أي جريمة، فأنا بريء. وكذلك كان والدك وانظر ما حدث له. قد يكون زوجك قد صُلب بطريق الخطأ، لكن حياته لم تكن بريئة. يسوع، ابني، لا بد أن الشيطان قد تملّك لسانك. كيف تعرفين أنه لم يكن الربّ. لا تستخدم اسم الرب عبثاً. من يمكنه أن يعرف عندما يستخدم اسم الربّ عبثاً، لا أنت ولا أنا، الربّ وحده يعرف، وأنا أشكّ في أننا سنفهم

الأسباب التي جعلته يفعل ذلك. يا بني، من أين جاءتك هذه الأفكار وأنت في هذا العمر. من يعرف، لعل الرجال يولدون وهم يحملون الحقيقة في داخلهم. لكن لا تقلها لأنهم ليسوا متأكّدين تماماً بأنها الحقيقة، هكذا إذاً قرّرت أن تتركنا. نعم. ستعود. لا أعرف. إذا كان ذلك الحلم يؤرق بالك فاذهب إلى بيت لحم واذهب إلى الهيكل في أورشليم، واستشر المعلمين هناك الذين سيقدمون لك النصح ويريحون بالك ثم عد إلى أمّك وإخوتك الذين هم بحاجة ماسة إليك. لا يمكنني أن أعدك بأنني سأعود. لكن كيف ستعيش، فلم يعش أبوك المسكين طويلاً حتى يعلّمك كلّ ما يعرفه. لا تقلقي عليّ، سأعمل في الحقول أو سأرعى الغنم أو سأقنع بعض صيّادي السمك للعمل معهم في الصيد في البحيرة، لكني أفضّل أن أعمل راعياً. لماذا. لا أعرف، مجرد شعور، هذا كلّ ما في الأمر؛ سنرى ما سيحدث، والآن أمّاه، يجب أن أذهب. لكنك لا تستطيع أن تذهب هكذا، دعني أعدّ لك شيئاً من الطعام للرحلة، وكما تعرف فإننا لا نملك ما يكفي من النقود، لكن خذ بعض ما لدينا منها وخذ أيضاً جعبة والدك التي، لحسن الحظ، تركها. سآخذ الطعام لكني لن آخذ الجعبة. لم يكن أبوك مصاباً بالجذام. لا أستطيع. سيأتي يوم ستبكي فيه على أبيك وستندم لأنك لم تأخذها. لقد بكيت من أجله. ستذرف دموعاً كثيرة ولن تسأل عندئذ ما هي الخطايا التي ارتكبها. لم يحاول يسوع أن يردّ على هذه الكلمات. تحلّق الأطفال الأكبر سنّاً الذين لم يعرفوا ماذا دار بينه وبين أمّهم من حديث، حول يسوع وسألوه، هل ستسافر حقاً. ثم قال يعقوب أتمنّى أن أرافقك، لأن الصبي كان يحلم بالمغامرة، بالسفر، بعمل شيء مختلف يشي بالتحدي. يجب أن تبقى هنا، قال له يسوع، يجب أن يبقى أحدنا ليعتني بأمّنا المترمّلة. انسلّت كلمة مترمّلة من فمه من دون قصد، فعضّ شفته

ليحبسها لكن الشيء الذي لم يتمكن من حبسه هو دموعه، لأن ذاكرة أبيه النابضة أمسكته مثل شعاع ضوء مبهر على حين غرة.

بعد أن تناولوا الطعام معاً، غادر يسوع. ودّع إخوته واحداً واحداً، وعانق أمّه التي لم تتوقف عن البكاء، وقال لها، من دون أن يعرف السبب الذي دعاه إلى ذلك، سأعود دائماً، وألقى بجعبته على كتفه، وعبر الفناء وفتح الباب وخرج إلى الشارع. توقّف هناك كما لو كان مستغرقاً في التفكير. كم مرة نجد أنفسنا على وشك أن نجتاز عتبة البيت أو نتّخذ قراراً ما، فتخطر ببالنا فكرة أخرى تجعلنا نغيّر رأينا ونعود أدراجنا. أضاء وجه مريم بهذه المفاجأة المبهجة، لكن بهجتها لم تدم طويلاً، لأن يسوع وضع جعبته على الأرض وكان مستغرقاً في التفكير، ثمّ عاد وسار بين إخوته دون أن ينظر إليهم، ودلف إلى البيت. عندما خرج بعد لحظات، كان يحمل بيده خفّ أبيه. بصمت، مطرقاً، كما لو أن تواضعاً أو خجلاً خفياً منعه من النظر في عيونهم، وضع الخفّ في جعبته، ودون أن ينبس بكلمة واحدة، أو يبدي أي بادرة أخرى، غادر. جرت مريم نحو الباب يتبعها أطفالها. لم يبد الأخوة الأكبر سناً أي مبالاة، وبدا أن أحداً لم يلوّح مودعاً إياه لأن يسوع لم يلتفت إلى الوراء. سألت جارة كانت تمرّ في تلك اللحظة ورأت يسوع مغادراً، إلى أين سيغادر ابنك يا مريم. فأجابتها مريم، لقد وجد عملاً في أورشليم وسيمكث هناك فترة من الزمن. كذبة سافرة كما نعرف، لكن قول الحقيقة أو الكذب مسألة معقّدة، ومن الأفضل عدم إبداء أحكام أخلاقية متسرعة، لأن المرء إذا انتظر فترة كافية من الزمن، فإن الحقيقة ستصبح كذبة، والكذبة ستصبح حقيقة.

في تلك الليلة، عندما كان جميع من في البيت يغطّون في النوم ماعدا مريم التي كانت تتساءل عن حال ابنها وأين يمكن أن يكون في

تلك الساعة. هل هو نائم في أحد الخانات بأمان وسلام، أم أنه مكوّم تحت شجرة أم بين الصخور في أحد الوديان، أو لا سمح اللّه، أن يكون الرومان قد ألقوا القبض عليه ورموه في السجن. سمعت مريم صرير باب البيت يُفتح، فقفز قلبها من مكانه. لقد عاد يسوع، قالت لنفسها، ولوهلة غمرها شعور بالبهجة والاضطراب. ماذا عليّ أن أفعل. تردّدت هل تفتح الباب أم لا، لكي تبدو منتصرة وترحب به بعبارات من قبيل، لم تتأخر حتى تعود بعد أن سلبت النوم من أجفان أمك. سيكون ذلك مهيناً ومن الأفضل ألّا تقول له شيئاً، وأن تتظاهر بأنها نائمة وتدعه يدخل بهدوء، وإذا استلقى على حصيرته ولم يقل لي لقد عدتُ، فسوف أتظاهر غداً صباحاً بأنني فوجئت بعودة الولد الضال. ومهما قصرت فترة غيابه، فإن سعادتها ستكون عظيمة لأن الغياب أيضاً هو ضرب من الموت، والفرق الوحيد هو أنه لا يزال هناك أمل في حالة الغياب. لكن دخوله كان بطيئاً للغاية، من يعرف، لعله غيّر رأيه مرة أخرى. لم تعد مريم تحتمل هذا الترقّب. ستنهض وتنظر من شقّ الباب وستعود إلى حصيرتها من دون أن يراها إذا قرّر ابنها أن يدخل، وإذا حاول أن يغادر ثانية فإنها ستتمكن من منعه. مشت على أطراف أصابع قدميها الحافيتين نحو الباب. كان القمر مضيئاً، وكان الفناء منيراً كأنه صفحة ماء. لاحت لها هيئة داكنة طويلة تتحرّك ببطء. اقتربت من الباب، ما إن رأتها مريم حتى وضعت يدها على فمها لتكتم صرختها. لم يكن ابنها، إنما الشحاذ، تكسوه أسمال بالية كما رأته في المرة الأولى، لكن، ربما بسبب ضوء القمر، أصبحت تلك الأسمال فجأة تشبه ثوباً فخماً يتطاير مع هبات النسيم. فزعت وأقفلت الباب. ماذا يريد مني، تمتمت بشفتين مرتعشتين. تحرك الرجل الذي ادّعى بأنه ملاك وأصبح أمام الباب مباشرة، لكنه لم يحاول الدخول. كان بإمكان مريم أن تسمع

صوت أنفاسه. ثمّ سمعت صوت شيء يُفتح بقوّة، كأن الأرض انشقت وكشفت عن هاوية ضخمة. ظهر ظلّ الملاك الهائل مرة أخرى، ولوهلة حجب الريف وراءه، ودون أن ينظر إلى البيت، سار باتجاه الباب واقتلع الشجرة الغامضة التي نبتت في فناء البيت منذ قرابة ثلاث عشرة سنة، في البقعة التي دُفنت فيها الطاسة. وفي الفترة الفاصلة بين فتح الباب وإغلاقه، عاد الملاك إلى هيئة شحاذ واختفى وراء الحائط، هذه المرة بصمت مطبق، وسحب معه الأغصان المورقة كما لو كانت الشجرة حيّة مكسوة بالريش. فتحت مريم الباب بحذر ونظرت إلى الخارج. كان العالم يلمع تحت سماء بعيدة. عادت الحفرة التي أُقتلعت منها النبتة بجانب جدار البيت، ومن الحفرة وحتى الباب، توهج التراب كأنه درب التبّانة، لو كان هذا المصطلح معروفاً في ذلك الزمن. خطر لها ابنها الآن، لكنها لم تشعر بألم في قلبها، فلا بد أن مكروهاً لن يصيبه تحت قبة هذه السماء الجميلة الهادئة، وهذا القمر الذي يشبه المنّ المصنوع من النور، يغذّي جذور الأرض والينابيع. هدأت روحها. اجتازت الفناء، ووطأت النجوم بجرأة وبشجاعة الأرض، وذهبت لتفتح الباب. نظرت إلى الخارج. رأت الأثر قد تلاشى على مسافة قصيرة، كأن بريق الأوراق المزدهية بألوان قوس قزح قد أُطفئ، أو كأن شطحة أخرى من خيال هذه المرأة التي لم تعد تستطيع أن تتذرع بأنّها حامل، وعاد الشحاذ إلى هيئته كملاك واستخدم أخيراً جناحيه لإحياء هذه المناسبة الخاصّة. فكّرت مريم ملياً بهذه الأحداث الغريبة التي بدت لها بسيطة وطبيعية مثل يديها في ضوء القمر. دخلت إلى البيت، وأخذت الفانوس المعلّق بالمسمار على الحائط، ثمّ عادت لتلقي نظرة عن قرب على الفتحة العميقة حيث كانت النبتة. كانت الطاسة الفارغة لا تزال قابعة في قعر الحفرة. مدّت يدها ورفعتها. تذكّرت أنها ذات الطاسة

البسيطة، لكن بقي فيها قليل من التراب ولم يعد متوهجاً. طاسة منزلية عادية عادت إلى وظيفتها الطبيعية. فمن الآن فصاعداً، ستستخدمه لحفظ الحليب أو الماء أو النبيذ، حسب الحاجة، وكم صحيح ذلك القول الذي يذكّرنا بأن لكلّ امرئ ساعته، ولكلّ شيء أوانه.

وجد يسوع مكاناً لجأ إليه في الليلة الأولى من رحلته. فقد وصل إلى قرية صغيرة خارج بلدة جنين عند غروب الشمس. وبعكس القدر الذي كان ينذر بتعرضه لمحن وشقاء كثير منذ يوم ولادته، كان أصحاب البيت الذي لجأ إليه مضيافين، لم يكونوا ليغفروا لأنفسهم أن يتركوا فتى في هذا العمر في الفلاة طوال الليل بلا مأوى، لاسيما في مثل هذه الأوقات العصيبة التي تسود فيها المعارك وأعمال العنف، ويُصلب فيها الرجال ويقطع الأطفال الأبرياء إرباً إرباً من دون سبب. ومع أن يسوع قال لمضيفيه الرحماء بأنّه جاء من الناصرة وسيذهب إلى أورشليم، ولم يكذب عليهم تلك الكذبة المخزية التي سمع أمّه تقولها عندما قالت لجارتها إن ابنها ترك البيت ليبحث عن عمل. إنما قال لمضيفيه إنه سيذهب لاستشارة المعلّمين في الهيكل عن مسألة في الشريعة المقدّسة عن أسرته. أبدى ربّ الأسرة دهشته لأن توكل مسألة هامة كهذه إلى فتى في سنه، مهما كان متضلعاً في الأمور الدينية. وأوضح يسوع بأن أسرته كلفته بهذا الأمر لأنه الابن البكر، لكنه لم يأت على ذكر أبيه. تناول يسوع طعامه مع أفراد الأسرة، ثمّ نام تحت عريشة في فناء البيت، وهي أفضل مكان يمكن أن تقدمه الأسرة المضيفة لمسافر عابر. في منتصف الليل، عاد الحلم يطارده، مع أن والده والجنود لم يقتربوا منه كثيراً هذه المرة، ولم يظهر الحصان عند الناصية. لكن لا تظنّوا أن الحلم كان أقل رعباً من أحلامه السابقة. ضع نفسك في مكان يسوع وافترض بأنك حلمت بأن والدك الذي منحك الحياة يطاردك بسيف مشهر. لم يكن

الأشخاص النائمون في داخل البيت يعرفون المأساة الجارية في فناء بيتهم، لأن يسوع تكوّم على نفسه لإخفاء خوفه حتى وهو نائم. وعندما كانت وتيرة الخوف تزداد إلى حد لا يطاق، كان يضع يده على فمه غريزياً ليكتم صيحة ألم تخفق في رأسه. في صباح اليوم التالي، تناول الإفطار مع الأسرة، ثمّ شكرها على كرمها بعبارات فصيحة أحسّ فيها أفراد الأسرة بأنهم يتقاسمون السلام الذي لا يمكن وصفه مع الربّ. ومع أنهم سامريّون متواضعون، فقد ودّعوا يسوع الذي غادرهم، وكان صدى كلمات وداع مضيفه لا تزال تتردد في أذنيه، أنت مبارك أيها الربّ، إلهنا، ملك الكون، الذي يرشد خطانا. كلمات راح يكررها في نفسه، ممتدحاً الربّ، الملك، واهب كل ما نحتاج إليه، كما يمكننا أن نرى بوضوح من تجربتنا اليومية، وحسب تلك القاعدة الأكثر عدلاً بالتناسب الطردي التي تقول إنه يجب منح المزيد للذين يملكون أكثر.

لم تكن الرحلة إلى أورشليم سهلة. فهناك سامريون، وهناك سامريون، أي أنه، حتى في تلك الأيام، لم تكن رؤية طائر سنونو واحد تكفي للدلالة على حلول الصيف، إنما رؤية طائرين اثنين، لا صيفين، بشرط أن يكون هناك ذكر وأنثى قادرين على الإخصاب وإنجاب ذرية. فلم تُشرع الأبواب الأخرى التي قرعها يسوع، لذلك كان مسافرنا الشاب يضطر إلى النوم في العراء، مرة تحت شجرة تين كبيرة من النوع الذي يشكّل مظلة كبيرة تشبه تنورة عريضة من الأسفل وضيقة عند الخصر، ومرة أخرى بالانضمام إلى قافلة تنصب خيمة في العراء، لأنه لم يعد ثمة مكان في القافلة القريبة الأخرى. وعندما كان الفتى المسكين يجتاز جبلاً مقفراً، هاجمه لصان حقيران واستوليا على المبلغ الزهيد الذي بحوزته، مما يعني أن يسوع فقد أي أمل في العثور على مكان يأوي إليه في خان يصادفه لأن عليه أن يدفع لقاء كلّ شيء. وكلّ

من يرى ذلك، لا بد أن يشفق على الفتى الذي تركه هذان اللصان لمصيره البائس وراحا يسخران من محنته. كان مستلقياً هناك في حالة يرثى لها، ملتحفاً السماء ومحاطاً بالجبال في هذا الكون اللانهائي المجرد من أي اعتبار أخلاقي الذي تسكنه النجوم واللصوص والجلادون. قد يجادل المرء بأنه لا يمكن أن تكون لدى فتى في الثالثة عشرة من عمره معارف كافية من العلوم والفلسفة، ولا حتى خبرة كافية في الحياة، لأنه لا يمكن أن يكون بإمكان فتى في عمره، بالرغم من دراسته الأمور الدينية في الهيكل وموهبته الطبيعية في المناقشة، قول الكلمات والقيام بالأعمال التي تنسب إليه. فلم يكن هو الابن الوحيد الذي كان أبوه نجاراً في هذه البقاع، ولا الابن الوحيد الذي صُلب أبوه. لكن حتى لو كان قد اختير ابن رجل آخر، فإننا واثقون من أنه كان، كائناً من كان، سيمنحنا قدراً كبيراً من الغذاء الفكري كما فعل يسوع الفتى، وذلك، أولاً، لأنه من المعروف أن كل رجل هو عالم بحد ذاته من خلال درب التعالي أو من خلال الحلول، وثانياً، لأن هذه الأرض كانت مختلفة دائماً عن أي شيء آخر، وما على المرء إلّا أن يتذكر كم عدد الأشخاص، سواء أكانوا أغنياء أم فقراء، الذين عبروا هذا المكان وقدموا نصائح وألقوا مواعظ وأعطوا نبوءات، بدءاً من أشعيا حتى ملاخي والنبلاء والكهنة والرعاة، رجال من كل مشارب الحياة يمكن تصوّرهم، تعلّمنا ألّا نتسرّع في استخلاص الاستنتاجات، لأن الأصول المتواضعة لابن نجار لا تعطينا الحق في أن نتجاهله. فهذا الفتى الذاهب إلى أورشليم في زمن لم يكن فيه معظم الأطفال يجرؤون على تخطي عتبة باب بيتهم، قد لا يكون عبقرياً أو لامعاً، لكنه جدير باحترامنا. فقد أصيبت روحه، كما اعترف هو نفسه، بجرح عميق، وبما أن الجرح قد يلتئم بسرعة بسبب طبيعته التأملية، فقد خرج إلى العالم، ربما ليجمع

ندويه في حزن محدد واحد. قد يبدو من غير اللائق أن نضع نظريات معقدة لمفكرين معاصرين في رأس فتى فلسطيني عاش قبل فرويد ويونغ وغروديك ولاكان بسنوات كثيرة، لكن أرجو أن تغفروا لافتراضنا هذا، لأنه ليس من الحماقة التامة، عندما يرى المرء أن الكتب المقدسة التي تزود اليهود بغذائهم الروحي، تعلّم دائماً بأن البشر، مهما كان الزمان الذي يعيشون فيه، متساوون من حيث الذكاء مع البشر الآخرين جميعاً، وأن آدم وحواء هما الاستثناء الوحيد، لا لأنهما كانا أول رجل وامرأة فحسب، إنما لأنهما لم يعيشا مرحلة الطفولة أيضاً. ومع أننا نستطيع أن نستشهد بعلم الأحياء وبعلم النفس لإثبات أنه يمكن تتبع العقل البشري كما نعرفه اليوم إلى الإنسان العصري القديم، فلا جدوى من هذه المناقشة هنا، بما أن سِفر التكوين لم يأت على ذكر الإنسان العصري الأول، وهذا كلّ ما كان يسوع يعرفه عن بداية العالم.

إن استطرادنا بهذه التأملات التي لا صلة لها كثيراً بالإنجيل الذي نتحدث عنه، جعلنا ننسى، وهذا عار علينا، أن نصحب ابن يوسف في المرحلة الاخيرة من رحلته إلى أورشليم التي وصلها الآن، وهو معدم، لكنه وصلها بسلام. ومع أن قدميه قد تقرحتا من السير مسافة طويلة، فقد كان يتحلى بالشجاعة كما كان عندما غادر البيت قبل ثلاثة أيام. وبما أنه كان قد زار هذا المكان عندما كان صغيراً، فلم يكن متحمساً جداً كما قد يتوقع المرء من شخص مؤمن سيتجلّى له الربّ بعد حين. ومن هذا الجبل الذي يُعرف باسم الجسمانية، أو جبل الزيتون، حيث يستطيع المرء أن يرى روعة وبهاء مباني مدينة أورشليم: معبد المدينة وأبراجها وقصورها ومنازلها التي تعطي انطباعاً بأنها على مرمى حجر، لكن هذا الانطباع يعتمد على درجة الحماسة الروحية التي قد تؤدي إلى تشويش المؤمنين وتجعلهم يخلطون بين القيود المفروضة على الجسد

وبين القوة اللانهائية للروح الكونية. شارف المساء على الانتهاء، وبدأت الشمس تميل إلى الغروب فوق البحر البعيد. بدأ يسوع هبوطه إلى الوادي وهو يتساءل أين سيمضي الليلة، داخل أسوار المدينة أم خارجها. فعندما كان يأتي مع والديه إلى هذه المدينة في عيد الفصح، كانوا يمضون الليلة خارج أسوار المدينة، في خيم تقدمها السلطات المدنية والعسكرية للحجاج الذين كانوا منفصلين، غني عن القول، الرجال مع الرجال، والنساء مع النساء، أما الأطفال فكان يتم فصلهم بحسب جنسهم. عندما وصل يسوع إلى أسوار المدينة، كان هواء الليل قد أصبح شديد البرودة، وكان قد وصل في لحظة إغلاق أبواب المدينة، لكن الحراس سمحوا له بالدخول. عندما سقطت العارضات الخشبية الكبيرة في رتاجاتها وأغلقت الأبواب، بدأ الندم يساور يسوع لخطيئة سابقة، وتخيّل نفسه أنه وقع في مصيدة، أسنانها الحديدية على وشك أن تطبق عليه، مثل شبكة عنكبوت تطبق على ذبابة. لكن ليس من الممكن أن يكون فتى في الثالثة عشرة من عمره قد ارتكب خطايا كثيرة وخطيرة، فلم يكن يعيش في عصر يقتل أو يسرق فيه أو يشهد زوراً لأنه يشتهي زوجة جاره أو بيته أو حقوله، أو خدمه من الذكور والإناث، أو حماره أو ثوره أو أي شيء آخر يملكه جاره، لذلك كان هذا الفتى يسير نقياً غير مدنس، مع أنه قد يكون قد فقد براءته لأنه لا يمكن لأحد أن يكون قد رأى الموت بأمّ عينه ولا يتأثر.

في هذه الساعة من اليوم، عندما تجتمع الأسر لتناول العشاء، تقفر الشوارع ولا يبقى فيها إلّا الشحاذون والمشردّون الذين يلجؤون أيضاً إلى أوكارهم ومخابئهم لأن الجنود الرومان يجوبون الشوارع باستمرار بحثاً عن الأشرار الذين يتجاسرون على الدخول إلى عاصمة مملكة هيرودس أنتيباس وارتكاب كلّ أنواع الجرائم والمعاصي بالرغم من

الأحكام الشديدة والقاسية التي تنتظرهم إذا ألقي القبض عليهم، كما رأينا في صفوريه. عند نهاية الطريق، مرّت دورية ليلية يحمل أفرادها مشاعل وسط صليل السيوف والدروع، وعلى إيقاع أقدام تنتعل أحذية عسكرية. اختبأ الصبي في ركن مظلم وراح ينتظر حتى اختفى الجنود عن أنظاره، ثم بحث عن مكان يأوي إليه. وجد مكاناً بين مواقع البناء العديدة المنتشرة حول الهيكل. فجوة بين لوحين حجريين كبيرين، ولوح آخر في الأعلى يشكل سقفاً. تناول ما تبقى لديه من كسرة الخبز المتعفن ويضع حبات التين الجافة التي وجدها في قعر مخلاته. أحسّ بالعطش لكنه رضي بأن يبقى بدون ماء. تمدد على حصيرته، وغطى نفسه بعباءة صغيرة يحملها مع أمتعته، وتكوّر لاتقاء البرد الذي تسلل من جانبي ملاذه غير الآمن، ثم غفت عيناه أخيراً. إن قدومه إلى أورشليم لم يحل دون أن يحلم، لكن، ربما لأنه كان قريباً جداً من هيكل الربّ، فلم يكن حلمه سوى تكرار لمشاهد مألوفة اندمجت مع وصول دورية كان قد صادفها سابقاً. استيقظ عند شروق الشمس. متدثراً بعباءته، جرّ نفسه إلى خارج تلك الحفرة الباردة التي تشبه القبر، ولاحت أمامه بيوت أورشليم، البيوت الواطئة المشيّدة من الحجر التي جعل ضوء الصباح جدرانها بلون قرمزي فاتح. ثم، بوجل شديد نابع من لسان شخص لا يزال، بالرغم من كل شيء، صبياً، راح يردد صلاة الشكر، شكراً لك، إلهنا، ملك الكون، يا مَنْ مِنْ خلال قوة رحمتك استعدتُ نفسي. هناك لحظات معينة في الحياة ينبغي الإمساك بها وحمايتها من الزمن، وعدم نقلها ببساطة إلى الإنجيل أو إلى لوحة أو، كما هو الحال في عصرنا الحديث، إلى صورة أو فيلم أو فيديو. كم سيكون الأمر مثيراً لو أن ذرية وأحفاد الشخص الذي عاش تلك اللحظات لا يزال بإمكانهم رؤيته إلى الأبد، حتى نذهب نحن الأحياء الآن إلى أورشليم، ونرى بأمّ أعيننا

ذلك الفتى، يسوع ابن مريم، متدثراً بعباءته الرثة، وهو ينظر إلى بيوت أورشليم، ويشكر الربّ الذي أعاد إليه روحه بكل رحمة. وبما أن حياته بدأت وهو في الثالثة عشرة من العمر، فإن بوسع المرء أن يفترض بأنه ستكون هناك ساعات أكثر إشراقا وساعات أكثر قتامة يخبئها له القدر، لحظات فيها فرح وتعاسة، فيها متعة وحزن أكثر، لكن هذه هي اللحظة التي سنختارها نحن، بينما المدينة تغط في سبات عميق، والشمس هاجعة، الضوء لا يكاد يُرى، وصبي صغير متدثر في عباءة يحدّق بذهول بالمنازل، ومخلاته عند قدميه، والعالم بأسره، القريب والبعيد، ينتظر بشوق ولهفة. للأسف، تحرّك، لقد انتهت تلك اللحظة، ونقلنا الزمن إلى عالم الذاكرة. كان الأمر هكذا، لا، لم يكن هكذا، ويصبح كلّ شيء ما نختار نحن أن نخترعه.

راح يسوع يجوب الأزقة الضيقة، المزدحمة. كان الوقت لا يزال مبكراً للذهاب إلى الهيكل، فالمعلّمون، كما هو الحال في جميع العصور والأماكن، يأتون في وقت متأخر. لم يعد يسوع يشعر بالبرد، لكن معدته كانت تقرقر، وقد استثارت حبتا التين المتبقيتين معه شهيته للطعام أكثر. كان ابن يوسف جائعاً. كان بإمكانه الآن أن يستفيد من النقود القليلة التي سرقها منه اللصوص لأن الحياة في المدينة تختلف اختلافاً تاماً عن الحياة الهادئة في الريف حيث يستطيع المرء أن يتجول وهو يصفرّ ويبحث عمّا يمكن أن يتركه العمال الذين يخافون الربّ والذين ينفذون توصياته بحذافيرها. عندما تحصد حصيدك، لا تُنْهِ حقولك، وإن نسيت حزمة فلا تعد لتأخذها، وعندما تقطف الزيتون، فلا تعد لتقطف الزيتون المتبقي على الأغصان، وعندما تقطف العنب من كرمك، فلا تبحث عن العنب الذي نسيته، واتركه ليقطفه الغريب أو اليتيم أو الأرملة، وتذكر دائماً أنك كنت ذات يوم عبداً في أرض مصر.

ولما كانت أورشليم مدينة كبيرة، بالرغم من أن الربّ أمر بأن يُبنى فيها مسكنه الأرضي، فإن هذه المبادئ الإنسانية لا تُطبّق فيها، لذلك، فإن السبيل الوحيد للشخص الذي يأتي إلى هذه المدينة ولا يوجد في جيبه ثلاثون قطعة أو حتى ثلاث قطع من العملة الفضية، هو أن يتسول، ومن شبه المؤكد فإن أحداً لن يعطيه شيئاً، أو أنه سيسرق ويصبح حينها عرضة للجلد أو للسجن، أو لشيء أسوأ من هذا وذاك. لكن لا يمكن لهذا الشاب أن يسرق، ولا يستطيع أن يمدّ يده ويتسول لأنه خجول. كان لعابه يسيل كلما رأى أكوام الأرغفة وأهرامات الفواكه واللحوم المطهية والخضروات المعروضة في الدكاكين في الأزقة. إن رؤية كلّ ذلك الطعام بعد ثلاثة أيام من الصوم، إذا لم نحسب ضيافة السامري، تكاد تجعله يغمى عليه. صحيح أنه ذاهب إلى الهيكل، لكن بالرغم من ادعاءات أولئك الباطنيين الذين يؤمنون بالصوم، فإن عقله سيكون في حال أفضل لتلقي كلمة الربّ لو حظي جسده بغذاء جيد. ولحسن الحظ، فقد لاحظ رجل من الفريسيين، صادف أنه كان يمرّ في تلك اللحظة، هزال الفتى وضعفه فأشفق عليه. إن الأجيال القادمة ستصم الفريسيين، ظلماً وبهتاناً، بأسوأ سمعة ممكنة، لكن في جوهرهم، فقد كانوا أناساً كرماء، كما سيتضح من هذا اللقاء. من أين أنت، سأله الفريسي. فأجابه يسوع، أنا من الناصرة في الجليل. هل أنت جائع، سأله الرجل. أطرق الصبي بعينيه. لم يكن بحاجة إلى أن يقول شيئاً، لأن الجوع كان بادياً على وجهه. ألا توجد لديك أسرة. نعم، لكني مسافر وحدي. هل هربت من أسرتك. لا. هذا صحيح، فهو لم يهرب، ويجب ألّا ننسى أن أمّه وأخوته وذعوه بكل محبة عند باب البيت، وأن عدم التفاته إلى الوراء ولا مرة واحدة، لا يعني أنه هرب من البيت. إن الكلمات التي نستخدمها تشبه هذه، لأن قول نعم أو لا، هو أكثر الردود

الممكنة وضوحاً وصراحة، ومن حيث المبدأ، الأكثر إقناعاً، لكن بالرغم من ذلك، فإن العالم يقتضي منا أن نبدأ بطريقة غير حاسمة. لا، في الحقيقة لم أهرب تماماً، مما يضطرنا إلى سماع القصة من بدايتها، لكن لا تقلقوا، فهذا غير ضروري، أولاً لأن الفريسي الذي سيظهر في إنجيلنا مرة أخرى، ليس بحاجة إلى سماعها، وثانياً، لأننا نعرف القصة أكثر من أي شخص آخر. فقط لاحظوا كيف أن الشخصيات الرئيسية في هذا الإنجيل لا تعرف الكثير عن بعضها بعضاً، فلا يعرف يسوع كل شيء عن أمّه وأبيه، ولا تعرف مريم كلّ شيء عن زوجها وابنها، ولا يعرف يوسف الذي مات شيئاً عن أيّ شيء. بينما نعرف نحن كلّ ما جرى وكلّ ما قيل وكلّ ما فُكّر به، سواء من قبلهم أو من قبل الآخرين، مع أننا يجب أن نتصرف كما لو كنا نقبع في الظلام أيضاً، وبهذا المعنى، فإننا مثل الفريسي الذي سأله، هل أنت جائع. إذا كان وجه يسوع الشاحب يتحدث عن نفسه، فلا حاجة إلى السؤال. أعطني فقط شيئاً لآكله. وهذا ما فعله الرجل العطوف، فاشترى رغيفين ساخنين من الفرن، وطاسة من الحليب، وأعطاها ليسوع من دون أن ينبس بكلمة واحدة. وعندما ناوله طاسة الحليب انسكبت منها بضع قطرات على أيديهما، فأبديا ذات الحركة التي لا بد أنها انبثقت من أعماق الزمن، فرفع كلّ منهما يده المبللة إلى شفتيه ولعق قطرات الحليب، مثل عادة تقبيل كسرة الخبز عندما تسقط على الأرض. لكن من المؤسف أن هذين الشخصين لن يلتقيا ثانية بعد أن ختما هذا العهد الرمزي الرائع. ثم مضى الفريسي في طريقه، لكن ليس قبل أن يُخرج من جيبه قطعتين نقديتين معدنيتين ويقول، خذهما وعد إلى بيتك، فالعالم كبير جداً على فتى مثلك. وقف ابن النجار هناك يحمل بيده طاسة الحليب ورغيفي الخبز. لم يعد يشعر بالجوع، أو ربما كان لا

يزال جائعاً، لكن ذلك الشعور تلاشى. راقب الفريسي وهو يسير مبتعداً، عندها فقط قال له، شكراً، لكن بصوت خفيض لعل الفريسي لم يسمعه. وإذا كان الرجل يتوقع أن يُشكر على فعلته، فلا بد أنه قال لنفسه، يا له من صبي جاحد. في منتصف الطريق، عادت شهية يسوع للطعام فجأة. لم يضع وقته هذه المرة، فتناول رغيفي الخبز وشرب الحليب، ثم أعاد الطاسة الفارغة إلى البائع الذي قال له، إنها لك لأن الرجل دفع ثمنها. هل كان شراء طاسة حليب من العادات السائدة في أورشليم. لا، لكن هذا ما أراده الفريسي، مع أنك لن تستطيع أن تعرف أبداً ماذا كان يدور في رأس ذاك الفريسي. إذن أستطيع أن أحتفظ بها. قلت لك لقد دفع الرجل ثمنها. لفّ يسوع الطاسة في عباءته ودسّها في مخلاته، وقال لنفسه يجب أن أحرص على هذه الطاسة لأن هذه الآنية الفخارية هشة وتُكسر بسرعة لأنها مصنوعة من الطين التي أضفى عليها الحظ شكلاً معيناً، ويمكن قول الشيء ذاته عن الجنس البشري. بعد أن تغذّى جسده واستعاد نشاطه، أخذ يسوع يغذّ الخطى باتجاه الهيكل.

احتشدت جمهرة كبيرة من الناس في الباحة المواجهة للدرج المفضي إلى المدخل، ونُصبت على جانبي الجدران خيام الباعة والتجار الذين يبيعون الحيوانات لذبحها كقرابين، وتناثرت أكشاك الصرافة في كل مكان. وكنت ترى أشخاصاً منهمكين في الحديث، وتجاراً يتحدثون بحماسة يحركون أيديهم بحدة، وجنود رومان، راجلين أو ممتطين ظهور خيولهم، يراقبون الناس، ومحفّات يحملها عبيد، وجمال وحمير تنوء بأحمالها. وكنت تسمع في كل مكان صراخاً محموماً يتخلله ثغاء ضعيف من الحملان والماعز المحمولة على أذرع الناس أو على ظهورهم كأنها أطفال مربوطة، وكان بعضها الآخر يُجَرّ بحبال مربوطة حول أعناقها، لكن مصيرها جميعاً واحد وهو الموت إما ذبحاً بالسيف أو حرقاً بالنار. اجتاز يسوع الحمّام المستخدم للتطهّر، ثم صعد الدرج، ولم يتوقف في الباحة المخصصة للأغيار، غير اليهود. ثمّ دلف إلى قاعة النساء من الباب الذي يفصل حجرة الزيوت المقدسة عن حجرة الناصريين حيث وجد ضالته. فقد كان يتجمع هنا عدد من الأحبار والكتبة لمناقشة مسائل الشريعة المقدسة، والإجابة على الأسئلة التي يطرحها الناس وتقديم المشورة لهم. كانوا يتحلّقون في مجموعات منفصلة. وقف الصبي عند أصغر تلك المجموعات، عندما رفع رجل

يده ليسأل أحد الكتبة. دعاه الكاتب ليسأل، فقال الرجل: هل يمكنك أن تقول لي إننا يجب أن نقبل الوصايا التي أنزلها الربّ على موسى فوق جبل طور سيناء بحذافيرها، عندما قال له أقم معهم عهداً يكفل لهم السلام، وقال إن أحداً لن يقلق نومنا، ووعد بأنه سيبيد الحيوانات الضارية من البلاد، وأن السيف لن يمرّ في أراضينا، وإذا لاحقنا أعداؤنا، فإنهم سيُقتلون بسيوفنا، لأنه كما قال الربّ نفسه، سيطارد خمسة منكم مئة رجل منهم، وسيطارد مئة رجل منكم عشرة آلاف رجل منهم، وسيسقط أعداؤك تحت سيفك. رمق الكاتب الرجل بنظرة تشي بالريبة، فقد ارتاب في أن يكون واحداً من متمردي يهوذا الجليلي متنكراً يريد إثارة مشاكل من خلال تلميحات شريرة عن المقاومة السلبية لأحبار الهيكل في وجه حكم الرومان، فأجابه بفظاظة، لقد قال الربّ ذلك عندما كان آباؤنا في الصحراء بعد أن هربوا من المصريين. فرفع الرجل يده مرة أخرى وسأل سؤالاً آخر، هل نفهم من ذلك إذاً، أن كلام الربّ على جبل سيناء يقصد ذلك فقط عندما لم يكن أجدادنا قد دخلوا أرض الميعاد. إن كنتَ تفسّرها هكذا، فأنت لست إسرائيلياً صالحاً، لأن كلمات الربّ تصلح لكل زمان، في الماضي والحاضر والمستقبل، لأنها كانت موجودة لديه حتى قبل أن ينطقها وظلت موجودة بعد أن قالها. لكنك أنت من قال إنك لا تسمح لي بأن أفكّر. وهل تظن أن الربّ يسمح بألّا تُرفع سيوفنا في وجه هذه القوة العسكرية التي تضطهدنا، وأن المئات من رجالنا تعوزهم الشجاعة لمواجهة خمسة من رجالهم، وأن عشرة آلاف يهودي ينحنون أمام مئات الرومان. دعني أذكّرك بأنك موجود الآن في هيكل الربّ، لا في ساحة معركة. إن الربّ هو إله الفيالق. صحيح، لكن لا تنس أن الربّ وضع شروطاً. أي شروط. قال الرب طالما طبقتم شريعتي واحتفظتم بوصاياي. لكن ما هي

تلك هذه الشرائع وتلك الوصايا التي لم نطبقها. بأن نرضى بأن الحكم الروماني عادل وبأنه ضروري للتكفير عن ذنوبنا. نعم لا بد أن الربّ يعرف. نعم لا بد أن الرب يعرف، وكم مرة يرتكب الإنسان ذنوباً من دون أن يعرف. لكن هل لك أن تشرح لنا لماذا يستخدم الربّ الجيش الروماني لمعاقبتنا بدلاً من أن يواجه شعبه المختار ويعاقبنا بنفسه. إن الربّ يعرف نواياه ويختار سبله. إذاً هل تريد أن تقول لي إن الربّ يريد أن يحكم الرومان إسرائيل. نعم. إذا كان الأمر كذلك، فإن المتمردين الذين يحاربون الرومان يعارضون الربّ ومشيئته المقدسة. إنك تتسرع في إطلاق الأحكام الخاطئة. وأنت أيها الكاتب فإنك تناقض نفسك. إن مشيئة الربّ قد لا تكون كما يريد، وقد لا تهدف مشيئته لأن تكون مشيئته. إذاً فإن مشيئة الإنسان أصيلة مع أنها ليست ذات أهمية في نظر الربّ. هذا صحيح. إذاً فإن الإنسان حرّ. نعم، حرّ إلى حد أنه يمكن أن يتعرض للعقاب. انطلقت همهمات من بين الأشخاص المتحلّقين، وراح بعضهم يحدّق في الرجل الذي سأل، مع أن أسئلته تستند إلى النصوص الدينية لكن طرحها لم يكن مناسباً سياسياً، وراحوا يرمقونه بنظرات تشي بالاتهام، كما لو أنه هو الذي يجب أن يتحمل أوزار إسرائيل كلها. أما المتشككون فقد اطمأنوا إلى انتصار الكاتب الذي أقرّ بثنائهم عليه وتصفيقهم له بابتسامة تنمّ عن الرضا. تطلّع الكاتب حوله بثقة وسأل هل هناك أسئلة أخرى، مثل مصارع، بعد أن قضى على خصم ضعيف، راح يبحث عن خصم أقوى ليكسب مجداً أعظم. ارتفعت يد أخرى، وطُرح سؤال آخر، لقد كلّم الربّ موسى وقال له يجب أن تعاملوا الغريب بينكم كأنه واحد منكم، فأحبّوا الغريب لأنكم كنتم غرباء في أرض مصر. لكن قبل أن ينهي الرجل سؤاله، قاطعه الكاتب الذي كان لا يزال منتشياً بنصره السابق، بصوت ساخر، وقال آمل أنك لن تسألني

لماذا لا نعامل الرومان كأنهم إخوان لنا، لأنهم هم أيضاً أجانب. لا، إن ما أريد أن أسأله هو هل سيعاملنا الرومان كأننا إخوان لهم لو أمضى الجانبان وقتاً أقل في الجدل حول الخلافات بين شرائعهم وآلهتهم. فردّ الكاتب على الفور، إذاً جئت أنت أيضاً لتُغضب الربّ بتفسيرات تُكَفِّر كلمته المقدسة. بالعكس، فإن سؤالي هو هل تؤمن حقاً بأننا نطيع كلمة الربّ المقدسة عندما يكون الغرباء غرباء لا في الأرض التي نعيش عليها فحسب، بل في الدين الذي نعتنقه أيضاً. من هم الغرباء الذين تشير إليهم. أشير إلى بعض الذين يعيشون في يومنا وزماننا هذا، وإلى الكثيرين الذين عاشوا في الماضي، وربما أكثر بكثير الذين سيعيشون في المستقبل. لا يوجد عندي وقت أضيعه في الألغاز والأمثال، قل ما تريد بوضوح. عندما جئنا من مصر، كانت هناك دول أخرى تعيش في الأرض التي ندعوها الآن إسرائيل، التي حاربناها؛ في تلك الأيام كنا نحن الغرباء، وقد أمرنا الربّ بالقضاء على الشعب الذي يعارض مشيئته. لقد وعدنا بالأرض لكن كان علينا أن نغزوها، فلم نشترها ولم تُقدم إلينا، وها نحن نجد أنفسنا الآن نعيش في ظل حكم أجنبي بعد أن خسرنا الأرض التي جعلها الربّ لنا. إن إسرائيل تعيش إلى الأبد في روح الربّ، لذلك أينما كان شعبه، سواء أكان متحداً أم مشتتاً، ستكون هناك أرض إسرائيل. بعبارة أخرى، حيثما وجدنا نحن اليهود، سيكون الآخرون دائماً الغرباء. بالتأكيد في أعين الربّ. لكن الغريب الذي يعيش بيننا، حسب كلمة الربّ، يجب أن يكون من مواطنينا ويجب أن نحبّه كما نحبّ أنفسنا، لأننا كنا غرباء ذات يوم في مصر. هذا ما قاله الربّ. في هذه الحالة، فإن الغريب الذي يجب أن نحبّه، الغريب الذي يعيش بيننا، يجب ألّا يكون قوياً جداً لكي يحكمنا كما هو حال الرومان في يومنا هذا. نعم، أتفق معك. إذاً قل لي، هل تعتقد أننا إذا أصبحنا أقوياء

ذات يوم، فهل سيسمح لنا الربّ بأن نقمع الغريب ونقهره. لقد أمرنا بأن نحبّ، وأن كلّ ما تستطيع إسرائيل أن تفعله هو أن تطيع مشيئة الربّ، وبما أن بني إسرائيل هم شعبه المختار، فإن الربّ يشاء ما هو جيد لهم فقط. حتى لو كان ذلك يعني ألّا نحبّ الذين يجب أن نحبّهم. نعم، إذا شاء ذلك. من يشاء، الربّ أم إسرائيل. كلاهما لأنهما واحد والشيء ذاته. لا تنتهك حقوق الغريب، يقول الربّ. فأجاب الكاتب، هذا إذا كان لذلك الغريب حقوق واعترفنا بها. مرة أخرى، همهم الحاضرون معربين عن موافقتهم، ولمعت عينا الكاتب مثل عيني مصارع بطل، رامي قرص، مقاتل، أو محارب يقود عربة.

رفع يسوع يده. لم يجد أحد من الحاضرين غرابة في أن يتقدم صبي في عمره ليسأل كاتب أو طبيب الهيكل، لأن الفتيان الصغار تساورهم شكوك منذ أيام قابيل وهابيل، أسئلة ينحو الكبار إلى الإجابة عنها بابتسامة تشي بالتعاطف والنزول إلى مستواهم وتَرْبِيتَةٍ على الكتف. عندما تكبر أيها الفتى فإنك سوف تتوقف عن القلق والتفكير في أمور كهذه، بينما سيقول الأكثر إدراكاً، عندما كنتُ في سنك، كنت أفكّر في الأمر ذاته. ابتعد بعضهم، وكان بعضهم الآخر على وشك أن ينصرفوا، مما أثار حفيظة الكاتب الذي لم يكن يريدهم أن يغادروا والبقاء للاستماع إليه، لكن سؤال يسوع جعل الكثيرين يعودون ويستمعون إليه. فقال يسوع إن ما أريد مناقشته هو الذنب. أتقصد ذنبك أنت. لا، أقصد الإحساس بالذنب بشكل عام، وكذلك الإحساس بالذنب الذي قد يعتري المرء الذي لم يرتكب معصية هو نفسه. أوضح أكثر. قال الربّ إن الآباء لن يموتوا بسبب ما ارتكبه أبناؤهم من خطايا، ولن يموت الأبناء بسبب ما ارتكبه أباؤهم من خطايا، بل المرء الذي يخطئ هو الذي يموت. كان ذلك مبدأ سارياً في الأزمنة القديمة عند كانت الأسرة

كلها، مهما كانت بريئة، تدفع ثمن جريمة ارتكبها فرد من أفرادها. لكن إن كانت كلمة الربّ أبدية، فلا نهاية للإحساس بالذنب، وكما قلتَ للتو، عندما قلت إن الإنسان حر لذلك يمكن معاقبته، عندها يكون المرء مصيباً إذا اعتقد بأن ذنب والده، حتى بعد عقابه، لا يتوقف، بل ينتقل إلى أبنائه، تماماً كما ورثنا، نحن الذين لا نزال على قيد الحياة اليوم، خطيئة آدم وحواء، أول أمّ وأب لنا. إني مندهش من أن فتى في عمرك ويعيش في ظروف متواضعة يعرف الكثير عن التوراة ويستطيع أن يناقش هذه الأمور بهذه السهولة. لا أعرف إلّا ما تعلّمته. من أي قرية أنت. من الناصرة في الجليل. لقد خمّنت ذلك من أسلوبك في الكلام. أرجو أن تجيب على سؤالي. لنفترض أن أكبر خطيئة ارتكبها آدم وحواء عندما عصيا الربّ، لم تكن تناولهما الثمرة من شجرة معرفة الخير والشر، بل نتيجة لها لأن خطيئتهما حالت دون قيام الربّ بتنفيذ الخطة التي كان يريد أن ينفذها عندما خلق الرجل أولاً ثم المرأة. هنا قاطع الرجل الثاني الذي سأل الكاتب سؤالاً فيه شيء من السفسطة لن تكون لابن النجار الشجاعة لسؤاله علناً، وقال، هل تقصد أن كل ما يقوم به الإنسان من عمل، مثل تلك الخطيئة في جنة عدن، قد يتداخل مع مشيئة الربّ التي تشبه جزيرة في المحيط تتلاطم أمواج هائجة في كلّ جانب منها بمشيئة بشرية. ليس تماماً، ردّ الكاتب بحذر، لأن مشيئة الربّ لا تكتفي بأن تسود كل شيء؛ إن مشيئته تجعل كل شيء كما هو عليه. لكنك قلت أنت نفسك إنه بسبب معصية آدم فإننا لا نعرف ما هي الخطة التي كان الربّ ينوي أن ينفذها له. وهذا ما يقوله لنا عقلنا، لكن مشيئة الربّ، خالق الكون وحاكمه، تشمل كلّ المشيئات الممكنة، مشيئته ومشيئة كل إنسان يولد في هذا العالم. فقاطعه بسوع بفكرة مفاجئة وقال، إذا كان الأمر كذلك، فإن كل إنسان هو جزء من الربّ.

ربما، لكن حتى لو اتحدّ جميع البشر وأصبحوا واحداً، فإن هذا الجزء المتضام لا يشكلّ إلّا حبة رمل في صحراء لامتناهية، التي هي الربّ. بدا الكاتب الجالس على الأرض الذي يتحلق حوله رجال يحدقون به تعتريهم مشاعر مختلطة من الرهبة والخوف، كما لو كانوا في حضرة ساحر استجمع من دون أن يقصد قوى أكبر من قواه، أقل إقناعاً ولطفاً. وبكتفين متهدلتين وبتعابير متجهمة، وبيديه المسترخيتين على ركبتيه، بدا أن جسده كلّه ينضح بطلب أن يتركه الآخرون وحده مع غضبه. بدأ الأشخاص في المجموعة ينهضون، واتجّه بعضهم إلى قاعة بني إسرائيل، وانضم بعضهم الآخر إلى مجموعات أخرى كانت لا تزال منهمكة في المناقشة. فقال يسوع للكاتب، لكنك لم تجبني على سؤالي. فحدّق الكاتب في وجهه مثل شخص صحا من غيبوبة، ثم أجاب بعد فترة صمت طويل مشوب بالتوتر، إن الخطيئة هي ذئب يأكل صغيره بعد أن يكون قد التهم أباه. إن الذئب الذي تتحدث عنه التهم أبي. إذاً سيأتي دورك قريباً. وماذا عنك، هل التهمك ذئب من قبل. لم أُلتهم فحسب، إنما تُقيئت أيضاً.

نهض يسوع وغادر. توجّه إلى الباب الذي دخل منه. توقف قليلاً ونظر إلى الخلف. كان عمود الدخان المنبعث من نار حرق القرابين يصعد إلى السماء، ثم يتلاشى ويختفي كما لو أن رئتي الربّ الجبار قد امتصتاه. انتصف النهار، وكانت أعداد متزايدة من الناس لا تزال تأتي، بينما كان هناك رجل جالس في داخل الهيكل، يحطمه إحساس بالفراغ، وينتظر أن يستجمع قوته ليتمكن من الرد بهدوء على شخص يريد أن يعرف هل كان عامود الملح الذي استحالت إليه زوجة لوط ملحاً صخرياً أم ملحاً بحرياً، أو هل كان النبيذ الذي شربه نوح أبيض أم أحمر. وفي خارج الهيكل، سأل يسوع عن اتجاه الطريق إلى بيت لحم،

وجهته الثانية. كان قد ضلّ طريقه مرتين في وسط الشوارع المزدحمة واضطراب الناس قبل أن يجد البوابة التي عبرها عندما كان في رحم أمّه قبل ثلاثة عشر عاماً، قبل أن يأتي إلى هذا العالم. لكن لم يخطر ذلك في بال يسوع، لأنه من الواضح، كما نعرف جميعاً، أن جناحي طير الخيال المتململ، القلق كانا مقصوصين. فإذا نظر أي قارئ لهذا الإنجيل إلى صورة أمّه عندما كانت حاملاً به، فهل يستطيع أن يتخيّل مثلاً نفسه وهو في داخل ذلك الرحم. انحدر يسوع باتجاه بيت لحم، وأصبح باستطاعته الآن أن يتفكّر بردود الكاتب، لا الردّ على سؤاله فقط، إنما أيضاً على الأسئلة التي سألها الآخرون. إن ما كان يقلقه هو الشعور بأن جميع تلك الأسئلة هي في الحقيقة سؤال واحد، وأن الردّ على كلّ سؤال ما هو إلّا ردّ على الأسئلة جميعها، ولا سيما الردّ الأخير الذي لخص الأسئلة الأخرى، وهو جوع ذئب الخطيئة النهم الذي يأكل ويلتهم ثم يستفرغ ما التهمه إلى الأبد. وبفضل ضعف ذاكرتنا، فإننا لا نعرف غالباً، أو أننا نعرف، لكننا نحاول أن ننسى، ما هو سبب خطيئتنا، أو بالتحدث مجازاً كما فعل الكاتب، فإن عرين الذئب هو الذي يلاحقنا، لكن يسوع كان يعرف، وهو المكان المتّجه إليه. إنه لا يعرف ماذا سيفعل عندما يصل إلى هناك، لكن هذا أفضل من القول بأنني هنا وأنتظر أحداً ليسأل، ماذا تريد، العقاب أم المغفرة أم النسيان.

كما فعل أبوه من قبل، توقّف عند قبر راحيل ليصلي. وعندما بدأت خفقات قلبه تسرع، عاود رحلته. لاحت أمامه أولى بيوت بيت لحم. هذا هو الطريق الرئيسي إلى القرية الذي كان أبوه القاتل والجنود يسلكونه في حلمه ليلة بعد ليلة. في وضح النهار، لم يكن يبدو مكاناً مرعباً، حتى الغيوم البيضاء الهادئة في السماء لم تكن سوى إشارات عن

الخير القادم من الربّ، وكانت الأرض ذاتها غافية تحت الشمس، كما لو أنها تقول، لنترك الأمور كما هي، فلا فائدة ترجى من نبش الماضي. وقبل أن تظهر امرأة تحمل بين ذراعيها طفلاً عند نافذة أحد البيوت، وتسأله عمن تبحث، هيا عد أدراجك وامح آثار قدميك، وصلّ بأن تزيل حركة الساعة الرملية اللانهائية الزمن بسرعة مع غبارها جميع ذكريات تلك الأحداث. لقد فات الأوان. فهناك لحظة، لا يزال أمام ذبابة على وشك أن تلامس شبكة عنكبوت الوقت لتهرب وتنجو بنفسها، لكنها ما إن تلامس تلك الشبكة وتكتشف أن جناحها قد علق في ثناياها، فإن أدنى حركة تقوم بها تكفي لأن تصيبها بالشلل التام، وإلى الأبد، مهما كان العنكبوت غير عابئ بضحيته الجديدة. أما بالنسبة ليسوع، فقد مرت تلك اللحظة. ففي وسط الساحة، وبجانب شجرة تين كبيرة، كان هناك مبنى صغير مربع الشكل، ولم يكن على المرء أن ينظر إليه مرتين حتى يعرف أنه قبر. اقترب منه يسوع، ودار حوله ببطء، ثم توقّف ليقرأ الكتابة الباهتة المنقوشة على أحد جانبي البناء. كان ذلك يكفي، لأنه وجد ضالته. عبرت الساحة امرأة تمسك بيدها طفلاً في ربيعه الخامس. توقفت، ثم ألقت نظرات متسائلة على الغريب، ثم سألته من أين أنت. ولكي تبرر سؤالها أضافت، أنت لستَ من هذه البقاع. لا، أنا من الناصرة في الجليل. هل عندك أقارب هنا. لا، زرت أورشليم وخطر لي أنها فرصة جيدة لأن أزور بيت لحم. هل أنت مجرد عابر سبيل. نعم، سأعود إلى أورشليم بعد ظهر اليوم، عندما يبرد الطقس. رفعت المرأة الطفل على ذراعها اليسرى وقالت له، ليكن الربّ معك؛ ثم استدارت لتغادر، لكن يسوع أوقفها وسألها، قبر من هذا. ضغطت المرأة الطفل على صدرها، كأنها تريد أن تحميه من تهديد ما، وأجابت، مدفون هنا خمسة وعشرون صبياً صغيراً ماتوا منذ عدة

سنوات. كم. خمسة وعشرون. أقصد منذ كم سنة. منذ حوالي أربع عشرة سنة. سنوات كثيرة. هذا صحيح، لو ظلوا أحياء لكانوا في عمرك الآن. نعم، لكن ماذا عن الصبية الصغار. كان أحدهم شقيقي. لديك شقيق مدفون هنا. نعم. وهذا الطفل الذي بين ذراعيك، هل هو ابنك. إنه ابني البكر. لماذا قتلوا الصبية الصغار فقط. لا أحد يعرف، كنتُ في السابعة من عمري آنذاك. لكن لا بدّ أنك سمعت والديك والآخرين الكبار يتحدّثون عن ذلك. لا حاجة لذكر ذلك، فقد رأيت بأمّ عيني بعض الأطفال وهم يُقتلون. وشقيقك أيضاً. نعم، شقيقي. ومن قتلهم. كان جنود الملك يبحثون عن الصبية الذين ولدوا في ذلك اليوم وحتى الذين بلغوا الثالثة من العمر، وقتلوهم جميعاً. ومع ذلك، فإنك لا تعرفين السبب. لا أحد يعرف حتى يومنا هذا. وبعد موت هيرودس، هل ذهب أحد إلى الهيكل وسأل الأحبار عن ذلك. لا أعرف. لو كان الجنود الرومان هم الذين فعلوا ذلك لكان الأمر مفهوماً، لكن أن يأمر ملكنا بقتل أطفال شعبه، لاسيما الرضع، فهذا أمر شديد الغرابة، إلّا إذا كان هناك سبب ما. إن إرادة الملوك تتجاوز فهمنا، وليكن الربّ معك ويحميك. لقد مضى وقت طويل منذ أن تجاوزت الثالثة من العمر. عند ساعة الموت يعود الرجال أطفالاً، أجابت المرأة قبل أن تغادر.

عندما أصبح وحده، جثا المسيح بجانب الصخرة التي تغطّي مدخل القبر، وأخرج آخر كسرة خبز من مخلاته وفركها بين راحتيه حتى تفتت، ثم نثر الفتات أمام مدخل القبر، كما لو أنه يقدّم قرباناً لأفواه الأبرياء المدفونين هناك. عندما انتهى، ظهرت امرأة أخرى عند الناصية. كانت هذه المرأة مسنة محنية الظهر تتكئ على عصا. لم تكن ترى بوضوح، لكنها لمحت بعينين مغبشتين ما فعله الفتى. توقّفت، وراحت تراقبه. رأته يقف ويحني رأسه كما لو أنه يصلي على أرواح هؤلاء

الأطفال المساكين. وعلى الرغم من أن ذلك كان أمراً معتاداً، فإننا سنحجم عن إضافة عبارة «أبدي» للأرواح، لأن خيالنا خذلنا في تلك المناسبة الوحيدة والفريدة عندما حاولنا أن نتخيّل فيها الراحة الأبديّة. أنهى المسيح صلاته وتطلع حوله. لم ير إلّا جدراناً جرداء وأبواباً مغلقة، ولا شيء سوى المرأة العجوز الواقفة هناك، ترتدي ثوب جارية، تتكئ على عصا، الصورة الحيّة لذلك الجزء الثالث من لغز أبي الهول المشهور عن الحيوان الذي يمشي على أربع قوائم في الصباح، وعلى قائمتين اثنتين في منتصف النهار، وعلى ثلاث قوائم في المساء. إنه رجل، أجاب أوديب الفطن الذي نسي أن البعض لا يمكنهم بلوغ منتصف النهار، وأن خمسة وعشرين طفلاً قد لقوا حتفهم في بيت لحم وحدها. دنت منه المرأة العجوز. كانت تعرج في مشيتها البطيئة جداً، ثم وقفت أمام يسوع، ولوت رقبتها لتراه بوضوح أكبر، وسألته، هل تبحث عن أحد. لم يجب الصبي مباشرة. ففي واقع الحال، لم يكن يبحث عن أحد لأن جميع الذين يبحث عنهم هم في عداد الأموات، دفنوا هنا، ولا يستطيع المرء أن يدعوهم أشخاصاً، لأنهم ليسوا إلّا أطفالاً لا يزالون في حفاضاتهم واللهايات في أفواههم، ينشجون، وأنوفهم تسيل، وبالرغم من ذلك، فقد جاءهم الموت وحوّلهم إلى وجود هائل لا يمكن أن يحتويه أيّ قبر أو أي وعاء ذخائر مقدس. إنها أجساد تغادر قبورها كلّ ليلة، إذا كانت هناك أيّ عدالة، لتُري جروحها والثقوب التي أحدثتها رؤوس الحراب والسيوف، وجعلت الحياة تغادرهم. فأجاب يسوع، لا، إني لا أبحث عن أحد. لم تغادر المرأة العجوز. كان يبدو أنها تنتظره ليواصل كلامه، فقال يسوع، لقد ولدت في هذه القرية، في كهف، وقد دفعني الفضول إلى رؤية المكان الذي ولدت فيه. خطت العجوز إلى الوراء خطوات متعثرة، وحدّقت بعينيها حتى تراه بوضوح

أشد. كان صوتها يرتعش عندما سألته، ما اسمك، من أين أنت، ومن هما والداك. ليس على المرء أن يردّ على جارية، لكن المسنين، مهما تدنى مقامهم، فإنهم يستحقّون أن نبدي لهم احترامنا، ويجب ألّا ننسى أبداً أنه لم يتبق لهم سوى وقت قصير ليسألوا أسئلة، وسيكون من الفظاظة إذا تمادينا وتجاهلناهم، مع أنه قد يكون لدينا الجواب الذي ينتظرونه. اسمي يسوع وأنا من الناصرة في الجليل، قال لها الصبي، وبدا أنه لم يكن لديه شيء آخر يقوله منذ أن غادر البيت. خطت المرأة العجوز إلى الأمام خطوات أخرى، وسألته ما اسم أمّك وأبيك. اسم أبي يوسف، واسم أمّي مريم. كم عمرك. حوالي الرابعة عشرة. تطلعت المرأة حولها كأنها تبحث عن مكان تجلس فيه، لكن الساحة في بيت لحم في منطقة يهودا ليست كالحديقة في سان باولو دي ألكانتارا، بمقاعدها وإطلالتها الجميلة من القلعة. هنا علينا أن نجلس على الأرض المتربة، وفي أحسن الأحوال، عند عتبة باب، أو إذا كان هناك قبر، فعلى الحجارة عند مدخل المدفن التي وضعت هناك لإراحة الأحياء الذين يأتون لزيارة أحبائهم الأموات، وربما أيضاً لزيارة تلك الأشباح الذين تقبع راحتها في ذرف الدموع المتبقية لديها، كما تفعل راحيل في القبر المجاور الذي كُتب عليه، هنا ترقد راحيل التي تبكي أطفالها ولا تريد أي عزاء، لأن المرء لا يحتاج لأن يكون فطناً مثل أوديب ليرى أن هذا المكان يناسب تلك الظروف، وأن بكاء راحيل هو سبب حزنها. جلست المرأة العجوز بصعوبة على حجرة، وهرع الصبي لمساعدتها، لكن مساعدته كانت متأخرة لأن الإيماءات والتعبيرات الفاترة لا تأتي في حينها أبداً. أنا أعرفك، قالت له المرأة العجوز. فقال لها يسوع، لا بد أنك مخطئة، فلم آت إلى هنا من قبل ولم أرك في الناصرة قط. لم تكن أول يدان تلمسانك هما يدا أمّك بل يداي أنا. ماذا تقصدين أيتها

العجوز. اسمي سالومي، وأنا القابلة التي أنجبتك إلى هذا العالم. بتلقائية شديدة لا تحدث إلّا لإثبات أن صدق تلك التعبيرات تأتي تلقائية، جثا يسوع عند قدمي المرأة العجوز، وقال لها إنه يريد أن يعرف كلّ شيء، وأن يبدي لها مشاعر الامتنان لأنها أخرجته من عالم نسيان بلا ذاكرة إلى عالم لا يعني شيئاً من دون ذاكرة. لم تذكركِ أمّي قط، قال يسوع. لا داعي لذلك؛ لقد جاء والداك إلى بيت سيدي، وطلبا أن أساعدهما، لأن لديّ شيئاً من الخبرة كقابلة. هل كان ذلك عندما ذُبح الأبرياء. صحيح، وكنتَ محظوظاً لأنهم لم يعثروا عليك. لأننا كنا نعيش في الكهف. كان ذلك هو السبب أو لأنك غادرت، لا أعرف، لكني عندما ذهبت لأرى ماذا حلّ بك، كان الكهف خاوياً. أتتذكّرين أبي. نعم، أتذكّره جيداً؛ كان آنذاك في ريعان شبابه، رجل وسيم وصادق. لقد مات. المسكين، لم يعش طويلاً، لكن إن كنتَ وريثه، فماذا تفعل هنا لأني أظن أن أمّك لا تزال على قيد الحياة. لقد جئت لأرى المكان الذي ولدت فيه، ولأعرف أيضاً المزيد عن الأطفال الذين ذُبحوا هنا. الربّ وحده يعرف لماذا ماتوا، فقد هبط ملاك الموت متنكّراً في هيئة جنود هيرودس إلى بيت لحم وذبحهم. إذاً إنك تعتقدين أنها كانت مشيئة الربّ. أنا لست إلّا خادمة عجوز، لكني كنت أسمع طوال حياتي الناس يقولون إنّ كلّ ما يحدث في هذا العالم إنما يحدث بمشيئة الربّ. مكتوب هكذا. قد يقرّر الربّ أن يأخذني في أيّ يوم، ويمكنني أن أفهم ذلك، لكن كان هؤلاء أطفالاً صغاراً أبرياء. إن موتك يقرره الربّ كما يشاء، لكنّ الذي أمَرَ بقتل الأطفال كانوا بشراً. إذاً لا تستطيع يد الربّ أن تفعل الكثير إذا لم يكن باستطاعتها أن تحول بين السيف وبين الأطفال الرضع. يجب ألّا تسيئي إلى الربّ أيتها المرأة الطيبة. امرأة عجوز جاهلة مثلي لا يمكنها أن تسيء إلى الربّ. سمعت اليوم في

الهيكل أحداً يقول إن كلّ ما يقوم به البشر، مهما كان تافهاً، يتدخّل في مشيئة الربّ، وإن الإنسان حرّ حتى يُعاقب. إن عقابي لا يأتي لأنني امرأة حرّة، بل لأنني جارية، قالت له المرأة العجوز. صمت يسوع. لم يكد يسمع الكلمات التي قالتها سالومي، لأن فكرة خطرت له فجأة وهي أن الإنسان مجرد لعبة في يد الربّ وأنه يخضع لمشيئته إلى الأبد، حتى لو كان يعتقد أنه يطيعه أو يعصيه.

بدأت الشمس تأفل إلى الغروب، واستطال ظلّ شجرة التين وازداد قرباً. كلّم يسوع المرأة العجوز. رفعت سالومي رأسها بصعوبة وسألته، ماذا تريد. خذيني إلى المغارة التي ولدتُ فيها، أو على الأقل دلّيني كيف أذهب إليها إذا كانت بعيدة ولا تقوين على السير إليها. إني لا أستطيع أن أسير بخطى ثابتة على قدميّ، لكنك لن تجدها إذا لم آخذك إليها. هل هي بعيدة من هنا. لا، لكن هناك مغارات كثيرة ويشبه بعضها بعضاً. لنذهب إذن. فقالت، كما تريد. أي شخص صادف أنه كان يراقب هذا المشهد في ذلك اليوم، عندما مرّت سالومي والفتى غير المعروف، فلا بدّ أن يتساءل أين يمكن أن يكون هذان الشخصان قد التقيا. لكن لا أحد يستطيع أن يعرف، لأن الجارية العجوز لم تبح بشيء حتى يوم مماتها، ولأن يسوع لم يعد مطلقاً إلى مسقط رأسه. وفي صباح اليوم التالي، ذهبت سالومي إلى المغارة التي تركت فيها الصبي ولم تجد أثراً له. أحسّت بالارتياح، لأنه حتى لو كان لا يزال هناك، فلم يكن لديهما شيء آخر يمكن أن يقوله أحدهما للآخر.

قيلت أشياء كثيرة عن المصادفات في الحياة، لكن لم يُقل إلّا النزر اليسير، بل لم يُقل شيء البتة عن المصادفات والأحداث اليومية التي توجّه دفة الحياة، مع أن المرء قد يجادل بأن حدثاً ما، على وجه التحديد، يقع بالصدفة، وهذا لا يعني أن جميع المصادفات يجب أن تكون لقاءات. وفي مسيرة هذا الإنجيل وقعت مصادفات عديدة، وإذا أمعنا النظر في حياة يسوع، خاصة بعد أن غادر البيت، يمكننا أن نرى أيضاً حدوث بعض اللقاءات والمصادفات. وإذا تركنا جانباً مغامرته المؤسفة مع اللصوص، لأنه من المبكر جداً معرفة ماذا يمكن أن تكون نتيجة ذلك في المستقبل، فقد أسفرت أول رحلة قام بها يسوع وحده عن عدة لقاءات، مثل ظهور الفريسي من لدنّ العناية الإلهية، الذي بفضله لم يُشبع الفتى جوعه فقط، إنما تناول طعامه بسرعة، ووصل إلى الهيكل في الوقت المناسب ليستمع إلى الأسئلة والأجوبة التي مهدت السبيل، إذا جاز لنا قول ذلك، ليسأل عن الذنب، السؤال الذي جعله يتجشم عناء السير كلّ تلك المسافة من الناصرة. وعندما يناقش النقّاد قواعد السرد الفعّال، فإنهم يصرّون على أنه يجب أن تتخلله لقاءات مهمة، في الرواية كما يحدث في الحياة، مع أشخاص آخرين لا أهمية لهم، حتى لا يجد بطل القصّة نفسه وقد استحال كائناً استثنائياً لا

تصادفه أحداث عادية أبداً. ويجادلون بأنّ هذا الأسلوب في السرد يخدم، على أفضل وجه، التأثير المطلوب، لأنه إذا لم تكن الواقعة المتخيّلة والموصوفة، وإذا لم يكن من المحتمل أن تصبح أو تحلّ محلّ الحقيقة الفعلية، فإنه يجب أن يكون هناك، على أقل تقدير، بعض الشبه، كما في هذه الرواية التي يوضع فيها إيمان القارئ على المحك. فلم يذهب يسوع المسيح إلى بيت لحم إلّا ليلتقي مصادفة بسالومي التي ساعدت في إخراجه إلى هذا العالم، كما لو أن اللقاء الآخر، مع المرأة التي تحمل طفلاً بين ذراعيها والتي تعمّدنا أن نضعها هناك لملء أحداث القصّة، لم يكن موفقاً تماماً. لكن الجزء الذي لا يُصَدَّقُ في قصّتنا لم يأت بعد، وهو عندما ترافق الجارية سالومي يسوع إلى المغارة وتتركه هناك كما طلب منها. دعيني وحدي بين هذه الجدران المعتمة فلعلي أسمع الصيحة الأولى في هذا الصمت المطبق، إذا كانت الأصداء تظل تتردد لفترات طويلة. هذه هي الكلمات التي خيّل إلى المرأة أنها سمعتها، وهكذا دونت هنا، مع المجازفة بأن تكون محاكاة سيئة مرة أخرى، لكننا نستطيع أن ننحي باللائمة دائماً على شهادة امرأة عجوز خرفة لا يعول عليها. بصعوبة وقفت سالومي على قدميها، ومشت بحذر، خطوة خطوة، وهي تضغط على العصا التي تمسكها بقوة بكلتا يديها. كم ستكون بادرة طيبة لو هرع الفتى لمساعدة هذه المخلوقة المتألمة المسكينة للعودة إلى بيتها. هكذا هم الشباب، أنانيون وطائشون، ولا شيء يوحي بأن سلوك يسوع يختلف عن سلوك الفتيان الآخرين الذين في سنه.

جلس يسوع على صخرة، وعلى الصخرة بجانبه انتصب فانوس يلقي بضوء خافت على جدران الكهف الخشنة، وكانت كومة الفحم الأسود لا تزال موجودة في البقعة التي أوقدت فيها النار. كانت يداه

مرخيتين ووجهه مستغرق في التفكير. لقد ولدتُ في هذا المكان، قال لنفسه، ونمت ذات يوم في هذا المعلف، وجلس أبي وأمّي ذات يوم على هذه الصخرة التي أجلس عليها الآن. لقد لجأنا إلى هذا المكان عندما كان جنود هيرودس يفتشون بيوت القرية عن الأطفال الصغار ليقتلوهم. لكن مهما حاولت، فلن أسمع صرخة الحياة التي أطلقتها عندما ولدتُ، ولن أسمع صرخات الأطفال الذين ماتوا وصرخات آبائهم وأمهاتهم وهم يرون أطفالهم يُذبحون أمامهم. لا شيء في هذا الكهف سوى الصمت حيث تلتقي البداية والنهاية معاً. وكما تعلّمتُ في الهيكل، فإن الآباء يدفعون ثمن الخطايا التي يرتكبونها، ويدفع الأبناء ثمن الخطايا التي قد يرتكبونها هم ذات يوم. لكن إذا كانت الحياة هي حكم والعقاب هو الموت، فلم تكن هناك مدينة بريئة أكثر من بيت لحم، وكان الأطفال الذين قتلوا أبرياء تماماً، ولم يرتكب آباؤهم خطيئة، ولا يوجد رجل مذنب أكثر من أبي الذي صمت عندما كان يجب أن يتكلّم. لقد أُنقذت حياتي كي أعرف الجريمة التي أنقذت حياتي، وحتى لو لم أرتكب أي جريمة أخرى، فإن ذلك يكفي لقتلي. وقف يسوع وسط ظلال الكهف المتراقصة كأنه سيهرب، لكن بعد بضع خطوات متعثّرة، تراخت ساقاه، ووضع يديه على عينيه ليحبس دموعه. راح ذلك الفتى المسكين يتلوّى في التراب، تعذّبه جريمة لم يقترفها، وكُتب عليه أن يشعر بالندم طوال حياته. هذا الفيض من الدموع المليئة بالمرارة سيترك أثره في عيني المسيح إلى الأبد، وميض باهت من الحزن واليأس دائماً كما لو أنه توقّف عن البكاء للتو. مرّ الوقت، وبدأت الشمس خارج الكهف تميل إلى الغروب، وكبرت ظلال الأرض. بداية الظلّ العظيم الذي يهبط عند الغسق. تسلل الظلام إلى الكهف حيث كانت الظلال تهدّد بأن تطفئ اللهب الضئيل المنبعث من

الفانوس لأن الزيت قد بدأ ينفد منه. هكذا سيبدو الأمر عندما تختفي الشمس أخيراً، عندما يقول الرجال لبعضهم بعضاً، إننا نفقد بصرنا، لكنهم لم يكونوا مدركين بأن عيونهم لم تعد تنفعهم.

غفا يسوع، مستسلماً للإعياء الذي لقيه في الأيام الماضية، موت أبيه المروّع، الكابوس الذي ورثه عنه، أمّه المستسلمة، ثم رحلته إلى أورشليم ورؤية الهيكل المهيب، والكلمات المثبّطة التي قالها الكاتب، ثم القدوم إلى بيت لحم، واللقاء المشؤوم مع سالومي التي برزت من أعماق الزمن لتكشف له عن ظروف ولادته، لذلك، لم يكن مفاجئاً أن يتغلّب جسده المرهق على روحه. بدا أنه أخلد للراحة، لكن روحه هي التي راحت تتحرّك، فأوقظت جسده المنهك في حلمه ليذهبا معاً ربما إلى بيت لحم ليعترف في منتصف الساحة بجريمته الشنيعة. ومن خلال الأداة الطبيعية للصوت قالت روحه، أنا مَنْ جلب الموت لأطفالكم، حاكموني، أدينوا هذا الجسد الذي أضعه أمامكم، عذّبوه، لأننا لا نستطيع أن نحصل على الغفران وعلى ثمار الجسد إلّا بكبح شهوات الجسد. في حلمه رأى المسيح أمهات بيت لحم يحملن أجساداً صغيرة، ولم يكن بين هؤلاء الأطفال إلّا طفل حي واحد، وكانت أمّه المرأة الوحيدة التي كلّمت يسوع المسيح والتي تحمل طفلاً بين ذراعيها، وهي التي أجابت، إذا لم تكن تستطيع أن تعيد لهم حياتهم، فلا تقل شيئاً، لأن مَنْ يحتاج إلى الكلمات في حضور الموت. في إذلال الذات هذا، انكمشت روحه على نفسها مثل سترة طويت ثلاث مرات، وسلّم جسده الأعزل لرحمة أمهات بيت لحم، أما جسده هو فقد أُنقذ، لأنه ما إن همت المرأة التي تحمل الطفل لأن تقول له لستَ أنت الملام، يمكنكَ أن تذهب، حتى ملأ وميض البرق الكهف وأوقظه مجفلاً. أين أنا، كانت أول عبارة نطقها. نهض بصعوبة من على الأرض المتربة،

والدموع تملأ عينيه. رأى فوقه رجلاً عملاقاً له رأس ملتهب، لكنه سرعان ما أدرك أنه واهم. فقد كان الرجل يحمل فانوساً بيده اليمنى، وتكاد النار تصل إلى سقف الكهف. لكن رأس الرجل كان شديد الضخامة. قد تكون رأس جالوت، لكن لم تكن قسمات وجهه فظة، بل كانت تشي بأنه شخص يبحث عن شيء وقد وجد ما يبحث عنه. وقف يسوع على قدميه وأسند ظهره إلى جدار الكهف ليتمكن من إلقاء نظرة أفضل على العملاق الذي لم يكن ضخماً، بل ربما كان أطول بقليل من أطول رجل في الناصرة. لقد اكْتشفت هذه الخدع البصرية التي لولاها لما كانت هناك معجزات أو أعاجيب منذ زمن بعيد. والسبب الوحيد الذي لم يجعل جالوت لاعب كرة سلة هو لأنه ولد قبل زمانه. من أنت، سأله الرجل. وضع فانوسه على صخرة ناتئة، وأسند العصوين اللتين كان يحملهما إلى الجدار؛ عصا مليئة بالعقد الكبيرة لكنها أصبحت ملساء من كثرة الاستعمال، أما العصا الأخرى فقد كان اللحاء لا يزال يكسوها، وكان يبدو أنها قُطعت من الشجرة مؤخراً. ثمّ جلس فوق أكبر صخرة، وبدأ يشدّ العباءة الفضفاضة من فوق كتفيه. فأجاب الفتى أنا يسوع من الناصرة. ماذا تفعل هنا ما دمت من الناصرة. مع أنني من الناصرة، فقد ولدتُ في هذه المغارة وقد جئت لأرى المكان الذي ولدتُ فيه. إن المكان الذي ولدتَ فيه يا بني هو بطن أمّك، ولن تستطيع أبداً أن تعود إليه زحفاً. تضرّج وجه المسيح الذي لم يعتد سماع مثل هذه الكلمات التي قالها الرجل، ولم يخطر بباله شيء ليردّ عليه. هل هربتَ من البيت، سأله الرجل. كما لو كان يفتّش في قلبه ليعرف هل يمكن وصف مغادرته البيت بأنه هروب، تردد الفتى قبل أن يجيب، نعم. هل تشاجرتَ مع والديك. أبي ميت. آه، كان كلّ ما قاله الرجل، إلّا أن شعوراً غريباً راود يسوع بأنّ الرجل يعرف ذلك، وبأنه يعرف كلّ

شيء، كلّ ما قيل وكلّ ما بقي ليقال. لم تجب على سؤالي، قال الرجل بإلحاح. أي سؤال. هل تشاجرتَ مع والديك. هذا ليس من شأنك. لا تكن وقحاً معي يا فتى، إلّا إذا كنتَ تريد أن تُضرب، ولن يسمع أحد صراخك حتى الربّ. إن الربّ هو عين وأذن ولسان، يرى ويسمع كلّ شيء، ولأنه يختار، فهو لا يقول كلّ شيء. ماذا يعرف فتى في عمرك عن الربّ. كلّ ما تعلّمته في الكنيس. لا يمكن أن تسمع أحداً في الكنيس يقول إن الربّ عين وأذن ولسان. لقد قرّرت أنا نفسي أنه إذا لم يكن الربّ هكذا، فلن يكون هو الربّ. ولماذا تظن أن للربّ عيناً وأذناً لا عينين وأذنين مثلنا. حتى لا تخدع عين العين الأخرى، ولا تخدع أذن الأذن الأخرى، أما اللسان، فليس ثمة مشكلة لأنه لا يوجد لدينا إلّا لسان واحد. لسان الرجل له وجهان أيضاً، يقول الصدق والكذب معاً. لا يمكن للربّ أن يكذب. ومن يمنعه. الربّ نفسه، وإلّا فإنه ينكر نفسه. هل رأيته أبداً. رأيتُ من. رأيتَ الربّ. لقد رآه البعض يعلن عن قدومه. حدّق الرجل في الفتى صامتاً، كما لو كان يبحث عن سمة مألوفة، ثمّ قال، صحيح، يظن البعض أنّهم رأوه. توقّف قليلاً، ثمّ تابع بابتسامة ماكرة، لم تجب على سؤالي بعد. أيّ سؤال. هل تشاجرتَ مع والديك. خرجت من البيت لأنني أردت أن أرى العالم. لقد أتقنت فنّ الكذب يا ولدي، لكنّني أعرفُ من أنت، أنتَ ابن نجار بسيط اسمه يوسف ونذافة صوف اسمها مريم. كيف عرفت. اكتشفتُ ذلك ذات يوم وأذكر ذلك جيداً. لم أفهم. أنا راع وأمضيت حياتي كلها تقريباً في رعي أغنامي وعنزاتي، وصادف أنني كنتُ في هذه المنطقة عندما جاء الجنود لذبح أطفال بيت لحم، لذلك عرفتك منذ يوم مولدك. نظر يسوع إلى الرجل باضطراب وسأله، ما اسمكَ. إن أغنامي لا تعرفني باسمي. لكني لستُ واحداً من أغنامك. من يعرف. قل لي ما اسمك. إن كنتَ تصرّ

على أن تطلق عليّ اسماً، فادعوني *الراعي*، وذلك يكفي لمناداتي إن كنتَ تحتاج إليّ. هل ستأخذني معك لأساعدك في رعي القطيع. كنت أنتظرك حتى تسأل. ماذا إذاً. نعم، يمكنك أن تنضمّ إلى القطيع. وقف الرجل، رفع فانوسه ثم خرج، وتبعه يسوع.

كانت تلك الليلة أشدّ الليالي حلكة، ولم يكن قد ظهر القمر بعد. تجمّعت الشياه بالقرب من مدخل الكهف. وبين الحين والآخر، كان يُسمع صوت رنين الأجراس الخافتة. كانت الشياه تنتظر نتيجة الحديث الدائر بين *الراعي* ومساعده الأخير. رفع الرجل الفانوس إلى الأعلى فبانت رؤوس العنزات السود، وخطوم الأغنام البيض. كانت بعض الخراف هزيلة يكسوها صوف خفيف متناثر، بينما كانت معاطف صوفية سميكة تجلل بعض الأغنام الأخرى. قال *الراعي* له: هذا قطيعي، واحرص على ألّا تضيع منك أي شاة منها. جلس يسوع والراعي عند مدخل الكهف تحت ضوء الفانوس الوامض وأكلا قليلاً من الجبن والخبز اليابس. ثمّ خرج *الراعي* وعاد حاملاً بيده عصا أخرى يكسوها اللحاء. أوقد ناراً وراح يحرّك العصا في النار بمهارة. شيئاً فشيئاً، احترق اللحاء وتقشّر وأصبح فتائل طويلة، ثمّ كشط العقد منها، وترك العصا لتبرد، ثم دفعها إلى النار مرة أخرى وراح يفتلها بسرعة كي لا تحترق، بل ليسودّ سطحها ويشتدّ وتأخذ شكل خشب معتق. عندما أصبحت العصا جاهزة، أعطاها ليسوع، وقال، ها هي عصا الراعي، قوية وملساء وصلبة مثل ذراع يد ثالثة. ولما كانت يدا يسوع رهيفتين، فقد ألقى بالعصا جانباً وصاح متسائلاً، كيف يستطيع راع أن يحمل عصا ساخنة كهذه. عندما بزغ القمر أخيراً، دخلا إلى الكهفليناما قليلاً. تبعتهما عدة شياه واستلقت بجانبهما. عند بزوغ الفجر، هزّ الراعي يسوع وقال له لقد حان وقت الاستيقاظ لترعى القطيع. من الآن فصاعداً،

يجب أن تقود القطيع إلى المرعى، وهو عمل مهم يجب أن تؤتمن عليه. مشت الشياه بخطواتها الصغيرة بقدر ما تتيح لها قوائمها بذلك، *الراعي* يسير أمامها، ومساعده خلفها. بدا أن الفجر البارد الشفّاف لم يكن مستعجلاً لاستقبال الشمس، حاسداً تلك العظمة التي تبشّر بولادة عالم من جديد. بعد عدة ساعات، برزت من أحد بيوت بيت لحم امرأة عجوز، تسير الهوينى، تتكئ على عصا ودخلت إلى الكهف. لم تفاجأ لأنها لم تر يسوع في المغارة، فضلاً عن أنه لم يعد ثمة شيء يمكن أن يقوله أحدهما للآخر وسط الظلال الأبديّة داخل الكهف الذي كان لا يزال مضيئاً لأن الراعي كان قد ملأ الفانوس بالزيت.

بعد أربع سنوات، سيلتقي يسوع بالربّ. إن هذا الكشف غير المتوقّع الذي ربما كان سابقاً لأوانه حسب قواعد الرواية الفعّالة التي أشرنا إليها آنفاً، يهدف بكلّ بساطة إلى تهيئة القارئ للتعرف على بعض المشاهد اليومية عن الحياة الرعوية التي ستضيف قليلاً من الإثارة إلى حبكة قصّتنا، وبذلك نقدم العذر لكلّ من يرغب في أن يقفز إلى الأمام. بيد أن أربع سنوات هي أربع سنوات، خاصة في عمر تطرأ فيه على الفتى الكثير من التغييرات الجسدية والعقلية، عندما يبدأ جسده ينمو بسرعة، وتظهر على ذقنه بوادر لحية، وتزداد بشرته السمراء سمرة، ويصبح صوته عميقاً وأجش يشبه صوت قطعة حجر تتدحرج من منحدر جبلي، وتلك النظرة الساهمة، كأنّه مستغرق في أحلام يقظة، يستحق التوبيخ والتعنيف باستمرار، لكن عندما يكون من واجبه أن يظل يقظاً مثل حارس في ثكنة أو قلعة أو معسكر، وكيلا نستطرد ونبتعد عن قصّتنا، مثل هذا الفتى الراعي الذي طُلب منه أن يحرس قطيع سيده. ومع أننا لا نعرف تماماً من هو ذلك السيد، لأن العمل في رعي الأغنام في ذلك الزمان وفي هذا المكان كان عمل خادم أو عبد يتعين عليه أن

يقدم، تحت ألم العقوبة، حساباً منتظماً عن الحليب والجبن والصوف، مهما بلغت أعداد الأغنام التي يجب أن تزداد ليرى الآخرون أن عيون الربّ تنظر بعين الرأفة والشفقة إلى صاحب هذا القطيع اللا متناهي، وإذا كان على صاحب القطيع أن يتماشى مع قواعد هذا العالم، فإن ثقته بالربّ يجب أن تكون أقوى من ثقته بالقوة الوراثية للكباش المسافدة في قطيعه. ومع ذلك، من الغرابة عدم وجود سيد لهذا *الراعي* الذي طلب أن يُدعى كذلك، لأنه في السنوات الأربع القادمة، لن يأتي أحد إلى الصحراء لشراء الصوف أو الحليب أو الجبن، ولن يقدم *الراعي* أي حساب عن واجباته. كانت الأمور ستجري على ما يرام لو كان *الراعي* هو صاحب هذه العنزات والأغنام. ومع أنه يصعب أن نصدّق أن هناك صاحب قطيع يترك كلّ هذه الكميات من الصوف تذهب هباء، ولا يجزّ صوف أغنامه إلّا كي لا تختنق من شدة الحرارة، أو لا يستفيد من الحليب إلّا من الكمية اللازمة لصنع الجبن يومياً، ثمّ يقايض بما تبقى منه بالتين والبلح والخبز، أو، وهو لغز الألغاز، أنه لا يبيع الحملان والجداء في قطيعه، حتى في عيد الفصح، عندما يشتد الطلب عليها ويرتفع ثمنها. فلا عجب إذن أن يظل القطيع في ازدياد، كما لو أنه يطيع، بإصرار وحماسة الذين يشعرون بأن فترة حياتهم مضمونة، ذلك التفويض المشهور الذي منحه لهم الربّ والذي قد يفتقر إلى الثقة في كفاءة الغريزة الطبيعية الحلوة. في هذا القطيع غير العادي والمشاكس، يذبح *الراعي* الشياه التي تشارف على الموت بسبب تقدمها في العمر والشياه التي لا يعود بإمكانها مجاراة الشياه الأخرى لإصابتها بمرض ما. وعندما أبدى يسوع احتجاجاً على هذه الوحشية، لأول مرة منذ عمله مع *الراعي*، قال له *الراعي*: إمّا أن أقتلها كما أفعل دائماً، أو أن أتركها تموت وحدها في هذه البريّة، أو أن أبقي القطيع وأنتظر حتى تموت

الحيوانات التي تصاب بمرض أو التي تتقدم في العمر، وأجازف بأن أترك الحيوانات السليمة تموت جوعاً بسبب شحّ المرعى، ثم سأله، قل لي إذاً ماذا كنت ستفعل لو كنت في مكاني وكنت تمتلك قوّة الحياة والموت على قطيعك. لم يعرف المسيح بما يجيب، فغيّر الموضوع وسأله، بما أنك لا تبيع الصوف ولديك كمية من الحليب والجبن تزيد على ما نحتاج إليه حتى نعيش، ولا تبيع الحملان والجداء في السوق، فلماذا تترك القطيع يزداد ويكبر، لأنه سيأتي يوم ستغطي عنزاتك وأغنامك جميع التلال والهضاب المترامية على مدى البصر، ولن تبقى هناك أرض تكفي للرعي. فأجابه *الراعي*، كان القطيع هنا وكان على أحدهم أن يعتني به ويحميه من اللصوص، وتصادف أنني كنت أنا هو ذلك الشخص. ماذا تقصد هنا. هنا، هناك، في كل مكان. أتطلب مني أن أصدّقك بأنّ هذا القطيع كان هنا طوال الوقت. تقريباً. هل اشتريت أول غنمة وأول عنزة. لا. من اشتراهما إذاً. لقد وجدتها هكذا، لا أعرف إن كان أحد قد اشتراهما؛ كان القطيع موجوداً عندما جئت إلى هنا. هل أُعطي لك. لم يعطني أحد غيره. لقد وجدته ووجدني. إذاً أنت صاحبه. لا، أنا لست صاحبه، فأنا لا أملك شيئاً في هذا العالم، لأن كلّ شيء، كما تعرف، يملكه الربّ. صحيح، منذ متى أنت راعٍ. أنا راع منذ قبل أن تولد. منذ كم سنة. يصعب معرفة ذلك، ربما إذا ضربنا عمرك بخمسين. الأجداد الذين عاشوا قبل الطوفان العظيم هم فقط الذين عاشوا أعماراً مديدة، ولا يأمل أحد في وقتنا هذا أن يبلغ من العمر ما بلغوه هم. لا داعي لأن تقول لي ذلك. لكنك إذا أصررت على أنك عشت كلّ هذا الزمن، فلا تتوقّع مني أن أصدّق أنك من البشر. أنا لست من البشر. الآن، لو كان يسوع ماهراً في فنّ طرح الأسئلة كما كان أيّ تلميذ من تلاميذ سقراط سيسأل، لكان من المرجح أن يجيب *الراعي*

إنني ملاك، لكن لا تخبر أحداً. ففي أحيان كثيرة، قد نمتنع عن طرح سؤال لأننا لسنا مستعدين، أو ببساطة لأننا نخشى أن نسمع الجواب. وعندما نستجمع شجاعتنا أخيراً ونسأل، فلا يكون هناك جواب، تماماً كما سيرفض يسوع ذات يوم أن يجيب عندما سُئل، ما هي الحقيقة. سؤال ظل بلا جواب حتى يومنا هذا.

يعرف يسوع من دون أن يسأل رفيقه الغامض، أنه ليس ملاكاً من ملائكة الربّ، لأن ملائكة الربّ يمجّدونه إلى الأبد، بينما الأشرار يمجّدونه بدافع الواجب وفي مناسبات مفروضة. وتجدر الإشارة إلى أن لدى الملائكة أسباب أقوى لتمجيده، لأنهم يعيشون بمودة ومحبة في كنف الربّ في مملكته السماوية. إن ما فاجأ يسوع منذ البداية، عندما غادرا الكهف عندما ظهر أول ضوء للنهار، أن *الراعي*، بعكسه هو، لم يكن يمجّد الربّ بالصلوات المعتادة كتلك التي أعادت روح الإنسان، والتي وهبت الديك الذكاء، وعندما كان *الراعي* يضطر إلى الاختلاء بنفسه وراء صخرة لقضاء حاجته، لم يكن يشكر الربّ الذي جعل الفتحات والأوعية لمساعدة الجسم البشري على أداء وظائفه وإلّا لأصبحنا في حالة يرثى لها. نظر *الراعي* إلى السماء والأرض كما يفعل المرء عندما يغادر الفراش، ودمدم شيئاً عن اليوم الجميل القادم، ووضع إصبعين على شفتيه، وأطلق صافرة قوية جعلت الأغنام كلها تتسمر في مكانها كأنها غنمة واحدة. كان ذلك كلّ شيء. وخيّل ليسوع بأنّه ربما نسي، وهذا أمر محتمل دائماً، لاسيما عندما يكون عقل المرء مشغولاً في التفكير بأمور أخرى، مثل كيف يعلّم هذا الفتى، المعتاد على حياة النجار السهلة، القواعد الأساسية في رعي الأغنام. الآن، وكما نعرف، ففي الأحوال العادية وبين الأناس العاديين، لم يكن المسيح سينتظر طويلاً ليكتشف مدى تقوى وورع سيده، لأن اليهود في

تلك الأيام، كانوا يشكرون الربّ حوالي ثلاثين مرة في اليوم لأدنى سبب، كما رأينا في أحيان كثيرة في هذا الإنجيل. لكن اليوم انتهى، ولم يبدِ *الراعي* أي علامة تشير على أنه شكر الربّ، وهبط الظلام، وتهيأ للنوم في العراء، وبالرغم من ذلك، لم يلمس بهاء سماء الربّ قلب الراعي، أو حتى لم تدمدم شفتاه بكلمة ثناء أو امتنان واحدة. ربما كانت السماء تمطر، لكنها لم تكن تمطر، وهذا دليل واضح على أن الربّ يراقب جميع مخلوقاته ويحرسها. في صباح اليوم التالي، بعد أن تناولا طعامهما، وبينما كان *الراعي* يستعد لتفقدّ القطيع، والتأكد من أن جميع الأغنام موجودة وأنه لم تضل عنزة أو غنمة مضطربة عن القطيع، قال يسوع بصوت قوي وثابت، سأذهب. توقّف *الراعي* وراح يرمقه من دون أن تتغير قسمات وجهه، وقال له: رحلة موفقة، لكنك لست بحاجة إلى أن تخبرني لأنك لست عبدي ولا يوجد عقد قانوني بيننا، وباستطاعتك أن تغادر عندما تشاء. لكن ألا تريد أن تعرف لماذا سأغادر. لستُ فضولياً. حسناً، سأخبرك في جميع الأحوال، سأغادر لأنني لا أريد أن أعمل مع رجل لا يؤدّي التزاماته تجاه الربّ. أيّ التزامات. أبسط الالتزامات، من قبيل أداء صلوات الشكر. لم يفه *الراعي* ببنت شفة، وكانت عيناه نصف مبتسمتين، ثمّ قال أخيراً: أنا لست يهودياً، لذلك لا توجد لديّ التزامات يتعين عليّ أن أؤديها. مصدوماً، تراجع يسوع بضع خطوات، فقد كان يعرف جيداً أن أرض إسرائيل تعجّ بالأجانب وبأشخاص يؤمنون بآلهة أخرى مزيفة، لكن هذه هي أول مرة ينام فيها إلى جانب شخص كهذا ويشاطره خبزه وحليبه. وكما لو كان يحمل سيفاً وترساً أمامه، صاح إن الربّ واحد. بهتت ابتسامة الراعي والتوى فمه وقال متجهّماً: بالتأكيد لو كان الربّ موجوداً، فلا بد أن يكون واحداً، لكنّ من الأفضل لو أنه اثنان، لكان هناك إله للذئب وإله

للخروف، إله للضحيّة وإله للقاتل، إله للمدان وإله للجلاد. فصاح يسوع، إن الربّ واحد، كامل، لا يُقسّم؛ وكاد أن يبكي باستياء شخص ورع. فردّ *الراعي*، لا أعرف كيف يستطيع الربّ أن يعيش، لكنّه لم يقل شيئاً آخر، لأن يسوع، بسلطة معلّم في الكنيس، قاطعه وقال: إن الربّ لا يعيش، إنما هو موجود. لا تحضرني هذه الفروق الدقيقة، لكنّي سأقول لك هذا، فأنا لا أحبّ أن أكون إلهاً يوجّه الخنجر الذي في يد القاتل، ويقدم في الوقت نفسه، الحنجرة التي سيحزّها ذلك الخنجر. إنك تهين الربّ بهذه الأفكار المسمومة بعدم إبداء أي احترام. إنك تغالي في تقدير أهميتي. تذكّر أن الربّ لا ينام أبداً، وأنه سيعاقبك ذات يوم. بما أنه لا ينام، فإنه يستطيع أن يتحاشى كوابيس الندم. لماذا تحدّثني عن كوابيس الندم. لأننا نتحدّث عن إلهك. ومن هو الإله الذي تعبده. مثل أغنامي لا يوجد لديّ إله. لكن الأغنام، على الأقل، تنجب الحملان لكي تُقدم قرابين على مذابح الربّ. أستطيع أن أؤكد لك بأنّ أمهاتها ستعوي مثل الذئاب لو عرفت ذلك. شحب وجه يسوع ولم يعرف بما يجيبه.

كان كلّ شيء صامتاً عندما تجمّع القطيع حولهما. بدأت الشمس تشرق وتلقي بنورها وهجاً قرمزياً على معاطف الأغنام الناعمة وعلى قرون الأكباش. قال يسوع، أنا ذاهب. لكنه لم يتحرّك. انتظر الراعي، متكئاً على عصاه، هادئاً كما لو أنه يمتلك كلّ الوقت في العالم. أخيراً، خطا يسوع بضع خطوات وشقّ طريقاً بين الأغنام، ثمّ توقّف فجأة وسأل *الراعي*، ماذا تعرف عن الندم والكوابيس. أنك وريث والدك. كان وقع هذه الكلمات شديداً على يسوع، فانحنت ساقاه، وانسلّت المخلاة من فوق كتفه. وبالمصادفة أم بالضرورة سقط خف والده، وسمع الإناء الفخاري الذي كان الفريسي قد أعطاه له يتهشم ويتناثر إلى قطع صغيرة.

بدأ يسوع يبكي مثل طفل ضائع، لكن الراعي لم يحاول أن يهدئ من روعه، ومن المكان الذي كان يقف فيه لم يقل شيئاً سوى: لا تنس أنني أعرف عنك منذ اليوم الذي ولدت فيه، وعليك الآن أن تقرّر أن تذهب أم تبقى. قل لي أولاً من أنت. لم يحن الوقت بعد حتى تعرف. ومتى سأعرف. إن بقيتَ، فإنك ستندم لأنك لم تغادر، وإن غادرتَ، فإنك ستندم لأنك لم تبق. لكنني إذا غادرت، فلن أعرف من أنت. إنك مخطئ، ستحين ساعتك، وعندما تحين، سأكون هناك لأخبرك، ولنكفّ عن التكلم الآن، لأن القطيع لا يستطيع أن يقف هنا طوال النهار بانتظار أن تحزم أمرك. لململَ يسوع قطع الإناء المكسور، وراح يرمقها كأنه لا يستطيع أن يبارحها، لكن لسبب غير معقول، البارحة مثل هذه الساعة لم يكن قد التقى بالرجل الفريسي بعد، فضلاً عن أن ما حدث كان متوقَّعاً، فالفخار ينكسر بسهولة. نثر القطع على الأرض كأنه يبذر بذوراً، ثم قال *الراعي*: سأعطيك طاسة أخرى، لكن هذه الطاسة لن تنكسر ما دمتَ حياً. لم يسمعه يسوع. كان يحمل بيده خف يوسف ويفكّر ما إذا كان عليه أن ينتعله أم لا. منذ فترة غير بعيدة كان مقاس الخفّ سيكون كبيراً على قدميه، لكن الزمن، كما نعرف، قد يكون مخادعاً. أحسّ يسوع بأنه يحمل خفّ أبيه في مخلاته منذ زمن طويل، وكان سيُدهش لو أنه وجد أنه لا يزال واسعاً عليه. انتعل الخفّ، ومن دون أن يعرف سبب ذلك، وضع نعله في المخلاة. قال له *الراعي*: عندما تكبر القدمان، فإنهما لا تنكمشان ثانية، ولن يكون لديك أبناء لتورثهم ثوبك وعباءتك ونعلك. لكن يسوع لم يلق به جانباً لأن وزنه ساعده على إبقاء المخلاة التي تكاد تكون فارغة على كتفيه. لم يكن يسوع هناك ليردّ على *الراعي* الردّ الذي يريده، وأخذ مكانه وراء القطيع. كان يتنازع قلبه إحساس غامض من الرعب كما لو كانت روحه في

خطر، وإحساس أشدّ غموضاً من الافتتان الكئيب. يجب أن أعرف حقيقة من أنت، دمدم المسيح، مختنقاً من الغبار الذي أثاره القطيع عندما لحق بخاروف تخلّف وراءه، وهذا هو السبب، كما قال لنفسه، الذي جعله يقرّر البقاء مع هذا الراعي الغامض.

مرّ اليوم الأول. لم يتحدثا فيه عن الإيمان والكفر وعن الحياة والموت والميراث؛ لكن يسوع الذي راح يراقب الراعي، كلّ سكنة ونأمة تصدر عنه، لاحظ أنه كلما قدّم الراعي صلوات الشكر للربّ، كان ينحني ويضع راحتيْ يديه على الأرض، ويخفض رأسه ويغمض عينيه، دون أن ينطق بكلمة واحدة. في أحد الأيام، عندما كان لا يزال فتى صغيراً، سمع المسيح من بعض المسافرين المسنين الذين كانوا يمرّون من الناصرة أنه توجد في أعماق الأرض كهوف ضخمة فيها مدن وحقول وأنهار وغابات وصحارى تشبه تلك الموجودة على سطح الأرض، وأن هذا العالم السفلي، الذي هو صورة كاملة وحية عن العالم الذي نعيش فيه، خلقه الشيطان بعد أن ألقى به الربّ من السماء إلى الأسفل عقاباً على تمرّده عليه. وعندما عامل الربّ الشيطان برقة في البداية ونظر إليه برأفة، علّق الملاك بالقول إنه لا توجد صداقة وثيقة في هذا الكون، وقد شهد الشيطان ولادة آدم وحواء. بعد أن تعلّم كيف تم ذلك، كرّر الشيطان العملية في العالم السفلي وخلق لنفسه رجلاً وامرأة، بفارق وحيد هو، بعكس الربّ، أنه لم يحرّم شيئاً عليهم، وهذا ما يفسّر سبب عدم وجود شيء يشبه الخطيئة الأصلية في عالم الشيطان؛ بل تجاسر أحد الرجال العجائز وقال: بما أنه لا توجد خطيئة أصلية، فلا توجد هناك خطايا أخرى أيضاً. وبعد أن هرب الرجال عندما رجمهم الناصريون الغاضبون الذين أدركوا حقيقة ما يهدف إليه هؤلاء الحمقى العجائز غير المحترمين بكلامهم هذا، حدثت هزّة مفاجئة، لم تكن شيئاً

خطيراً، بل مجرّد إشارة تأكيد منبعثة من أحشاء الأرض، جعلت يسوع الشاب يفكّر، الذي كان قادراً حتى عندما كان فتى على أن يربط بين السبب والنتيجة. الآن، بينما كان يسوع يراقب الراعي يسجد أمامه، خافضاً رأسه، راحتاه تلامسان الأرض قليلاً ليحسّ بكلّ حبة رمل وبكلّ حصاة وجذر نبتة ونصل عشبة فوق سطح الأرض، تذكّر المسيح تلك القصّة. لعل هذا الرجل يقيم في العالم الخفي الذي خلقه الشيطان في صورة ومثال العالم المرئي. ماذا يفعل هنا، سأل يسوع نفسه، لكنّه لم يجرؤ على التساؤل أكثر من ذلك. عندما نهض الراعي على قدميه أخيراً، سأله يسوع، ماذا تفعل. أريد أن أتأكّد من أن الأرض لا تزال تحتي. لا بد أنك تستطيع أن تعرف من قدميك. لا تدرك قدماي شيئاً، إنما يداي فقط هما اللتان تستطيعان أن تخبراني لأنك عندما تعبد ربك، فإنك لا ترفع قدميك نحوه، إنما ترفع يديك، بل حتى إنك تستطيع أن ترفع أجزاء أخرى من جسمك، كالذي يقبع بين ساقيك، إلّا إذا كنت مخصيّاً. امتقع وجه يسوع خجلاً ورعباً. عندما تمالك نفسه، قال يسوع للراعي بحدّة، لا تهن الربّ الذي لا تعرفه. لكن الراعي سأله، من الذي خلق جسمك. الربّ طبعاً. كما هو الآن. نعم. وهل ساهم الشيطان في خلق أيّ جزء من جسمك. لا أبداً، لأن الربّ وحده هو الذي خلق جسم الإنسان. إذاً، لكلّ عضو من أعضاء جسدك نفس القدر من الأهمية في نظر الربّ. هذا أمر مؤكد. إذاً فليس من المحتمل أن يُنكر ما خلقه بين ساقيك، مثلاً. لا، لا أظن ذلك. لكن الربّ خلق بعد ذلك آدم وطرده من الجنة بالرغم من أنه هو الذي خلقه. فقط أعطني رداً مباشراً أيها الفتى، وكفّ عن التحدث كمعلّم في الكنيس. إنك تريد أن أعطيك الردود التي تريد أن تسمعها، لكنّي أستطيع أن أقول لك، إذا أردت، إن جميع الحالات التي حرّمها الربّ على البشر، تحت طائلة

عقوبة ألم الموت، هي أن يكشف عن عريه أو عري الآخرين، مما يؤكد أن أجزاء محددة من الجسد آثمة. ليست أكثر إثماً من الفم عندما ينطق بالكذب والافتراء، نفس الفم الذي تشكر به ربك قبل أن تقول بواسطته أكاذيب وافتراءات. يكفي هذا، لا أريد أن أسمع كلمة أخرى. يجب أن تسمعني حتى الآخر، أو على الأقل أجب على سؤالي. أي سؤال. هل يستطيع الربّ أن ينكر أن العضو الذي بين ساقيك هو شيء لم يخلقه هو، أجبني بنعم أم لا فقط. لا، لا يستطيع. لمَ لا. لأن الربّ لا يستطيع أن يلغي ما شاء أن يكون. هزّ الراعي رأسه ببطء، وقال: بمعنى آخر، فإن إلهك هو الحارس الوحيد لسجن السجين الوحيد فيه. كان الصدى الأخير لهذه الكلمات الرهيبة لا يزال يتردد في أذنيْ المسيح عندما واصل الراعي كلامه بصوت يكاد يكون طبيعياً وقال، يجب أن تختار خروفاً. ماذا، سأل المسيح مضطرباً. قلت اختر خروفاً، إلّا إذا كنت تفضّل عنزة. لماذا. لأنك ستحتاج إليها، إلّا إذا كنت مخصيّاً حقاً. عندما استوعب الفتى معنى عبارة الراعي، أصيب بالذهول، لكن الأسوأ من كلّ ذلك، كان اندفاع الشهوانية الحقيرة عندما أخفى شعوره بالإحراج والاشمئزاز. غطى وجهه بكلتا يديه، وقال بصوت أجش، هذه كلمة الربّ، الرجل الذي يضاجع حيواناً سيُعاقب بالموت ويُذبح الحيوان، وقال الربّ أيضاً، ملعون هو الرجل الذي يأثم مع حيوان من أيّ نوع. هل قال ربك كلّ ذلك. نعم، والآن دعني وشأني أيها المخلوق الكريه، لأنك لا تنتمي إلى الربّ إنما تنتمي إلى الشيطان. استمع الراعي إليه ببرود، منتظراً أن تأخذ لعنة المسيح تأثيرها بالكامل، مهما كان ذلك، في هيئة شبح، أم في شكل جذام، أم في شكل دمار مفاجئ لكل من الجسد والروح. لكن لم يحدث أي شيء من هذا القبيل. هبّت ريح وراحت تتلاعب بين الأحجار، ورفعت سحابة من التراب غطت

الفلاة، ثمّ لم يحدث شيء آخر سوى الصمت. كان الكون يراقب هذين الرجلين وتلك الحيوانات بهدوء. لعله كان ينتظر رؤية أي دليل يمكن أن يدرك أو يفسّر تلك الكلمات التي تستهلك نفسها في هذه اليقظة؛ النار الأزلية التي تحوّلت للتو إلى رماد، لكن الردّ يأتي بطيئاً. ثمّ رفع الراعي ذراعيه وصرخ في قطيعه بنبرة آمرة، اسمعي أيتها الأغنام، اسمعي ما جاء به هذا الصبي المتعلّم ليعلّمنا، لقد حرّم الربّ أن يأثم بكم إنسان، فلا تخافي، لكنه يسمح بجزّ صوفك وذبحك وأكلك، لأنك خُلقت لهذا السبب حسب شريعة الربّ، وستظلين تعيشين برحمته وتدبيره. ثم أطلق ثلاث صافرات طويلة، ولوّح بعصاه فوق رأسه، وصاح، اذهبوا، اذهبوا، فبدأ القطيع يتحرّك نحو البقعة التي اختفى فيها عمود الدخان. وقف يسوع يراقب حتى اختفت هيئة *الراعي* الطويلة واندمجت أكفال الشياه بلون الأرض. لن أذهب معه، قال يسوع، لكنه ذهب. ثبّت مخلاته على ظهره، وعقد أشرطة خفّ أبيه، وتبع القطيع من بعيد. وأدركه عندما حلّ المساء، وخرج من الظلال إلى ضوء النار الموقدة، وقال: لقد أتيت.

غداً يوم آخر، قول معروف ودقيق، لكن بالرغم من ذلك، فهو ليس قولاً بسيطاً كما قد يبدو لشخص يقنع بالمعنى التقريبي للكلمات، سواء أُخذت منفصلة أم مجتمعة، لأن كلّ شيء يتوقف على الطريقة التي يقال فيها ويتفاوت بحسب مزاج الشخص المتحدث. وعندما يريد أحدهم لا تسير حياته على ما يرام، ويأمل في رؤية أوقات أفضل، أن يعبّر عن رأيه بالكلمات، فلن تكون الكلمات ذاتها لو قالها في صيغة تشي بالتهديد، وتعد بالانتقام ذات يوم. وتزداد الحالة حدة عندما يتنهّد أحدهم ويقول: غداً يوم آخر، لأنه متشائم في طبعه ويستسلم لتوقّع الأسوأ. من غير المنطقي على الإطلاق أن يتلفظ يسوع بهذه الكلمات وهو في هذا العمر، مهما كان قصده، أو مهما كانت نبرة صوته. أما نحن، نعم، لأننا مثل الربّ نعرف كلّ ما حدث أو ما سيحدث، فيمكننا أن نقول أو نتمتم أو نهمس هذه الكلمات ونحن نرى يسوع يواصل عمله كفتى راعٍ، يعبر تلال منطقة يهوذا، أو يهبط إلى وادي الأردن لاحقاً. لا لأننا نكتب عن يسوع المسيح، بل لأن كلّ إنسان يتعرض باستمرار لأمور جيدة وأمور سيئة، شيء يعقبه شيء آخر، يوماً بعد يوم. وبما أن هذا الإنجيل لا يرمي أبداً إلى نبذ ما كتبه آخرون عن

يسوع المسيح أو إلى دحض رواياتهم، وبما أن يسوع المسيح هو بطل قصّتنا، فإنه يسهل علينا أن نتوجّه نحوه ونتنبأ بمستقبله ونخبره عن الحياة الرائعة التي تنتظره، والمعجزات التي سيجترحها التي تتجلى في توفير الطعام، وشفاء أمراض، بل حتى دحر الموت. لكن من الصعب أن يتسم هذا الأمر بالحكمة، لأن يسوع الشاب، بالرغم من موهبته وكفاءته العالية في تعلّم المسائل الدينية ومعرفته الجيدة بسير الآباء والأنبياء، وإحساسه بالشكّ الذي يرتبط بمرحلة الشباب، فإنه سيطردنا بقدر من الازدراء. نعم، فإنه سيغيّر رأيه عندما سيلتقي بالربّ، لكن من المبكر جداً حدوث هذا اللقاء العظيم، لأنه قبل ذلك، على المسيح أن يصعد ويهبط منحدرات جبلية كثيرة، وأن يحلب أعداداً كبيرة من الماعز والأغنام، وأن يساعد في صنع الجبن ويقايض بها بسلع أخرى في القرى، وسيضطر أيضاً إلى ذبح الشياه المريضة أو تلك التي تعيش فترة أطول مما يجب، وسيحزن على فقدانها. لكن لا تغضبي أيتها الأرواح المرهفة، فلن يرتكب الخطيئة المروّعة التي اقترحها *الراعي* وهي أن يضاجع عنزة أو غنمة أو كليهما لإرضاء شهوات الجسد الفاسد الذي يأوي روحه النقية. لكن لم يحن بعد الزمان أو المكان للتأمّل كم أن الروح، كي تتبجّح بأنها تحوي جسداً نظيفاً، قد أرهقت نفسها بالحزن والحسد والخبائث.

ومع أن الراعي والمسيح لم يتوصلا في أحاديثهما المتبادلة حول المسائل الأخلاقية واللاهوتية إلى حلّ، فإن العلاقة بينهما كانت على ما يرام. فقد كان *الراعي* يعلّمه بأناة وصبر كيف يرعى القطيع، وكان الفتى يستمع باهتمام شديد، كما لو أنها مسألة حياة أو موت. وتعلّم المسيح كيف يلقي بعصاه المعقوفة في الهواء لتهبط على كفل شاة ضلّت طريقها

في لحظة شرود، أو تجاسرت على الابتعاد عن القطيع. لكن فترة تدريبه كانت ممضة، لأنه في أحد الأيام، بينما كان يبذل جهداً كبيراً لتعلم أسلوب رمي العصا، رماها على مستوى منخفض فأصابت عرضاً رقبة طرية لجدي حديث الولادة، فقُتل الجدي المسكين على الفور من قوة الضربة. قد تقع مثل هذه الحوادث مع أي شخص، حتى مع راعي غنم متمرس، لكن يسوع المثقل بأحزان كثيرة، تصلّب جسده فزعاً عندما رفع الجدي الصغير الذي كان لا يزال جسده دافئاً بين ذراعيه. لم يستطع أن يفعل شيئاً لإنقاذه. حتى العنزة الأمّ، بعد أن تشممت وليدها للحظة، ابتعدت عنه وعادت ترعى وتخمش سنابل العشب وتسحبها برأسها بحركات سريعة، تذكّرنا باللازمة المألوفة، العنزة التي تثغو كثيراً لا تمضغ عشباً كثيراً، وهي طريقة أخرى للقول لا يمكنك أن تبكي وتأكل في الوقت نفسه. جاء الراعي ليرى ما حدث. حظّ عاثر، لا داعي لأن تشعر بالذنب. لكني قتلت هذا الحيوان الصغير المسكين، قال المسيح حزيناً. هكذا فعلت، لكنه لو كان تيساً عجوزاً قبيحاً تفوح منه رائحة كريهة لما انتابتك مشاعر الشفقة هذه، ضعه على الأرض ودعني أتصرف به، واذهب أنت وتولّى أمر النعجة هناك التي يبدو أنها ستلد. وماذا ستفعل بالجدي. سأسلخه طبعاً إلّا إذا كنت تتوقّع أن تحدث معجزة ويعود إلى الحياة. أقسم بأنّني لن ألمس هذا اللحم. إن تناولنا لحم الشياه التي نذبحها وسيلتنا الوحيدة لإبداء الاحترام لها، وما الضير في أن نأكل ما اضطر الآخرون لقتله. إني أرفض أن آكله. كما تشاء، ستكون لديّ كمية كبيرة من اللحم إذاً. استلّ الراعي من حزامه سكيناً، ونظر إلى يسوع، وقال: هذا أمر آخر يجب أن تتعلّمه إن آجلاً أم عاجلاً، وهو دراسة أحشاء الحيوانات التي خُلقت لخدمتنا وتغذيتنا.

أشاح المسيح بوجهه واستدار ليذهب، لكن الراعي الذي كان يحمل السكين بيده، تابع يقول: لقد وجد العبيد لخدمتنا، وربما تعين علينا أن نبقر بطونهم لنرى هل يحملون عبيداً في داخلهم، أو علينا أن نبقر بطن ملك لنرى إن كان هناك ملك آخر في بطنه. أراهن أننا إذا التقينا بالشيطان وسمح لنا أن نفتح بطنه، فقد نتفاجأ بأن نرى الربّ يقفز منه. كان الراعي لا يزال يحبّ استفزاز يسوع بهذه الملاحظات الشنيعة. وشيئاً فشيئاً، تعلّم يسوع أن أفضل وسيلة للتعامل معه هو أن يتجاهله بالكامل ولا يقول له شيئاً، لكي لا يتمادى *الراعي* ويقول إنه إذا فتحت بطن الربّ فربما ترى الشيطان في داخله. انطلق يسوع ليبحث عن النعجة التي ستلد، فعلى الأقل لن تكون هناك مفاجآت بانتظاره، لأنه سيولد حمل مثل أيّ حمل آخر، في صورة ومثال أمّه التي تشبه هي أخواتها أيضاً، لأن الشيء الوحيد الذي يمكن أن نتوقّعه من هذه المخلوقات هو استمرارية النوع بسهولة. كانت النعجة قد ولدت للتو، وكان الحمل الذي ولد ملقى على الأرض، وبدا أنه كله سيقان عندما حاولت أمّه أن تساعده على الوقوف على أطرافه، وراحت تدفعه بأنفها برفق، لكن المخلوق المذهول المسكين لم يكن يقوى على عمل شيء إلّا أنْ يرفع رأسه، كأنه يحاول العثور على أفضل زاوية يأوي إليها في هذا العالم الجديد الغريب. ساعده يسوع على الوقوف على أطرافه بثبات الذي لم يعبأ لأن يديه أصبحتا دبقتين من المشيمة لأن المرء يعتاد على ذلك عندما يكون على اتصال مباشر مع الحيوانات. لقد ولد هذا الحمل في أوانه. كان يبدو جميلاً بمعطفه المجعّد وبفمه الوردي الصغير الذي راح يبحث بلهفة عن الحليب الذي تدرّه تلك الحلمات التي يراها لأول مرة ولم يكن بإمكانه أن يتخيّلها عندما كان في

رحم أمّه. لا يملك أحد أيّ سبب للاعتراض على الربّ عندما نكتشف الأشياء المفيدة الكثيرة منذ لحظة ولادتنا.

في تلك الأثناء، كان *الراعي* يشدّ فروة الجدي فوق إطار خشبي في شكل نجمة، ولفّ الذبيحة المسلوخة بقطعة قماش ثم وضعها في مخلاته، وقرر أن يملّحها بعد أن ينام القطيع في الليل، ماعدا قطعة اللحم التي سيتناولها *الراعي* على العشاء، لأن يسوع أصرّ على ألّا يلمس لحم شاة قتلها بيده. إن هذه الشكوك التي ساورت يسوع وضعته في صراع مع الإيمان الذي يعتنقه ومع التقاليد والتي يتمسك بها التي تسمح بذبح كلّ تلك الحيوانات البريئة الأخرى لتقديمها قرابين على مذابح الربّ كل يوم، خاصة في أورشليم، حيث يتم عدّ القرابين التي تقدم في المذابح. في هذا الزمان والمكان المحددين، بدا موقف المسيح غريباً، لكن قد يكون ذلك ضعفاً، لأننا يجب ألّا ننسى موت يوسف المأساوي واكتشاف يسوع الأخير المذبحة المروعة التي وقعت في بيت لحم منذ قرابة خمس عشرة سنة، وهذا يكفي لتشويش أيّ عقل، وخاصة في مرحلة الشباب، فضلاً عن الكوابيس المرعبة التي لم نأت على ذكرها مؤخراً، والتي ظلت تؤرّقه ولا تبارحه. وعندما لا يحتمل فكرة أن يوسف سيأتي ليقتله، كان صراخه يوقظ القطيع في منتصف الليل، فيهزّه الراعي برفق ويقول له، ما هذا، ما الذي يجري. ما إن يتخلص من كابوسه، حتى كان يسوع يسقط بين ذراعي الراعي كما لو كان والده المنكود. بعد فترة من العمل مع *الراعي*، أفضى له يسوع بأن كوابيس تنتابه، لكنه لم يقل له سبب ذلك، لكن *الراعي* قال له، وفّر على نفسك قول أي شيء لأني أعرف كلّ شيء، حتى الأشياء التي تكتمها عني. كان ذلك عندما وبّخ يسوع *الراعي* لعدم إيمانه وخبثه،

وخاصة، إذا كنتم ستغفرون لي، الفكرة المتعلقة بالجنس. لكن يسوع المسيح أدرك بأنّه لا يوجد لديه شخص آخر في العالم، بالإضافة إلى أسرته التي هجرها ونسيها، لكنه لم ينس أمّه التي منحته الحياة، مع أنّه كان يتمنّى في أحيان كثيرة أنّها لم تفعل ذلك، وبعد أمّه، أخته ليسا فقط، لسبب لم يستطع أن يفسّره، لكن الذاكرة هكذا، لها أسبابها الخاصة. وشيئاً فشيئاً بدأ يسوع يشعر بالارتياح لصحبة *الراعي*. ومن السهل أن نتخيّل سبب شعوره بالارتياح، وذلك لأنه لم يعد يعيش وحيداً مع شعوره بالندم، لأنه أصبح هناك أحد معه يتفهم ولا يدّعي بأنه يغفر ما لا يمكن غفرانه؛ شخص يعامله بلين وبقسوة بحسب براءته وذنبه. رأينا ضرورة أن نوضح هذه النقطة ليسهل على القارئ تفهم وتقبّل لماذا قرر يسوع الذي يختلف تمام الاختلاف من حيث الشخصية والأفكار عن سيده الفظ، القليل التهذيب، أن يبقى معه ريثما يتم ذلك اللقاء المتوقع مع الربّ الذي يعد بأن يكون شيئاً مهيباً، لأن من غير المعقول أن يظهر الله لإنسان بسيط بلا سبب قوي.

لكن قبل المضي في ذلك، فإن الظروف والصدف التي ناقشناها بالتفصيل تملي علينا ضرورة أن يلتقي المسيح بأمّه وإخوته في أورشليم أثناء عيد فصح الذي خيّل له بأنّه سيحتفل به لأول مرة من دون أمه وإخوته. ومن الممكن أن تثير رغبة يسوع في الاحتفال بعيد الفصح في أورشليم غضب *الراعي*، لأنهما يرعيان القطيع الذي هو بحاجة إلى رعايتهما على سفوح التلال، فضلاً عن أن *الراعي* ليس يهودياً ولا يوجد لديه إله آخر يكرّمه، لذلك، كان من المرجح ألّا يسمح ليسوع بالذهاب ويقول له، لن أسمح لك بأن تذهب ويجب أن تبقى هنا، فأنا من يصدر الأوامر هنا، ولدينا عمل كثير يجب أن نقوم به. لكن شيئاً من ذلك لم

يحدث على الإطلاق، بل سأله *الراعي* ببساطة، هل ستعود، لكن يبدو من نبرة صوته أنه كان واثقاً من أن يسوع سيعود. وبالفعل، ردّ الفتى بلا تردّد، مع أنّه فوجئ بخروج الكلمات بهذه السرعة، نعم، سأعود. إذاً اختر لنفسك حملاً نظيفاً وخذه لتقدمه قرباناً لأنكم معشر اليهود تعلقون أهمية كبيرة على هذه الطقوس والشعائر. كان *الراعي* يختبر يسوع ليرى هل سيأخذ الحمل إلى حتفه من القطيع الذي يحرصان على رعايته وحمايته. لم يحذّر أحد يسوع، ولم يهمس ملاك غير مرئي في أذنه ويقول له، احذر، إنه فخّ، لا تثق به، فمن الممكن أن يفعل هذا الرجل أيّ شيء. لكن طبيعة يسوع الرقيقة جعلته يردّ بلطف، أو لعلها ذكرى الجدي الميت والحمل الذي ولد مؤخراً. وقال: لا أريد أن آخذ أي حمل من هذا القطيع. لمَ لا. لا أستطيع أن آخذ حيواناً ربيّته بنفسي إلى حتفه. كما تشاء، لكن أرجو أنك تدرك بأنّك ستأخذ حملاً من قطيع آخر. أظن ذلك، لأن الحملان لا تسقط من السماء. متى ستذهب. في الصباح الباكر. وهل ستعود. نعم، سأعود. لم يتحدثا أكثر من ذلك، مع أنّه تصعب رؤية كيف سيتمكن يسوع من الحصول على نقود تكفي لشراء حمل عيد الفصح وهو لا يكاد يستطيع أن يتدبر أمور معيشته البسيطة. قد يقول قائل إنه لم ينغمس في الرذائل التي تكلّف نقوداً كثيرة، لذلك لا تزال لديه حفنة من النقود المعدنية التي كان قد أعطاها له الفريسي منذ حوالي سنة، لكنّها لم تكن كافية. وكما أسلفنا، فإن ثمن الأغنام بصورة عامة، والحملان بصفة خاصة، يرتفع كثيراً في هذا الوقت من السنة، لذلك على المرء أن يضع كل ثقته في الربّ. وعلى الرغم من جميع المحن التي واجهها، فإن المرء يميل إلى القول بأن نجمة الحظ هي التي توجّه هذا الفتى، لكن سيكون من الغباء أن يعتقد

أيّ من مؤلفي الأناجيل الأربعة بأنه قد تكون للأجرام السماوية الشديدة البعد عن كوكبنا أيّ تأثير على حياة إنسان، مهما تضرّع المجوس التقاة، ومهما درسوا النجوم وقارنوها، لأنه إذا ما قيل لنا صحيح، فلا بدّ أنهم جاؤوا إلى هذا المكان منذ بضع سنوات ليروا ما رأوه ثم عادوا. إن ما نريد أن نقوله ببساطة في هذا الفقرة الطويلة بأنه لا بد أن يجد يسوعنا وسيلة ليظهر في الهيكل على نحو لائق وهو يحمل بيديه حملاً صغيراً لينجز ما يؤمل منه، لأنه أثبت أنه يهودي تقي حتى في الظروف الصعبة، مثل المناقشات المشوبة بالتوتر مع *الراعي*.

في هذا الفترة من السنة، كان القطيع يرعى في مراعٍ وفيرة في وادي المصرارة الذي يقع بين مدينتي جازر وعمواس. وفي عمواس، حاول يسوع أن يكسب بعض النقود لشراء الحمل الذي يحتاج إليه كثيراً، لكنه سرعان ما اكتشف بأنه بعد سنة من رعي الغنم والماعز، لم يعد قادراً على القيام بأيّ عمل آخر، حتى العمل في مهنة النجارة التي توقف عن ممارستها ولم يكتسب أي خبرة فيها. لذلك، سلك الطريق من عمواس إلى أورشليم وهو يتساءل ماذا عليه أن يفعل. فلم يكن يملك ما يكفي من النقود لشراء حمل. وبالطبع لم تكن السرقة واردة، وسيكون العثور على حمل ضالّ في الطريق معجزة أكثر منها ضربة حظ. فقد كانت هناك أعداد كبيرة من الحملان على مرمى البصر، بعضها مقيد بحبل حول رقبتها يجرّها أصحابها، وبعضها الآخر محظوظ وقد حُملت بين ذراعين محبتين. وتكون هذه المخلوقات البريئة متحمّسة ومتشوّقة لمعرفة كلّ شيء وهي تتخيّل أنها في نزهة، ولما كانت غير قادرة على أن تسأل، فإنها تستخدم عيونها بأمل أن تفهم عالماً مصنوعاً من كلمات. جلس يسوع المسيح على صخرة على قارعة الطريق يفكّر بحلّ لهذه المشكلة

المادية التي تمنعه من أداء واجبه الروحي، إلّا إذا ظهر له فريسي آخر، أو ربما نفس الفريسي الذي ربما كان يتصدق يومياً، فجأة وسأله، هل تحتاج إلى حمل، تماماً كما سأله الرجل سابقاً، هل أنت جائع. في المرة الأولى، لم يكن يسوع يتسوّل عندما أتته النقود، أما الآن، إذا كان ثمة أمل في أن يُعطى شيئاً، فعليه أن يشحذ. كانت يده ممدودة الآن، وهي حركة معبّرة جداً لا تحتاج إلى أي تفسير، ومعبّرة جداً إلى حد أننا نشيح بعيوننا دائماً خشية أن يظهر أمامنا جرح قبيح أو مجون محزن. أُسقطت بضع قطع معدنية في يد يسوع من مارة أقل شروداً. كان المبلغ ضئيلاً لا يمكن أن يوصله من عمواس إلى باب أورشليم. وحتى لو أضاف ما لديه من نقود وما جمعه الآن، فلن يكفيه لشراء حتى نصف حمل. وبما أن الربّ، كما يعرف الجميع، لا يقبل على مذبحه حيواناً غير كامل وتام، ويرفض الحيوانات العمياء أو العرجاء أو المشوّهة أو المريضة أو الملوثة، فيمكنك أن تتخيّل الفضيحة التي يمكن أن تحدث في الهيكل إذا جئنا إلى المذبح القرباني ونحن نحمل الجزء الخلفي من الذبيحة فقط، أو إذا كانت خصيتا الحيوان مسحوقتين أو مبتورتين أو مقطوعتين، فإن الربّ لا يقبلها. لم يسأل أحد هذا الفتى لماذا تحتاج إلى نقود، لكن انتظر. اقترب من يسوع رجل مسن له لحية طويلة بيضاء، ووقف أفراد أسرته في منتصف الطريق ينتظرون باحترام عودة أبيهم. ظنّ يسوع بأنه سيتلقى قطعة نقدية أخرى، لكنّه كان مخطئاً. سأله الرجل العجوز، من أنت. استوى الفتى واقفاً على قدميه وأجاب، أنا يسوع المسيح من الناصرة. ألا توجد لديك أسرة. نعم، عندي أسرة. لماذا لستَ معها. جئت لأعمل راعياً في يهوذا. إنها طريقة مخادعة لقول الحقيقة، أو لوضع الحقيقة في خدمة الكذب. نظر إليه الرجل العجوز

نظرة متسائلة، وسأله، إذاً لماذا تطلب صدقة إذا كان لديك عمل. إني أعمل لكني لا أستطع أن أدخر مبلغاً كافياً من المال لشراء حمل عيد الفصح. ألهذا السبب تشحذ. نعم. استدار الشيخ وقال لأحد رجاله: أعط هذا الفتى حملاً، يمكننا أن نشتري حملاً آخر عندما نصل إلى الهيكل. كان هناك ستّة حملان مربوطة بنفس الحبل، ففك الرجل آخر حمل وأعطاه للشيخ الذي قال ليسوع، ها هو حملك كي تقدّم أنت أيضاً أضحية للربّ في عيد الفصح هذا.ومن دون أن يُشكر على فعلته، عاد إلى أسرته التي استقبلته بابتسامات وتعابير إعجاب. وقبل أن يتمكن يسوع من شكر الشيخ، كان قد اختفى وأصبح الطريق مقفراً بغتة على نحو غامض، وبين انعطافة وأخرى، لم يكن هناك أحد سوى يسوع والحمل اللذين وجد أحدهما الآخر أخيراً في الطريق من عاموس بفضل كرم ذلك الشيخ اليهودي. أمسك المسيح بطرف الحبل. رفع الحيوان عينيه إلى سيده الجديد وراح يثغو *ماع ماع ماع*. هذه هي الطريقة المرتجفة العصبية التي تبعهثا الحملان الصغيرة قبل أن يُضحى بها لاسترضاء الآلهة. تأثر المسيح بهذا الثغاء الذي سمعه آلاف المرات منذ أن أصبح مساعداً للراعي، ولامس شغاف قلبه، وأحسّ كأنّ أطرافه قد بدأت تسترخي من الشفقة. لقد أصبح الآن يمتلك قوّة كما لم تمتلك من قبل في حياة مخلوق آخر، هذا الحمل الأبيض النقي الذي لا حول له ولا قوة ولا رغبة، وجهه الصغير المطمئن ينظر إليه بقلق، ولسانه الوردي الذي يظهر كلّما ثغا، وصوفه الناعم، واللون الوردي داخل أذنيه، وأظلافه الوردية التي تشبه أظافر البشر. مسّد المسيح رأس الحمل الذي استجاب له بأن مطّ عنقه وفرك أنفه الرطب على راحة يده، فأرسل رعشة في عموده الفقري. بطل السحر على حين غرة كما بدأ. وفي نهاية

الطريق، من ناحية عاموس، ظهر حجاج آخرون في سرب من الأردية الخافقة، والأمتعة والعصي، وعدد أكبر من الحملان والأدعية وابتهالات الشكر إلى الربّ. رفع المسيح حمله بين ذراعيه وراح يغذ الخطى.

لم يعد إلى أورشليم منذ ذلك اليوم البعيد الذي أتى فيه إليها لاكتشاف عبء الحزن والندم في الحياة، سواء أكان مشتركاً كالميراث الذي يرثه من أبيه أم الذي يحتفظ به المرء كليّاً لنفسه مثل الموت. كان الناس الذين يملأون الشوارع أشبه بنهر طيني موحل على وشك أن يُغرق الساحة أمام درجات الهيكل. حاملاً الحمل بين ذراعيه، راح يسوع المسيح يرمق الناس، الغادين والرائحين الذين كان بعضهم يحملون حيواناتهم لتقديمها قرابين، وبعضهم الآخر عائدين بدونها وأمارات البهجة بادية على وجوههم، وهم يرددون بصوت عال، سَبّحُوا الرَّبَّ، هللويا، هوشعنا، آمين، وبعضهم الآخر لائذين بالصمت لا ينبسون ببنت شفة لأنهم يرون أنه من غير اللائق أن يطوفوا ويصيحوا هيب هيب *هوراه*، لأنه لا يوجد فارق كبير بين العبارتين اللتين نستخدمهما بحماسة حتى مع انقضاء كل هذا الزمن، ومن كثرة التكرار، نتساءل أخيراً، ماذا تعني يا ترى، لكننا نكتشف أخيراً أنه لا يوجد هناك جواب. إن عمود الدخان اللا متناهي الذي يتصاعد فوق سماء الهيكل من مسافة أميال عديدة يدلّ على أن جميع الذين جاؤوا لتقديم قرابين هم من أحفاد هابيل المباشرين والشرعيين، ابن آدم وحواء، الذي قدّم في زمانه إلى الربّ الحمل البكر في قطيعه من الأغنام فتقبّله الربّ بكل محبة، بينما لم يكن لدى شقيقه قابيل شيء يقدمه له سوى بضع ثمار بسيطة تنتجها الطبيعة، لكن الربّ، لسبب ما، لم يوله أدنى اعتبار. إذا كان هذا هو الدافع الذي دفع قابيل لأن يقتل هابيل، عندها يمكننا أن نريح عقولنا،

لأنه لا يعقل هنا أن يتشاجر الأتقياء ويقتل أحدهم الآخر، لأنهم يقدمون جميعاً ذات القرابين، وكيف أن الدهن يطشّ والذبيحة تئزّ بينما يستنشق الربّ في السماوات العليا الروائح المنبعثة من كلّ هذه المذبحة برضاء شديد. ضغط يسوع حمله إلى صدره، ولم يفهم لماذا لا يرضى الربّ بأن يُصبّ إناء حليب على مذبحه، نسغ الحياة ذاك الذي ينتقل من كائن إلى آخر، أو لماذا لا يقنع بحفنة من القمح، المادة الأساسية للخبز الخالد. كان عليه أن يتخلّى عن الهدية التي قدمها له الرجل العجوز بسخاء التي أصبحت ملكاً له لفترة وجيزة، ولن يعيش الحمل الصغير المسكين ليرى غروب الشمس في هذا اليوم. لقد حان وقت صعود درجات الهيكل ليسلّم الحمل إلى سكين الذبح ونار القربان، كأنّه لم يعد يستحقّ الحياة أو أن وصي الأساطير والخرافات الأبدي سيعاقبه لأنه جرع ماء الحياة. لكن يسوع قرّر، متحدياً شريعة الكنيس وكلمة الربّ، ألّا يموت هذا الحمل، وأنّ ما حصل عليه هدية ليقدمه قرباناً إلى المذبح سيظل يعيش وقرر أن يغادر أورشليم أعظم مما كان عندما وصل إليها. وكما لو أنّ خطاياه السابقة لم تكن كافية، ها هو الآن يرتكب هذه الخطيئة أيضاً، لكن سيأتي اليوم الذي سيدفع فيه ثمن خطاياه كلها، لأن الربّ لا ينسى أبداً. الخوف من العقاب جعله يتردّد لحظة، لكن فجأة، رأى في عين رأيه رؤية مرعبة، فقد رأى بحراً واسعاً من الدم، دم الحملان التي لا تعد ولا تحصى ودم الحيوانات الأخرى التي تقدم قرابين منذ بدء الخليقة، لأنه لهذا السبب، خُلق البشر على هذه الأرض حتى يعبدوا ويقدموا القرابين. ورأى درجات الهيكل ملطخة باللون الأحمر من الدم الذي يسيل أسفل الدرج، ورأى نفسه يقف في وسط بركة من الدم وهو يرفع جسد حمله الميّت المقطوع الرأس إلى السماء.

مستغرقاً في التفكير، وقف المسيح داخل دائرة الصمت، إلّا أنه سرعان ما تحطّمت تلك الدائرة؛ وسقط مرة أخرى في لجّة صخب الدعوات والتبريكات، وأدعية وابتهالات الاسترحام، والصيحات والتراتيل، وثغاء الحملان البائسة التي تدعو للشفقة، حتى أُسكت كلّ ذلك بلحظة واحدة عندما انطلقت ثلاث نفخات واطئة من *الشوفار*، وهو قرن كبش طويل حلزوني يُنفخ فيه كبوق. غطى المسيح الحمل بمخلاته وجرى من الساحة إلى متاهة الأزقة الضيّقة غير عابئ إلى أين ستوصله قدماه. عندما توقّف لالتقاط أنفاسه، كان قد أصبح عند مشارف المدينة التي غادرها من بابها الشمالي المعروف باسم باب راما، ذات الباب الذي دخل منه عندما جاء من الناصرة. جلس تحت شجرة زيتون على قارعة الطريق وأخرج الحمل من مخلاته. لن يستغرب أحد لو رآه جالساً هناك، بل سيظن أن هذا الفتى قطع مسافة طويلة وأنه يستعيد الآن طاقته قبل أن يأخذ حمله إلى الهيكل. يا له من محبوب. لا نعرف إن كان الشخص الذي قال هذه العبارة يقصد بها الحمل أم يسوع نفسه. لأننا نجد أنهما محبوبان كلاهما، لكن إذا كان علينا أن نختار، فمن المؤكد أن الجائزة ستذهب إلى الحمل، شريطة ألّا يزداد حجمه. استلقى يسوع على ظهره ممسكاً بطرف الحبل كي لا يهرب منه الحمل. حيطة غير ضرورية، لأن الحيوان المسكين لا يمتلك القدرة على الهرب، لا بسبب عمره الغض فحسب، إنما أيضاً بسبب كلّ تلك الأحداث المثيرة التي مرت به، والانتقال الدائم جيئة وذهاباً، بالإضافة إلى العلف القليل الذي قدم له هذا الصباح، لأن ليس من الملائم أو من اللائق لأحد، سواء أكان حملاً أم شهيداً، أن يموت وبطنه ممتلئة.

ممدداً على الأرض، بدأ يسوع يسترد قوته شيئاً فشيئاً، وعاد تنفسه

إلى طبيعته. كان يرى السماء من بين أغصان شجرة الزيتون التي تتمايل قليلاً مع هبات الريح، وكانت أشعة الشمس تتسلل عبر الفجوات بين أوراق الشجرة، وتداعب وجهه. لا بد أن الوقت قد قارب الساعة السادسة، لأن الشمس أصبحت فوقه مباشرة، وأضحت الظلال قصيرة. ومن سيخطر بباله في تلك الليلة أنه سيأتي ليطفئ هذا النور المبهر. مرّ عدة أشخاص في الطريق، تبعهم المزيد. عندما نظر يسوع ثانية إلى تلك المجموعة، أصيب بصدمة قوية إلى حد أن أول دافع انتابه هو أن يهرب. لكن كيف يمكنه أن يفعل ذلك بعد أن رأى أمّه تسير باتجاهه مع إخوته الأكبر سناً، يعقوب ويوسف ويهوذا وليسا أيضاً، لكن بما أنها فتاة، فيجب أن تُذكر بشكل منفصل وألّا تُذكر بالترتيب بحسب عمرها الذي يجعلها بين يعقوب ويوسف. لم تره أمّه وأخوته بعد، فاندفع يسوع للقائهم حاملاً الحمل بين ذراعيه، لكن المرء يشكّ بأنه فعل ذلك فقط ليتأكد من أن ذراعيه مليئتان. كان يعقوب أول من رآه، فلوّح له قبل أن يلتفت إلى أمّهم بحماسة شديدة. رأته مريم الآن وراحوا يغذّون الخطى. أحسّ يسوع بأن عليه أن يغذ خطاه أيضاً نحوهم مع أنه لم يكن باستطاعته أن يركض والحمل بين ذراعيه. إننا نأخذ وقتاً طويلاً في رواية هذا الحدث، وقد يتكوّن لدى القارئ انطباع بأننا لا نريدهم أن يلتقوا، لكن ليس الأمر كذلك. فقد كان على الحبّ الأمومي والبنوي والأخوي أن يزودهم بأجنحة، لكن بالرغم من ذلك، هناك تحفّظات وبعض القيود. إننا نعرف كيف افترقوا، لكننا لا نعرف تأثير كلّ تلك الشهور على فراقهم من دون أن يسمع أحدهم خبراً عن الآخر. وإذا واصل المرء السير فإنه سيبلغ النهاية؛ ها هم الآن أصبحوا وجهاً لوجه. قال يسوع، بركاتك يا أمّي، فردّت أمّه، ليباركك الربّ يا بني. تعانقا، ثمّ

جاء دور إخوته، ثمّ جاء دور ليسا، وأعقب ذلك صمت مرهق، فلم يستطع أحد منهم أن يقول شيئاً. لم تقل مريم لابنها، يا لها من مفاجأة، بحق السماء ماذا تفعل هنا؛ ولم يقل يسوع لأمّه أيضاً، لم أتوقّع أن أجدك هنا، ما الذي أتى بك إلى المدينة. إن الحمل الذي يحمله والحمل الذي جلبوه معهم يفسر السبب من دون الحاجة إلى أن يقول أحد شيئاً، فهذا عيد فصح الربّ، والفارق الوحيد هو أن هذا الحمل أُنقذ بينما الحمل الآخر سيُذبح. انتظرنا طويلاً حتى نسمع منك، قالت مريم أخيراً، ثم انفجرت في البكاء. فها هو ابنها البكر يقف أمامها، فارع الطول، وقد بلغ سن الرشد، وبدأت بوادر لحية خفيفة تنبت على وجهه، واسمرّت بشرته من الريح وعوامل الطقس الأخرى لأنه أمضى كلّ أيامه في الفلاة، يتعرض للشمس والريح والغبار والصحراء. لا تبكي يا أمّي، إني أعمل، أعمل راعياً الآن. تعمل راعياً. نعم. لكنّي كنت آمل أن تصبح مثل والدك وتعمل في المهنة التي علّمك إياها. لا داعي لقول ذلك، فقد انتهى بي الأمر أن أصبح راعياً. متى سترجع إلى البيت. لا أعرف، يوماً ما. على الأقل اذهب مع أمّك وإخوتك إلى الهيكل. أمّاه، لن أذهب إلى الهيكل. لمَ لا، فلديك الحمل. لن يذهب هذا الحمل إلى الهيكل أيضاً. هل لديه مشكلة. لا، لا أبداً، لكنّه سيموت ميتة طبيعية عندما تأتي ساعته. لم أفهم قصدك يا بني. ليس من الضروري أن تفهمي، فإذا أنقذتُ هذا الحمل، فإنني أفعل ذلك لينقذني أحد ذات يوم. إذاً لمَ لا تأتي مع أسرتك. كنت على وشك أن أغادر. إلى أين ستذهب. سأعود إلى القطيع الذي أرعاه. أين تركته. إنه الآن في وادي المصرارة. أين يقع وادي المصرارة هذا. على الطرف الآخر. أيّ طرف آخر. على الطرف الآخر من بيت لحم. خطت مريم بضع خطوات إلى

الوراء، وشحب لون وجهها. كم شاخت وهي لم تكد تبلغ الثلاثين من العمر. سألته، لماذا تقول بيت لحم. المكان الذي التقيت فيه الراعي الذي هو سيدي. من هو هذا الرجل. قبل أن يتاح الوقت ليسوع كي يجيبها، قالت لأبنائها الآخرين، اذهبوا وانتظروني عند المدخل. ثمّ أمسكت بيد يسوع وانتحت به جانباً. من هو هذا الرجل، كررت سؤالها. فأجاب يسوع، لا أعرف. ألا يوجد له اسم. لو كان له اسم فلم يخبرني به، وأنا أناديه باسم *الراعي* وهذا كلّ شيء. كيف يبدو. رجل ضخم. وأين التقيت به. في الكهف الذي ولدتُ فيه. ومن أخذك إلى هناك. جارية تدعى سالومي وقالت لي إنها ساعدت في ولادتي. وهذا الرجل. ماذا عنه. ماذا قال لك. لا شيء. ألا تعرف. تهاوت مريم على الأرض، كما لو أن يداً ثقيلة دفعتها. هذا الرجل شيطان. كيف عرفتِ، هل قال لكِ ذلك. لا، أول مرة رأيته فيها، قال لي إنه ملاك وطلب مني ألّا أذكر ذلك لأحد. متى رأيته. في نفس اليوم الذي عرف فيه والدك إني حامل، وقد ظهر على عتبة بيتنا متنكراً في هيئة شحاذ، وقال لي إنه ملاك. هل رأيته مرة أخرى. في الطريق عندما سافرنا أنا ووالدك إلى بيت لحم للإحصاء، ثمّ في الكهف الذي ولدتَ فيه، ثمّ في الليلة التي خرجتَ فيها من البيت، فدخل إلى الفناء وكنت قد ظننته أنت، لكن عندما نظرت من شق الباب، رأيته يقتلع النبتة في الفناء؛ لا بد أنك تتذكّر تلك النبتة التي نمت في البقعة التي دُفنت فيها الطاسة المليئة بالتراب المتوهج. أي طاسة، وأي تراب. لم يخبرك أحد، لكن الشحاذ أعطاني إياها قبل أن يذهب، عندما أعاد الطاسة بعد أن أنهى طعامه، كانت مليئة بتراب متوهج. إن كان التراب متوهجاً، فلا بد أنه ملاك. في البداية خيّل إليّ ذلك، لكن لدى الشيطان قوى سحرية أيضاً. جلس يسوع بجانب

أمّه وترك الحمل يرعى بحرية. فقال لها، نعم، عرفت أنه عندما يكونا على وفاق، فمن شبه المستحيل أن يعرف المرء الفرق بين ملاك الربّ وملاك الشيطان. ابقَ معنا، لا تعد إلى ذلك الرجل، افعلْ ذلك كرمى لأمّك. لا، لقد وعدته بأن أعود، وسأحافظ على وعدي. إن الناس يعدون الشيطان ليخدعوه فقط. إن هذا الرجل الذي أثق بأنه ليس بشراً إنما ملاك أو شيطان، يطاردني منذ اليوم الذي ولدت فيه، وأريد أن أعرف السبب. يا بني يسوع، تعال إلى الهيكل مع أمّك وإخوتك، وعندما تأخذ هذا الحمل إلى المذبح تكون قد أوفيت بالتزامك، ويكون الحمل قد حقق قدره، وتستطيع أن تطلب من الربّ في الهيكل أن يخلصّك من براثن الشيطان ومن كلّ الأفكار الشرّيرة التي تراودك. لن يموت هذا الحمل إلّا عندما تحين ساعته. لكن هذا هو يومه. أمّاه، إن الحملان التي أنجبتها ستموت، لكنّ يجب ألّا تجعليها تموت قبل أوانها. الحملان ليست بشراً، وهي أدنى بكثير عندما يكون هؤلاء الناس أبناء. عندما أمر الربّ إبراهيم بأن يذبح ابنه إسحاق، لم يكن هناك تمييز آنذاك. يا بني، أنا امرأة بسيطة، وليس لديّ جواب أقدمه لك، لكنّي أتوسّل إليك بأن تتخلّى عن هذه الأفكار الشرّيرة. أمّاه، ليست الأفكار سوى ظلال عابرة، وهي ليست جيدة ولا سيئة في حد ذاتها، إنما الأعمال وحدها هي المهمّة. شكراً للربّ الذي بارك هذه المرأة الجاهلة المسكينة بمثل هذه الابن الحكيم، مع أنني لا أؤمن بأن هذه هي حكمة الربّ. ويمكن أن يتعلّم المرء من الشيطان أيضاً، وأخشى أنك وقعت في براثن قوّته. إذا كانت قوّته هي التي أنقذت هذا الحمل، فقد كسب العالم شيئاً اليوم. لم تحاول مريم أن تردّ عليه. شاهدا يعقوب يقترب من باب المدينة. نهضت مريم ووقفت على قدميها، وقالت: لقد وجدتُ

ابني لأفقده ثانية. فأجابها يسوع، إن لم تكوني فقدتيه سابقاً، فلن تفقديه الآن. دسّ يسوع يده في مخلاته وأخرج قطع النقود التي أُعطيت له صدقة. هذا كلّ ما لديّ. عملتّ طوال تلك الشهور مقابل هذا المبلغ الزهيد. إني أعمل لأكسب لقمة عيشي. لا بد أنك تحبّ سيدك ذاك حتى ترضى بهذا النزر اليسير. إنّ الربّ هو راعيّ. لا تهن الربّ وأنت تعيش مع شيطان. من يعرف يا أمّي، من يعرف، قد يكون ملاكاً يخدم إلهاً آخر يحكم في سماء أخرى. قال الربّ، أنا الربّ ولن يُعبد إله آخر. آمين، ردّ يسوع، وحمل الحمل بين ذراعيه وقال: إني أرى يعقوب يقترب، وداعاً يا أمّي. فقالت مريم: من يراك يظن أنك تحبّ هذا الحمل أكثر مما تحبّ أهلك. الآن، نعم، قال يسوع. استدارت مريم وهي تغصّ بالحزن والغضب، وجرت نحو ابنها الآخر. لم تنظر وراءها. خارج أسوار المدينة، سلك يسوع طريقاً آخر عبر الحقول قبل أن يبدأ بالهبوط الطويل إلى وادي المصرارة. توقّف في إحدى القرى واشترى طعاماً بقطع النقود التي رفضت أن تأخذها أمّه منه، قليلاً من الخبز والتين وبعض الحليب ليشربه هو والحمل، حليب غنم، وإن كان هناك أيّ فرق، فلم يكن ملحوظاً، ومن الممكن، على الأقل في هذه الحالة، أن أيّ أمّ طيبة تشبه أي أمّ أخرى. هل دُهش أحد بأن ينفق يسوع نقوداً على حمل كان من الممكن أن يكون ميتاً الآن وسيقال له إن الفتى كان يمتلك ذات يوم حملين، قُدِّم أحدهما قرباناً ويعيش الآن في مجد الربّ، بينما لم يُقبل الحمل الآخر هذا لأن أذنه مثلومة وغير سليمة. قد يقولون، انظر، لا يوجد شيء في أذنه. فيجيبهم يسوع، سأقطعها أنا إذاً، وحمل الحمل على ظهره ومضى في طريقه. لمح القطيع عندما بدأ نور المساء يخفت واكفهرت السماء وامتلأت بغيوم منخفضة داكنة. آذن

التوتّر في الهواء بهبوب عواصف رعدية. ثمّ مزّق السماء برق خاطف عندما رأى يسوع القطيع. لكن لم تهطل أمطار، بل هبّت عاصفة رعدية قوية، فأثارت ذعراً شديداً لأنها تجعل المرء يبدو هشاً وشديد الضعف، من دون درع المطر والريح، إذا جاز لنا التعبير، ليحميك في المعركة العارية بين سماء يهدر فيها رعد يمزّقها إرباً إرباً، وأرض ترتعش وتنكمش تحت تلك الضربات القوية. على مسافة مئة خطوة من المكان الذي كان يقف فيه يسوع، شطر وميض آخر يعمي الأبصار شجرة زيتون إلى شطرين، واشتعلت النار فيها على الفور، وأصبحت مثل مشعل هائل. ثم رجّ السماء هدير عال آخر من الرعد كما لو أنه مزّقها من بدايتها حتى نهايتها، وألقى بيسوع على الأرض وغاب عن الوعي. ثم ضربت صاعقتان أخريان، هنا وهناك، مثل كلمتين حاسمتين، ثمّ، رويداً رويداً، ابتعد قصف الرعد حتى استحال دندنة لطيفة، حوار عميق بين السماء والأرض. اقترب الحمل الذي نجا ولم تصبه العاصفة بأذى والذي لم يعد يخاف من يسوع ولامس بفمه شفتي يسوع. لم يشمشمه، بل كان كلّ ما يحتاج إليه هو لمسة واحدة. فتح يسوع عينيه ورأى الحمل، ثمّ رأى السماء الغاضبة مثل يد سوداء تمنع ظهور أي ضوء متبق. كانت شجرة الزيتون لا تزال تحترق. آلمته عظامه عندما حاول أن يتحرّك من مكانه، لكنه كان على الأقل، قطعة واحدة، إذا كان من الممكن قول ذلك عن جسد هشّ ضعيف تستطيع صفعة واحدة من الرعد أن تطرحه أرضاً. جلس بعد أن اطمأن، باللمس أكثر منه بالبصر، بأنّه لم يُحرق ولم يصب بالشلل ولم تُكسر أي من عظامه. وباستثناء طنين ملحّ عال في رأسه يشبه طنين بوق، كان كل شيء فيه سليماً. شدّ الحمل إليه وقال له لا تخف، فقد أراد أن يريك أنك ستكون ميتاً الآن

لو كانت هذه مشيئته، وليريني أنني لست أنا من أنقذ حياتك، بل هو من أنقذها. هدير أخير من الرعد مزّق الهواء ببطء مثل تنهيدة، وفي أسفل الوادي، بدت الرقعة البيضاء للقطيع واحة تومئ له.

للتغلّب على ضعفه، هبط يسوع المنحدر بصعوبة شديدة، وبدافع الحذر، راح الحمل الذي ظل مربوطاً بحبله يجري بجانبه مثل جرو صغير. أما شجرة الزيتون فظلت تحترق خلفهم، ومكّن الضوء المنبعث من النار عند الغسق يسوع من رؤية قامة *الراعي* الفارعة واقفاً أمامه مثل شبح، متدثراً في عباءة بدا أن لا نهاية لها، حاملاً عصا معقوفة بدا أنها تلامس الغيوم إذا رفعها إلى الأعلى. قال *الراعي* كنت أتوقّع حدوث هذه العاصفة الرعدية. فأجاب يسوع أنا الذي كان يجب أن أتوقّعها. من أين أتيت بالحمل. لم تكن لديّ نقود كافية لشراء حمل لأقدمه قرباناً في عيد الفصح، فتوقفت عند قارعة الطريق ورحت أشحذ، ثمّ دنا مني رجل عجوز وأعطاني هذا الحمل. لماذا لم تضحّي به. لم أستطع، لم تطاوعني نفسي. ابتسم الراعي. الآن بدأت أفهم، فقد انتظركَ حتى تعود إلى القطيع بأمان ليظهر لي جبروته. لم يرَدّ يسوع لأنه كان قد قال نفس الشيء تقريباً للحمل، لكنه لم يرغب في أن يبدأ نقاشاً حول دوافع الربّ وأفعاله. وماذا ستفعل بحملك. لا شيء، لقد أحضرته معي لأضمّه إلى القطيع. إن جميع الحملان ذات الفراء الأبيض تشبه بعضها بعضاً، لذلك لن تميّزه غداً من بين الحملان الأخرى. إن حملي يعرفني. سيأتي يوم ينساك فيه، وسيملّ من المجيء والبحث عنك، لذلك، من الأفضل أن تسمه أو تقطع جزءاً من أذنه حتى تتمكن من تمييزه. يا له من حيوان صغير مسكين. ما الفرق، فقد وسموك أنت عندما أزالوا قلفتك حتى يعرف الناس إلى أي فئة تنتمي. هذا ليس الشيء نفسه. ينبغي ألّا يكون

الأمر كذلك، لكنّه كذلك. عندما كانا يتحدثان، جمع الراعي بضع قطع من الحطب وراح يحاول إشعال النار بحكّ قطعتين من الصوان. فقال له يسوع، من الأسهل أن تذهب وتحضر غصناً من شجرة الزيتون المحترقة. فأجابه الراعي، على المرء أن يترك النار السماوية حتى تحترق من تلقاء نفسها. استحال جذع شجرة الزيتون الآن إلى جمرة هائلة متوهّجة في الظلام، وظلت الريح ترسل أشرطة متوهّجة من اللحاء تحرق الأغصان الصغيرة في الهواء ثم سرعان ما تنطفئ. ظلت السماء ملبدة بالغيوم وثقيلة على نحو غريب. تناول *الراعي* والمسيح طعامهما معاً كالمعتاد، ثمّ أبدى الراعي ملاحظة بشيء من السخرية وقال، لم تقدم حملاً هذه السنة كأضحية في عيد الفصح. أنصت المسيح ولم ينبس ببنت شفة، لكن في أعماقه، لم يكن يشعر بارتياح، فمن الآن فصاعداً، سيواجه هذا التناقض المحرج بين تناول لحم الحملان وبين رفض ذبحها. سأله *الراعي* إذن ماذا ستفعل، هل ستوسم الحمل. فقال يسوع، لا يمكنني أن أفعل ذلك. أعطني إياه وسأفعل له ذلك. وبنقرة سريعة وثابتة بسكين *الراعي* قطع قطعة من إحدى أذنيه، ثمّ رفعها إلى الأعلى، وسأله ماذا أفعل بها، أأدفنها أم ألقي بها جانباً. فأجاب يسوع بلا تردد، أعطني إياها. لكن الراعي ألقى بها في النار وقال، هكذا يتخلّصون من قلفتك. سالت قطرات الدم من أذن الحمل ببطء ثم سرعان ما توقفت. غطّى الدخان المنبعث من النيران على رائحة اللحم الطري المتفحّم. وفي نهاية يوم طويل ضاع بقضاء وقت طويل في إبداء حركات وتعابير تحدي طفولية وصلفة، حصل الربّ أخيراً على حقّه، ربما بسبب هدير ذلك الرعد ووميض البرق المرعب الذي لا بدّ أنهما أعطيا انطباعاً كافياً لإقناع هذين الراعيين بأن يبديا فروض الطاعة.

وامتصت الأرض بسرعة قطرات دم الحمل، لأن من العار أن تُفقد أثمن قطرة دم من هذه الضحية.

مع مرور الوقت أصبح الحمل خروفاً عادياً، يُميّز عن الخراف الأخرى من الجزء المقطوع من إحدى أذنيه، وبعد ثلاث سنين، ضاع في الريف المحاذي للصحراء جنوب أريحا. ففي قطيع كبير لن يؤثر خروف أقل أو أكثر، لكن يجب ألّا ننسى أن هذا القطيع لا يشبه قطيعاً آخر، بل إن راعييْ هذا القطيع لا يشبهان الرعاة الذين طالما سمعنا عنهم أو رأيناهم، لذلك يجب ألّا نُدهش إذا لاحظ *الراعي*، وهو ينظر من فوق هضبة، أن القطيع نقص خروفاً من دون أن يعدّه. نادى *الراعي* المسيح وقال له، لم يعد خروفك موجوداً بين القطيع، فاذهب وابحث عنه. وبما أن المسيح نفسه لم يسأل *الراعي* كيف عرفتَ أن الخروف الضائع هو خروفي أنا، فإننا لن نسأل نحن أيضاً يسوع. ما يهمنا الآن رؤية أين سيذهب المسيح الذي لا يعرف هذه المنطقة جيداً التي لم يجازف بارتيادها إلّا حفنة من الأشخاص، وسيمضي إلى الأفق الشاسع. فمنذ أن جاءا من أرض أريحا الخصبة التي قرّرا ألّا يمكثا فيها وفضّلا أن يجولا في أطرافها كما يشاءان بدلاً من أن يكونا محصورين بين عدد كبير من الناس، فإن شخصاً أو خروفاً يقرر أن يخرج عن القطيع يُرجح أنه سيختار مكاناً لا يتداخل فيه جهد البحث عن طعام مع خلوته الثمينة. بهذا المنطق، كان من الواضح أن خروف يسوع تعمّد أن يتخلّف وراء الخراف الأخرى، ولعله يرعى الآن على ضفة نهر الأردن الخصبة، على مرمى البصر من أريحا لشعوره بمزيد من السلامة والأمان. لكن المنطق ليس كلّ شيء في هذه الحياة. ففي أحيان كثيرة، فإن ما تتوقّع بأنه أكبر نتيجة مجدية لسلسلة أحداث جرت أو يتوقع حدوثها لأسباب

أخرى، تحدث بطريقة غير متوقعة ومحتملة. وإذا كان الأمر كذلك، فينبغي لمسيحنا أن يبحث عن خروفه الضال، لا في المراعي الخصبة هناك، بل في الصحراء القاحلة أمامه. ولا يحتاج المرء إلى أن يجادل بأن الخروف لا يمكن أن يضلّ طريقه حتى يموت من الجوع والعطش، أولاً لأن أحداً لا يعرف ماذا يدور في رأس الخروف، وثانياً، لأنك يجب أن تتذكّر ما قلناه سابقاً عن الطبيعة المعروفة للشيء المتوقع. لذلك، فإننا نرى المسيح يتوجّه إلى الصحراء. لم يتفاجأ *الراعي* بقراره هذا، ولم يقل شيئاً، بل كلّ ما فعله هو أن هزّ رأسه ببطء وجدية، بدت أيضاً، على نحو غريب، بادرة وداع.

الصحراء في هذه المنطقة لا تشبه تلك المسارات الرملية الواسعة التي نعرفها جميعاً، بل هنا هي أشبه ببحر ضخم من المناطق الوعرة الجافّة التي يعلو أحدها الآخر وتشكّل متاهة متشابكة من الوديان والسهول. وتكاد بضع نباتات تنمو على سفوح هذه المنحدرات، نباتات شوكية لا يستطيع أن يمضغها إلّا الماعز لأنها ستمزّق فم الخروف الطري عند أدنى احتكاك بها. إن هذه الصحراء مخيفة أكثر بكثير من الصحراء المكسوة بالرمال الناعمة المليئة بالكثبان المتحركة. فكلّ هضبة هنا تنذر بالتهديد الذي يترصّدك على الهضبة التالية، وعندما نصل إليها يتملكنا الخوف ونرتعش مذعورين، ونشعر على الفور بذات التهديد وراءنا. في هذه الصحراء، فإن صيحاتنا لا تردد أي صدى، إنما كلّ ما نسمعه استجابة لها هو صوت صيحات التلال نفسها، أو صوت القوة الغامضة المتوارية فيها. دخل يسوع المسيح إلى الصحراء لا يحمل شيئاً سوى عصاه ومخلاته. لم يبتعد كثيراً، ولم يكد يعبر عتبة هذا العالم، حتى أدرك أنّ خفّ والده القديم الكثير الرقع قد تمزق تحت قدميه،

لكن لم يعد بإمكان مهارته في إصلاحه إنقاذ الخفّ الذي قطع مسافات طويلة وضغط كميات كبيرة من العرق على التراب. وكما لو أنه يطيع أمراً، انسلّ آخر خيط فيه، وتفككت الرقع وانحلّت، وتناثرت الأربطة، وسرعان ما أصبح يسوع حافي القدمين. ومع أن يسوع الفتى، كما اعتدنا على تسميته، كان يهودياً في الثامنة عشرة من عمره، فقد كان بالغاً أكثر من كونه مراهقاً. وفجأة تذكّر الخفّ الذي طالما حمله في مخلاته، وظنّ أنه لا يزال يناسب مقاس قدمه. كان *الراعي* محقّاً عندما نبّهه وقال عندما تكبر القدمان فإنهما لا تنكمشان ثانية، وصدّق يسوع ذلك عندما أزلق قدميه في هذا الخفّ الصغير. فاضطر إلى مواجهة الصحراء بقدميه العاريتين، كما فعل آدم عندما طُرد من جنة عدن، وكما تردّد آدم قبل أن يخطو أول خطواته المؤلمة فوق الأرض المعذّبة التي أومأت إليه. ثمّ، من دون أن يسأل نفسه لماذا فعل ذلك، ربما من أجل ذكرى آدم، وضع يسوع مخلاته وعصاه المعقوفة على الأرض وسحب ثوبه من ذيله فوق رأسه ووقف عارياً مثل آدم. لم يره *الراعي* هنا، ولم يتبعه حمل فضولي؛ وكانت الطيور التي تغامر وتجتاز هذه الحدود هي الكائنات الوحيدة التي كان باستطاعتها أن تراه من السماء، كما كان بإمكان الحشرات على الأرض، كالنمل وأم أربع وأربعين وعقرب مذعور يرفع ذيله بلدغته السامّة. هذه المخلوقات الصغيرة لا تستطيع أن تتذكر أنها رأت رجلاً عارياً ولا تعرف ماذا يهدف من ذلك، وإذا كان بإمكانها أن تسأل يسوع، لماذا خلعت ثوبك، فربما أجابها، على المرء أن يسير عارياً في الصحراء، وهي إجابة تتجاوز قدرة الحشرات التي تنتمي إلى جنس نصفيات الجناح أو كثيرات الأرجل أو العنكبوتيات على الفهم. أما نحن فنسأل أنفسنا: عارياً في وسط كلّ تلك الأشواك التي تسحج

الجلد العاري وتعلق في شعر العانة؛ عارياً في وسط كلّ تلك الأشواك الحادّة وتلك الرمال الخشنة؛ عارياً تحت تلك الشمس اللاهبة التي قد تجعل الإنسان يشعر بالدوار وتصيبه بالعمى؛ عارياً لكي يبحث عن ذلك الخروف الضال الذي وسمناه بعلامة منا. تفتح الصحراء ذراعيها لاستقبال يسوع، ثمّ تنغلق خلفه، كأنها تقطع عليه أيّ طريق للرجعة. بدأ صدى الصمت يتردد في أذنيه مثل الضجيج المنبعث من إحدى تلك القواقع الفارغة الميتة التي تدفعها الأمواج إلى اليابسة، ويمتصّ صوت الأمواج حتى يجلبه عابر سبيل ببطء إلى أذنه، فينصت ويقول، البحر. بدأت قدما يسوع تنزفان دماً، وراحت الشمس تزيح الغيوم وتطعنها، وأخذت الأشواك تخزّ ساقيه مثل أظافر تخمشه. أين أنت أيها الخروف، راح ينادي، وراحت التلال تنقل كلماته، أين أنت، أين أنت. سيكون هذا صدى مثالياً، لكن الصوت البعيد الطويل للصدفة يفرض نفسه، ويلعدم يا ربّ، يا ربّ، يا ربّ. ثمّ، كما لو أنّ التلال جُرفت بغتة، ظهر يسوع المسيح من متاهة الوديان إلى ساحة منبسطة رملية، ورأى خروفه في الوسط تماماً، فجرى نحوه بأقصى ما يستطيع بقدميه المليئتين بالجروح المتقيحة، لكن صوتاً أوقفه وقال، انتظر.

ظهرت أمامه سحابة أطول من أي رجل بمرتين تصعد ببطء متموّجة مثل عمود من الدخان. لقد انبعث الصوت من هذه السحابة. من يتكلّم، سأل يسوع مرعوباً مع أنه كان يعرف الجواب. فقال الصوت، أنا الربّ. هنا فهم المسيح لماذا أحسّ بالرغبة في أن يخلع ثوبه عند حافة الصحراء. لقد جئت بي إلى هنا، ماذا تريد مني. لا أريد شيئاً الآن، لكن سيأتي يوم أريد فيه كلّ شيء. ماذا تعني كلّ شيء. حياتك. أنت الربّ الذي يأخذ منا دائماً الحياة التي وهبتنا إياها. لا توجد وسيلة أخرى. لا

يمكنني أن أترك هذا العالم يزداد حتى يكتظ بالبشر. ولماذا تريد حياتي. ستعرف عندما يحين الوقت، لذلك هيّئ جسمك وروحك لأن القدر الذي ينتظرك قدر عظيم. يا ربّ، لا أفهم ماذا تقصد أو ما الذي تريده مني. سأهبك قوّة ومجداً. ما هذه القوة، وما هذا المجد. ستعرف عندما أستدعيك مرة أخرى. ومتى سيكون ذلك. تحلّى بالصبر، عش حياتك بأفضل ما تستطيع. يا ربّ، إني أقف أمامك هنا، وأتيت بي عارياً إلى هنا، أتوسل إليك، أعطني اليوم ما ستعطيني إياه غداً. إنها ليست هبة. قلت إنك ستمنحني. لقاء شيء، لا شيء أكثر. حياتي مقابل ماذا. مقابل قوّة. وقلت لقاء مجد. لكن حتى أعرف المزيد عن هذه القوّة، حتى تقول لي ما هي، وعلى من، وفي عيون من؛ فقد جاء وعدك مبكراً جداً. ستجدني مرة أخرى عندما تكون مستعدّاً، لكن إشاراتي سترافقك منذ الآن. يا ربّ، قل لي. أصمت، لا تسأل أسئلة أخرى، عندما تحين الساعة، لا ثانية قبل ولا ثانية بعد، ستعرف ما أريده منك. سماعك يا ربي هو أن أطيعك، لكن لدي سؤال آخر. كفّ عن طرح الأسئلة. أرجوك يا ربي، يجب أن أسألك. إذاً، هيا تكلّم. هل يمكنني أن أنقذ خروفي. أهذا ما يضايقك. نعم، أهذا كلّ شيء. هل لي أن أفعل ذلك. لا. لمَ لا. لأنك يجب أن تقدمه أضحية لي لكي نختم عهدنا. أتقصد هذا الخروف. نعم. دعني أختار خروفاً آخر من القطيع وسأعود. هل سمعتني، أريد هذا الخروف بالذات. لكن يا ربي، ألا ترى أن طرف أذنه مثلومة. أنت مخطئ، انظر جيداً، أذنه كاملة. لا يمكن. أنا الربّ، وبالنسبة للربّ كلّ شيء ممكن. لكن هذا خروفي. مرة أخرى أنت مخطئ، فالحمل لي وأنت أخذته منّي، وستعوّضني الآن عن الخروف. مشيئتك ستنفذ لأنك أنت حاكم الكون وأنا خادمك. إذاً قدم هذا

الخروف كقربان وإلّا فلن يكون هناك عهد بيننا. أشفق عليّ يا ربي، فأنا أقف هنا عارياً ولا أملك ساطوراً أو سكيناً، قال يسوع، آملاً أن يتمكن من إنقاذ حياة خروفه، لكن الربّ قال له، لن أكون الربّ إن لم يكن بمقدرتي حلّ هذه المشكلة هنا. وما إن أنهى كلامه، حتى رأى يسوع ساطوراً جديداً ملقى عند قدميه. هيا بسرعة، قال الربّ، فلديّ أعمال كثيرة ولا يمكنني البقاء هنا أتحدّث إليك طوال النهار. أمسك يسوع الساطور من مقبضه وسار نحو الخروف. رفع الخروف رأسه، وكاد أن لا يعرفه لأنه لم يره عارياً قط، وكما نعرف جميعاً فإن هذه الحيوانات لا تمتلك إحساساً قوياً بالرائحة. هل تبكي، سأله الربّ. رفع الساطور وسدّده ثم أهوى به بسرعة كبيرة مثل فأس جلاد أو مقصلة التي لم تكن قد اخترعت بعد. حتى إن الخروف لم ينشج أو يصدر صوتاً. كان كلّ ما أمكن سماعه هو كلمة آه، عندما أطلق الربّ زفرة عميقة تشي بالرضا. سأله يسوع المسيح، هل لي أن أذهب الآن. يمكنك ذلك، لكن لا تنس أنك أصبحت منذ هذه اللحظة مقيداً بي في الجسد والدم. كيف يمكنني أن أستأذنك في الانصراف. لا يهمّ، فليس لديّ أمام ولا خلف، لكنّ من المعتاد أن تبتعد عنّي منحنياً. قل لي يا ربي. أنت متعب، ما الذي يزعجك الآن. *الراعي* صاحب القطيع، أي *راعٍ*. سيدي. ماذا عنه. هل هو ملاك أم شيطان. أعرفه. لكن أخبرني، هل هو ملاك أم شيطان. لقد قلت لك، لأنه لا يوجد للرب أمام ولا خلف، إلى اللقاء الآن. تبدد عامود الدخان، والخروف أيضاً، ولم يتبق سوى قطرات دم كانت تحاول أن تتوارى في التراب.

عندما عاد يسوع، حدّق *الراعي* به وسأله، أين الخروف. فقال يسوع، لقد قابلت الربّ. لم أسألك إن كنت قد قابلت الربّ، إنما

سألتك هل وجدت الخروف. قدمته أضحية. لماذا. لأن الربّ كان هناك ولم يكن لديّ خيار. برأس عصاه المعقوفة رسم الراعي خطاً على الأرض، ثلم بعمق حفرة، منبع كجدار من نار، ثمّ قال له، إنك لم تتعلّم شيئاً. هيا اغرب عن وجهي.

كيف يمكنني أن أذهب إلى أيّ مكان وقدماي في هذه الحالة، قال يسوع المسيح لنفسه وهو يراقب *الراعي* ينتقل إلى الجانب الآخر من القطيع. الربّ الذي تخلّص من الخروف، ولم يتفضّل على يسوع المسكين بأيّ بصقة سماوية من تلك الغيمة كي يبلسم الجروح التي ملأت قدميه والتي جعلت الدم الذي يسيل منهما يلمع على الأحجار. لم يساعده *الراعي*، بل انسحب، متوقّعاً أن تطاع أوامره، ولم يكن يرغب في رؤية يسوع وهو يستعد للرحيل، ناهيك عن وداعه. زحف يسوع على يديه وركبتيه إلى البقعة التي وضعت فيها أدوات الرعي وأوعية الحليب ومكابس الجبن وجلود الغنم والماعز التي يعالجانها قبل مقايضتها بما يحتاجان إليه: ثوب، عباءة، وأشياء مختلفة أخرى. خُيّل إلى يسوع بأن أحداً لن يعترض إذا صنع لنفسه خفاً من قطعة مرنة من جلد الماعز لا توجد فيها كمية كبيرة من الشعر، لكنه لم يعرف هل يجب أن يكون الشعر داخل الخفّ أم خارجه، لكنه استخدم أخيراً بطانة للتخفيف من حدة الألم في قدميه. وكان يشعر بألم شديد عندما تعلق تلك الشعرات بجروحه المتقرحة، لكن بما أنه سيسير على جانب ضفة نهر الأردن فلن يحتاج إلّا أن يغمر قدميه في الماء حتى يسيل الدم المتخثّر. إنّ ثقل الخفّ الذي صنعه بطريقة رديئة، بعد أن يتشرّب الماء،

سيمنع الشعرات من الالتصاق بالقشور التي تكسو تقرحاته التي بدأت تتشكّل شيئاً فشيئاً. وأبدى لون الدم النازف من القروح مفاجأة لطيفة وهي أنها لم تصب بالتهاب بعد. في أثناء الرحلة البطيئة شمالاً، توقّف يسوع مرّتين وجلس على ضفّة النهر ليغطس قدميه في الماء البارد الذي كان تأثيره شافياً مثل الدواء. لقد حزن كثيراً لأنه طُرد بهذه الطريقة، بعد أن قابل الربّ، وهو حدث لم يسبق له مثيل بجميع المقاييس، لأنه حسب علمه، لا يوجد رجل واحد في طول إسرائيل وعرضها يستطيع أن يتبجّح ويقول إنه رأى الربّ. صحيح أن يسوع لم يره تماماً، لكن عندما ظهرت غيمة في الصحراء في هيئة عمود من الدخان، وقالت، أنا هو الربّ، ثم دار حديث، لم يكن منطقيّاً ومعقولاً فحسب، إنما كان مؤثراً جداً إلى حد أنه لا يمكن إلّا أن يكون إلهاً، فإن أي شكّ يساورك يُعتبر خطيئة لا تغتفر. إن الردّ الذي تلقاه عندما سأله عن *الراعي* يثبت بأنّه الربّ حقاً، لأن نبرته كانت تشي بقدر من الاحتقار بالإضافة إلى محبّة أكيدة، ورفضه الإجابة هل الراعي ملاك أم شيطان. لكن ما يثير الاهتمام هي كلمات *الراعي* الخالية من أية مشاعر وغير المهمة التي تؤكّد فعلاً الصفة الخارقة لحقيقة اللقاء. لم أسألك إن كنتَ قد قابلت الربّ، كما لو أنه يريد أن يقول إني أعرف ذلك، وكأن هذا الخبر لم يفاجئه. لكن *الراعي* وبّخه من أجل موت الخروف. لا يمكن أن يكون لتلك الكلمات الأخيرة التي قالها له، إنك لم تتعلّم شيئاً. هيا اغرب عن وجهي، معنى آخر، والطريقة التي انتقل بها إلى الجانب الآخر من القطيع، مولياً ظهره ليسوع المسيح حتى اختفى أثره ولم يعد يُرى. عندما أطلق المسيح العنان لعقله ليفكّر ماذا يمكن أن يريد منه الربّ عندما يلتقيان ثانية، ترددت كلمات *الراعي* فجأة بصوت مرتفع وحاد كما لو كان الراعي يقف بجانبه، إنك لم تتعلّم شيئاً. في تلك اللحظة،

كان إحساسه بالخسارة وبالعزلة عظيماً عندما جلس وحيداً على ضفة نهر الأردن، ينظر إلى قدميه في ماء النهر الشفّاف، وقد سال خيط رفيع من الدم في الماء من كاحل قدمه فجأة، كاحل لم يعد جزءاً منه. لقد جاء أبوه إلى هذا المكان، يعرج على قدمين مثقوبتين، ليجد راحة عندما غطسهما في ماء النهر البارد، وكرّر ما قاله الراعي، يجب أن تبدأ من جديد، لأنك لم تتعلّم شيئاً. وكما لو كان يرفع سلسلة حديدية طويلة ثقيلة من الأرض، تذكّر المسيح حياته منذ أن ولد حتى اليوم، حلقة حلقة، البشارة الغامضة بولادته، والتراب المتوهج، وولادته في الكهف، والأطفال الأبرياء الذين ذُبحوا في بيت لحم، وصلب والده، والكابوس الذي ورثه عنه، ومغادرته البيت، والحديث الذي دار في الهيكل، وما أباحت به سالومي له، وظهور *الراعي*، وتجربته مع القطيع، والحمل الذي أنقذه، والصحراء، والخراف الميتة، والربّ. وكما لو أن عقله لم يستوعب هذه الكلمة الأخيرة، فقد ركّز على سؤال واحد هو لماذا يتعين على حمل أنقذه من الموت أن يموت. سؤال سخيف لو كان هناك سؤال مثله، وقد ينطوي على معنى أفضل لو صيغ بطريقة أخرى، على النحو التالي، لا يوجد خلاص من الخطيئة، والخطيئة المميتة نهائية. أما الحلقة الأخيرة في هذه السلسلة فهي أنك تجلس الآن على ضفة نهر الأردن، تنصت إلى أغنية حزينة تغنيها امرأة لا يمكن رؤيتها من هنا، متوارية بين الشجيرات، ربما كانت تغسل ثياباً، ربما كانت تستحمّ، بينما كان يسوع يحاول أن يفهم كيف أن كلّ هذه الأشياء يرتبط أحدها بالآخر، الحمل الحيّ الذي أضحى خروفاً ميتاً، وقدماه اللتان تنزفان دم أبيه، والمرأة التي تغني، لعلها كانت عارية، ممددة على ظهرها فوق سطح الماء، ثدياها الراسخان يطوفان فوق سطح الماء، وشعرات عانتها السوداء تتطاير مع هبّات الهواء.

صحيح أن يسوع لم ير امرأة عارية أمامه قط، إن كان بوسع أي امرئ أن يتنبأ بذلك، فمن مجرد رؤيته عموداً بسيطاً من الدخان عرف أنه قابل الربّ، فكيف سيكون لقاؤه الحقيقي معه عندما يحين موعد لقائه حقاً، فلماذا لا يستطيع إذاً أن يتخيّل امرأة عارية بأدق التفاصيل، أو أن يظن أنّها عارية لمجرد أنه سمع الأغنية التي كانت تنشدها مع أنه لم يكن هو المقصود بهذه الكلمات. لم يعد يوسف هنا. عاد إلى القبر الجماعي في صفورية، بينما *الراعي* الذي لم يعد يرى منه أكثر من طرف عصاه المعقوفة، والربّ، إن كان موجوداً في كل مكان كما يقولون، فربما كان الآن في هذا التيار، في الماء ذاته الذي تستحم فيه المرأة. تلقى جسد المسيح إشارة، وبدأت البقعة بين ساقيه تكبر، كما يحدث مع جميع البشر والحيوانات عندما يتدفق الدم إليها، فتجف جروحه وتلتئم في الحال. يا ربّ، ألهذا الجسم هذه القوّة، مع أن المسيح لم يحاول أن ينهض ويبحث عن المرأة، فقد قاومت يداه الإغواء العنيف للجسد. لن تكون أحداً حتى تحبّ نفسك، ولن تصل إلى الربّ حتى تحبّ جسدك. لا يعرف أحد من قال هذه الكلمات، ولا يمكن أن يكون الربّ هو الذي قالها لأنها ليست حبات في سبحته، وربما كان الراعي هو من قالها، لكنه الآن يقبع في مكان بعيد، لذلك، ربما كانت هذه الكلمات هي كلمات الأغنية التي تنشدها المرأة. قال يسوع لنفسه، ليتني أستطيع أن أذهب إليها وأطلب منها أن تشرح لي. لكن الغناء توقّف فجأة. ربما جرفه تيار الماء، أو ربما خرجت المرأة من الماء لتجفف نفسها وترتدي ثيابها، فأسكتت جسدها. انتعل المسيح خفّه المبلل بالماء، ونهض واقفاً على قدميه، وقطرات الماء تتساقط منه مثل إسفنجة. ستضحك المرأة كثيراً إذا مرّت أمامه ورأته ينتعل هذا الخفّ الغريب الشكل، لكنّها ستتوقف عن الضحك عندما تقع عيناها على ذلك الشيء المتشكّل تحت

ثوبه، وتحدّق به بهاتين العينين اللتين يعشش فيهما حزن قديم وحزن جديد، لكن قلقهما سيبدو مختلفاً الآن لسبب مختلف تماماً. ببضع كلمات أو من دون أن تنبس ببنت شفة ستخلع المرأة ثوبها ثانية وتوحي له بأنها تفعل ما قد يتوقّعه المرء في أحوال كهذه، وستجثو أمامه وتنزع عنه خفّه بعناية وتداوي تلك الجروح، ثم تنحني وتقبّل قدميه الواحدة تلو الأخرى، ثم تغطّيهما بشعرها الندي كأنها تحمي به بيضة أو شرنقة. لا يبدو أن أحداً يسير في الطريق. تطلّع المسيح حوله. أطلق زفرة، وبحث عن بقعة يختبئ فيها. اتجه إلى ذلك المكان، لكنه توقّف فجأة، وتذكّر في الوقت المناسب أنّ الربّ عاقب أونان بالموت لأنه أسال بذرته على الأرض. كان بوسع يسوع أن يقدم تفسيراً أدق عن هذه القصة القديمة، كعهده، ولم تكن لتردعه صلابة الربّ في هذا الأمر لسببين اثنين، أولهما أنه لم تكن لديه زوجة أخ كي يلتزم شرعاً بإنجاب وريث لأخ ميت منها، وثانيهما، وربما كان السبب الأقوى، هو أنه لدى الربّ، بحسب ما قاله له في الصحراء، خطط مؤكّدة لمستقبله لم يكشف له عنها، لذلك، فليس من العملي أو المنطقي أن ينسى الوعد الذي قطعه وأن يجازف بخسارة كلّ شيء، فقط لأن يداً تاهت في المكان الذي ينبغي ألّا تتيه فيه، لأن الربّ يعرف احتياجاتنا الجسدية التي لا تنحصر في الطعام والشراب فقط، إنما هناك أشكال أخرى يجب الامتناع عنها يصعب احتمالها. ينبغي لهذه الأفكار ولأفكار مشابهة أن تشجّع المسيح على أن يتبع احتياجاته الطبيعية ويعثر على بقعة هادئة لإشباع دوافعه، لكنها صرفت انتباهه وقيدته كثيراً إلى حد أنه سرعان ما فقد الرغبة في الاستسلام للإغواء اللعين. مستسلماً لفضيلته، رفع المسيح مخلاته على كتفه، وحمل عصاه، ومضى في طريقه.

في اليوم الأول من رحلته على امتداد ضفة نهر الأردن، راح يسوع

المسيح الذي اعتاد على العيش وحيداً خلال أربع سنوات من العزلة، يتجنب المناطق المأهولة. لكنه عندما اقترب من بحيرة طبريا، لم يكن من السهل عليه أن يتحاشى المرور من القرى المحاطة بالحقول المزروعة. ولما كانت هيئته الخشنة تثير شكوك الفلاحين في الحقول، فقد قرّر أن يدخل إلى عالم الرجال. فوجئ يسوع بسرور بما رآه، لكن ما أزعجه هو الضجيج الذي كان قد نسيه. في القرية الأولى التي مرّ بها، صادف ثلة من الصبية المشاكسين الذين راحوا يضحكون بصوت عال عندما رأوا الخفّ الذي ينتعله. لا توجد مشكلة، فلدى يسوع ما يكفي من النقود لشراء خفّ جديد. تذكّر أنه لم يلمس النقود التي بحوزته منذ أن منحه ذاك الفريسي قطعتي النقود المعدنيتين. إن العيش طوال أربع سنوات على القليل من الاحتياجات ودون أن ينفق شيئاً أثبت أنها أعظم ثروة قد يتمناها المرء من الربّ. بعد أن اشترى خفاً جديداً لم يبق معه سوى قطعتين معدنيتين بقيمة زهيدة، لكن الفقر لم يكن يقلقه لأنه سرعان ما سيصل إلى وجهته، الناصرة، البيت الذي كان واثقاً من أنه سيعود إليه ذات يوم، لأنه منذ أن غادر البيت، كان يتملكه شعور جارف بأنه سيعود إليه، وطالما كان يردد لنفسه، بطريقة أو بأخرى، إني سأعود. تتبّع المنعطفات الألف في طريقه على امتداد ضفة نهر الأردن. كان يسير بخطى وئيدة. لم تكن قدماه تطاوعانه في السير فحسب، إنما شيء آخر كان يجعل خطاه تسير ببطء، شيء في أعماقه، هاجس غامض لا يمكن الإفصاح عنه. كلما وصلت في وقت أبكر، سيكون عليّ أن أغادر بسرعة أكبر. عندما انطلق شمالاً على ضفة البحيرة، كان لا يزال في نطاق حدود الناصرة. هل عليه أن يتوجه مباشرة إلى البيت. كان كلّ ما عليه أن يفعله هو أن يسير باتجاه غروب الشمس. لكن ها هو الآن يسير بخطى وئيدة بجانب مياه البحيرة الهادئة، العريضة، الزرقاء.

أراد أن يجلس بجانب البحيرة ويراقب صيّادي السمك وهم يلقون بشباكهم. عندما كان فتى صغيراً، كان يأتي إلى هذا المكان مع أمّه وأبيه، وكان يحلو له أن يراقب هؤلاء الرجال الذين تفوح منهم رائحة السمك كما لو كانوا هم أنفسهم يعيشون في البحيرة.

في طريقه، كسب يسوع المسيح قليلاً من النقود اشترى بها طعاماً. كان يمارس الأعمال التي يجيدها، لكنه لم يكن يجيد أي مهنة، أو على الأقل الأعمال التي كان بوسعه القيام بها، مع أنها قليلة جداً، كأن يسحب قارباً إلى الشاطئ أو أن يدفعه إلى الماء، أو يساعد في سحب شبكة مليئة بالأسماك. وكان الصيّادون يقدمون له سمكتين لقاء الجهد الذي يبذله عندما يرونه جائعاً. في البداية، كان يسوع يشعر بالخجل فيذهب ويشويهما ويأكلهما وحده، لكن بعد عدة أيام، بدأ الصيّادون يدعونه للانضمام إليهم. في اليوم الثالث والأخير، خرج المسيح إلى البحيرة مع الأخين سمعان وأندراوس اللذين يكبرانه سنّاً. كانا في الثلاثينات من عمرهما. عندما أصبح قاربهما في منتصف النهر، حاول يسوع الذي لا يعرف شيئاً عن صيد السمك، بتشجيع من صديقيه الجديدين، أن يلقي الشبكة بتلك الحركة الواسعة التي تشبه من بعيد مباركة أو تحدياً، لكنه لم يفلح، وعندما كاد أن يسقط في الماء، قهقه سمعان وأندراوس اللذان أدركا أن يسوع لا يجيد التعامل إلّا مع الماعز والأغنام. ثم قال سمعان، ستكون الحياة أيسر بكثير لو تمكنّا من جمع هذا القطيع وقيادته. فأجابه يسوع، على الأقل لن يضلّ طريقه لأنه محصور كله في البحيرة، يتحاشى الشبكة يوماً ويقع فيها في يوم آخر. كان الصيد مخيّباً، فقد كاد قاع المركب أن يكون خاوياً من السمك. قال أندراوس: يا أخي، هيا بنا نعود إلى الشاطئ، فليس من المحتمل أن نصطاد سمكات أخرى اليوم. وافقه سمعان، وقال: إنك محقّ يا أخي،

هيا بنا نعود، وأزلق المجذافين في فتحيتهما، لكن ما إن همّ بالتجذيف إلى الشاطئ، حتى اقترح عليهما يسوع، لا بإلهام أو بصيرة داخلية، بل بسبب ارتفاع معنوياته في ذلك اليوم لأسباب لا يمكن تفسيرها، أن يلقوا الشبكة ثلاث مرات أخرى، فمن يعرف، فقد يكون هذا القطيع المائي، بقيادة راعيه، قد انتقل إلى الجانب الذي نحن فيه. ضحك سمعان، وقال، هذا شيء جيد آخر عن الأغنام، والتفت إلى أخيه أندراوس وقال له: ارم الشبكة هناك، فلن تكسب شيئاً إذا لم تغامر، فألقى أندراوس الشبكةَ وعادت ممتلئة بالسمك. فغر الصيّادان فميهما من الدهشة، وسرعان ما تحولت دهشتهما إلى وجل عندما أُلقيت الشبكة مرة ثانية وثالثة، وعادت كلها طافحة بالسمك. فمن مياه بدت خالية من الأسماك منذ هنيهة، إلى مياه بدأت تصبّ السمك فجأة مثل نبع لم يُر مثله من قبل. سيول غزيرة براقة من الخياشيم والحراشف والزعانف جعلتهم يقفون مذهولين من شدة الدهشة. سأل سمعان وأندراوس المسيح كيف عرف أنّ السمك سيتجمّع في هذه البقعة، فأجابهما يسوع المسيح بأنه لم يكن يعرف، وأن شيئاً دفعه إلى القول لنحاول مرة أخرى. لم يشكّ الأخان بما قاله لأن الصدفة المحضة هي فرصة قد تجترح معجزات كهذه، لكن رعشة سرت في أوصال يسوع وسأل في صمت روحه من الذي فعل ذلك. قال سمعان يجب أن نفرز السمك. يجب أن نوضّح هنا المثل المسكوني القائل: ما كلّ ما يقع في الشبكة من سمك منشؤه بحيرة طبريا. ثمة معايير مختلفة، فقد تكون الشبكة اصطادت سمكاً، لكن لا لبس في قوانين الشريعة، انتبه لما قد تتناوله من الأنواع المائية المختلفة، فأما ما يعيش في الماء، سواء في البحار أم في الأنهار، فكلوا من كلّ ما له زعانف وقشور، أما ما ليس له زعانف وقشور، سواء في البحار أم في الأنهار، وكلّ ما يزحف في الماء، وكلّ

ما يعيش فيه، فهو مكروه لكم. وبما أنه مكروه لكم، فلا تأكلوا من لحمه واكرهوا جثته. إن كلّ ما يعيش في الماء وليس له زعانف وقشور فهو مكروه لكم، لذلك فإن السمك المكروه هو السمك الذي ليس له زعانف وقشور، ولا يمكن تقديمه على مائدة شعب الربّ، فيلقى به ثانية في النهر. اعتاد الكثير من السمك على ذلك الآن، ولم يعد يشعر بالقلق عندما يعلق في شباك الصيادين، لأنه يعرف أنه سيعود قريباً إلى الماء ولن يكون في خطر. وبعقلية السمك، فإن تلك الأسماك صدّقت بأنها تحظى بفضل خاصّ من الخالق، بل ربما بمحبّة خاصّة، ومع مرور-الزمن، بدأت تعتبر نفسها في مرتبة أرفع مقاماً من الأسماك الأخرى، ولا بد أن السمك الموجود في القوارب قد ارتكب آثاماً فظيعة تحت الماء المظلم حتى جعله الربّ يهلك بلا رحمة أو شفقة.

عاد الصيادون الثلاثة إلى الشاطئ أخيراً، وبذلوا جهداً كبيراً كي لا يغرق القارب لأن مياه البحيرة بلغت حافته وكادت أن تبتلعه. وقف الناس على الشاطئ مذهولين، لا يفهمون حقيقة ما جرى لأن الصيّادين الآخرين عادوا بقواربهم فارغة. وباتفاق ضمني بينهم لم يقل الرجال المحظوظون الثلاثة شيئاً عن السبب الذي جلب لهم هذا الصيد الوفير. فلم يرغب سمعان وأندراوس أن تتضاءل سمعتهما كصيّاديّن ماهرين بين الصيادين الآخرين، ولم يشأ يسوع أن يطلب منه الصيادون الآخرون أن يرافقهم في الصيد، وهو أمر منصف إذا تمكنا من إلغاء المحاباة التي ألحقت ضرراً كبيراً في هذا العالم، وهي الفكرة التي جعلت يسوع المسيح يعلن في تلك الليلة بالذات، أنه بعد أربع سنوات من التجارب والمحن المتواصلة التي لا يمكن أن يكون قد أرسلها إلّا الشيطان، فإنه سيغادر صباح الغد إلى الناصرة حيث تنتظره أسرته. لكن قراره هذا أحزن سمعان وأندراوس لأنهما سيفقدان أفضل شخص احتُفي به في

حوليات بحيرة طبريا. وحزن صيّادان آخران هما يعقوب ويوحنا، ابنا زبدي، وهما فتيان بسيطان كان الناس يسألونهما من باب الدعابة، من هو والد أبناء زبدي، فيحتار الصبيان ويقعان في اضطراب شديد مع أنهما كانا يعرفان الجواب، لأن الواضح أنهما ابناه. حزنا لأن يسوع سيغادر لا لأنهما لن يحصلا على صيد وفير آخر، ولا لأن يسوع كان شاباً، فقد كان يوحنا أصغر من يسوع، إنما لأنهما كانا يريدان أن يشكلا مجموعة من الصيادين الشباب تنافس الصيادين الرجال الأكبر سناً. ولم تكن بساطتهما تنمّان على أنهما غبيان أو متخلّفان عقلياً، بل لأنهما كانا يعيشان حياة بسيطة وكانت أفكارهما تجول في مكان آخر، لذلك كانا يتفاجآن دائماً عندما يسألهما أحد من هو والد ابنا زبدي، فيضطربان من الضحكات التي تنطلق عندما يجيبان، زبدي طبعاً. حاول يوحنا أن يثني المسيح عن قراره بالذهاب، فتوجه إليه وقال: ابق معنا لأن قاربنا أكبر من قارب سمعان ويمكننا أن نصطاد كمية أوفر من السمك، فأجابه المسيح، الحكيم والرؤوف، إن كيل الربّ ليس مثل كيل البشر، إنما كيله هو العدل. عاد يوحنا قانطاً، ومضى المساء ولم يأت أحد ليطلب منه البقاء. في اليوم التالي، ودّع المسيح أصدقاءه، وبعد أن ملأ مخلاته وأدار ظهره لبحيرة طبريا حيث، إلّا إذا كان مخطئاً، قدم له الربّ إشارة، وانطلق باتجاه الجبال المفضية إلى الناصرة.

لكن شاءت الأقدار أنه عندما مرّ عبر قرية مجدل، نكأ جرح في قدمه وراح ينزف دماً غزيراً. وشاءت الأقدار أيضاً أن يتم ذلك عند أطراف مجدل، أمام بيت ناء، في مكان بعيد عن البيوت الأخرى، كما لو كان بيتاً منبوذاً. عندما بدا أن الدم لن يتوقف عن النزف، صاح يسوع المسيح، هل يوجد أحد في البيت. فظهرت امرأة عند الباب كما لو أنها تتوقّع أن أحداً سيناديها. ولعدم ظهور قسمات على وجهها تشير إلى أنها

فوجئت بوجوده، يمكننا أن نفترض بأنها امرأة معتادة على دخول الناس إلى بيتها من دون أن يقرعوا الباب. لكن إذا دققنا النظر، فإننا سنكتشف أن الأمر ليس كذلك، لأن المرأة مومس، وتقتضي منها مهنتها أن تغلق باب بيتها عندما تستقبل شخصاً. رفع يسوع الجالس على الأرض الذي كان يضغط على جرحه الناكئ، عينيه عندما دنت منه المرأة، وقال لها: ساعديني. وأمسك بيدها الممدودة ونهض على قدميه بصعوبة وسار بضع خطوات متعثّرة. قالت، إنك لا تستطيع أن تمشي، هيا ادخل ودعني أغسل قدميك. لم يقل يسوع نعم أو لا. كانت رائحة عطر المرأة نفاذة فتلاشى الألم على الفور كما بفعل سحر. بذراع حول كتفيها وذراع أخرى، من الواضح أنها لم تكن ذراعه، حول خصره، شعر باضطراب يتدفق في جسده، أو بعبارة أدق، عبر أحاسيسه، لأن في حواسه، أو على الأقل في إحدى تلك الحواس التي ليست البصر ولا الشم ولا التذوق ولا اللمس، مع أنها كلّها تؤدي دوراً ما، أحسّ بها بقوة، فليكن الربّ في عونه. قادته المرأة إلى فناء البيت وأغلقت البوابة، وأجلسته. ثم قالت له، انتظر هنا. دخلت إلى البيت وعادت وهي تحمل إناء فخارياً وقطعة قماش بيضاء. بعد أن ملأت الإناء بالماء، بلّلت قطعة القماش وجثت عند قدمي المسيح، ثم رفعت قدمه النازفة في راحة يدها اليسرى، وغسلتها برفق. أزالت عنها التراب وليّنت قشرة الجرح الناكئ الذي كان ينزّ منه دم وقيح أصفر مثير للاشمئزاز. قالت له المرأة إنه يحتاج إلى أكثر من الماء كي يبرأ. فقال لها يسوع المسيح: إن كلّ ما أطلبه منك هو أن تضمّدي قدمي لأتمكن من الوصول إلى الناصرة. كاد أن يقول لها إن أمّي ستعتني بها، لكنه أمسك نفسه عن قول ذلك في الوقت المناسب، لأنه لم يشأ أن يعطيها انطباعاً بأنه فتى شديد التعلق بأمه التي ستعالج إصبع قدمه فوق صخرة وتخفف من ألمه وتضمّه بين

ذراعيها وهو يجهش في البكاء. إنها لا شيء يا طفلي العزيز، انظر، لقد أصبحت أفضل. المسافة طويلة إلى الناصرة، قالت له المرأة، لكن إن كنت تريد ذلك، فدعني أفركها بالمرهم. دخلت إلى البيت وبدا أنها أمضت وقتاً أطول هذه المرة. تطلّع المسيح حوله مندهشاً لأنه لم ير فناء بيت بهذه النظافة والترتيب. ساوره الشكّ في أن المرأة مومس، لا لأنه يجيد تخمين مهن الناس من أول نظرة، مع أنه هو نفسه، كان سيُعرف بأنه راع من رائحة الماعز التي تفوح منه، أما الآن فإن الجميع سيقولون إنه صيّاد سمك، لأن رائحة حلت محل رائحة أخرى. عبقت من المرأة رائحة عطرة، لكن يسوع المسيح الذي قد يكون بريئاً، كان قد تعلّم بعض حقائق الحياة من مراقبة التيوس والكباش. وإذا كان يمتلك أيضاً حساً سليماً فهو يعرف أنه حتى لو كانت المرأة تضع عطراً فهذا لا يعني بالضرورة أنها مومس، لأن رائحة الرجال الذين تضاجعهم هي التي يجب أن تفوح من المومس، تماماً كما تفوح من راعي الماعز رائحة الماعز ومن صيّاد السمك رائحة السمك، لكن من يعرف، فلعلها تضع كمية كبيرة من العطر لكي تخفي رائحة جسد الرجل أو لتغطيها أو لتنساها. عادت المرأة وبيدها جرّة فخارية صغيرة. كانت تبتسم كما لو أن أحداً في البيت قد قال لها شيئاً مسلياً. رآها المسيح تدنو منه. وإذا لم تكن عيناه تخدعانه، فقد كانت تسير الهوينى، كما يحدث غالباً في الأحلام، ثوبها ينساب فوق جسدها ويبرز منحنياته وهي تمشي. كان ردفاها يتأرجحان، وشعرها الأسود المنسدل على كتفيها يتطاير مثل حرير الذرة في الريح. من الواضح أن الثوب الذي ترتديه هو ثوب مومس، وجسدها جسد راقصة، وضحكتها ضحكة بغي. اعترى يسوع قلق شديد وراح يفتّش في زوايا ذاكرته عن بعض الحكم الملائمة التي قالها سَمِيّه المشهور، يشوع بن سيراخ، فطاوعته ذاكرته وهمست خفية

في أذنه: تحاشى المرأة البغي لئلا تقع في أشراكها، لا تألف المرأة الراقصة، لئلا تخضعك لمفاتنها، وأخيراً، لا تسلم نفسك إلى الزواني، لئلا تتلف روحك وممتلكاتك. لعل روح يسوع المسيح في خطر الآن بعد أن بلغ مرحلة الرجولة، أما ممتلكاته، فهي ليست في خطر، لأننا كما نعرف، فهو لا يمتلك شيئاً. لذلك، سيكون في مأمن عندما تحين اللحظة لتحديد مبلغ ما وتسأله المرأة كم لديك من نقود.

لم يبد يسوع أي دهشة عندما سألته المرأة عن اسمه وهي تفرك المرهم فوق الجروح المتقيحة على قدمه المرخية فوق حجرها. فأجابها، أنا يسوع المسيح، ولم يضف من الناصرة، لأنه كان قد قال ذلك سابقاً، تماماً كما أنه من الواضح أن المرأة التي تعيش هنا هي من مجدل. وعندما سألها عن اسمها، لم تجب بسوى مريم. بعد أن فحصت جرحه بعناية، ضمدته مريم المجدلية بإحكام، ثم قالت: سيكون هذا مفيداً. كيف يمكنني أن أشكرك، سألها المسيح. ولأول مرة التقت عيناه بعينيها البراقتين السوداوين سواد الفحم، ومثل ماء يسيل فوق ماء، تغشاهما شهوانية وجد يسوع أنها لا تقاوم. لم تجب المرأة على الفور، بل راحت ترمقه كأنها تزنه. من الواضح أن الفتى لا يملك شروى نقير، فقالت له أخيراً، تذكّرني، هذا كلّ ما أطلبه منك. فقال: لن أنسى لطفك، ثمّ أضاف بعد أن استجمع شجاعته، ولن أنساك. لماذا تقول ذلك، سألته وابتسامة ترفرف على شفتيها. لأنك جميلة. كان يجب أن تراني في شبابي. إنك جميلة كما أنتِ. بهتت ابتسامتها. هل تعرف من أنا وماذا أعمل وكيف أكسب قوتي. أعرف. ما عليك إلّا أن تنظر إليّ حتى تعرف كلّ شيء. إني لا أعرف شيئاً. ولا حتى أنني مومس. أعرف ذلك. إني أنام مع رجال لقاء نقود. نعم. إذاً كما قلت، فأنت تعرف كلّ شيء عنيّ. هذا كلّ ما أعرفه. جلست المرأة بجانبه، وراحت تمسّد يده

بلطف. لمست فمه بأطراف أصابعها. إن كنت حقاً تريد أن تشكرني، فأمض اليوم معي هنا. لا أستطيع. لماذا. لا أملك نقوداً أدفعها لك. هذا لا يفاجئني. أرجوكِ لا تسخري مني. قد لا تصدقني، لكنّي سأسخر من رجل عنده محفظة مليئة. ليست المسألة مسألة نقود فحسب. ما هي إذاً. صمت يسوع وأشاح بوجهه. لم تحاول مساعدته، وكان بإمكانها أن تسأله، ألم تلمس امرأة من قبل، لكنها لم تقل شيئاً وانتظرت. كان الصمت مطبقاً، ولم يكن يُسمع شيء سوى دقات قلبيهما. كانت دقات قلبه أعلى وأسرع، بينما كانت دقات قلبها مضطربة وغير منتظمة. قال لها يسوع: شعرك يذكّرني بقطيع ماعز يهبط منحدراً جبل جلعاد. ابتسمت المرأة لكنها لم تنبس بكلمة. ثمّ أضاف يسوع المسيح: عيناك كالبركتين اللتين في حشبون عند باب بيت ربيم. ابتسمت المرأة مرة أخرى لكنها لم تقل شيئاً أيضاً. ثمّ التفت يسوع ببطء إليها وقال، لم ألمس امرأة من قبل. أمسكته مريم بيديه. هكذا يجب أن يبدأ الجميع، رجال لم يلمسوا امرأة قط، ونساء لم يعرفن رجلاً قط، حتى يأتي اليوم الذي يعلّم فيه الذي يعرف من لا يعرف. هل تريدين أن تعلّميني. حتى تشكرني مرة أخرى. بهذه الطريقة، لن أتوقّف عن شكرك أبداً. وأنا لن أتوقّف عن تعليمك. نهضت مريم ووقفت على قدميها، وسارت وقفلت بوابة البيت، وعلّقت من الخارج لافتة كبيرة كتبت عليها أنها أغلقت بابها الآن لأن ساعة الغداء قد بدأت. استيقظي يا ريح الشمال وتعالي يا ريح الجنوب، هُبّي على جنتي فينتشر عبيرها. ليأتِ حبيبي ويأكل ثمره الشهي. ثمّ معاً، يد المسيح ثانية على كتف مريم، هذه البغي من مدينة مجدل التي عالجت جروحه وتوشك أن تستقبله في فراشها. دخلا إلى البيت، إلى ظلّ غرفة نظيفة نضرة. لم يكن فراشها حصيرة بدائية ممدودة على الأرض فوقها ملاءة خشنة، كما يتذكر يسوع الفراش في بيت

أهله، بل هذا فراش حقيقي، كما وُصف ذات مرة في مكان آخر. لقد زيّنت سريري بأغطية ملاءات مطرّزة مصنوعة من قماش مصري، وقد عطّرت أريكتي بنبات المرّ والصبار والقرفة. قادت مريم المجدلية يسوع إلى جانب الموقد بأرضيته الفخارية، وأصرّت على أن تخلع له ثوبه وتغسله بنفسها. راحت تلمس جسده بأطراف أصابعها وتقبّله بنعومة فوق صدره وساقيه، في البداية في جانب، ثمّ في الجانب الآخر. إن اللمسات المرهفة باليدين والشفتين جعلت جسد يسوع يرتعش، وشعر بقشعريرة تسري في جسده من أظافرها التي راحت تخدش بها جلده برقة. لا تخف، همست. جفّفت جسده وقادته إلى السرير. استلق، سأكون معك في الحال. أسدلت ستارة. سُمع صوت تدفق ماء، ثم ساد صمت، وملأت الهواء رائحة عطر. ثم ظهرت مريم، عارية تماماً. كان يسوع عارياً أيضاً، مستلقياً كما تركته. قال لنفسه، لا بد أن هذا صحيح، إن كشف جسد مغطى يسبب ارتكاب الخطيئة. خطت مريم ببطء بجانب السرير، ترمقه بنظرات متّقدة ورقيقة، ثم قالت: أنت شاب وسيم للغاية، لكن لكي تصبح كاملاً يجب أن تغمض عينيك. أغمضهما المسيح بتردد، ثم فتحهما. في تلك اللحظة فهم معنى الكلمات التي قالها الملك سليمان، دوائر فخذيك كعقد صنعه صائغ ماهر. سُرتُك كأس مدورة لا ينقص خمرها. بطنك كوم قمح يحيط به السوسن، ثدياكِ كتوأمي ظبية. بل زاد فهمه لها عندما استلقت مريم بجانبه، وأخذت يديه في يديها وشدّتهما إليها، ثم مشتهما ببطء فوق جسدها وشعرها ووجهها وعنقها وكتفيها وثدييها اللذين اعتصرهما بلطف، ثم فوق بطنها وسرتها وشعرها في الأسفل، حيث تمهّل قليلاً، وراح يجدله ويحلّه بأصابعه، ثمّ منحنى فخذيها الناعمين، وعندما حرّكت يديه، همست في أذنه، هيا، تعال، استكشف جسدي، تعال استكشف

جسدي. تسارعت أنفاس يسوع، ولوهلة خيّل إليه أنه سيغشى عليه عندما راحت يداها، اليد اليسرى على جبينه، واليد اليمنى على كاحليه، تداعبانه، ببطء، ثم تلتقيان معاً في الوسط، ثمّ تعودان للبدء من جديد. إنك لم تتعلّم شيئاً، هيا اغرب عن وجهي، قال له *الراعي*. من يعرف، فربما كان يقصد أن المسيح لم يتعلّم كيف يقدّر الحياة ويألفها. قالت له مريم المجدلية الآن بلهجة آمرة، هيا استكشف جسدي، ثم كررتها، لكن بطريقة مختلفة، فقد غيّرت كلمة واحدة، استكشف جسدك. كان هناك، متوتراً، مشدوداً، يقظاً، وهي عارية ورائعة، وقد أصبحت فوقه وقالت: لا تخف، لا تتحرّك، اترك لي الأمر. ثمّ أحسّ بجزء منه، ذلك العضو، يغيب في داخلها. حلقة ناريّة حوله، في حركة دائبة، ذهاباً وإياباً، وسرت في جسده رعدة، مثل سمكة تتلوّى تنزلق حرّة مع صيحة. هذا مستحيل لأن السمك لا يصيح. لا، إنه هو، يسوع، الذي يصيح بينما ارتمت مريم فوق جسده بتنهيدة، وامتصت صرخته بشفتيها، بقبلة نهمة أرسلت مرة أخرى، قشعريرة لا نهاية لها في أنحاء جسده.

خلال ما تبقى من ذلك اليوم، لم يطرق أحد باب مريم المجدلية. وخلال ما تبقى من ذلك اليوم، علّمت الشاب الذي من الناصرة والذي جاء يطلب منها أن تساعده في التخفيف من ألمه وشفاء جروحه، وهي لا تعرف ذلك، بعد ذلك اللقاء، عندما قابل يسوع الربّ في الصحراء، عندما قال له: منذ الآن، أصبحت مقيداً بي في الجسد والدم. أما الشيطان فقد رفضه، إن كان هو الشيطان وقال له، إنك لم تتعلّم شيئاً، هيا اغرب عن وجهي. قالت مريم المجدلية وحبات العرق تقطر من بين ثدييها، ودخان يبدو أنه ينبعث من شعرها المسترسل، ومن شفتيها المتورمتين، تنظر إليه بعينيها اللتين تشبهان بركتين داكنتين، لن تمكث معي بسبب ما علّمتك إياه، لكن نم هنا هذه الليلة. فأجابها المسيح وهو

لا يزال مستلقياً فوقها، إن ما علّمتني إياه ليس سجناً بل حرية. ناما معاً، لا تلك الليلة فقط. عندما استيقظا، كان الصباح قد بزغ، وبعد أن بحث جسد أحدهما عن جسد الآخر، ووجدا بعضهما مرة أخرى، فحصت مريم قدم يسوع وقالت، تبدو أفضل بكثير الآن، لكنّ يجب أن تنتظر قبل أن تعود إلى بيتك، لأن السير عليها سيزيدها سوءاً، فضلاً عن كلّ ذلك التراب. لا يمكنني أن أمكث أكثر من ذلك، خاصة أنك قلتِ إن قدمي تحسّنت كثيراً. طبعاً، يمكنك أن تبقى إذا إردت، وستظل بوابة بيتي مغلقة حتى ما نشاء. وماذا عن حياتك هنا. أصبحت حياتي الآن أنت. لكن لماذا. دعني أجيبك بكلمات الملك سليمان، فمدّ حبيبي يده من فتحة قفل الباب، فأخذ قلبي يدقّ. لكن كيف يمكن أن أكون حبيبك وأنتِ لا تعرفينني، فأنا لست سوى شخص أتى لطلب المساعدة منك، وقد أشفقتِ على شقائه وجهله. لهذا السبب أحببتك، لأنني ساعدتك وعلّمتك، أما أنت فلن تحبّني أبداً لأنك لم تساعدني ولم تعلّمني. لكنّكِ لا تتألمين. يمكنك أن تجد جرحي إذا أمعنت النظر. ماذا يمكن أن يكون ذاك الجرح. ذاك الباب المشرع الذي دخل منه الآخرون، لكن ليس حبيبي. قلتِ أنا هو حبيبك. لذلك أُغلق الباب وراءك عندما دخلت. لا يوجد شيء يمكنني أن أعلّمك إياه، فقط ما تعلّمته منك. علّمني حتى أعرف كيف يبدو أن أتعلّم منك. لا يمكننا أن نعيش معاً. تقصد أنك لا تستطيع أن تعيش مع بغي. نعم. عندما تعيش معي لن أكون بغياً، لأنني لم أعد ذلك منذ أن وطأت قدمك عتبة هذا البيت، ويعود الأمر لك إن كنت سأظل أعيش هكذا أم لا. إنك تسألين كثيراً. ألا يوجد شيء يمكنك أن تمنحني إياه ليوم أو يومين، أو إلى حين أن تبرأ قدمك كي لا ينكأ جرحي مرة أخرى. لقد استغرقت ثمانية عشر عاماً حتى أصل إلى هنا. بضعة أيام أخرى لن تؤثر كثيراً، فلا تزال في ريعان الشباب.

وكذلك أنتِ. أنا أكبر منك، وأصغر من أمّك. أتعرفين أمّي. لا. إذاً لماذا ذكرتيها. لأنني صغيرة على إنجاب ابن في عمرك. يا لغبائي. لا، لست غبياً، لكنك بريء فقط. لكني لم أعد بريئاً. فقط لأنك كنت مع امرأة. لا، لقد فقدت براءتي قبلك. حدّثيني عنك. لا ليس الآن، ففي هذه اللحظة فإن كلّ ما أريده هو أن أشعر بيدك اليسرى تحت رأسي، وتضمني بيدك اليمنى.

أقام المسيح في بيت مريم المجدلية أسبوعاً كاملاً، وهو وقت كاف لتشكل طبقة جديدة من الجلد تحت البشرة. ظلّ الباب موصداً، مع أن عدّة رجال تسوقهم الرغبة أو كبرياء مجروح، قرعوا الباب كثيراً، متجاهلين اللافتة التي تطلب منهم ألّا يأتوا. كان الفضول يدفعهم لرؤية هذا الشاب الذي مكث طويلاً، وصاح أحد الساخرين من فوق الحائط، إمّا أنه لا يستطيع أن يفعلها أو أنه لا يعرف ماذا عليه أن يفعل، هيا افتحي الباب يا مريم لأريه كيف يفعل. فخرجت مريم المجدلية إلى الفناء ولعنته وصاحت، من أنت أيها المتبجّح، لقد ولّت أيام قدراتك الذكورية، فانصرف من هنا. أيتها المومس الملعونة. إنك تجانب الحقيقة، لأنك لن تجد امرأة في أي مكان آخر مباركة أكثر منيّ، أكان ذلك بسبب هذه الحادثة أم لأن القدر شاء هكذا، فلم يقرع أحد بابها، لاسيما الرجال في مجدل أو الرجال الذين سمعوا بلعنة مريم ولم يرغبوا في أن يصابوا بالعنّة، لأن الاعتقاد السائد آنذاك هو أنّ البغي الخبيرة لا يمكنها أن تلهب شهوة الرجل فحسب، إنما تستطيع أيضاً أن تقتل الكبرياء والشهوة فيه إلى الأبد. لذلك، تُركت مريم ويسوع في سلام طوال ثمانية أيام، أعطته فيها دروساً وتلقت منه دروساً تحولت إلى لغة مليئة بالإيماءات والاكتشافات والمفاجآت والهمهمات والاختراعات، مثل قطع الفسيفساء التي لا تشكل شيئاً لو أُخذت كل قطعة على حدة،

لكنها تشكل لوحة كاملة عندما تُجمّع وتوضع في أماكنها الصحيحة. وطلبت مريم من حبيبها مراراً أن يحدّثها عن نفسه، لكنّه سرعان ما كان يغيّر الموضوع ويُقحم أبياتاً مثل، دخلتُ جنتي يا أختي، يا عروستي، وقطفتُ مُرّي وأطيابي، أكلتُ شهدي وعسلي، وشربتُ خمري ولبني. كلوا أيها الأصحاب، اشربوا واسكروا أيها الأحبّاء. كان يرددها بشغف وبحماسة قبل أن يقوم بالفعل الشاعري بذاته. حقاً، حقاً، أقول لك، يا يسوع العزيز، ليست هذه طريقة لتبادل الحديث. لكنه حدّثها ذات يوم عن أبيه النجار وعن أمّه ندافة الصوف، وعن إخوته وأخواته، وكيف بدأ يتعلّم مهنة أبيه قبل أن يذهب ويصبح راعياً طوال أربع سنوات، أما الآن فقد قرر أن يعود إلى البيت. وحكى لها أيضاً عن تلك الأيام القليلة التي أمضاها عند البحيرة مع بعض صيّادي السمك لكنه لم يتمكن من إتقان مهاراتهم. وفي مساء أحد الأيام، بينما كانا يتناولان الطعام في فناء البيت، منح يسوع المسيح مريم المجدلية ثقته. وبين الحين والآخر، كانا يرفعان عينيهما إلى السماء لمراقبة أسراب السنونو التي تطير بسرعة وتطلق صرخات عالية. من صمتهما، قد نخلص إلى أنه لم يعد لدى أحدهما ما يقوله للآخر، فقد اعترف الرجل بكلّ ما لديه للمرأة، لكنّها ظلت تسأل، كما لو بانزعاج، أهذا كلّ شيء. فيجيب مومئ برأسه: نعم، هذا كلّ شيء.

ازداد الصمت عمقاً، وانتقلت عصافير السنونو التي كانت تحلّق فوقهما إلى مكان آخر، ثم قال المسيح: لقد صُلب أبي قبل أربع سنوات في صفورية، اسمه يوسف. وأنت ابنه البكر. نعم، أنا الابن البكر. لا أفهم، كان عليك أن تظل وتعتني بأسرتك. لقد تشاجرنا، لكن لا تسأليني المزيد. لن أسألك أسئلة أخرى عن أسرتك، لكن ماذا عن الفترة التي أمضيتها كراع، حدّثني عنها. لا يوجد شيء يمكنني أن

أحدّثك عنه، فالأحداث نفسها كلّ يوم، ماعز وأغنام وجداء وحملان وحليب. كان يوجد حليب وفير، كان الحليب يملأ المكان. هل كنت مستمتعاً لكونك راعياً. نعم. إذاً، لماذا تركت الرعي. بدأ القلق يعتريني، بدأت أحنّ إلى أسرتي، الحنين إلى البيت. الحنين إلى البيت، ماذا يعني. الإحساس بالحزن لأن المرء بعيد عن بيته. إنك تكذب. لماذا تقولين إني أكذب. لأنني لم أر في عينيك حزناً، بل رأيت خوفاً وشعوراً بالذنب. لم يجب المسيح. نهض وطاف حول الفناء، ثمّ وقف أمام مريم وقال: ذات يوم، سأخبرك إذا التقينا ثانية، سأحدّثك إذا وعدتني بأن لا تخبري أحداً. لماذا لا تخبرني الآن. سأخبرك عندما نلتقي مرة أخرى. لأنك تأمل بأن أكون قد توقفت عن كوني عاهرة، إنك لا تزال لا تثق بي؛ تظن أنّني قد أبيع أسرارك لقاء نقود أو أن أخبر أول رجل أصادفه بها من باب التسلية أو لقاء ليلة حب أكثر متعة من الليالي التي أمضيتها معك. لا، ليس هذا سبب صمتي. حسناً، أعدك بأن مريم المجدلية، سواء أكانت مومساً أم لا، ستقف إلى جانبك عندما تكون بحاجة إليها. من أنا حتى أستحق كلّ هذا. ألا تعرف من أنت.

في تلك الليلة عاوده الكابوس. لكنه أصبح مؤخراً أكثر قدرة على التحمل، عذاب غاضب كان يقض مضجعه. أما في هذه الليلة، ربما لأنها الليلة الأخيرة التي ينام فيها في فراش مريم؛ ربما لأنه ذكر صفورية والرجال الذين صُلبوا هناك، بدأ الكابوس يتفكك في منحنيات ومنعطفات ويتلوى مثل أفعى ضخمة بدأت تصحو من سباتها وترفع رأسها القبيح. استيقظ يسوع مجفلاً. راح يصرخ مذعوراً، وقد تبلل جسمه بعرق بارد. ما خطبك، سألته مريم مذعورة. كنت أحلم، أحلم فقط. قل لي. قيلت هاتان الكلمتان البسيطتان بكثير من المحبة والرقة إلى حد أن المسيح لم يتمكن من أن يحبس دموعه. وبعد الكثير من

البكاء كشف ما كان يرجو ألّا يكشفه، وقال إني أحلم كثيراً بأن أبي سيأتي ليقتلني. لكن أباك ميت وأنت لا تزال حيّاً. في حلمي أرى نفسي لا أزال طفلاً عاد إلى بيت لحم في يهوذا، وجاء أبي ليقتلني. لماذا في بيت لحم. المكان الذي ولدت فيه. ربما كنت تظن أن أباك لم يكن يريد أن تولد، لذلك فإنك ترى هذا الحلم باستمرار. إنك لا تعرفين ما جرى. لا، لا أعرف. لقد قُتل الأطفال في بيت لحم بسبب أبي. هل قتلهم. لقد قتلهم لأنه لم يحاول أن ينقذهم، مع أن يده لم تكن هي اليد التي استلّت السيف. وفي حلمك، هل كنت واحداً من أولئك الأطفال. لقد متّ ألف ميتة. أيها الرجل المسكين، يا يسوع المسكين. لهذا السبب غادرت البيت. بدأت أفهم. أتظنين أنّك تفهمين. هناك أشياء أخرى تريدني أن أعرفها. لا أستطيع أن أبوح بها بعد. أتقصد ما ستخبرني به عندما نلتقي ثانية. صحيح. مرخياً يده على كتف مريم، وخدّه على صدرها، غفا المسيح. ظلت مستيقظة طوال الليل، موجوعة القلب لأن الصباح بدأ يقترب وحان وقت الفراق، لكن روحها كانت تشعر بالسلام لأنها عرفت أن هذا الرجل الذي بين ذراعيها هو الرجل الذي انتظرته طوال حياتها، رجلها، جسده النقي، وجسدها المدنّس، لكن عالمهما قد بدأ للتو. مكثا معاً ثمانية أيام، لكن في هذه الليلة فقط تأكد اتحادهما، ولا تشكل ثمانية أيام شيئاً قياساً إلى مستقبل كامل، لأن المسيح هذا الذي دخل حياتي لا يزال شاباً، وها أنا مريم المجدلية، في السرير مع رجل، كما كان يحدث غالباً في الماضي، لكن هذه المرة فأنا غارقة في العشق وفي شباب دائم.

أمضيا فترة الصباح وهما يعدّان للرحلة. يخيّل إلى المرء بأن يسوع الشاب يعدّ العدة للسفر إلى أقاصي الدنيا، في حين لا يوجد أمامه أكثر من عشرين كيلومتراً، وهي مسافة يستطيع أيّ رجل يتمتع بصحة جيدة

أن يقطعها سيراً على الأقدام بين الظهر والمغرب، بالرغم من وعورة الطريق بين مجدل والناصرة، بمنحدراته الحادّة وأراضيه الصخرية. انتبه، قالت مريم تحذّره، فقد تصادف جماعات من المتمردين الذين لا يزالون يحاربون الرومان. بعد كل هذا الوقت، سألها يسوع المسيح. إنك لم تعش هنا، هذه هي الجليل. أنا من سكان الجليل، ولا أظن أنهم سيلحقون بي أي أذى. لا يمكنك أن تكون من الجليل إذا كنت قد ولدت في بيت لحم في منطقة يهوذا. أمي وأبي أنجباني في الناصرة، ولكي أكون صادقاً، حتى إنني لم أولد في بيت لحم، بل ولدت في كهف، وأشعر الآن بأنني ولدت من جديد هنا في مجدل. لقد أشرفت على ولادتك عاهرة. فقال يسوع المسيح بحدة، أنت لست عاهرة في نظري. للأسف، هذه هي الحياة التي عشتها. أعقب هذه الكلمات صمت طويل. كانت مريم تنتظر يسوع للبدء بالكلام الذي كان يحاول أن يهدئ من روعها. ثم سألها، هل تنوين إزالة اللافتة التي وضعتيها على الباب بعدم السماح بدخول الرجال. نظرت إليه مريم بتعابير جدّية، ثمّ ابتسمت بخبث، لا يمكن أن يكون عندي رجلان في البيت في وقت واحد. ماذا تقولين. أقصد بالرغم من أنّك ستغادر فإنك ستظل هنا. صمتت، ثمّ أضافت، ستبقى اللافتة معلقة عند الباب. سيظنون إنّك تقيمين مع رجل. إنهم محقّون، لأني سأكون معك. هل تقصدين أن رجلاً لن يقترب من هذا الباب ثانية. نعم، لأن هذه المرأة التي تدعى مريم المجدلية لم تعد بغياً منذ أن وطأت قدماك عتبة بيتها. لكنك كيف ستعيشين. الزنابق في الحقول فقط هي التي تزهر من دون عمل أو حياكة. أمسك يسوع بيديها وقال: الناصرة ليست بعيدة عن مجدل، سأعود ذات يوم. إذا عدت لتبحث عنّي فإنك ستجدني هنا. رغبتي هي أن أجدك طوال عمري. حتى إنك ستجدني بعد الموت. تقصد أنني

سأموت قبلك. أنا أكبر منك سنّاً، لذلك ففي الغالب فإني سأموت قبلك. إذا متّ قبلي، فسأظل أعيش حتى تجدني. وإذا متّ أولاً. إذاً مباركة هي المرأة التي جلبتك إلى هذا العالم في أثناء حياتي. بعد هذا الحديث، قدمت مريم ليسوع الطعام، ولم يكن عليه أن يطلب منها أن تجلس معه، لأنه منذ أول يوم أمضياه معاً وراء الأبواب المغلقة، تقاسم هذا الرجل وهذه المرأة مشاعرهما، وضاعفا في ما بينهما المشاعر والحركات والفضاءات والأحاسيس دون أن يعيرا اهتماماً للقواعد والقوانين. من المؤكد أنهما لن يعرفا ماذا سيقولان إذا سألناهما كيف سيتصرّفان خارج هذه الجدران الأربعة حيث سيكونان أحراراً لبضعة أيام أخرى ليصوغا عالماً في صورة ومثال رجل وامرأة. عالم دعونا نقول إنه عالمها أكثر من أن يكون عالمه، لكن لثقتهما بأنهما سيلتيقان مرة أخرى، ما علينا إلّا أن نتجمّل بالصبر، وننتظر حتى يحين الوقت الذي سيواجهان فيه، جنباً إلى جنب، العالم الخارجي حيث سيسألان نفسيهما بقلق، ماذا يجري هناك، وهما لا يقصدان ماذا يجري عادة في غرفة النوم. بعد أن تناولا الطعام، ساعدت مريم يسوع المسيح على انتعال خفه، وقالت له، يجب أن تغادر الآن إن أردت أن تصل إلى الناصرة قبل هبوط الليل. الوداع، قال المسيح. وحمل مخلاته وعصاه، وخرج إلى فناء الدار. كانت السماء مكسوة بالسحب كما لو أنها كانت مبطنة بصوف غير مغسول. لا بد أن الربّ لا يجد سهولة اليوم في مراقبة خرافه من الأعلى. تعانق يسوع ومريم المجدلية طويلاً قبل أن يتبادلا قبلة الوداع التي لم تستغرق طويلاً، ولا عجب، لأن التقبيل لم يكن شائعاً آنذاك.

كانت الشمس تميل إلى الغروب عندما وصل المسيح إلى الناصرة بعد أربع سنوات طويلة، أسبوعاً أقل أو أسبوعاً أكثر منذ أن غادر البيت. لم يكن سوى طفل دفعه اليأس للخروج إلى العالم بحثاً عن أحد يساعده على فهم الحقيقة التي لا تحتمل عن ولادته. إن مدة أربع سنوات، مهما طالت، لا تكفي حتى يبرأ المرء من أحزانه، لكن بالرغم من ذلك، فإنها ستجلب له قدراً من الارتياح. لقد سأل أسئلة في الهيكل، وسار في الدروب والمسالك الجبلية مع قطيع الشيطان، وقابل الربّ، ونام مع مريم المجدلية، وعندما وصل إلى الناصرة، لم تعد تبدو عليه أمارات المعاناة، ما عدا تلك الدموع التي ملأت عينيه، لكن ذلك قد يكون أيضاً ردّ فعل متأخراً من الدخان المنبعث من القرابين المحترقة، أو من البهجة المفاجئة التي اعترت روحه وهو ينظر إلى البلدة من علٍ، أو من الخوف الذي يعتري رجلاً يسير وحيداً في الصحراء يسمع صوتاً يقول له: أنا الربّ، أو ربما منذ زمن ليس بعيداً، الحنين إلى المرأة التي غادرها منذ بضع ساعات فقط. لقد أرحت نفسي بالزبيب، وقوّيت نفسي بالتفاح لأنني منتشٍ بالحبّ.

قد يقول يسوع المسيح هذه الكلمات اللطيفة لأمّه وإخوته، لكنّه توقّف عند عتبة البيت وقال متسائلاً، أمّي وإخوتي. لم يكن السؤال يشي

بأنه لا يعرف من هم، هل يعرفون من هو الآن. هو الفتى الذي طرح أسئلة في الهيكل، والذي راقب الأفق، والذي قابل الربّ، والذي ذاق طعم الحبّ الجسدي واكتشف رجولته. أمام هذا الباب بالذات، وقف شحاذ ادّعى أنه ملاك، لكنه لو كان ملاكاً حقاً لاندفع إلى داخل البيت محدثاً جلبة عظيمة بأجنحته المتكسرة، لكنه بالرغم من ذلك، فضّل أن يقرع الباب وأن يطلب صدقة مثل أيّ شحاذ آخر. كان الباب موصداً بالمزلاج. لم يكن على يسوع إلّا أن يصرخ ليفتحوا له الباب كما فعل في مجدل، بل كان بوسعه أن يدخل إلى بيته بهدوء بعد أن التأمت الجروح المتقيّحة في قدميه بالكامل، علماً أن البثور التي ينزف منها الدم وينزّ منها القيح هي الأسرع في الشفاء. لم يكن عليه أن يقرع الباب، لكنّه قرعه. تناهت إليه أصوات من خلف الجدار. ميّز صوت أمّه من بعيد، لكن الشجاعة لم تواته ليفتح الباب بنفسه ويقول ها أنا قد عدت، مثل شخص يعرف بأنه سيلقى ترحيباً لعودته ويريد أن يفاجئهم. فتحت له الباب طفلة في ربيعها الثامن أو التاسع. لكنها لم تعرف من هو الزائر الواقف عند الباب، ولم يهبّ صوت الدم والقرابة لنجدته ويقول لها: أنا شقيقك يسوع المسيح، ألا تذكريني، لكنه قال لها، مع أن أحدهما لم ير الآخر منذ أربع سنوات، وبالرغم من الضوء الخافت، لا بد أنك ليديا. فأجابته، نعم. مستغربة أن شخصاً غريباً يعرف اسمها. لكن السحر تلاشى فجأة عندما قال لها: أنا شقيقك يسوع، هل لي أن أدخل. تحت العريشة في فناء البيت لاحت له هيئات غير واضحة المعالم. ربما كانوا أشقاءه. كانوا ينظرون باتجاه الباب، ثم اقترب اثنان منهم، الشقيقان الأكبر سناً، يعقوب ويوسف. لم يسمعا ما قاله يسوع، لكنهما لم يكونا بحاجة إلى بذل جهد كبير لمعرفة من هو الزائر لأن ليديا صاحت بحماسة، إنه يسوع شقيقنا. عندها تحركت الظلال وظهرت مريم عند

المدخل ووقفت بجانبها ابنتها الكبرى ليسا التي أصبحت بطول أمّها تقريباً، وصاحتا بصوت واحد، ابني، أخي. وفي اللحظة التالية راحوا يعانقون بعضهم بعضاً في هذا اللقاء الأسري البهيج وسط فناء البيت. لقاء كهذا يكون دائماً حدثاً سعيداً، خاصة عندما يكون العائد هو الابن البكر. حيّا المسيح أمّه، ثمّ حيّا إخوته، واحداً واحداً، ورحبّ به الجميع بحرارة. أخي يسوع يا له من شيء رائع أن نراك ثانية. أخي يسوع، ظننا أنّك نسيتنا. لكن لم يقل له أحد، أخي يسوع لا يبدو أنك أصبحت أغنى. دخلوا وجلسوا حول سفرة الطعام الذي كانت أمّهم تعدّه عندما قرع يسوع الباب. قد يقول قائل ليسوع الذي جاء من المكان الذي جاء منه، بعد أن ذاق ملذات الجسد الآثمة، وصاحب رفاق السوء، بصراحة تامة للبسطاء الذين يرون فجأة أن حصتهم في الطعام تتضاءل عندما يحين وقت تناول الطعام، إن الشيطان يجلب دائماً فماً آخر ليشاركهم طعامهم. لم يجرؤ أحد من الحاضرين على الإعراب عن هذه الفكرة بكلمات، وسيكون من الخطأ قول ذلك، لأن فماً آخر لن يؤثر كثيراً عندما تكون هناك تسعة أفواه يجب إطعامها. كما أن للقادم الجديد الحقّ في أن يكون موجوداً هنا أكثر منهم جميعاً. وفي أثناء العشاء، أراد إخوته الصغار أن يحكي لهم عن المغامرات التي صادفها، بينما لاحظ إخوته الثلاثة الأكبر سنّاً ومريم أنه لم يطرأ أي تغيير على عمله منذ أن التقوا به في أورشليم، لأن رائحة السمك لم تعد تفوح منه، وجرفت الريح عطر مريم المجدلية المثير، ويجب ألّا ننسى العرق والغبار الذي كسا جسده خلال الرحلة، إلّا إذا أراد أحدهم أن يقترب ويشمّ رائحة رداء يسوع، لكن إذا لم تفعل أسرته ذلك، فلماذا يتعين علينا أن نفعل ذلك. حدّثهم يسوع عن عمله برعي أحد أكبر القطعان التي يمكن للمرء أن يراها، وكيف أنه ساعد الصيّادين عند البحيرة في اصطياد صيد وفير

من السمك، وكيف أنه عاش أيضاً أروع مغامرة يمكن أن يتخيّلها أو يتمنّاها أيّ رجل، لكنّه سيحكيها لهم في وقت آخر. لكن إخوته الصغار توسلوا إليه وقالوا: احكي لنا، نرجوك، احكي لنا. وبكلّ براءة، سأله يهوذا، الأخ الأوسط، هل جمعت نقوداً كثيرة خلال رحلتك. فأجابه المسيح، لم أجمع أكثر من ثلاث قطع نقدية، لا بل اثنتين، لا بل واحدة، لا شيء. عندما رأى نظرات الاستغراب وعدم التصديق على وجوههم، أفرغ مخلاته ولم يقل شيئاً. حقاً، لم يكن عنده أشياء كثيرة كي يريهم ماذا كسب من عمله، ولم يكن لديه سوى سكينة معدنية صدئة ومقوسة، وخيط قصير، وقطعة خبز يابسة، صلبة كالصخر، وخفّ مهترئ تحوّل إلى مزق، وبقايا ثوب قديم. هذا رداء والدكم، قالت مريم ومسّدت الثوب بكفها؛ وخفّ آخر أكبر حجماً، فقالت: وهذا أيضاً خفّه، فأطرق الآخرون برؤوسهم إكراماً لذكرى أبيهم المتوفى.

بدأ المسيح يعيد الأشياء إلى مخلاته عندما أحسّ بعقدة ثقيلة كبيرة في حاشية الثوب. تدفق الدم إلى وجهه. لا بد أنها نقود. النقود التي قال إنه لا يمتلكها والتي لا بدّ أن مريم المجدلية قد وضعتها فيه. لذلك، فهو لم يكسبها بعرق جبينه كما تقتضي الكرامة، بل اكتسبها بالآهات الآثمة وبعرق من نوع آخر. تطلعت أمّه وشقيقه إلى العقدة، ثمّ حدق فيها الجميع. لم يعرف عما إذا كان عليه أن يحاول إخفاء إثبات عدم صدقه أم يترك الأمر بدون تفسير. اختار المسيح الطريق الأصعب. حلّ العقدة وكشف عن الكنز. عشرون قطعة نقدية لم ير أحد مثلها في هذا البيت. قال، لا أعرف من أين جاءت هذه النقود. عبر توبيخهم الصامت في الهواء مثل ريح صحراء حارة. يا للعار، الابن البكر يكذب. فتّش يسوع في قلبه لكنه لم يستطع أن يغضب من مريم المجدلية. فلم يكن

يكنّ لها إلّا مشاعر الامتنان على سخائها معه. سلوكها المؤثر هذا بأن تعطيه نقوداً تعرف أنّه لن يقبلها لو قدمتها له علناً، لأنه لم يكن هناك شيء يمكن قوله سوى شيء واحد وهو، يدك اليسرى تحت رأسي، ويدك اليمنى على صدري، وأخرى لا تتذكّر أن أيادي أخرى قد عانقتها. نظر يسوع إلى أمّه وإخوته متحدياً إياهم في أن يشكّوا في ما قاله، وهو أنني لا أعرف أن هذه النقود هنا. وهذا صحيح، لكنها ليست الحقيقة كلها. إنه يتحداهم أن يسألوه السؤال الذي لا جواب له، إن كنت لا تعرف أن لديك هذه النقود، فكيف تفسّر وجودها هنا الآن. لا يستطيع أن يخبرهم أن عاهرة أمضيت معها الأيام الثمانية الأخيرة هي التي وضعت النقود هنا، نقود حصلت عليها من رجال نامت معهم قبل أن آتي إلى بيتها. فوق الثوب المهترئ الملوّث للرجل الذي صُلب منذ أربع سنوات والذي أُلقي جثمانه على نحو مخز في قبر جماعي، كانت تلمع العشرون قطعة معدنية مثل التراب المتوهج الذي بث الرعب في هذا البيت، لكن أحبار الكنيس لن يقولوا هذه المرة إنه يجب دفن هذه النقود، كما لن يسأل أحد هنا في البيت، من أين جاءت كي لا تضطرنا الإجابة إلى التخلي عنها رغماً عنا. جمع المسيح قطع النقود ووضعها في راحة يديه وكرر، لم أكن أعرف أنه هذه النقود موجودة هنا، كما لو أنه يمنح أسرته فرصة أخيرة. ثمّ نظر إلى أمّه، وقال: إنها نقود الشيطان. فارتجف إخوته رعباً، أما مريم فقد أجابته من دون أن ترتسم على وجهها أمارات الغضب، وهي لم تأت من الربّ أيضاً. ألقى يسوع قطع النقود في الهواء ممازحاً، مرة، مرّتين، وقال بنبرة عادية كأنه يعلن بأنّه سيعود للعمل في النجاره في اليوم التالي، ثمّ قال: أمّاه، سنناقش موضوع الربّ في الصباح. ثمّ التفت إلى شقيقيه يعقوب ويوسف، وأضاف، لديّ شيء أريد أن أقوله لكما أيضاً. لم تكن هذه البادرة تنمّ

عن تنازل لهما، لأن كلا الأخوين بلغ الآن سن الرشد بحسب ديانتهم، فأصبح بإمكانه الوثوق بهما. وبعد أن أحس يعقوب، عندما أُعطي الأهمية الملائمة، أن عليه أن يقول شيئاً لتبرير الحديث الموعود، لأنه لا يمكن أن يتوقع أحد بأن يأتي أخ، حتى لو كان يكبرهم سناً، فجأة ويقول: يجب أن نتحدّث عن الربّ. فقال يعقوب بابتسامة لا معنى لها، إن كنت، كما تقول، عبرت هضاباً ووديااناً طوال أربع سنوات كراع، فلا بد أنه لم يكن لديك الوقت الكافي للذهاب إلى الكنيس وتعلّم أشياء كثيرة حتى تكلّمنا عن الربّ ولم تكد تضع قدميك في البيت. أحسّ يسوع بنبرة السخرية في هذه الكلمات فأجابه، يعقوب، كم هي قليلة قدرتك على فهم الربّ إن كنت تظن أننا يجب أن نذهب ونبحث عنه بينما قرّر هو أن يأتي إلينا. هل أنا محقّ في أني أظن أنك تشير إلى نفسك. وفّر أسئلتك إلى يوم غد عندما سأخبرك بكل ما يجب أن أقوله. تمتم يعقوب لنفسه، لا بد أنه يدمدم تعليقاً ساخراً عن الذين يعتقدون أنّهم يعرفون كلّ شيء. التفتت مريم إلى يسوع وقد بدت على وجهها علائم الإرهاق، وقالت، يمكنك أن تحدثنا غداً، أو بعد غد، أو عندما تشاء، لكن حدّثنا الآن ماذا تريد أن تفعل بهذه النقود، لأننا نمرّ في مرحلة صعبة جداً. ألا تريدين أن تعرفي من أين أتت. قلتَ إنك لا تعرف. هذه هي الحقيقة، لكنّي أفكّر ويمكنني أن أخمن كيف وصلت إليّ. إذا لم تلوّث النقود يديك، فلن تلوّث أيدينا. هل هذا كلّ ما تريدين قوله عن هذه النقود. نعم. إذاً لننفقها على الأسرة. سُمعت همهمة بالموافقة، حتى يعقوب بدا راضياً عن هذا القرار. فقالت مريم: إن لم تكن تمانع فإننا سنضع بعض النقود جانباً من أجل مهر أختك. لم تذكري لي بأن ليسا ستتزوج. نعم، في الربيع. أخبريني كم تحتاجين. هذا يتوقف على ما تساويه هذه القطع النقدية. ابتسم المسيح وقال: لا

أظن أنني أعرف كم تساوي إلّا قيمتها فقط. ضحك، مستمتعاً بالكلمات التي قالها ونظر إليه الآخرون بنظرات تشي بالحيرة. ليسا فقط خفضت عينيها. فهي في ربيعها الخامس عشر، لا تزال بريئة، لكنها تتمتع بكلّ البديهة الغامضة لفتاة في سن المراهقة. ومن بين الجميع، كانت الأكثر انزعاجاً بسبب النقود. أعطى المسيح قطعة من النقود لأمّه، وقال لها، يمكنك أن تصرفيها غداً لنعرف كم تساوي. لا بد أن أحداً سيسألني من أين أتت لأنه سيظن أن هناك نقوداً أخرى مخبأة في مكان ما. قولي لهم بكل بساطة إن ابنك المسيح قد عاد وأنه لا توجد ثروة أعظم من عودة ابن مُبَذّر.

في تلك الليلة، حلم المسيح بأبيه. كان قد تهيأ للنوم تحت العريشة في فناء الدار لأنه لم يرغب في أن ينام مع باقي أفراد الأسرة داخل البيت، لأنه لم يعد يحتمل فكرة أن ينام في غرفة ينام فيها عشرة أشخاص، كلّ واحد منهم يحاول عبثاً أن يحصل على قدر ضئيل من الخصوصية، لأنهم لم يعودوا مثل قطيع من الحملان الصغيرة، بل كبروا بسرعة، ولم يعودوا ينعمون بالراحة في هذا المكان الضيق المكتظ. قبل أن يخلد إلى النوم، فكّر بمريم المجدلية وبما فعلاه معاً، فشعر بالإثارة. نهض مرّتين وراح يتمشى في الفناء حتى يهدأ ويبرد دمه. وعندما خلد إلى النوم أخيراً، نام بهدوء مثل طفل صغير، كما لو أن جسمه يطوف ويسير ببطء مع التيار ويراقب الأغصان والغيوم التي تمر فوقه، ورأى طائراً صامتاً يطير ذهاباً وإياباً. ما إن بدأ الحلم حتى أحسّ برعدة طفيفة كأنه لامس أحداً. خيّل إليه أنها مريم المجدلية فابتسم. مبتسماً أدار رأسه نحوها، لكن الجسد الذي انجرف، الجسد الذي كان يحمله نفس التيار تحت السماء والأغصان والطير الصامت الذي يصفق بجناحيه، كان جسد والده. تشكّلت نفس صيحة الذعر في حنجرته لكنها

تيبست هناك، فلم يكن هذا حلمه المعتاد، فلم يكن رضيعاً في الساحة العامة في بيت لحم ينتظر الموت مع أطفال آخرين، ولم يسمع صوت خطوات ولا صوت صهيل خيول ولا قعقعة أسلحة، إنما لم يكن هناك سوى صوت خرير ماء هادئ والنهر يحمل جسدي الأب والابن. تلاشى الخوف من يسوع المسيح. غمره شعور بالغبطة، وصاح في حلمه أبي، أبي. فاستيقظ، لكنه استيقظ والدموع تملأ عينيه، وأدرك أنه وحده. حاول أن يستعيد حلمه، أن يكرره ليشعر مرة أخرى بالرعدة وليجد والده بجانبه ليطوفا معاً فوق سطح هذه المياه إلى الأبد. لم يفلح في تلك الليلة، لكن الحلم الأول لم يعد إليه، ومن الآن فصاعداً سينتابه شعور بالانتشاء بدلاً من الخوف، إحساس بالرفقة بدلاً من العزلة، حياة موعودة بدلاً من موت وشيك. الآن، دع حكماء التوراة يفسرون، إن كان بوسعهم ذلك، معنى حلم المسيح وأهمية هذا النهر والأغصان المتدلّية والغيوم السائرة والطير الصامت، الذي جعل الأب والابن يتحدان مع أن ذنب أحدهما لا يمكن أن يُغتفر، وحزن الآخر لا يمكن أن ينتهي.

في اليوم التالي اقترح يسوع أن يساعد يعقوب في بعض أعمال النجارة، لكن سرعان ما تبين له أن النوايا الطيبة ليست بديلاً للمهارات التي يفتقر إليها والتي لم يكتسبها تماماً، حتى بعد موت يوسف لتلبية طلبات زبائن والدهما. أما يعقوب فقد أصبح نجاراً ماهراً، وحتى يوسف الصغير الذي لم يبلغ الرابعة عشرة من عمره، فقد أتقن الصنعة بما يكفي كي يعلّم شقيقه الأكبر دون مراعاة التراتبية الأسرية الصارمة. سخر يعقوب من يسوع لعدم مهارته وقال له: إن الذي جعلك تصبح راعياً ضللك. كلمات تشي بسخرية خفيفة ولا شك في أنها تنطوي على معنى أعمق. فابتعد يسوع فجأة عن طاولة النجارة. ثمّ وبّخت مريم ابنها

الثاني، وقالت له: لا تتحدث عن الجحيم كي لا تستدعى الشيطان وتجلب الشرّ إلى بيتنا. مندهشاً، قال يعقوب محتجاً: لكني لم أستدع أحداً يا أمّي، فكلّ ما قلته هو. نعرف ما قلته، قاطعه يسوع المسيح، لقد سمعنا أنا وأمّنا ما قلته، إن أمّنا هي التي ربطت كلمة الراعي بالجحيم، لا أنت، وأنت لا تعرف السبب، أما هي فإنها تعرف. لقد حذّرتك، قالت مريم. فقال المسيح، لقد حذّرتني بعد أن وقع الشرّ للتو، إن كان ذلك شراً فإني عندما أنظر إلى نفسي، لا أراه. فقالت له مريم، الأعمى فقط هو الذي لا يرى. أزعجت هذه الكلمات يسوع المسيح، فقال مؤنباً، اصمتي يا أمّي، فإذا رأت عينا ابنك شرّاً، فقد رأتاه بعدك، أما هاتان العينان اللتان قلت إنها لا تبصران، فقد رأتا أيضاً أشياء لم تبصريها أنت، وربما لن تريها. إن سلطة ابنها ونبرته الحادة والشيء الغريب الذي قاله، جعل مريم تتراجع، لكن ردّها حمل تحذيراً نهائياً، فقالت، سامحني يا بني، فأنا لم أقصد الإساءة إليك، أرجو أن يحمي الربّ النور في عينيك وروحك على الدوام. نظر يعقوب إلى أمّه، ثمّ إلى شقيقه ورأى أنه يوجد خلاف بينهما لكنه لم يستطع تبين ما هو. لا بد أنه شيء من الماضي، لأن شقيقه لم يعد إلى البيت منذ فترة طويلة حتى ينشأ خلاف بينهما. توجه المسيح نحو البيت، وعندما اقترب من الباب، التفت إلى أمّه وقال لها، اطلبي من إخوتي الصغار أن يخرجوا ويلعبوا في الفناء لأني أريد أن أكلّمكِ أنت ويعقوب ويوسف في أمر مهم. خرج الأطفال، وفجأة بدا البيت الذي كان مكتظاً قبل لحظة، فارغاً. جلس الأربعة على أرضية الغرفة، مريم تتوسط يعقوب ويوسف، ويسوع المسيح قبالتهم. تلت ذلك فترة صمت طويلة، كما لو أنهم كانوا يمنحون الأطفال وقتاً كافياً لكي يبتعدوا. تكلّم يسوع أخيراً، ناطقاً كلماته بوضوح شديد، وقال: لقد رأيت الربّ. كانت أول ردّ فعل

على وجوه أمّه وإخوته تشي بالوجل والرهبة، تلاها عدم تصديق. وبين الواحد والآخر، كانت هناك لمحة من سوء الظنّ في نظرات يعقوب، وتساؤل في نظرات يوسف، ومرارة مستكينة في نظرات مريم. لاذ ثلاثتهم بالصمت. كرر يسوع المسيح، لقد رأيت الربّ. وكما يقول المثل، إذا كانت لحظة صمت تشير إلى مرور ملاك، فقد كانت الملائكة لا تزال تمرّ من هنا. قال المسيح كلّ ما أراد أن يقوله. لم تعرف أمه وأخوته ماذا يقولون. وسرعان ما نهضوا على أقدامهم وذهبوا لمواصلة أعمالهم، متساءلين هل هذا كله مجرد حلم. لكن للصمت، إذا أُعطي وقتاً كافياً، قوّة تجعل الناس يتكلّمون. سأل يعقوب الذي لم يعد يحتمل أكثر من ذلك سؤالاً، أكثر الأسئلة براءة، كلاماً شديد الوضوح، هل أنت على يقين مما تقوله. لم يجبه يسوع على سؤاله، بل نظر إلى يعقوب، ربما كما نظر إليه الربّ من داخل الغيمة، وكرر للمرّة الثالثة، لقد رأيت الربّ. قالت مريم التي لم يعد لديها أسئلة تسألها، لا بدّ أنك تخيّلت ذلك. فأجابها يسوع المسيح، أمّاه، لقد كلّمني الربّ. بعد أن استعاد يعقوب هدوءه، قال لا بدّ أن هذا ضربٌ من الجنون. الربّ يكلم شقيقه، يا للسخافة. حسناً، من يعرف، فلعل الربّ هو الذي دسّ النقود في مخلاتك، قال وارتسمت على وجهه ابتسامة ساخرة. احمرّ وجه المسيح، لكنه قال ببرود، كلّ شيء يأتينا من الربّ، ولديه دائماً سبل للوصول إلينا، وعلى الرغم من أن هذه النقود قد لا تكون قد أتت منه، فمن المؤكد أنها جاءت بواسطته. وماذا قال لك الربّ، وأين رأيته، وهل كنت نائماً أم مستيقظاً. كنت في الصحراء أبحث عن خروف ضالّ عندما خاطبني. هل يسمح لك بأن تخبرنا ما قاله لك. إنه سيطلب حياتي ذات يوم. جميع الحيوات ستعود إلى الربّ. هذا ما قلته له. وماذا قال. إنه لقاء الحياة التي يجب أن أقدمها له، سأمتلك قوّة ومجداً. ستمتلك

قوّة ومجداً بعد أن تموت، سألته مريم، غير مصدقة أذنيها. نعم يا أمّي. وما هي تلك القوّة والمجد التي يمكن أن يمنحها أحد بعد أن يموت. لا أعرف. هل كنت تحلم. كنت مستيقظاً أبحث عن خروفي في الصحراء. ومتى سيطلب الربّ حياتك. لا أعرف، لكنّه قال إننا سنلتقي مرة أخرى عندما أصبح مستعداً. نظر يعقوب إلى شقيقه بفزع وقال: لقد أثرت شمس الصحراء على دماغك، ولا بد أنك أصبت بضربة شمس. لكن مريم سألته فجأة، وماذا عن الخروف، ماذا حلّ بالخروف. أمرني الربّ بأن أضحي به كي نختم به عهدنا. أثارت هذه الكلمات حفيظة يعقوب، وقال: إنك تهين الربّ، لقد أقام الربّ عهداً مع شعبه ولا يمكن أن يقيم عهداً مع شخص عادي مثلك، ابن نجار، راع، ومن يعرف ماذا أيضاً. كان يبدو أن مريم تتابع سير خيط أفكارها بعناية، كما لو أنه سينقطع، لكنها واصلت تركيز أفكارها، ووجدت السؤال الذي عليها أن تسأله، أي خروف كان ذلك. الحمل الذي كان معي عندما التقينا في أورشليم عند باب راما، وعندما حاولت أن أبعده عن الربّ، أخذه مني. والربّ، كيف كان شكل الربّ عندما رأيته. كان في هيئة غيمة. منبسطة أم مغلقة، سأله يعقوب. عامود من دخان. لقد جننت يا أخي. إن كنت قد جننت فإن الربّ هو الذي جعلني كذلك. لقد وقعت في أحابيل الشيطان، قالت مريم. كانت تصيح أكثر مما كانت تتكلم. من قابلته في الصحراء لم يكن الشيطان إنما الربّ، وإذا كان صحيحاً أنني وقعت في أحابيل الشيطان، فإن الربّ يكون قد أمر بذلك. لقد وقعت بين براثن الشيطان منذ يوم ميلادك، يجب أن تعرف ذلك. نعم، أعرف جيداً. لقد اخترت أن تعيش مع الشيطان طوال أربع سنوات بدلاً من أن تعيش مع الربّ. وبعد أربع سنوات مع الشيطان تقول إنك قابلت الربّ. إنك تقول أكثر الأكاذيب شناعة. أنا هو الابن الذي جلبتِهِ إلى العالم، فإمّا أن

تصدقينني أو تنبذينني. إني أصدقك، لكني لا أصدّق ما تقوله. استوى المسيح واقفاً، ورفع عينيه إلى السماء، وقال، عندما يتحقق وعد الربّ، ستصدقين ما سيقوله الناس عني. أخذ مخلاته وعصاه وانتعل نعليه. قسّم النقود إلى قسمين، ورتّب قطع النقود المعدنية جنباً إلى جنب على الأرض، وقال، هذا مهر ليسا عندما تتزوّج. وأضاف، أما ما تبقى من النقود فسيعود إلى حيث أتت، ولعلها تستخدم مهراً أيضاً. اتجّه نحو الباب، وعندما كان على وشك أن يغادر ويودعهم، قالت له مريم، لاحظت أنّك لم تعد تحمل طاسة في مخلاتك. كان لديّ واحدة لكنّها كُسرت. عندنا أربع طاسات، اختر واحدة منها وخذها. تردّد المسيح الذي كان يفضّل أن يغادر خاوي اليدين، لكنّه اتجه نحو الموقد حيث تكدست الطاسات الأربعة، الواحدة فوق الأخرى. هيا اختر واحدة منها. كررت مريم. نظر المسيح إليها واختار واحدة منها، وقال، سآخذ هذه الطاسة التي شهدت أياماً أفضل. لقد اخترتَ الطاسة المناسبة لك، قالت مريم. لماذا تقولين هذا. لأنها بلون التراب الأسود، وهي لا تتحلّل ولا تنكسر. وضع المسيح الطاسة في مخلاته، ونقر عصاه على الأرض وقال، هيا قولوا لي مرة أخرى إنّكم لا تصدقونني. إننا لا نصدقك، قالت أمّه، والآن أكثر من أي وقت مضى لأنك اخترت رمز الشيطان. عن أي رمز تتحدّثين. عن هذه الطاسة. في هذه اللحظة انبثقت كلمات الراعي من أعماق ذاكرة المسيح، سأعطيك طاسة أخرى لن تنكسر ما دمت حيّاً. بدا كأنه حبل يمتد على طوله ينتهي في دائرة مربوطاً بعقدة. سيغادر يسوع المسيح البيت مرّة أخرى، لكنه هذه المرة لم يقل، بشكل أو بآخر، سأعود دائماً. وما إن أدار ظهره للناصرة وبدأ يهبط منحدر الجبل الأول، حتى خطرت له فكرة أشدّ حزناً، ماذا لو لم تصدّقه مريم المجدلية أيضاً.

لم يكن لدى هذا الرجل الذي يحمل وعد الربّ أي مكان يأوي إليه إلّا بيت تلك البغي، لأنه لم يعد بإمكانه أن يعود إلى قطيعه. هيا اغرب عن وجهي، كانت كلمات الراعي الأخيرة له. ولم يعد يستطيع العودة إلى البيت. إننا لا نصدّق ما تقوله، قالت له أمّه وإخوته. بدأت خطواته تتعثّر. تملّكه الخوف من مواصلة طريقه. كأنه عاد إلى الصحراء. من أنا. لكن الجبال والوديان لم تجب، ولا السماوات التي يُفترض أنها تعرف كلّ شيء. لو عاد الآن وكرّر السؤال، فإن أمّه ستقول، مع أنك ابني فإني لا أصدّقك. لذلك، آن الأوان كي يجلس يسوع المسيح على هذه الصخرة التي خصصت له منذ بداية العالم، ويذرف الدموع لشعوره بالتعاسة والوحدة. من يعرف، فقد يظهر له الربّ مرة أخرى، حتى في هيئة سحابة من الدخان، وكلّ ما عليه أن يقوله له، هيا، لا حاجة لكلّ هذا البكاء والنواح، ما خطبك، فلكل شخص لحظاته السيئة. وثمة شيء مهم كان عليّ أن أقوله لك من قبل، وهو أن كلّ شيء نسبي في الحياة، ويمكن احتمال أي مصيبة إذا قورنت بمصيبة أسوأ، لذلك جفّف دموعك وتصرّف كما يتصرف الرجال، فقد أصبحت في سلام مع أبيك، وهذا أقصى ما كنت تريده. أما هذا الاحتكاك مع أمّك، فإني سأعالجه عندما يحين الوقت، لكن الأمر الذي لم يسرني كثيراً هو تلك العلاقة مع مريم المجدلية، البغي، لكنك لا تزال شاباً وتستطيع أن تستمتع بالحياة عندما يمكنك ذلك، والشيء الواحد لا يستبعد الآخر، فهناك وقت لتناول الطعام ووقت للصوم، وهناك وقت لارتكاب الخطيئة ووقت للتوبة، وهناك وقت للعيش ووقت للموت. مسح المسيح دموعه بظاهر يده وتمخّط. من يعرف أين. نعم، لا جدوى من قضاء اليوم كله هنا، فالصحراء هي صحراء، وهي تحيط بنا، وهي تحمينا على نحو ما، لكن عندما يتعلق الأمر بالعطاء، فإنها لا تعطينا شيئاً. وعندما

تحجب الغيوم الشمس فجأة، نجد أنفسنا نفكّر. إن السماء تعكس حزننا، إننا حمقى، لأن السماء حيادية، لا تبتهج لسعادتنا ولا تحزن لحزننا.

كان الناس يسيرون في هذا الاتجاه نحو الناصرة، ولم يشأ المسيح الذي أصبح رجلاً ونمت لحيته، أن يراه أحد يبكي كطفل. وبين الحين والآخر، كان المارة يتجاوزون بعضهم بعضاً في الطريق، بعضهم يصعد، وبعضهم يهبط، يحيّون بعضهم بعضاً بحرارة بعد أن يتأكّدوا من نواياهم الحسنة المتبادلة، لأن قطاع الطرق في هذه البقاع ينقسمون إلى نوعين، أولئك الذين يهاجمون المسافرين كالنصابين ذوي القلوب القاسية الذين سرقوا المسيح قبل حوالي خمس سنوات، عندما كان الفتى المسكين في طريقه إلى أورشليم ليجد عزاء فيها؛ والنوع الآخر هم المتمردون الذين لا يسافرون على الدروب الرئيسية، بل يظهرون أحياناً متنكّرين ليتجسّسوا على تحركات الجنود الرومان قبل أن ينصبوا لهم كميناً، أو من دون أن يتنكّروا فيوقفون المسافرين الأغنياء الذين يتعاونون مع الرومان ويسلبونهم ما يحملونه من فضة وذهب ومن أغراض ثمينة أخرى، ولا يستطيع حتى الحرّاس المدججون بالسلاح كبح هذا الغضب. كان من الطبيعي أن يتوق يسوع المسيح ذو الثمانية عشر ربيعاً للمغامرة وهو يحدّق في تلك الجبال العالية ذات الوديان والكهوف التي لا يزال أتباع يهوذا الجليلي يلجأون إليها. تساءل ماذا عليه أن يفعل إذا ظهرت له مجموعة من المتمردين على حين غرة ودعوه للانضمام إليهم، ليحلّ مجد المعركة محل الراحة والسلام لأنه مكتوب أن الربّ سيأتي بالمسيح ذات يوم ليخلّص شعبه إلى الأبد من كلّ أشكال الظلم والقهر ويمنحهم القوّة لمواجهة الأعداء في المستقبل. هبّت ريح أمل وفخر قوية على جبهة المسيح كأنها إشارة من الروح،

وللحظة ساحرة رأى ابن النجار هذا نفسه قائداً. الابن يرى نفسه قائداً، زعيماً، وقائداً أعلى، بسيفه المشهر، مجرد رؤيته تثير الرعب والوجل في قلوب جنود الرومان الذين أخذوا يلقون بأنفسهم من المنحدرات مثل خنازير تلبستها الشياطين، أين هذا من شعب ومجلس شيوخ الرومان. ثمّ تذكّر يسوع المسيح الوعد بأنه سيُمنح قوّة ومجداً، لكن بعد موته فقط، لذلك، من الأفضل له أن يتمتّع بالحياة، وإذا كان عليه أن يشارك في الحرب، فليكن ذلك، لكن بشرط أن يسمح له بمغادرة خطوط القتال بين الحين والآخر ليمضي بضعة أيام مع مريم المجدلية، إلّا إذا سمحوا أن ترافق كلّ جندي امرأة، لكن ذلك سيفضي إلى الاختلاط، علماً أن مريم قالت أنها توقفت عن ممارسة هذه المهنة. لنأمل ذلك، لأن يسوع بدأ يشعر بأن قوّته تزداد كلما فكّر بالمرأة التي شفت جرحه المؤلم وحلّت محله جرح شهوة لا يحتمل. لكن المشكلة تكمن هنا، كيف سيواجه باب بيتها الموصد المعلق عليه لافتة إلّا إذا كان على يقين تام بأنه سيجد، في الجانب الآخر، المرأة التي يخيّل إليه أنه تركها هناك، والتي تنتظره هو فقط، في الجسد والروح، لأن مريم المجدلية لم تعد تقبل أحداً آخر.

شارف النهار على نهايته، ولم يعد بالإمكان رؤية بيوت مجدل المتكوّمة فوق بعضها مثل قطيع من بعيد. من هنا، من وسط الصخور الضخمة التي تملأ جانبي الطريق، منعطفاً إثر منعطف، لا يمكن رؤية بيت مريم، الغنمة التي ضلت طريقها. تذكّر المسيح الحمل الذي كان عليه أن يذبحه ليختم بدمه العهد الذي طلبه الربّ. هفت روحه الخاوية من المعارك والانتصارات الآن إلى فكرة البحث عن خروفه، لا ليذبحه أو ليعيده إلى القطيع، بل ليصعدا معاً إلى مراعٍ جديدة يمكن إيجادها إذا أمعنا النظر في هذا العالم الرحب المكتظ بالمسافرين. وإذا دققنا النظر

أكثر في تلك الوديان المنيعة، فإننا نرى الخراف التي هي نحن. توقّف المسيح أمام بوابة البيت وتأكّد من أنه مغلق، واللافتة لا تزال في مكانها. لم تعد مريم المجدلية تستقبل أحداً. ما على يسوع إلّا أن يصيح، هذا أنا، حتى يتناهى إليه صوت غنائها البهيج، أسمعُ صوت حبيبي، انظروا إنه قادم، يطفر على الجبال ويقفو على التلال؛ انظروا إنه واقف وراء حائطنا يتطلع من النوافذ، ويتفرّس من الشبابيك. هذا صحيح، لكن يسوع فضّل أن يدق الباب، مرة، مرّتين، دون أن ينطق بكلمة واحدة، بانتظار أن يفتح له أحد. مَنْ بالباب، ماذا تريد، تناهى إليه صوت من الداخل. غيّر المسيح صوته وادّعى أنه زبون متلهّف لديه نقود يريد أن ينفقها، وقال كلمات من قبيل، افتحي أيتها الزهرة، فلن تندمي، سأدفع لك وأخدمك جيداً. وإذا كان صوته زائفاً، فقد كانت كلماته حقيقية عندما قال: أنا المسيح من الناصرة. لم تفتح مريم المجدلية، لأن الصوت لم يكن متوافقاً مع الكلمات تماماً، وقالت لنفسها ليس من المحتمل أن يعود يسوع المسيح بهذه السرعة، لأنه قال، سآتي ذات يوم لأن الناصرة غير بعيدة من مجدل. يقول الناس أشياء من هذا القبيل لإرضاء من يستمع إليهم، وقد تعني عبارة ذات يوم، ثلاثة أشهر، لكنها لا يمكن أن تعني أبداً غداً. فتحت مريم المجدلية الباب وألقت بنفسها بين ذراعي يسوع المسيح، غير مصدقة حظّها السعيد. في حماستها هذه، تخيّلت بحماقة بأنه عاد لأن الجرح في قدمه قد نكأ ثانية. أدخلته وأجلسته وأحضرت الفانوس. قدمك، أرني قدمك. لكن يسوع قال لها، لقد شفيت قدمي، ألا ترين. كان من الممكن أن تجيب، لا، لا أرى. وهذا صحيح لأن عينيها امتلأتا بالدموع. وضعت شفتيها فوق باطن قدمه المكسوة بالتراب، وحلّت بعناية أشرطة خفه حتى كاحله، وفركت بأطراف أصابعها الجلد الجديد

المشكّل لتتأكد من أن المرهم أخذ مفعوله، مع أن الحبّ قد يكون قد أدى دوراً أيضاً في علاجه بسرعة.

عندما جلسا لتناول طعام العشاء لم تسأله شيئاً، بل كلّ ما أرادت أن تعرفه هو هل أمضى ليلة مريحة أو هل صادف مكروهاً في الطريق، وبعض الكلمات القليلة. عندما أنهيا الطعام، ساد صمت لأنه لم يكن دورها في الكلام. نظر إليها يسوع المسيح كما لو أنه ينظر إليها من فوق صخرة عالية يقدّر قوّته أمام البحر، لا لأنه يخشى الأسماك التي تأكل لحم البشر أو الشعاب الخطرة تحت سطح الماء الناعم، إنما كان يضع شجاعته على المحك. فلم يعرف هذه المرأة إلّا منذ أسبوع، وهو وقت كافٍ ليعرف هل سترحب به أم لا. وبالرغم من ذلك، كان يخشى أن يبوح لها الآن بعد أن حانت اللحظة بما رفضه الذين هم من لحمه ودمه والذين يفترض أن يقفوا إلى جانبه في الروح أيضاً. تلعثم يسوع، محاولاً أن يجد الكلمات، لكن كلّ ما قاله عبارة لكسب مزيد من الوقت، هل فوجئت بعودتي بهذه السرعة. بدأت أنتظرك منذ اللحظة التي ذهبت فيها، ولم أعدّ الساعات منذ أن ذهبت حتى عدت، ولن أعدّها حتى لو غبت عشر سنوات. ابتسم يسوع المسيح. كان عليه أن يعرف أن لا جدوى من أن يكون مراوغاً مع هذه المرأة. جلسا على أرضية الغرفة قبالة أحدهما الآخر، الفانوس وما تبقى من الطعام يفصل بينهما. أمسك قطعة خبز وقسمها إلى قطعتين. أعطاها قطعة وقال لها، ليكن هذا خبز الصدق، لنتناوله كي نصدّق ولا نشكّ أبداً بكل ما يقال ويُعرف هنا. ليكن ذلك، قالت مريم المجدلية. تناول قطعته من الخبز، وانتظرها حتى تتناول قطعتها، ثم قال للمرّة الرابعة، لقد رأيت الربّ. لم تتغيّر قسمات وجهها. تململت قليلاً في جلستها، وشبكت يديها فوق حضنها وسألته، هل هذا ما كنت تنوي أن تقوله لي عندما نلتقي ثانية.

نعم، بالإضافة إلى كلّ الأشياء الأخرى التي حدثت لي منذ أن غادرت البيت قبل أربع سنوات لأني أشعر بأنها كلها مرتبطة ببعضها بعضاً، مع أنني لا أستطيع أن أفسّر كيف أو لماذا. أنا شفتاك وأذناك، أجابت مريم المجدلية، وكل ما تقوله، ستقوله لنفسك لأنني في داخلك. أصبح بإمكان يسوع المسيح أن يتكلم الآن، لأنهما تناولا خبز الصدق، ومثل هذه اللحظات في الحياة قليلة. تحوّل الليل إلى فجر، وانطفأ اللهب في الفانوس مرّتين، وحُكي التاريخ كما نعرفه هنا، حتى بعض التفاصيل التي لم نر أنها جديرة بذكرها وقد خفيت أفكار كثيرة عنا، لا لأنه حاول أن يخفيها، بل لأن هذا المبشّر لا يمكن أن يكون في كل مكان في وقت واحد. وعندما بدأ المسيح يخبرها بصوت مرهق عما جرى له بعد عودته إلى البيت، جعله الحزن يتردّد، تماماً كما جعله نذير شؤم مظلم يتوقف قبل أن يطرق الباب. خرجت مريم المجدلية عن صمتها لأول مرة، وسألته بصوت شخص يعرف الجواب للتو، ألم تصدقك أمّك. صحيح، قال المسيح. وهذا ما جعلك تعود إلى بيتك الآخر. نعم. ليتني أستطيع أن أكذب عليك وأقول لك إني لا أصدّق ما تقول. لماذا. حتى تفعل ما فعلته الآن مرة أخرى، أن تغادر كما غادرت بيتك، وإذا لم أصدّقك فإني لن أتبعك. لا يجيب هذا على سؤالي. صحيح، فهو ليس جواباً. وما هو. لو لم أصدّقك لما شاركتك المصير المخيف الذي ينتظرك. كيف عرفتي أن مصيراً مخيفاً ينتظرني. لا أعرف شيئاً عن الربّ، لكن بهجته فظيعة شأن غضبه. ما الذي وضع هذه الفكرة الغريبة في رأسك. يجب أن تكون امرأة حتى تعرف ماذا يعني أن تعيش في ظل كراهية الربّ، والآن عليك أن تكون أكثر من رجل حتى تعيش وتموت كواحد من اللذين يختارهم. هل تحاولين إخافتي. دعني أحكي لك الحلم الذي حلمت به، ففي ذات ليلة، ظهر لي صبي صغير وقال لي إن الربّ

فظيع واختفى في اللحظة التي قال فيها هذه الكلمات؛ لا أعرف من هو ذلك الطفل ولا من أين جاء أو إلى من ينتمي. إنه مجرد حلم. أنت من بين كلّ الناس تقول هكذا عن الحلم. وماذا حدث بعد ذلك. ثم بدأت أمارس الدعارة. لكنك توقفت عن ذلك. ليس في الحلم، ولا حتى بعد أن التقيت بك. أعيدي ما قاله الطفل. إن الربّ فظيع. لقد رأى يسوع المسيح الصحراء، والخراف الميتة، والدم على الرمل، وسمع عمود الدخان يتنهد بارتياح. ثم قال، نعم، قد يكون ذلك، لكن شيئاً يُسمع في الحلم وشيئاً آخر يعاش في الحياة الحقيقية. لا سمح الله أن تعيش ذلك في الواقع. على كلّ واحد منّا أن يحقق قَدَرَه. لقد مُنحت أول تحذير جدّي عن قدرك. كانت القبة السماوية المرصّعة بالنجوم تدور ببطء فوق مجدل وفوق العالم الفسيح. في مكان ما في اللا متناهي الذي يشغله، يدفع الربّ ويسحب البيادق الأخرى التي يلعبها، لكنْ من المبكر التفكير بذلك، وكلّ ما عليه أن يفعله الآن هو أن يدع الأمور تسير في مسارها الطبيعي، ما عدا التعديلات التي يجريها بين الحين والآخر بطرف خنصره كي لا تؤثر فكرة أو عمل منحرف أو ضال على تناغم الأقدار والمصائر. ومن هنا جاء عدم اهتمامه بباقي الحديث الدائر بين يسوع المسيح ومريم المجدلية. سألته، والآن ماذا ستفعل. قلتِ إنك ستتبعينني حيثما ذهبت. سأكون معك حيثما ذهبت. ما الفرق. لا شيء على الإطلاق، لكنك تستطيع أن تمكث هنا ما شئت إذا لم يكن يهمك أنك تعيش في ما يدعى بيت الرذيلة. صمت المسيح، فكّر طويلاً، ثم قال: سأبحث عن عمل في مجدل، ونستطيع أن نعيش معاً كزوج وزوجة. إنك تعد وعوداً كثيرة، وأشعر بسعادة كبيرة لمجرد الجلوس هنا عند قدميك.

لم يعثر يسوع المسيح على عمل، وكان يقابل بما يمكن أن يكون

متوقعاً، بالهزء والسخرية والإهانات التي لم تكن مفاجئة، لأنه يوجد هنا شاب يعيش مع مريم المجدلية، المرأة السيئة السمعة. تحمّل سخرياتهم لأسباب عديدة، لكنه قال لمريم أخيراً، يجب أن أبتعد عن هذا المكان. إلى أين يمكننا أن نذهب. إلى أي مكان قريب من البحيرة. غادرا قبل بزوغ الفجر، ووصل سكان مجدل في وقت متأخر جداً لإنقاذ ما يمكن إنقاذه من ألسنة النيران.

بعد عدة أشهر، وفي إحدى الليالي الشتوية الباردة والماطرة، انسلّ ملاك إلى داخل بيت مريم الناصرية من دون أن يشعر أحد. لم ير الملاك إلّا مريم الذي قال لها: اعلمي يا مريم أن الربّ مزج بذرته ببذرة يوسف في صباح اليوم الذي حملت فيه ابنك البكر، وهي بذرة الربّ وليست بذرة زوجك، ومهما كان ذلك شرعياً فقد أدى إلى إنجاب ابنك يسوع. بدهشة كبيرة، سألت مريم الملاك، إذاً فإن يسوع المسيح هو ابني وابن الربّ أيضاً. ماذا تقولين يا امرأة، أظهري احتراماً في كلامك، فيجب أن تقولي إنه ابن الربّ وابني أيضاً. ابن الربّ وابني أيضاً. لا، من الربّ ومنك. إنك تشوشني، أجب على سؤالي فقط، هل يسوع المسيح هو ابننا. تقصدين أنه ابن الربّ، لأنك حملتِ بالطفل فقط. إذاً الربّ لم يخترني. لا تكوني سخيفة، فقد كان الربّ يراقب من السماء، فرآك أنتِ ويوسف، زوجان جميلان يرفلان بصحة جيدة، ثمّ، إن كنت لا تزالين تتذكّرين كيف تجلّت مشيئة الربّ، فأمر بأنْ يولد يسوع المسيح بعد تسعة أشهر. هل هناك دليل على أن بذرة الربّ هي التي أنجبت ابني البكر. إن هذه مسألة حساسة للغاية لأن ما تطلبينه لا يقل عن اختبارات إثبات الأبوّة التي لا يهم، في هذه الاتحادات المختلطة، كم عدد التحليلات والاختبارات والمقارنات الوراثية التي

تُجرى لأنها لا تعطي نتائج حاسمة. ظننت أن الربّ اختارني عروساً له في صباح ذلك اليوم، وأنت تقول لي الآن إنها كانت مجرد صدفة وكان بالإمكان أن يختار امرأة أخرى بنفس السهولة، إذاً دعني أقول لك إنني أتمنى لو أنّك لم تهبط إلى الناصرة وتتركني في هذه الحيرة، ومن المؤكد فإن أيّ ابن للربّ، حتى لو كنت أنا أمّه، كان سيكون مميزاً عند ولادته، وعندما يكبر لا بدّ أن يحمل مظهر الربّ نفسه وأسلوبه، لكن بالرغم من أنهم يقولون إن حبّ الأمّ أعمى، فإن ابني يسوع المسيح يبدو شخصاً عادياً مثل أي شاب آخر. إن خطأك الأول يا مريم هو أنك تظنين أنّني أتيت إلى هنا لأناقش معك قصّة بنوة في ماضي الربّ، وخطأك الثاني أنك تظنين أن جمال البشر وطريقتهم في الحديث تشبه طريقة الربّ، وبما أنني قريب منه فإنني أستطيع أن أؤكد لك بأن منهج الربّ في تنفيذ الأشياء هو دائماً نقيض ما يتخيّله البشر. إني على قناعة تامة بأن الربّ لا يمكنه أن يقوم بعمله بطريقة أخرى، والكلمة التي تتردد كثيراً على شفتيه ليست نعم، بل لا، ومن المؤكد فإن الشيطان هو الروح التي تنكر الربّ. لا، يا طفلتي، إن الشيطان لا ينكر إلّا نفسه، ولكي تعرفين الفرق بينهما، فلن تعرفي قط إلى من تنتمين. إني أنتمي إلى الربّ. تقولين إنك تنتمين إلى الربّ، أليس كذلك، إني أقول لك إن خطأك الثالث والأعظم هو أنك لم تصدّقي ابنك. تقصد يسوع المسيح. نعم، يسوع المسيح، لأن رجلاً غيره لم ير الربّ أو يمكن أن يراه. حدثني أيها الملاك عن الربّ، هل صحيح أنّ ابني يسوع المسيح قد رآه. نعم، مثل طفل وجد عشّه الأول فأتى إليه راكضاً ليريك، لكنك أبديت له الارتياب وعدم الثقة، وقلت له إن هذا لا يمكن أن يكون صحيحاً؛ وإذا كان هناك أيّ عشّ، فقد كان فارغاً، وإذا لم يكن فيه بيض، فلأن أفعى تكون قد التهمتها. اغفر لي لأنني شككت في ما قاله.

لست متيقناً الآن إن كنتِ تكلّمينني الآن أو أنك تكلمين ابنك. إني أكلّمه، أكلّمك، أكلّمكما كلاكما، ماذا يمكنني أن أفعل حتى أكفّر عن ذلك. أنصتي إلى قلبك كأمّ. إذاً يجب أن أبحث عنه وأقول له إني أصدّق كل كلمه قالها، وأطلب منه أن يغفر لي وأن يعود إلى البيت حيث سيكلّمه الربّ عندما يحين الأوان. صدقاً لا أعرف إن كنت ستصلين إليه في الوقت المناسب، فلا يوجد أحد أكثر حسّاسية من شاب مراهق، وتجازفين في تعريض نفسك للإهانة وأن يغلق الباب في وجهك. إذا حدث ذلك، فإن اللوم كله يقع على الشيطان الذي سحره وجعله يضلّ الطريق؛ ولا أستطيع أن أفهم كيف منحه الربّ، باعتباره الأب، كلّ هذه الحريات وأعطى ذاك النذل هذا القدر من الحرية. أي شيطان تقصدين. أقصد *الراعي* الذي رافقه ابني طوال أربع سنوات ورعى قطيعه بدون أي سبب معقول. آه، ذلك *الراعي*. أتعرفه. لقد ذهبنا إلى المدرسة معاً. وهل يترك الربّ شيطاناً كهذا يزدهر وينجح. انسجام الكون يقتضي ذلك، لكن الربّ يمتلك دائماً الكلمة النهائية، لكننا لا نعرف متى سيقولها، لكنك سترين، سنستيقظ ذات يوم ونجد أن الشرّ قد اختفى من العالم، واسمحي لي الآن، يجب أن أذهب، لذلك إذا كان لديك أسئلة أخرى تريدين أن تسأليها، فهذه هي فرصتك. سؤال واحد فقط. هيا اسألي. لماذا يريد الربّ ابني. ابنك، إذا جاز التعبير. في نظر العالم فإن يسوع هو ابني. تسألين لماذا يريده الربّ، حسناً، هذا سؤال، لكن لسوء الحظ لا يمكنني أن أجيبك عليه، لأن هذا الأمر هو بينهما الآن، ولا أظن أن يسوع المسيح يعرف أكثر مما أخبرك به. قال لي إنه سيمتلك قوّة ومجداً بعد الموت. نعم، أعرف ذلك. لكن ماذا يجب أنْ يفعل في الحياة حتى يستحق هذه المكافأة التي وعده بها الربّ. أنت غبية، لا بد أنك لا تؤمنين بأن هذه الكلمة موجودة في نظر

الربّ أو ما تشيرين إليه بصلافة بأنه استحقاق ليس له أيّ قيمة أو معنى، ومن غير المعقول تلك الأشياء التي تحشرونها في رؤوسكم أيها البشر وأنتم لستم سوى عبيد لمشيئة الربّ المطلقة، ولن أقول أكثر من ذلك لأنني خادم الربّ، وهو يستطيع أن يفعل بي ما يشاء. لكن قل لي شيئاً واحداً، أين يمكنني أن أجد ابني بعد كل هذه الشهور. من واجبك أن تذهبي وتبحثي عنه كما ذهب هو ويبحث عن خروفه الذي ضل طريقه. حتى يقتله. لا تقلقي، فإنه لن يقتلك، لكنّ من المؤكد أنك ستقتلينه بعدم وجودك عند ساعة موته. كيف عرفت أنّني لن أموت قبله. أنا قريب من عرش القوّة حتى أعرف، أما الآن فيجب أن أودّعك، فقد سألتِ كلّ الأسئلة التي أردتِ أن تسأليها إلّا السؤال الذي كان يجب أن تسأليه، لكن ذلك لم يعد يهمني. ما هو. فسّريه لنفسك. وبهذه الكلمات، اختفى الملاك، وفتحت مريم عينيها.

كان جميع الأطفال يغطون في النوم. الفتيان مقسمين إلى مجموعتين، كل مجموعة مؤلفة من ثلاثة فتيان، الأكبر سناً، يعقوب ويوسف ويهوذا، في زاوية، وفي الزاوية الأخرى الإخوة الأصغر سناً، سمعان وجوستس وصموئيل، وكانت ليسا وليديا تنامان على جانبي مريم. بينما كانت تفكّر بالكلمات التي قالها لها الملاك، لاحظت مريم بجزع أن ليسا عارية، وأن ثوبها في حالة فوضى وقد رُفع إلى صدرها وهي تغط في النوم وعلى وجهها ابتسامة، وقطرات من العرق تلمع على جبينها وفوق شفتها العليا التي بدت حمراء من التقبيل. ومع أن مريم كانت متيقنة تماماً من أن ملاكاً واحداً فقط هو الذي تسلل إلى البيت، فإن وضع ليسا كان كافياً لإقناعها بأن أحد تلك الشياطين الذكور التي تنتهك حرمة النساء وهن نائمات قد تسلل خفية ونفّذ مآربه الخبيثة مع تلك الفتاة المسكينة النائمة بينما كانت أمّها منهمكة في الحديث مع

الملاك. قد يحدث ذلك دائماً دون أن نعرف، فيتسلل ملاك من ملائكة الشيطان ويقوم بعمله الخبيث بينما يكون الملاك الآخر منهمكاً في الحديث، وقد يتبادلان الأدوار في المرة القادمة حتى لا يضيع المعنى المقصود بثنائية اللحم والروح، سواء للحالم أم لموضوع الحلم. غطّت مريم ابنتها، وشدّت ثوبها إلى الأسفل قبل أن توقظها وسألتها همساً، بمَ كنتِ تحلمين. بوغتت الفتاة ولم يكن لديها وقت لاختلاق كذبة، فاعترفت بأنها حلمت بأن ملاكاً جاء إليها لكنه لم يقل لها شيئاً إنما راح يرمقها بنظرات رقيقة كما يتمنّى المرء أن يجده في الجنة. هل لمسك، سألتها مريم. فأجابتها ليسا، أمّاه، لا يلمس أحد أحداً بعينيه. لم تقتنع مريم تماماً، وقالت بصوت خفيض حتى أدنى من الهمس، وأنا حلمت بملاك أيضاً. وهل تكلّم ملاكك أم أنه كان صامتاً أيضاً، سألتها ليسا ببراءة تامة. قال لي إن شقيقك يسوع كان صادقاً عندما قال إنه رأى الربّ. كم أخطأنا يا أمي عندما لم نصدّق يسوع الطيب والصبور. لم يكن بإمكان أحد أن يلومه لو طلب نقود مهرك. علينا أن نعيد الأمور إلى نصابها. لكننا لا نعرف أين هو الآن، فلم يبعث لنا أي شيء عنه. لو كنا قد سألنا الملاك، لأن الملائكة تعرف كلّ شيء. طبعاً، لكن الملاك لم يعرض عليّ المساعدة، وكلّ ما قاله هو أننا يجب أن نبحث عن شقيقك. أمّاه، لو كان أخي يسوع مع الربّ حقاً، لأصبحت حياتنا مختلفة عما هي الآن. مختلفة، ربما، لكن إلى الأسوأ. لماذا. إذا لم نصدّق نحن يسوع المسيح أو كلمته، فكيف يمكننا أن نتوقّع أن يصدّقه الآخرون فلا يمكننا أن نجوب شوارع وساحات الناصرة ونقول لقد رأى يسوع المسيح الربّ، لقد رأى يسوع المسيح الربّ، إلّا إذا كنا نريد أن يلحقوا بنا ويرجمونا بالحجارة. لكن إذا كان الربّ هو الذي اختار يسوع ولا بد أنه سيحمينا، نحن أسرته. لا تكوني شديدة الثقة، فلم نكن

موجودين عندما اختار الربّ يسوع المسيح، كما أن الربّ لا يلقي بالاً إن كان هناك آباء أو أبناء؛ تذكّري إبراهيم، تذكّري إسحاق. هذا فظيع يا أمّي. من الحكمة يا ابنتي أن نكتم الأمر ونبقيه سراً بيننا، ولا نقول إلّا أقل ما يمكن قوله. إذاً ماذا سنفعل. سأرسل غداً يعقوب ويوسف ليبحثا عنه. لكن أين، فالجليل كبيرة جداً وكذلك السامرة، ولو أنه ذهب إلى هناك، فإن يهوذا وإدوم تقعان في نهاية العالم. ربما ذهب إلى بحيرة طبريا؛ أتذكرين ما قاله لنا عندما جاء، بأنّه كان يساعد بعض صيّادي السمك. ألا يمكن أنه عاد لرعي الأغنام. لقد ولّت تلك الأيام. كيف عرفتِ. حاولي أن تنامي قليلاً، فقد تأخر الوقت. من يعرف، فقد نحلم بملائكتنا ثانية. ربما. ربما جاء الملاك الذي زار ليسا في حلمها مرة أخرى، والذي لم يُعرف عنه شيء، أما الملاك الذي زار مريم ونقل إليها الخبر فلا يمكنه أن يعود لأن عينيها ظلتا مفتوحتين وهي مستلقية في الظلام، مع أن ما عرفته كان كثيراً وقد ملأها ذلك بالشكوك واعتراها الخوف.

عند الفجر، لفّت مريم الحصر وجمعت جميع أطفالها وقالت لهم إنهم أخطأوا، وهي أولهم لأنها أمّه، في معاملتهم الأخيرة لأخيهم يسوع، وقالت أظن أنه كان علينا أن نكون أكثر لطفاً وتفهماً، واختتمت كلامها بالقول إننا يجب أن نذهب ونبحث عنه ونطلب منه أن يعود إلى البيت لأننا نصدّقه، وإن شاء الله سنؤمن بما قاله لنا في أحد الأيام. هذا ما قالته مريم لأبنائها غير مدركة أنّها كانت تردد نفس الكلمات التي قالها يوسف الذي كان موجوداً أيضاً في تلك اللحظة المثيرة عندما أنكرته أسرته. من يعرف، فربما بقي المسيح هنا لو انبعثت تلك الهمهمة الهادئة بالرغم من أننا لم نشر إليها في حينها، لأنها لم تكن سوى همهمة منبعثة من شفتي كلّ شخص. لم تذكر مريم شيئاً عن الملاك والكلمات

التي قالها لها، بل ذكّرت أطفالها بأنهم يجب أن يبدوا الاحترام اللائق لشقيقهم الأكبر. لم يجرؤ يعقوب على أن يسأل أمّه ما الذي جعلها تغيّر رأيها، لكنه ظل يشكّ في سلامة عقل أخيه، إلّا إذا كان المسيح قد وقع بين يدي مشعوذ خطير. مع أنه كان يعرف الجواب، فقد سألها ومن أين سنبدأ البحث عن شقيقنا يسوع. يجب أن تذهب أنت لأنك الابن الثاني وسيرافقك يوسف، لأنكما معاً ستكونان في أمان أكثر. من أين يجب أن نبدأ بحثنا. بالقرب من بحيرة طبريا لأني واثقة بأنكما ستجدانه هناك. متى نذهب. لقد غادر يسوع منذ عدة أشهر، لذلك يجب ألّا نضيع مزيداً من الوقت. لكن موسم الأمطار قد بدأ يا أمّي، وهذا الوقت غير مناسب للسفر. يا بني، إن الظروف هي التي تخلق الحاجة، وعندما تكون الحاجة عظيمة فإنها تخلق الظروف. نظر إليها ابناها بدهشة لأنهما لم يعتادا سماع مثل هذه الحكم العميقة من شفتي أمّهما، وكانا لا يزالان صغيرين ليعرفا أن الالتقاء بالملائكة قد يفضي إلى ذلك، فما بالك بأن يفضي إلى نتائج مهمة. خذ ليسا مثلاً التي راحت تومئ الآن برأسها ببطء وبذهول، بينما لم يساور الآخرون أي شك.

عندما انتهى الاجتماع العائلي، ألقى يعقوب ويوسف نظرة فاحصة على السماء للتأكد من عدم وجود دلائل على أن الأمطار ستهطل مع أن الطقس ازداد سوءاً مؤخراً. لا بدّ أن السماء قد لاحظت ذلك لأن لونها فوق بحيرة طبريا تحوّل إلى لون أزرق فاتح مما يدل على أن الأمطار لن تهطل بعد الظهر. بعد أن ودّع أحدهم الآخر داخل البيت لأن مريم حرصت على ألّا يعرف أحد من جيرانها حقيقة ما يجري هنا، انطلق الأخوان أخيراً. لم يسيرا في الطريق المفضي إلى مجدل لأنهما لم يجدا سبباً يجعلهما يفكران بأن يسوع قد ذهب في ذلك الاتجاه، إنما سلكا الطريق الآخر الذي سيوصلهما بسرعة إلى المدينة الجديدة، طبريا. كانا

حافيين، قدماهما تغوصان في الطين الدبق الذي يغمر الطريق، ووضعا نعليهما في مخلاتيهما إلى أن يتحسّن الطقس. سببان اثنان هما اللذان جعلا يعقوب يختار سلوك الطريق المفضي إلى طبريا. أولاً، بدافع الفضول لأنه جاء من الريف ليتمكن من رؤية القصور والمعابد التي طالما سمع عنها، وثانياً، لأن أحداً قال له إن المدينة تقع في وسط الطريق تقريباً على هذا الجانب من النهر. ولما كانا مضطرين لكسب رزقهما أثناء بحثهما عن يسوع، أمل يعقوب بأن يعثر على عمل في موقع بناء، على الرغم مما قاله اليهود الورعون في الناصرة بأن المنطقة غير صحّية لأن الهواء ملوث فيها لوجود مياه كبريتية بالقرب منها. لم يصل الأخان إلى طبريا في ذلك اليوم لأن الإشارات الواعدة في السماء لم تساعدهما لأن الأمطار هطلت بعد ساعة من مغادرتهما البيت. كانا محظوظين بالعثور على مغارة كبيرة يلجآن إليها قبل أن تجرفهما مياه السيول. ناما ملء جفنيهما لكنهما لم يعودا يثقان بالطقس.

في طبريا، كان العمل الوحيد الذي وجداه في موقع بناء لا يتطلب أي مهارة، وهو نقل الحجارة، وبعد عدة أيام كسبا ما يكفي من النقود لتلبية احتياجاتهما البسيطة، لأن الملك هيرودس أنتيباس لم يكن سخياً مع عمّاله. وسألا العمال هل رأى أحدهم يسوع المسيح الناصري يمرّ في هذا الطريق، إنه شقيقنا ويكاد يشبهنا، لكننا لا نعرف إن كان مسافراً وحده. لم يره أحد من العمال، ثم راح يعقوب ويوسف يسألان الصيادين الذي يقيمون في هذه المنطقة. لو كان شقيقهما قد قرر أن يعود ويعمل مع الصيّادين، لما أضاع وقته في العمل في موقع بناء بإمرة رئيس عمال فظ. لكن لم يره أحد أيضاً. الآن بعد أن لم يعد يمتلك الأخوان نقوداً كافية، كان السؤال التالي الذي طرأ لهما هو هل يمضيان في البحث عنه على ضفّة النهر، قرية قرية، مجموعة مجموعة، قارباً

قارباً، شمالاً أم جنوباً. فقرّر يعقوب أخيراً أن يتوجها جنوباً لأن الطريق مستوٍ أكثر، بينما الطريق إلى الشمال أكثر وعورة. اعتدل الطقس، وأصبح البرد محتملاً، وتوقف المطر. وسيعرف أي شخص يتمتع بتجربة في دورة الطبيعة أكثر من هذين الشابين من رائحة الهواء فقط ومن ملمس التراب، دلائل حلول الربيع. بدأت مهمّة البحث عن شقيقهما تتحوّل إلى نزهة ممتعة في أنحاء الريف، عطلة جميلة بالقرب من البحيرة. كاد يعقوب ويوسف أن ينسيا الهدف الذي قدما من أجله عندما التقيا بعدة صيّادي سمك ونقلوا لهما أخباراً عن يسوع المسيح بتعابير غريبة. فقد قال لهما أحد الصيّادين، نعم، نعرفه، وعندما تجدانه، قولا له إننا ننتظر عودته بلهفة شديدة كما لو أننا ننتظر خبز يومنا. ذُهل الشقيقان، ولم يكادا يصدّقان أن هؤلاء الرجال يتحدّثون عن شقيقهما يسوع المسيح، وربما كانوا يتحدثون عن يسوع آخر. من وصفكما، فهو يسوع المسيح ذاته لكننا لا نعرف إن كان قد جاء من الناصرة لأنه لم يذكر لنا ذلك. ثم سألهم يعقوب، ولماذا تنتظرون عودته بلهفة شديدة كما لو أنكم تنتظرون خبز يومكم. لأنه عندما كان معنا في القارب، سبح السمك مباشرة إلى شباكنا. لكن شقيقنا لا يعرف شيئاً عن صيد السمك، لذلك فقد لا يكون يسوع المسيح نفسه. لم نقل إنه يعرف شيئاً عن صيد السمك، لكنّه كان يقول فقط، ألقوا شباككم في هذا الجانب، وما إن تُلقى الشباك، حتى تُرفع وهي ممتلئة بالسمك. ولماذا لم يبق معكم. لأنه غادرنا بعد بضعة أيام وقال إنه سيساعد صيّادين آخرين، وهذا صحيح، لأنه انضم إلينا ثلاث مرات، وكان يعدنا دائماً بأنه سيعود. وأين هو الآن. لا نعرف، آخر مرّة غادرنا فيها اتجّه جنوباً، لكن من الممكن أن يكون قد توجّه شمالاً دون أن نلاحظ، فهو يأتي ويذهب كما يشاء. فقال يعقوب ليوسف هيا بنا نذهب جنوباً، فقد

أصبحنا نعرف الآن على الأقل أن شقيقنا موجود في مكان ما على هذا الجانب من البحيرة. بدا لهما أن ذلك معقولاً، مع أنهما لن يريا المسيح حتى لو كان موجوداً بالقرب من البحيرة لكنه في إحدى رحلات صيد السمك الإعجازية تلك. إننا ننحو إلى تجنب إيراد تفاصيل كهذه، لكن القدر ليس كما نتخيّله. إنه شيء محدد وفقاً لمبدأ أو لآخر. لاحظ كيف أن بعض اللقاءات المحددة، من قبيل اللقاء الذي وصفناه للتو، لا يمكن أن تحدث إلّا إذا صادف أن الأشخاص المعنيين يوجدون في نفس المكان وفي نفس الزمان، وهو ليس بالأمر السهل دائماً. إذا توقّفنا لوهلة ونظرنا إلى سحابة تمر في السماء، وأنصتنا إلى زقزقة عصفور، وأحصينا عدد مداخل ومخارج كثيب نمل، أو إذا كنا مشغولي البال إلى حد أننا لم ننظر ولم ننصت ولم نحصِ بل واصلنا طريقنا، فقد نضيّع الفرصة المثالية. صدّقني يا أخي يوسف، إن القدر هو أصعب شيء في هذا العالم، كما ستعرف عندما تصبح في عمري. ظلّ الشقيقان في حالة حذر ويقظة. كانا يتوقّفان غالباً لرؤية إن كان هناك قارب تأخر في العودة إلى الشاطئ. لقد عادا عدة مرات بأمل أن يجدا المسيح في مكان لا يتوقعانه، حتى وصلا أخيراً إلى نهاية البحيرة. عندما انتقلا إلى الطرف الآخر من نهر الأردن، سألا أول مجموعة من الصيّادين صادفاها عمّا إذا كانوا يعرفون شيئاً عن يسوع المسيح. نعم، طبعاً. فقد سمع الرجال عن أعماله المدهشة لكن أحداً لم يره. عاد يعقوب ويوسف أدراجهما، وتوجّها شمالاً مرة أخرى. كانا أشدّ يقظة هذه المرة مثل الصيّادين الذين يسحبون شباكهم راجين أن يصطادوا ملك السمك. وعندما كانا يمضيان الليل على قارعة الطريق، كانا يتناوبان على المراقبة، خشية أن يستغلّ المسيح ضوء القمر ويتسلل من مكان إلى آخر. لم يتوقفا عن السؤال طوال الطريق حتى وصلا إلى طبريا حيث لم يضطرا إلى البحث عن

عمل، لأنه كان لا يزال معهما بعض النقود بفضل كرم وسخاء الصيّادين الذين قدموا لهما بعض الأسماك، وهذا جعل يوسف يسأل يعقوب، هل خطر ببالك أنّ السمكة التي نأكلها قد يكون شقيقنا يسوع هو الذي اصطادها. فأجابه يعقوب، إن ذلك لن يجعل طعمها أفضل، كلمات قاسية تخرج من فم أخ، لكن يمكن تفهمها إذا أخذنا بالاعتبار إحباط يعقوب، كان الله في عونه، وهو يمضي مرهقاً يبحث عن إبرة في كومة قش.

بعد مضي ساعة، بحسب توقيتنا، على مغادرتهما طبريا، عثرا على يسوع المسيح. كان يوسف ذو العينين الحادتين الذي يستطيع رؤية الأشياء من مسافة بعيدة أول من رآه. ها هو، إنه هناك، صاح يوسف. كان هناك شخصان يسيران في هذا الاتجاه، أحدهما امرأة. لا، قال يعقوب، لا يمكن أن يكون هو. قلما يعارض فتى صغير شقيقه الأكبر سنّاً، لكن يوسف الذي غمرته السعادة نسي العادات والتقاليد السائدة. إني أقول لك إنه هو. لكنّي أرى امرأة معه. نعم، امرأة مع رجل، والرجل هو يسوع المسيح. على امتداد ضفة النهر، وعلى امتداد الأرض المستوية بين هضبتين منحدرتين إلى حافة الماء، كان بوسعهما رؤية يسوع ومريم المجدلية يقتربان. وقف يعقوب وانتظر وطلب من يوسف أن يبقى معه. أطاع الصبي على مضض مع أنه كان يرغب في أن يجري نحو شقيقه الغائب منذ زمن ويعانقه ويلقي بذراعيه حول رقبته. لكن يعقوب انزعج من رؤية امرأة تسير إلى جانب يسوع المسيح. تساءل من هي هذه المرأة، رافضاً أن يصدّق بأن يكون شقيقه على علاقة حميمة مع امرأة. إن مجرد التفكير بذلك أحدث شرخاً هائلاً بين يعقوب وشقيقه الأكبر، كما لو أنّ يسوع الذي قال متفاخراً بأنه رأى الربّ، يعيش الآن في عالم مختلف تماماً، لمجرد أن امرأة معه. فكرة تفضي إلى أخرى،

مع أننا لا نلاحظ غالباً العلاقة بينهما التي هي أشبه بعبور نهر من فوق جسر مغطّى، نسير من دون أن ننظر إلى أين نمضي، نمرّ فوق نهر لم نكن نعرف أنه كان موجوداً. قال يعقوب لنفسه أيضاً إنه ليس من اللائق أن يظلّ واقفاً هناك، كما لو أنه هو الابن الأكبر في الأسرة وأنّ على يسوع أن يهرع إليه. لم يكد يعقوب يتحرك حتى ركض يوسف نحو المسيح مشرعاً ذراعيه وراح يطلق صيحات مليئة بالبهجة. أجفل سرب من الطيور المختبئة بين النباتات الطويلة في المستنقع بجانب النهر. أسرع يعقوب لكي لا يسمح ليوسف أن يقول شيئاً ليسوع لأن هذه مهمته. وعندما أصبحا وجهاً لوجه، قال له، شكراً للربّ لأننا وجدناك يا أخي. فأجاب المسيح، إني سعيد لرؤيتكما بصحة جيدة. في تلك الأثناء، كانت مريم المجدلية تسير بخطى وئيدة في الخلف. سألهما المسيح، ما الذي جلبكما إلى هذه البقاع. فقال له يعقوب، لننتحي جانباً كي لا يسمعنا أحد. فأجابه يسوع يمكننا أن نتحدث هنا، وإن كنت تشير إلى المرأة التي ترافقني فدعني أؤكد لك أن أي شيء تقوله وتسمعه سيتم في وجودها. كان الصمت العميق الذي أعقب ذلك أشبه بصمت البحر والجبال معاً، لا صمت أربعة كائنات بشرية يواجه أحدهم الآخر، ويستجمعون شجاعتهم. بدا يسوع أكبر سناً من عمره الحقيقي. فقد ازدادت بشرته سمرة واختفت نظرته الرقيقة، وكانت الملامح الكامنة وراء لحيته السوداء الكثة رزينة، هادئة، بالرغم من التوتّر الذي شاب هذا اللقاء المفاجئ. من هي هذه المرأة، سأله يعقوب. فأجاب يسوع، اسمها مريم، وهي معي. هل هي زوجتك. نعم ولا. لم أفهم. هذا لا يفاجئني. يجب أن أحدّثك. هيا. لديّ رسالة أحملها لك من أمّنا. إني أنصت. أفضّل أن أقولها لك على انفراد. لقد سمعت ما قلته لك. تقدّمت مريم المجدلية وقالت، يمكنني أن أبتعد قليلاً حتى تنهيا

حديثكما. لا، قال المسيح، إنك تشاركينني في كلّ آرائي وأفكاري، لذلك يجب أن تعرفي ما هو رأي أمّي بي كي لا أضطر لأن أعيده على مسامعك لاحقاً. تضرّج وجه يعقوب والتفت ورمق مريم المجدلية بنظرة غاضبة تشي بمشاعر متباينة بين الكراهية والرغبة. مدّ يوسف يديه ليبعدهما عن بعضهما. كان ذلك كلّ ما أمكنه أن يفعل. هدأ يعقوب أخيراً، ثمّ تذكّر الرسالة التي سينقلها، وقال لقد أرسلتنا أمّنا لنبحث عنك ونعيدك إلى البيت لأننا نصدّق ما قلته، وإن شاء الربّ فإننا سنؤمن بما ستخبرنا به ذات يوم. هل هذا كلّ شيء. هذه كلمات أمّنا. إذاً أنتم لا تصدّقون ما قلته، وتنتظرون الربّ ليساعدكم حتى تغيّروا رأيكم. إن تصديقنا أم عدم تصديقنا لك يتوقف على الربّ. هذا غير صحيح، فقد منحنا الربّ ساقين لنسير عليهما، ولم أسمع قط أن رجلاً ينتظر الربّ حتى يقول له هيا ابدأ بالمشي، والشيء ذاته ينطبق على عقولنا، فقد منحنا الربّ عقلاً لنستخدمه بحسب مشيئتنا ورغبتنا. لن أجادلك في ذلك. هذا أفضل لأنك لن تفوز. ماذا سأقول لأمّنا. قل لها إن الرسالة وصلت متأخرة جداً، وإن يوسف كان قد قال نفس هذه الكلمات آنذاك، لكنّها لم تعره أي اهتمام، ولم تصدّقه إلّا بعد أن ظهر لها ملاك الربّ وأقنعها بأن كلّ ما قلته صحيح، لذلك فإني لا أنوي أن أعود إلى البيت. إنك ترتكب خطيئة الكبرياء. الشجرة تبكي عندما تُقطع، والكلب يعوي عندما يُضرب، لكن الرجل ينضج عندما يُهان. إنها أمّك ونحن إخوتك. من هي أمّي وإخوتي، إن أمّي وإخوتي هم الذين يصدقونني عندما أقول شيئاً، ويعرف الصيّادون عندما أعمل معهم أنهم سيصطادون كميات أكبر من السمك مما يصطادونه هم، وعلى أمّي وإخوتي ألّا ينتظروا ساعة موتي حتى يشفقوا على حياتي، ألا توجد لديك رسالة أخرى من أمّنا. هذا كلّ شيء. لكنّك ستسمع آخرين يتحدثون عنّي، قال

يسوع ثمّ التفت إلى مريم المجدلية وقال لها، لنذهب يا مريم، فالمراكب جاهزة للإبحار وبدأ السمك يتجمّع وآن الأوان لجني هذا الصيد. عندما انصرفا، صاح يعقوب، يسوع هل يمكنني أن أخبر أمّنا بهذه المرأة. قل لها إنها معي واسمها مريم. تردد صدى الاسم بين التلال وعلى سطح البحيرة. جثا يوسف على الأرض وأجهش في البكاء.

عندما كان يسوع المسيح يرافق الصيّادين، كانت مريم المجدلية تجلس على صخرة عند حافة الماء أو على تلة قريبة تنتظره كي ترى بسهولة المسار الذي يبحرون فيه. لم تعد عملية الصيد بطيئة لأن السمك أصبح وفيراً في هذه البحيرة، وكان أشبه بأن يضع المرء يده في دلو مليء بالسمك. لكن لم يكن ذلك للجميع، لأنه إذا انتقل يسوع المسيح إلى منطقة أخرى، فإن الدلو يعود فارغاً تقريباً، وتكلّ الأيدي والأذرع من إلقاء شبكة إثر شبكة حتى تعلق فيها سمكة أو سمكتين. وكان جميع الصيادين يذهبون إلى الجانب الغربي من بحيرة طبريا ويتوسلون إلى يسوع لمساعدتهم. وكانوا يستقبلونه في بعض الأماكن بالهتافات وبأكاليل الزهور كما لو كان أحد الشعانين. لكن كما هو حال خبز البشرية، مزيج من الحسد والحقد مع شيء من الصدقات هنا وهناك، فإن خميرة الخوف تثير الطالح وتكبح الصالح، فتتشاجر مجموعة من الصيّادين مع مجموعة أخرى، وقرية مع قرية أخرى، لأنهم يريدون جميعاً أن يرافقهم يسوع المسيح وأن يترك الصيادين الآخرين. وعندما يتشاجر الصيادون، كان يسوع المسيح ينسحب إلى الصحراء ولا يعود منها إلّا بعد أن يعلن الذين أثاروا الشجار التوبة وطلب المغفرة للتكفير عن سلوكهم الفظ والإعلان عن حبّهم وولائهم. لكن الأمر الذي لن نعرفه

أبداً هو لماذا لم يرسل الصيّادون في الجانب الشرقي وكلاء عنهم لمناقشة صياغة معاهدة عادلة تفيد الأطراف جميعاً، بالإضافة إلى الأعداد الغفيرة من الأغيار من أجناس وطوائف مختلفة الذين يعيشون في هذه البقاع. وكان من الممكن أن يرسل الصيّادون في الضفة الأخرى أسطولاً من الشبكات والحراب تحت جنح الظلام لاختطاف المسيح لكي يعيش الصيادون في الضفة الغربية على الفتات بعد أن اعتادوا على الوفرة والبحبوحة.

لكن دعونا نعود الآن إلى اليوم الذي وجد فيه يعقوب ويوسف يسوع وطلبا منه أن يتخلّى عن هذه الحياة والعودة إلى البيت مع أن عمله مع صيادي السمك كان مربحاً. شق الأخوان، يعقوب غاضباً، ويوسف باكياً، طريقهما بسرعة عائدين إلى الناصرة حيث كانت أمّهما لا تزال تتساءل هل سيتمكن الابنان من جلب الابن الثالث، لكنها كانت تشكّ في ذلك. أثناء عودتهما من تلك البقعة التي التقيا فيها يسوع، اضطرا لعبور قرية مجدل. لم يكن يعقوب يعرف القرية كثيراً ولم يكن يوسف يعرفها أبداً. ولا يبدو أنها أعجبتهما كي يمكثا فيها. بعد أن استراحا قليلاً، استأنف الأخوان رحلتهما. عندما اجتازا آخر مجموعة من البيوت قبل أن تبدأ الفلاة بالظهور، شاهدا إلى يسارهما الجدران العارية لبيت دمّرته النيران. وكانت البوابة المفضية إلى الفناء قد فُتحت عنوة لكنها لم تكن محطمة تماماً، وكان يبدو أن النار قد اشتعلت داخل البيت. ويأمل أي عابر سبيل أن يكون قد تبقى شيء من الكنز في الرماد، وإذا لم يجازف بسقوط عامود فوق رأسه، فلن يقاوم الرغبة في استكشاف المزيد، ويدخل إليه بحذر شديد، يحرك الحطام بإحدى قدميه. راح يبحث عن شيء يلمع، قطع نقدية ذهبية، أو قطعة ماس حقيقي، أو قلادة من الزمرّد. كان الفضول هو الذي دفع يعقوب

ويوسف للدخول إلى البيت، ولم يكونا من السذاجة لأن يتخيّلا بأنّ الجيران الجشعين لم ينهبوا هذا البيت مع أنه صغير جداً، ولا بد أن أصحابه قد أخذوا معهم كلّ ممتلكاتهم القيّمة. كان سقف الفرن منهاراً، وبلاطات الأرضية محطمة. كانت هناك بلاطات مخلخلة تحت قدميهما. لا يوجد شيء هنا، قال يعقوب، لنغادر هذا المكان. لكن يوسف سأل فجأة، ما هذا. إنه هيكل سرير، لكن قوائمة أُحرقت وحُطِّم الإطار بكامله. عرش وهمي تدّلت منه قطع قماش ممزقة متفحمه. إنه سرير، قال يعقوب، لا ينام على أشياء كهذه إلّا أشخاص من قبيل الأمراء العظماء والتجار الأغنياء. لا أظن أنه بيت شخص غني، عارضه يوسف. قد تكون المظاهر خادعة، ذكّره يعقوب بهذه الحكمة. عندما غادرا، لاحظ يوسف عصا معلّقة على الباب من الخارج، من ذلك النوع الذي يستخدم لقطاف التين. لا شكّ أنها كانت أطول بكثير. سأل، ماذا تفعل هذه العصا هنا. ومن دون أن ينتظر رداً، سواء منه أو من شقيقه، أمسك العصا العديمة الفائدة وأخذها معه، كتذكار لحريق، لبيت محطّم، لأناس مجهولين. لم يرهم أحد عندما دخلا، ولم يرهم أحد عندما غادرا، فلم يكونا سوى أخوين في طريقهما إلى بيتهما يرتديان ثوبين ملوّثين بالتراب ويحملان أخباراً سيئة. أخ مستاء من رؤية مريم المجدلية، والأخ الآخر يفكّر بالمتعة التي سيحصل عليها من اللعب بهذه العصا المكسورة.

كانت مريم المجدلية، الجاثية فوق صخرة تنتظر عودة يسوع من الصيد، تفكّر بمريم التي من الناصرة. حتى اليوم، لم تفكّر بها إلّا بأنها أمّ يسوع المسيح، لكنها عرفت الآن، بعد أن سألته، أن أمّه تدعى مريم أيضاً، وهي مصادفة لا تنطوي على نتيجة مهمة عندما يتذكر المرء أن هناك أعداداً كبيرة من النساء على هذه الأرض اسمهن مريم وسيزددن

عدداً إذا استمرّ الأمر على هذا المنوال، لكنّنا ننحو إلى الاعتقاد بأن ثمة إحساساً بالتضامن بين جميع النساء اللاتي يشتركن بالاسم ذاته. فعلى سبيل المثال لا يعود يوسف يعتبر نفسه ابن يوسف، إنما يعتبر نفسه أنه شقيقه، وقد تكون هذه مشكلة الربّ، لأن أحداً آخر سميّه. قد تبدو هذه الأفكار بعيدة الاحتمال بالنسبة لامرأة مثل مريم المجدلية، لكننا على يقين بأنّها قادرة على التفكير بأفكار كهذه، عندما تجرفها أفكارها بعيداً عن الرجل الذي تحبّه لتفكّر بأمّه. فمريم المجدلية ليس لها ابن حتى تحبّه، لكنها عرفت أخيراً ماذا يعني أن تحبّ رجلاً، بعد أن مارست آلاف الخدع من أجل الحبّ الزائف. فهي تحبّ يسوع كما تحبّ امرأة رجلاً، لكنها تريد أيضاً أن تحبّه كما تحبّ الأمّ ابنها، ربما لأنها لا تصغر بكثير أمّه الحقيقية التي بعثت برسالة تطلب فيها من ابنها أن يعود إلى البيت، لكنه رفض. تساءلت مريم المجدلية كيف سيكون شعور مريم الناصرية عندما تتلقى ردّه، لكن ذلك كما لو أنها تخيّلت كيف ستكون معاناتها لو أنها فقدته، لأنها ستفقد رجلها لا ابنها. يا ربّ، عاقبني بكلا الحزنين إذا كان ذلك ضرورياً، همهمت مريم المجدلية وهي جاثية تنتظر عودة يسوع المسيح. عندما اقترب المركب وتوقف عند الشاطئ، وبعد أن أُفرغت السلال المليئة بالسمك البراق، وعندما كان المسيح الذي كانت قدماه لا تزالان في الماء يساعد الصيّادين ويضحك مثل طفل يلهو، تصوّرت مريم المجدلية بأنها تأخذ دور مريم الناصرية، فنهضت، وهبطت إلى حافة الماء وخاضت فيه لترحب بيسوع المسيح. قبّلته على كتفه وهمست، يا بني. لم يسمع أحد يسوع وهو يقول أمّاه، لأننا كما نعرف فإن الكلمات النابعة من القلب لا تُنطق أبداً، بل تعلق في الحنجرة ولا يمكن قراءتها إلّا من خلال العينين. كوفئت مريم ويسوع المسيح بسلة مليئة بالسمك. وكعادتهما،

عادا إلى المكان الذي يمضيان فيه الليل، وبما أنهما لا يمتلكان بيتاً، فقد كانا يتنقلان من مركب إلى مركب، ومن حصيرة إلى حصيرة. في البداية كان المسيح يقول لمريم إن هذه الحياة لا تناسبك، دعينا نشتري بيتاً آوي إليه معك كلما أمكنني ذلك، لكن مريم كانت تصرّ قائلة: لا أريد أن أجلس في البيت وأنتظرك بل أفضّل أن أكون معك دائماً. في أحد الأيام سألها هل لديها أقرباء يمكن أن تقيم عندهم، فقالت إن شقيقها لعازر وشقيقتها مارثا يقيمان في قرية بيت عنيا في منطقة يهوذا، وقالت إنها غادرت البيت عندما بدأت تعمل مومساً، ولكي تنقذهم من الإحراج الذي سيلقونه انتقلت إلى مكان بعيد جداً حتى استقر بها المقام في مجدل. قال لها المسيح، إذاً يجب أن يكون اسمك مريم من بيت عنيا إذا كانت تلك هي مسقط رأسك. نعم، لقد ولدت في بيت عنيا، لكنك وجدتني في مجدل، لذلك، فإني أعتبر نفسي من مجدل. لا يطلق الناس عليّ اسم يسوع المسيح الذي من بيت لحم مع أنني ولدت فيها، ولا أعتبر نفسي من الناصرة، لأن أهلها لا يريدونني وبالتأكيد فأنا لا أريدهم أيضاً، ربما ينبغي أن أقول مثلك، أنا من مجدل للسبب نفسه. لا تنس بأننا حطّمنا بيتنا. لكننا لم نحطّم ذاكرتنا، أجابها يسوع. ولم يذكر شيئاً عن عودة مريم إلى بيت عنيا، هذا الشاطئ الممتد في عالمهما، وأينما ذهب يسوع فإنها ستذهب معه.

كم صحيح ذلك القول الذي يذكّرنا بوجود الكثير من الحزن في هذا العالم، وأن المصائب والمحن تنمو وتكبر تحت أقدامنا كالأعشاب الضارة. لا يمكن أن يكون من اخترع هذا القول إلّا البشر الذين اعتادوا على تقلبات الحياة وصعوباتها ونكساتها، والكفاح المتواصل من أجل البقاء. والأشخاص الوحيدون الذين قد يسألون هذا السؤال هم الذين يمخرون عباب البحار لأنهم يعرفون أن ويلات أعظم وأشدّ تقبع تحت

أقدامهم، في الواقع، هوّة سحيقة لا يمكن سبر غورها. المحن والنوائب التي يتعرض لها البحّارة، فالرياح والعواصف التي ترسلها السماء تؤدي إلى ارتفاع الأمواج، وتهبّ العواصف لتحطّم المراكب، وتمزّق الأشرعة، وتُغرق السفن الصغيرة والهشّة، فيهلك الصيّادون والبحّارة بين السماء والأرض، ولا تستطيع أن تصل إليهم أيدي السماء ولا يستطيعون أن يلمسوا أقدام الأرض. أما بحيرة طبريا، أو بحر الجليل، فعادة ما تكون هادئة وسلسة، مثل أيّ بحيرة، حتى يطلق الغضب المائي عنانه، فيحاول الرجال إنقاذ أنفسهم مع أن بعضهم يغرقون على نحو محزن. لكن لنعد إلى المسيح الناصري والمخاوف التي بدأت تنتابه مؤخراً والتي تثبت أن قلب الإنسان لا يقنع أبداً، وأن قيام المرء بواجباته لا يجلب راحة البال مع أن الذين يشعرون بالرضا والقناعة بسهولة يجعلوننا نظن عكس ذلك. وقد يقول المرء إنه لولا مرافقة يسوع المسيح مراكب الصيد على طول نهر الأردن بشكل لا نهائي، لم تعد هناك أيّ مشقّة في الحياة، ولم يعد هناك شح بالسمك على الشاطئ الغربي، ولم يكن الصيادون هم المستفيدون الوحيدون، لأن السمك الوفير خفض الأسعار ووفر كميات كبيرة منه كي يتناولها الناس. صحيح أن بعض المحاولات قد بذلت للحفاظ على ارتفاع الأسعار باتباع الطريقة المعروفة التي تمارسها الشركات الكبيرة بإلقاء قسم من الصيد في البحر، لكن المسيح هدّد بالانتقال إلى مكان آخر إذا لم يعتذر الذين يرتكبون هذه الإساءة ويغيّرون أساليبهم على الفور. لذلك كان الجميع سعداء، ماعدا يسوع المسيح الذي تعب من الانتقال جيئة وذهاباً، ومن الصعود إلى المراكب والنزول منها بلا توقف. فقد كان يمارس العمل ذاته كلّ يوم وطوال النهار، ولما كانت القوّة التي تدفع السمك إلى الظهور تأتي من الربّ، فلماذا تُكتب عليه هذه الرتابة حتى تحين ساعة

استدعاء الربّ له كما وعده. لم يكن يسوع يشكّ في أنّ الربّ معه لأن السمك لم يكن يخذله عندما يطلبه ما جعله يشكّ في الربّ الذي قد لا يكون راغباً في منحه قوى أخرى، بشرط أن يستخدمها بطريقة جيدة ومفيدة. لأننا كما رأينا، فإن المسيح الذي أنجز الكثير حتى الآن بتوجيه من الحدس فقط، لن يجد صعوبة في تنفيذ ذلك الشرط. ثمة طريقة واحدة لمعرفة ذلك، سهلة كالقول، أوه، كان عليه أن يحاول، فإذا نجحت محاولته، فإن الربّ سيوافق، وإذا لم تنجح، فإنه سيستاء. إن المشكلة الأولى تكمن في الاختيار. وبما أنه لم يكن قادراً على استشارة الربّ مباشرة، فقد كان عليه أن يجازف باختيار قوّة، قوّة لا تثير قدراً كبيراً من الاعتراض، وألّا تكون شديدة الوضوح، وألّا تكون حاذقة لكي لا يلاحظها الذين سيستفيدون منها، أو العالم، لأن ذلك سيقلّل من مجد الربّ الذي يجب أن يؤخذ بالاعتبار قبل أي شيء آخر. لكن يسوع المسيح لم يحسم أمره، لأنه كان يخشى أن يسخر منه الربّ أو يهينه كما فعل في الصحراء. كانت تسري في أوصاله رجفة لمجرد التفكير بالحرج الذي قد يتعرض له لو عادت الشبكات فارغة بعد أن اقترح عليهم في البداية، ألقوا بشباككم في هذا الجانب. أثارت تلك الأمور قلقه إلى حد أنه حلم ذات ليلة بأن أحداً يهمس في أذنه ويقول له، لا تخف، تذكّر أن الربّ بحاجة إليك. لكنه عندما استيقظ، راح يتساءل من الذي كلّمه، ملاك، أحد الذين يسلّمون رسائل من الربّ، أم شيطان، أحد الذين ينفذون أوامر إبليس. كانت مريم المجدلية تغطّ في النوم بجانبه، لذلك، ليس من الممكن أن تكون هي.

هكذا كانت الأمور تسير عندما انطلق المسيح ذات يوم بدا أنه لا يختلف عن أيّ يوم آخر، لاجتراح المعجزة المعتادة. كانت الغيوم التي تغطي السماء واطئة وكانت هناك بوادر هطول أمطار، لكنّ الأمطار لم

ترغم الصيّادين على أن يلزموا بيوتهم لأنهم معتادون على هذه الأنواء المختلفة. في هذا اليوم، عاد المركب الذي يملكه سمعان وشقيقه أندراوس، المركب الذي شهد المعجزة الأولى، ومعه مركب يعقوب ويوحنا، ابنا زبدي، لأن المرء لا يستطيع أن يعرف هل للمعجزة نفس التأثير باستمرار، فقد يتمكن مركب يرسو في مكان قريب من اصطياد قليل من السمك المتجمّع هناك. دفعتهم الريح القوية بسرعة، وبعد أن خفضوا الأشرعة، هيأ الصيّادون في كلا القاربين شبكاهم وانتظروا حتى يخبرهم يسوع المسيح أين يمكنهم أن يلقوا شباكهم. في تلك اللحظة، بدأت الأمور تزداد صعوبة. فعلى حين غرة ودون سابق إنذار هبّت عاصفة من السماء الملبّدة بالغيوم، وازدادت قوة وعنفاً فارتفعت الأمواج، تدفعها العاصفة المسعورة. كافحت هاتان القشرتان الهشّتان بقوة بينما أطلقت عناصر الطبيعة عنان غضبها. جلبت محنة الصيّادين الذين لا حول لهم ولا قوة صيحات وعويل الأشخاص الذين كانوا يراقبونهم على الشاطئ. الزوجات والأمهات والأخوات والأطفال، وأحياناً الحموات الطيبات القلب، الذين لا بد أن بكاءهم ونواحهم قد وصل إلى عنان السماء. آه، يا زوجي المسكين. آه، يا ابني المحبوب. آه، يا أخي العزيز. آه، يا صهري المسكين، اللعنة عليك أيها البحر البائس، أيتها الأمّ المقدّسة التي تنقذ المنكوبين ساعدينا، حامي المسافرين، هبّ لمساعدتنا. لكن كلّ ما كان باستطاعة الأطفال والنساء أن يفعلوه هو البكاء. كانت مريم المجدلية بينهم أيضاً، تدمدم، يسوع المسيح، يسوع المسيح، لكنّها لم تكن تصلي من أجله لأنها تعرف أن الربّ سيحميه وسيحفظه ولن يتركه يهلك في عاصفة كهذه لن تكون نتيجتها إلّا غرق عدد من الرجال. وظلت تردد، يسوع المسيح، يسوع المسيح، كما لو أن مجرد نطق اسمه سينقذ باقي الصيّادين الذين كانوا

على وشك أن يلقوا مصيرهم المحتوم. في خضم تلك العاصفة، راح المسيح ينظر إلى اليأس والدمار من حوله، وإلى الأمواج التي كانت تغمر القوارب وتغرقها، وتكسر الصواري، والأشرعة تتطاير في الهواء، وسرعان ما أصبح المطر طوفاناً بإمكانه أن يغرق سفينة في أسطول الإمبراطور. شاهد المسيح ذلك وقال لنفسه، ليس من الحقّ أنّ يهلك كلّ هؤلاء الرجال وأظل أنا حياً، عندها سيوبّخني الربّ ويقول، كان بوسعك إنقاذ الصيادين الذين كانوا معك، لكنك لم تبذل أي محاولة لإنقاذهم، كأن جريمة والدك لا تكفي. تذكّر أن ذلك كان مؤلماً للغاية. قفز المسيح ووقف بثبات على قدميه كما لو أنه يقف على أرض صلبة، وقال للريح آمراً، اسكني، وقال للبحر، اهدأ. فهدأ البحر وسكنت الريح في اللحظة التي نطق هاتين العبارتين، وتبددت الغيوم في السماء، وبزغت أشعة الشمس بكلّ بهائها ومجدها، وهو مشهد رائع في عيوننا، نحن البشر المساكين. ويستحيل وصف البهجة العارمة التي عمّت المراكب، والقبل والعناق، ودموع الفرح التي ذرفت على اليابسة، ودُهش الذين كانوا يتفرجون على الضفة البعيدة الأخرى عندما شاهدوا العاصفة تخمد بسرعة، أما البحارة الذين كانوا هنا، كما لو أنهم عادوا إلى الحياة، فلم يفكّروا بشيء إلّا بنجاتهم، وإذا صاح البعض تلقائياً، معجزة، معجزة، فمن الواضح أنهم لم يكونوا يعرفون من الذي اجترحها. صمت مفاجئ هبط على الماء، وأحاطت المراكب الأخرى بقارب سمعان وأندراوس، ونظر جميع الصيّادين إلى يسوع المسيح، ملهولين لا يستطيعون أن يقولوا كلمة واحدة لأنهم سمعوه يصرخ وقد غطى صوته هدير العاصفة، اهدئي، اسكني، وها هو يسوع المسيح، الرجل الذي يمكنه أن يستدعي السمك من البحيرة، يمنع البحر من تقديم الرجال طعاماً للسمك. أطرقت العيون، وجلس المسيح على

مقعد التجديف، وقد ارتسمت على وجهه علائم الانتصار والكارثة، كما لو أنه بلغ ذروة جبل، ثم بدأ الآن الهبوط الحزين والحتمي. متحلقين في دائرة، كان الرجال بانتظاره حتى يتكلم. لم يكن يكفي أن يهدئ من حدة الريح ويسكّن هيجان الماء فقط، بل كان عليه أيضاً أن يفسّر كيف أن شخصاً بسيطاً من الجليل، ابن نجار مغمور، استطاع أن يصنع معجزة كهذه بعد أن تركهم الربّ نفسه لعناق الموت البارد. استوى المسيح واقفاً وقال لهم، إن ما رأيتموه الآن ليس من صنعي، والصوت الذي أسكت العاصفة لم يكن صوتي، إنما صوت الربّ يتكلّم من خلالي، كما من خلال الأنبياء، فما أنا إلّا فم الربّ. فقال سمعان الذي كان معه في القارب، كما أرسل الربّ العاصفة، كان بإمكانه أيضاً أن يوقفها، لكنّ كلمتك هي التي أنقذت حياتنا. صدّقني، إنه عمل الربّ، لا عملي أنا. عندها تكلّم يوحنا، ابن زبْدي الأصغر، مبرهناً على أنه ليس ساذجاً وقال، قد يكون ذلك من عمل الربّ لأن كلّ القوّة تكمن فيه، لكنّه تصرّفَ من خلالك، لذلك، فإن مشيئة الربّ جعلتنا نعرفك. لكنّكم تعرفونني. لا نعرف سوى أنك جئت من مكان لا يعرف أحد من أين، وملأت مراكبنا بالسمك بطريقة غامضة. أنا يسوع الناصري، ابن نجار صلبه الرومان، وعملت لفترة من الزمن في رعي قطيع من الأغنام والماعز، والآن ها أنا معكم، وقد أظل صياد سمك حتى لحظة موتي. فقال أندراوس، شقيق سمعان، سنبقى معك، لأن أيّ رجل يتمتع بقدرتك مقدر له أن يحمل حول رقبته وزناً أثقل من أيّ حجر رحى. فقال له المسيح، ابق معي إذا طلب منك قلبك ذلك، وإذا شاء الربّ، كما يقول يوحنا، أن تعرفني، لكن لا تخبر أحداً بما حدث هنا، لأن الوقت لم يحن بعد للكشف عن قدري. ثمّ قال يعقوب، ابن زبدي البكر الذي لم يكن ساذجاً مثل شقيقه، لا تتصوّر أن الناس لن

يتكلّموا، فقط انظر إلى تلك الجمهرة على الشاطئ، انظر كيف أنهم ينتظرون شكرك والثناء عليك، وقد نفد صبر بعضهم وراحوا يدفعون مراكبهم للقدوم والانضمام إلينا، وحتى لو نجحنا في كبح حماستهم وإقناعهم بأن يكتموا سرّنا، فكيف تتأكد من أن الربّ لن يستمر في الظهور من خلالك، مهما كرهت هذه الفكرة. الصورة الحيّة للحزن. أطرق المسيح برأسه وقال، كلّنا بين يدي الربّ. فأجابه سمعان، أنت أكثر منا لأنه اختارك، لكنّنا ستتبعك. وأضاف يوحنا، حتى النهاية. وقال أندراوس، حتى لا تعود تحتاج إلينا. وقال يعقوب، لأطول فترة ممكنة. كانت المراكب تسير نحوهم بسرعة والكثير من التلويح بالأذرع وترديد الصلوات والمدائح التي تشكر الربّ. مستسلماً، قال يسوع لرفاقه، هيا بنا نذهب، فقد صُبّ النبيذ وعلينا أن نحتسيه. لم يبحث عن مريم المجدلية لأنه كان يعرف أنها تنتظره كالمعتاد. إن التوقف عن انتظاره يتطلب أكثر من معجزة. إن مجرد التفكير بأنها تنتظره كان يملأ قلبه بالامتنان والسلام. عندما نزل من المركب، ضمته مريم المجدلية إليها، ولم يتفاجأ عندما همست في أذنه، وضغطت خدها على لحيته المبللة، ستخسر الحرب لكنك ستربح كلّ معركة. مع رفاقه، حيّا المتجمهرين الذين كانوا يهللون مرحبين بالمسيح كما لو كان قائداً منتصراً. يداً بيد، سار يسوع ومريم المجدلية صاعدين الطريق الوعرة باتجاه كفر ناحوم، القرية المطلة على البحيرة التي يعيش فيها سمعان وأندراوس والتي استُقبلا فيها بحفاوة كبيرة.

كان يعقوب محقّاً عندما حذّر المسيح من أن حادثة العاصفة ستتردد على شفاه الجميع. وعلى مدى بضعة أيام، لم يكن يدور على ألسنة الناس على مسافة عدة أميال حديث سوى هذه الحادثة. والغريب أن أحداً لم ير العاصفة التي هبت على بحيرة طبريا مع أن البحيرة لم تكن

كبيرة، كما ذكرنا، ومن مكان مرتفع يستطيع المرء أن يرى البحيرة من الضفة إلى الضفة في يوم صاف. وعندما وصل شخص يحمل خبراً بأن شخصاً غريباً يرافق الصيّادين في كفر ناحوم قد أسكت العاصفة بعد أن كلّمها، ولدهشته سألوه، أي عاصفة. لكن كان هناك عدد من الشهود الذين شهدوا بأنّ عاصفة قد هبّت فعلاً، وكان هناك من رآها رأي العين من بينهم عدد من البغّالين من صفد وقانا الذين صادف أنهم كانوا هناك في أثناء عملهم والذين نقلوا الخبر إلى أماكن أخرى. وراح كلّ رجل يطرّز القصّة على هواه، لكن الخبر لم يبلغ الجميع. ونحن نعرف جيداً ماذا يحدث لمثل هذه الحكايات التي تفقد مصداقيتها بعد فترة من الزمن. وعندما وصل الخبر إلى الناصرة، لم يعد الرواة متأكّدين ممّا إذا كانت معجزة حقيقية قد حدثت أم مجرد صدفة محظوظة عندما ألقيت كلمة في وجه الريح وكانت العاصفة قد تعبت وبدأت تهمد. لكن لا يمكن خداع قلب الأمّ، وكان على مريم أن تسمع الصدى المحتضر لهذه المعجزة التي راح الناس يسألونها هل ابنها الغائب هو الذي صنعها. حزنت الأمّ لأن خسارة سلطتها الأمومية جعلتها تخفي عن ابنها يسوع ما كان قد كشفه لها الملاك، وكانت على يقين من أن رسالة مؤلفة من بضع كلمات ستعيد إلى البيت الابن الذي غادره والحزن يملأ قلبه. الآن، بعد أن تزوّجت ليسا وانتقلت لتعيش في قانا، لم يعد لمريم أحد يمكنها أن تبوح له بحزنها ومرارتها، فلم يكن بإمكانها أن تحدّث يعقوب الذي أصبح يستشيط غضباً بعد لقائه ذاك بأخيه، الذي لم يخف عن مريم أي تفصيل، فحكى لها قصّة مهلكة عن المرأة التي ترافق يسوع المسيح، والتي قد تكون في سنّ أمّه، ومن مظهرها يبدو أنه لا يوجد شيء لا تعرفه عن الحياة، بعبارة ملطفة، مع أن يعقوب نفسه لا يعرف الكثير عن الحياة هنا في هذه القرية النائية. فراحت مريم تفضي

بهمومها إلى يوسف، الابن الذي يذكّرها كثيراً بزوجها من اسمه ومظهره، لكنّه لم يكن يشعرها بالراحة كثيراً وقال لها: أمّاه، إننا ندفع ثمن خطايانا، فبعد أن رأينا يسوع، أخشى أنه لن يعود إلى البيت أبداً، ويقول الناس إنه أخمد عاصفة، وقال لنا الصيّادون أنفسهم بأنه كان يملأ مراكبهم بالسمك كما لو كان بفعل سحر. إذاً ما قاله الملاك صحيح. أي ملاك، سألها يوسف. فأخبرته مريم بكلّ شيء، بدءاً من الشحاذ الذي وضع التراب المتوهج في الطاسة حتى ظهور الملاك في حلمها. هذا الحديث لم يدر في البيت، لأنه في وسط هذه الأسرة الكبيرة من شبه المستحيل أن يتاح لهم أي قدر من الخصوصية. فعندما يريدون البوح بأسرارهم، كانوا يذهبون إلى الصحراء حيث يمكنهم أيضاً أن يقابلوا الربّ. كان يوسف ومريم لا يزالان في غمرة حديثهما عندما رأى يوسف الذي كان ينظر من فوق كتف أمّه، راعي أغنام وماعز فوق التلال البعيدة. لم يكن القطيع يبدو كبيراً ولم يكن يبدو الراعي طويل القامة، فراح يراقبه من دون أن ينبس بكلمة. عندما أطلقت أمّه تنهيدة وقالت لن أرى يسوع مرة أخرى، أجابها بنبرة جادة، من يعرف.

كان يوسف محقّاً. فبعد قرابة سنة، أرسلت ليسا رسالة إلى أمّها تدعوها باسم أنسبائها للمجيء إلى قانا لحضور زفاف أخت زوجها الصغرى؛ وطلبت من مريم أن تحضر معها ما تشاء من الأطفال، مهما بلغ عددهم، وأن جميعهم سيكونون موضع ترحيب. وبالرغم من هذه الدعوة الكريمة، فقد خشيت مريم أن تكون عبئاً على ابنتها لأنه لا يوجد شيء مزعج أكثر من أرملة تجرّ وراءها عدداً كبيراً من الاطفال، فقرّرت أن تصطحب ولديها الأثيرين لديها الآن وهما يوسف وليديا التي مثلها مثل جيمع البنات الأخريات في عمرها كانت تحبّ حضور مثل هذه الحفلات. لم تكن قانا تبعد عن الناصرة أكثر من ساعة إذا حسبنا

المسافة حسب وقتنا الراهن. وكان حلول الخريف اللطيف يعد برحلة لطيفة، فضلاً عن حفلة العرس. غادروا عند شروق الشمس ليصلوا إلى قانا في الوقت المناسب لكي تتمكن مريم من المساعدة في التحضيرات النهائية للعرس، لأن هذا العمل يدخل السرور إلى نفوس المدعوين. ركضت ليسا لاستقبال أمّها وشقيقها وشقيقتها وعانقتهم بحرارة، وسألتهم عن صحتهم. ثم سألوها عن صحتها وعمّا إذا كانت سعيدة، لكن كانت هناك أعمال كثيرة يجب القيام بها، فتحركوا بسرعة. أسرعت ليسا ومريم إلى بيت العريس حيث سيقام الاحتفال لتشاركا في طهي الطعام مع النساء الأخريات، وظلّ يوسف وليديا في فناء المنزل مع الأطفال، الفتيان يلعبون مع الفتيان، والفتيات يلعبن مع الفتيات، حتى بدأ الزفاف، ثمّ ركض الصبية والبنات معاً وراء الرجال الذين يرافقون العريس، أصدقاء يحملون المشاعل المعتادة في الصباح المشمس المضيء، ولن يكون قليل من النور الإضافي، حتى لو كان منبعثاً من مشعل، غير مستحب. خرج الجيران يبتسمون لتحيتهم، لكنهم احتفظوا بتبريكاتهم حتى يعود الموكب ويحضر العروس. لم يتمكن يوسف وليديا من رؤية باقي الحفلة، لكنهما كانا قد حضرا حفل عرس في أسرتهما من قبل: يقرع العريس الباب ويطلب رؤية العروس فتخرج وقد تحلّقت صديقاتها حولها يحملن مصابيح صغيرة تناسب النساء أكثر من المشاعل الضخمة التي يحملها الرجال، ثم يرفع العريس حجاب العروس ويصيح مبتهجاً لأنه اكتشف هذا الكنز الماثل أمامه، كما لو أنه لم يكن قد رآها آلاف المرات طوال الاثني عشر شهراً الأخيرة التي تخللتها عبارات الغزل والمحبة، ولم يرافقها إلى الفراش كما يشاء، لكن يوسف وليديا لم يتمكنا من رؤية كلّ ذلك. نظر يوسف بالصدفة إلى الشارع فرأى رجلين وامرأة من بعيد. عندما رأى المسيح والمرأة

تسير إلى جانبه، غمره شعور غريب مرة أخرى. نادى أخته وقال لها، انظري، إنه يسوع. هرعا للقائه، لكن يوسف سرعان ما توقّف، وتذكّر أنه والجفاء الذي قابلهما به شقيقهما بالقرب من البحيرة. صحيح أنه لم يكن يقصده هو ويعقوب، بل الرسالة التي نقلاها له. استدار يوسف. وقال لنفسه إن عليه أن يفسر سلوكه ليسوع في نهاية الأمر. وقبل أن يختفي عند ناصية الشارع، نظر ثانية وشعر بالحسد عندما رأى شقيقه يضم ليديا بين ذراعيه مثل ريشة تطير ويغمرها بالقبلات، بينما كانت المرأة والرجل الآخر ينظران بسعادة. بعينين مليئتين بدموع الإحباط، ركض يوسف ودخل البيت عبر الفناء، وهو يقفز لكي لا يطأ القماش الممدود على الأرض وعلى الموائد الواطئة، وراح يصرخ أمّاه، أمّاه. إن أصواتنا المميّزة هي نعمتنا وإلّا فإن الأمهات في كل مكان سينظرن إلى الأعلى ولا يرين ابن امرأة أخرى. بنظرة واحدة فهمت مريم عندما قال لها يوسف إن المسيح قادم من هذا الطريق. شحب وجهها، ثمّ تضرّج، وابتسمت، ثم شحب وجهها ثانية وتجهم. هذه العواطف المتناقضة جعلتها ترفع يدها إلى صدرها، كأن قلبها لم يعد يخفق، واستندت إلى الحائط. سألته من معه، لأنها كانت متيقنة من أن أحداً يرافقه. رجل وامرأة وليديا التي ظلت معهم، أجاب يوسف. هل هي نفس المرأة التي رأيتها آنذاك. نعم يا أمّي، لكنني لا أعرف من هو الرجل الذي يرافقهما. انضمت إليهما ليسا، وهي تتساءل، غير مدركة أن هناك شيئاً ما، ما المشكلة يا أمّي. لقد جاء أخوك لحضور العرس. تقصدين أن يسوع هنا في قانا. نعم، لقد رآه يوسف الآن. لم تتمالك ليسا نفسها من الابتسام وهي تدمدم لأخيها. كانت ابتسامتها الهادئة تشي بمشاعر عميقة من الرضا. قالت، هيا لنذهب ونستقبله. اذهبي أنت، أما أنا فسأبقى هنا، أجابتها أمّها بأسلوب دفاعي، والتفتت نحو يوسف، وقالت له، اذهب

مع أختك. لكن الاستياء بدا على وجه يوسف لأنّ ليديا كانت أول من عانق يسوع، ولم تكن لدى ليسا الشجاعة للذهاب لاستقباله وحدها. تسمّروا في مكانهم مثل ثلاثة مجرمين ينتظرون إصدار الحكم غير متأكدين من رحمة القاضي، إذا كانت عبارتا قاضي ورحمة تعنيان أيّ شيء هنا.

ظهر المسيح عند مدخل الباب حاملاً ليديا في ذراعيه، تتبعه مريم المجدلية. لكن أندراوس كان أول من دخل إلى البيت، الرجل الآخر في المجموعة الذي هو أحد أقارب العريس، كما تبين عندما قال للذين جاؤوا لاستقباله والابتسامة ترتسم على وجوههم، لا، لم يتمكن سمعان من المجيء. وبينما كان عدد من الموجودين منهمكين بسعادة في لمّ شمل الأسرة، كان آخرون يرمقون بعضهم بعضاً بسبب شقة الخلاف، متسائلين من سيكون أول من يضع قدمه فوق ذلك الجسر الضيّق الضعيف الذي، بالرغم من كلّ شيء، كان لا يزال يربط الجانب بالآخر. لن نقول، كما قال شاعر ذات يوم، إن الأطفال هم أعظم بهجة في هذا العالم، لكن بفضلهم ينجح البالغون أحياناً في اتخاذ خطوات صعبة دون أن يفقدوا ماء وجههم حتى لو اكتشفوا بعد ذلك بأنّهم لم يذهبوا شأواً بعيداً. انسلّت ليديا من بين ذراعي يسوع وركضت نحو أمّها. وكما يجري في عرض مسرح العرائس، فإن حركة واحدة تفضي إلى أخرى ثم إلى أخرى. اتجه يسوع نحو أمّه وشقيقه وحيّاهما بنبرة شخص يراهما كلّ يوم، ثمّ تجاوزهما وتركهما في دهشة كبيرة. تبعته مريم المجدلية. عندما عبرت مريم الناصرية مريم المجدلية، المرأتان، امرأة عفيفة، وأخرى ساقطة، رمقت إحداهما الأخرى. لم تكن نظرة تشي بالعداوة أو بالاحتقار، إنما تشي بالاعتراف المتبادل التي لا يمكن أن يفهمها إلّا الذين يجيدون معرفة الأساليب المعقّدة التي يتّسم بها

القلب الأنثوي. بدأ موكب العروسين يقترب، وبدأت تعلو أصوات الصياح والتصفيق، ودقات الدفوف والألحان الجميلة المنبعثة من القيثارات، وأنغام الرقصات، والأصوات الصاخبة لأن الجميع كانوا يتكلمون في وقت واحد، ثمّ دخل المدعوون إلى الفناء، ودخل العروسان وسط أصوات الهتاف والتصفيق، وتوجّها نحو أبويهما ونسيبيهما للحصول على تبريكاتهم. كانت مريم تقف هناك أيضاً بانتظار أن تمنح بركاتها، كما كانت قد باركت ابنتها ليسا آنذاك من دون أن يكون زوجها أو ابنها البكر إلى جانبها ليأخذ مكانه الشرعي كربّ الأسرة. عندما جلسوا لتناول الطعام، مُنح يسوع مقعداً خاصاً، بعد أن أبلغ أندراوس أقرباءه بأن هذا الرجل هو الذي ملأ الشبكات الفارغة بالسمك وأسكت العواصف، لكن يسوع المسيح رفض هذا الشرف واختار أن يجلس مع المدعوين في أبعد مكان في الحفلة. قامت مريم المجدلية بخدمة يسوع المسيح، ولم يسأل أحد عن سبب وجودها هنا، وجاءت إليه ليسا أيضاً مرات عديدة لكي تتأكد من أن كل شيء على ما يرام، وعامل يسوع كلتا المرأتين بالتساوي. عندما التقت عينا أمّه بعيني مريم المجدلية، أشارت إليها بأن تنتحيا زاوية هادئة في الفناء، وبدون جلبة قالت لها: احرصي على رعاية ابني، لأن ملاكاً قال لي إن محناً عظيمة تنتظره، وأنا لا أستطيع أن أفعل شيئاً من أجله. يمكنك أن تعتمدي عليّ لحمايته وأنا مستعدة للدفاع عنه بحياتي إذا دعت الضرورة. ما اسمك. أُعرف بمريم المجدلية، وكنت بغياً إلى أن عرفت ابنك. لم تنبس مريم ببنت شفة، لكنها بدأت ترى الأشياء بوضوح أشد، وحكت لها بعض الأمور: قطع النقود المعدنية، وما قاله لها يسوع عندما سألته من أين أتت النقود، ورواية يعقوب عن لقائه بيسوع وملاحظاته عن المرأة التي برفقة أخيه. الآن فهمت كلّ شيء، والتفتت

إلى مريم المجدلية وقالت لها، ستحظين دائماً بمباركتي وامتناني لكلّ العمل الطيب الذي قدمته لابني يسوع المسيح. انحنت مريم المجدلية وقبّلت كتف مريم دلالة على الاحترام، لكن مريم ألقت بذراعيها حولها وضمتها إليها بقوّة، وظلتا هكذا بضع لحظات، تعانق إحداهما الأخرى بصمت قبل أن تعودا إلى المطبخ لمشاركة النساء الآخريات في إعداد الطعام.

استمرت الاحتفالات، وجُلب طبق بعد آخر من المطبخ، وتدفّق النبيذ من الأباريق، وبدأ المدعوون الغناء والرقص. وفجأة اقترب المشرف على الوليمة من والدي العروس والعريس وهمس لهم بأن النبيذ بدأ ينفد. لم يكونا أكثر فزعاً لو قيل لهما إن السقف سيهبط. ماذا سنفعل الآن، كيف يمكننا أن نواجه ضيوفنا ونقول لهم إنه لم يعد هناك مزيد من النبيذ، وفي الغد سيعرف كلّ شخص في قانا بخزينا. ابنتي المسكينة، ناحت أمّ العروس، سيسخر منها الناس ويقولون حتى النبيذ جفّ في يوم عرسها، ماذا فعلنا كي نستحق كلّ هذا، ويا لها من بداية تشي بالشؤوم لبدء حياة زوجية. وعلى الموائد، بدأ المدعوون يرشفون آخر ما تبقى من نبيذ في كؤوسهم، وراح العديد منهم ينظرون حولهم بحثاً عن أحد يقدم لهم المزيد من النبيذ. هنا قرّرت مريم التي عهدت بواجباتها الأمومية إلى امرأة أخرى، أن تضع قوى يسوع الإعجازية موضع الاختبار قبل أن تنسحب إلى صمت بيتها وتصبح مستعدة لمغادرة هذا العالم، بعد أن تكون قد أكملت مهمتها على الأرض. راحت تبحث بعينيها عن مريم المجدلية، ورأتها تومئ موافقتها ببطء، فلم تضع وقتاً واتجهت مباشرة إلى يسوع وقالت له، لم يعد هناك نبيذ. فالتفت يسوع إلى أمّه، ونظر إليها كما لو أنها تحدثت من بعيد وسألها، ما لي ولك أيتها المرأة. كلمات مرعبة أصابت الذين سمعوها بالصدمة والذهول،

لأنه لا يوجد ابن يعامل أمّه التي أنجبته إلى هذا العالم بهذه الطريقة. ومع مضي الوقت، ستعاد صياغة هذه الكلمات، وستُفسَّر بطرق مختلفة لكي تبدو أقل فظاظة، حتّى إن البعض حاولوا تغيير معناها تماماً، وأصرّوا على أن ما قاله يسوع هو، لماذا تشغلينني بهذا الأمر، أو ما علاقتي بذلك، أو من طلب منك أن تتدخّلي، أو لماذا ينبغي لنا أن نشغل أنفسنا بذلك، يا امرأة، أو لماذا لا تتركين هذا الأمر لي، أو قولي لي ماذا تريدين وسأفعل ما يتوجب عليّ القيام به، بل حتى، يمكنك أن تعتمدي عليّ لأفعل ما بوسعي حتى أدخل السرور إلى نفسك. لم تتأثر مريم بذلك، ولم تكترث بنظرة يسوع المزدرية، وأنهت تحديها بالقول للخدم الذين وضعوا ابنها في موقف حرج، افعلوا ما يأمركم به. وعندما غادرت أمّه، راح يسوع ينظر إليها من دون أن يقول شيئاً أو يحاول أن يوقفها، مدركاً أن الربّ قد استخدمها، كما استخدم العاصفة ومحنة صيّادي السمك. رفع المسيح كأسه الذي كان لا يزال فيه القليل من النبيذ، وأشار إلى ستّ جرار ماء من الحجر تستخدم للطهارة، وقال للخدم، املأوا هذه الجرار بالماء، فملؤها حتى فاضت، وضمت كلّ جرّة مكيالين أو ثلاثة مكاييل. وقال لهم أحضروها إلى هنا، فأطاعوا. ثمّ صبّ يسوع في كلّ جرّة بضع قطرات من النبيذ من كأسه، ثم أمر الخدم، خذوها إلى المشرف. ومن دون أن يعرف من أين جاءت الجرار، اختبر المشرف على الوليمة الماء الذي لم تكد كمية النبيذ القليلة تلوّنها، فنادى العريس وقال له كلّ واحد يقدّم الخمر الجيد أولاً، وبعدما يسكر الناس يُقدِّم لهم النبيذ الأقل جودة، أما أنت فأبقيت النبيذ الجيد حتى الآن. فتذوقه العريس الذي لم ير من قبل قط نبيذاً يُقدم في هذه الجرار والذي كان يعرف كذلك أنّ النبيذ قد نفد، وأكّد بتواضع زائف بأنه نبيذ من النوعية الممتازة لمحصول العنب. ولو لم

ينشر الخدم هذا الخبر في اليوم التالي، لدفنت هذه المعجزة وأصبحت في غياهب النسيان، لأن المشرف على الوليمة الذي لم يعرف حقيقة ما جرى، ولظل جاهلاً، ولأخذ العريس الذي كان في غاية السعادة هذا الفضل، ولما توقّع أحد أن يطوف يسوع المسيح ويقول، لقد اجترحت كذا وكذا معجزة، ولما بدأت مريم المجدلية التي شاركت في هذا الأمر منذ البداية، بالتفاخر والقول بأنه اجترح معجزة، وأمّه على نحو أقل، لأن هذا الأمر كان بين مريم وابنها، وما تبقى هو زيادة، كما سيشهد جميع المدعوين الذين أعيد ملء أقداحهم.

لم تتحدث مريم الناصرية وابنها أكثر من ذلك، ودون أن يودّع أحدهما الآخر، غادر يسوع ومريم المجدلية في عصر ذلك اليوم وتوجها إلى طبريا، ولحق بهما يوسف وليديا حتى مشارف القرية ووقفا يراقبانهما حتى اختفيا عند المنعطف.

ثمّ بدأ الانتظار الطويل. فلم تكن الإشارات التي تجلّى فيها الربّ في شخص يسوع المسيح حتى الآن تزيد على كونها خدعاً سحرية، ذكية، فاتنة، مع بضع كلمات سريعة يتمتمها بأسلوب يمارسه أرقى النسّاك في الشرق، من قبيل إلقاء قطعة حبل في الهواء وتسلّقها من دون وجود أيّ شيء مرئي يتعلّق به، أو خطّافات، أو يد جني غير مرئي. وللقيام بهذه العجائب، كان على يسوع المسيح أن يشاء القيام بذلك، وإذا سأله أحدهم عن السبب، فلم يكن لديه ردّ آخر سوى أنه لا يستطيع تجاهل بؤس الصيّادين وتعاستهم عندما يكتشفون أن شباكهم فارغة، والخطر الناجم عن تلك العاصفة الهوجاء، ونفاد النبيذ المثير للخجل في حفل الزفاف، لأن الساعة لم تحن بعد لكي يتكلم الربّ من خلال شفتيه. وقال القرويّون الذين يعيشون في هذا الجانب من الجليل إن رجلاً من الناصرة يجوب الديار ويمارس قوى لا يمكن أن تأتي إلّا من عند الربّ، وهو لم ينكر ذلك. لكن لعدم وجود أيّ سبب أو تفسير يدعو إلى ظهوره بينهم، كان من الممكن أيضاً أن يستغلّوا هذا الصيد الوفير المفاجئ ولا يسألوه أي سؤال. لم يكن هذا رأي سمعان وأندراوس وكذلك ابنا زبدي، لكنهم كانوا أصدقاءه ويحرصون على حياته. وفي صباح كلّ يوم، كان يسوع يسأل بصمت عندما يستيقظ، ربما اليوم،

وفي بعض الأحيان، هذا السؤال بصوت مسموع كي تسمعه مريم المجدلية، لكنّها لم تكن تقول شيئاً، بل تطلق زفرة ثمّ تطوّقه بذراعيها وتقبّله على جبينه وعينيه وهي مستلقية بجانبه، بينما يتنشّق رائحة صدرها الدافئ. وفي بعض الأيام، كان يعود ويخلد إلى النوم، وفي أيام أخرى، كان ينسى السؤال ويأوي إلى جسد مريم المجدلية، كما لو أنه يدخل شرنقة يمكن أن يولد منها من جديد في شكل آخر، ثمّ يهبط إلى البحيرة ويعود إلى الصيّادين الذين ينتظرونه. لم يفهمه العديد من الصيادين، ولم يكّفوا عن سؤاله لماذا لا تمتلك مركباً لنفسك وتحتفظ بالسمك الذي تصطاده. وفي بعض الأحيان، عندما يكون في وسط البحيرة مع الصيادين يأخذون قسطاً من الراحة بين فترات الصيد، وهو أمر لا يزال ضرورياً مع أن الصيد أضحى سهلاً كالتثاؤب، كان ينتاب يسوع المسيح هاجس مفاجئ، فيرتعش قلبه، لكنه بدلاً من أن يتجّه إلى السماء، حيث، كما نعرف، يقيم الربّ، كانت عيناه تستقران بحسرة على صفحة مياه البحيرة الرائقة، الهادئة التي تلمع مثل جلد نقي، كما لو كان ينتظر بشغف وخوف صعود شيء من الأعماق، لا السمك، إنما صعود صوت بطيء. وفي نهاية يوم الصيد، كان المركب يعود محمّلاً بالسمك، ويسير يسوع المسيح على الشاطئ مطرقاً وتمشي خلفه مريم المجدلية. وهكذا مرت الأسابيع والشهور، وتتالت السنوات، وكان التغيير المرئي الوحيد الذي طرأ على مدينة طبريا هو ازدياد عدد مبانيها وازدهارها، أما الأمور الأخرى، فقد ظلت كما هي، وسارت كما هو مقدر لها على هذه الأرض التي يبدو أنها كانت تموت في كلّ شتاء لتولد من جديد مع حلول كلّ ربيع، وهي ملاحظة خاطئة تخدعنا بها الأحاسيس، لأن الربيع لن يولد من دون سبات الشتاء.

أصبح يسوع المسيح في ربيعه الخامس والعشرين الآن، وفجأة،

استيقظ الكون كله، وتتالت الإشارات، الواحدة تلو الأخرى، كما لو أن أحداً يريد التعويض عن الوقت الضائع. صحيح أن الإشارة الأولى لم تكن أعجوبة بكل معنى الكلمة، ولم يكن ثمة شيء يميّز المرض الذي أصاب أمّ سمعان والحمّى التي ألّمت بها فذهب يسوع لزيارتها ووضع يده على جبينها. شيء فعلناه كلنا بدافع الغريزة ذات يوم، لكن لم يكن هدفنا معالجة المريض بهذه الحركة الطبيعية البسيطة، وسرعان ما انحسرت الحمّى تحت يده، كما تمتصّ التربة المياه الملوثة، فنهضت المرأة العجوز على الفور وقالت شيئاً غير ذي شأن، من يصادقني يصادق زوج ابنتي، ثمّ واصلت أعمالها المنزلية كأنّ شيئاً لم يكن. هذه الإشارة الأولى كانت أمراً خاصاً وحدثت داخل جدران البيت. أما الإشارة الثانية، فقد أدخلت المسيح في نزاع علني مع الشريعة المكتوبة المعمول بها. وبالرغم من أنه يمكن فهم ذلك إذا أخذنا في الاعتبار الطبيعة البشرية والواقع بأنّ يسوع المسيح يعيش في الخطيئة مع مريم المجدلية، عندما رأى زانية على وشك أن تُرجم حتى الموت وفق شريعة موسى، فتدخّل يسوع المسيح وقال: توقّفوا، من كان منكم بلا خطيئة فليرمها بحجر، كما لو أنه يريد أن يقول، لو لم أكن أعيش مع بغي وكنت ملوّثاً بها في الفعل والفكر، لكان من الممكن أن أشارككم في تنفيذ هذه العقوبة. كان مقدماً على مجازفة كبيرة، لأنه كان من الممكن ألّا يعيره بعض الرجال الأكثر قسوة وفظاظة أذناً صاغية لتوبيخه هذا وتابعوا رجم المرأة بالحجارة لأن الشريعة تعفيهم من العقوبة التي يطبقونها على المرأة، الشريعة التي تطبّق على النساء فقط. إن الأمر الذي يبدو أن يسوع المسيح لم ينتبه إليه، ربما بسبب عدم نضوج خبرته، هو أنه لو انتظر وصول القضاة المنافقين الذين يؤمنون بأنهم هم وحدهم من يمتلك الحقّ في توجيه الإدانة وإنزال العقاب، لما عمّت

الجريمة وانتشر الشرّ، وأصبحت الزانيات طليقات، دقيقة مع هذا الرجل، ودقيقة مع رجل آخر، وهكذا يجرّ الزنا وراءه ألف رذيلة من تلك الرذائل التي أقنعت الربّ بأن يمحق سدوم وعمورة بالنار والكبريت ويحيلهما إلى الرماد. لكن الشرّ الذي ولد مع العالم والذي تعلّم منه العالم كلّ ما لا يعرفه، أيها الإخوة الأعزاء، أشبه بتلك العنقاء الشهيرة التي لم يرها أحد قط والتي عندما توشك على الهلاك تحت ألسنة النيران فإنها تولد من جديد من بيضة تفقس في الرماد الذي استحالت إليه. إن الخير رقيق، هشّ، أما الشرّ فلا يحتاج إلّا إلى أن ينفخ أنفاس الخطيئة الحارة في وجه النقاء والصفاء، لأنه لكي يكون مشوّهاً إلى الأبد، يجب أن يُقطع ساق الزنبق ويذبل زهر البرتقال. فقال يسوع المسيح للزانية، اذهبي ولا ترتكبي خطيئة بعد الآن، أما في قلبه، فكانت تساوره شكوك كثيرة.

أما الحدث البارز الآخر فقد جرى على الجانب المقابل للبحيرة الذي كان يسوع المسيح قد قرر الذهاب إليه بين الحين والآخر كي لا يقال إن جلّ تركيزه منصب على الشاطئ الغربي، فنادى يعقوب ويوحنا، وقال لهما: لنذهب ونستكشف الجانب الآخر حيث يعيش أهل جدارا، لنرى أي ثروة يمكننا أن نجمعها، وفي طريق عودتنا يمكننا أن نصطاد بعض السمك. راقت الفكرة لابني زبدي، وبعد أن أنزلوا قاربهم في الماء، راحوا يجدّفون راجين أن تهبّ عليهم ريح تساعدهم في الإبحار، فاستُجيب لدعائهم، لكن سرعان ما تحولت سعادتهم إلى رعب عندما هبّت ريح عاصفة بدت أشد عنفاً من الريح التي هبّت عليهم قبل سنوات قليلة. لكن المسيح وبّخ الماء والسماء، الآن، ماذا يجري هنا، كما لو أنه يوبخ طفلاً، فسكن الماء في الحال، وعادت الريح تهبّ بسرعتها الطبيعية وباتجاهها الطبيعي. نزل الثلاثة من المركب،

ومشى المسيح أولاً، وسار وراءه يعقوب ويوحنا. لم يسبق لهم أن جاؤوا إلى هذه المنطقة، وفوجئوا بكلّ ما رأوه فيها، لكن أغرب ما تبدى لهم على الطريق هو ظهور رجل فجأة، إذا كان بإمكاننا أن نستخدم هذه الكلمة لوصف المخلوق الذي كان يرتدي ثوباً وسخاً وله لحية كثة متلبّدة وشعر أهوج، وتفوح منه رائحة القبر، ولا عجب لأنهم سرعان ما عرفوا أنه المكان الذي يلجأ إليه هذا الرجل كلما تمكّن من كسر القيود التي تقيده. من المعروف أن قوّة شخص مجنون تزداد ضعفين إذا تملكه الغضب، وعلى الرغم من أنه لم يكن بالإمكان تقييده بسلاسل أخرى، لأنهم حاولوا ذلك عدة مرات، لكن ذلك لم يجد نفعاً، لأن الرجل لم يكن مجنوناً، إنما سخرت الروح القذرة التي تلبسّته والتي كانت تقوده من كلّ محاولات تقييده. وكان هذا الرجل الممسوس يصعد إلى الجبال ليلاً نهاراً، هرباً من نفسه ومن ظلّه ويتوارى بين القبور، وفي غالب الأحيان، كان يختبئ فيها ويثير رعب كلّ من صادف أنه كان ماراً من هناك. هكذا رآه يسوع أول مرة، يلحق به الحرّاس ويلوحون بأذرعهم ليسوع بأن يبتعد عن طريق الأذى. لكن يسوع جاء يبحث عن مغامرة ولن يفوّت عليه ذلك مهما كانت النتيجة. ومع أن الخوف من ذلك الرجل المجنون تملك يوحنا ويعقوب، فلم يتركا صديقهما. لذلك، كانا أول من سمع كلمات لا يتوقّع أحد أن يسمعها أبداً، كلمات تقوّض شريعة الربّ كما سيتبين لنا. فقد دنا الرجل المجنون من يسوع، ناشباً مخالبه ومكشّراً عن أنيابه التي علقت فيها بقايا لحم متعفّن، فتجمّد الدم في عروق يسوع من شدّة الخوف، لكن المخلوق الممسوس ألقى بنفسه فجأة على الأرض على بعد خطوتين منه وصرخ، ماذا تريد مني يا يسوع، يا ابن الربّ، أتوسّل إليك باسم الربّ أن تكفّ عن تعذيبي. لقد حدث ذلك لأول مرة على الملأ، لا في

أحلام خاصة يرغمنا العقل على التشكيك فيها، بأن ارتفع صوت، صوت شيطاني إذا كان يوجد صوت كهذا، معلناً أن يسوع الناصري هو ابن الربّ. أمر لم يكن يسوع نفسه يدركه حتى تلك اللحظة، لأنه خلال حديثه مع الربّ في الصحراء، لم تكن مسألة الأبوّة قد أثيرت قط. سأحتاج إليك لاحقاً، كان كلّ ما قاله له الربّ، وحتى هذا لم يكن واضحاً لأن أباه السماوي ظهر له في شكل غيمة وفي هيئة عمود من الدخان. راح الرجل الممسوس يتلوى عند قدميه، وكشف صوت في داخل يسوع المسيح أخيراً ما كان مخفياً حتى الآن. ففي تلك اللحظة، مثل شخص يرى نفسه منعكساً في شخص آخر، أحسّ بأنّه هو أيضاً ممسوس وتحت رحمة قوى ستقوده لا يعلم أحد إلى أين، لكن لا شكّ، في نهاية المطاف، إلى قبر القبور. سأل الروح، ما اسمك، فأجابت الروح جحفل، لأن أعدادنا كبيرة. وفي نبرة آمرة، قال المسيح، اتركي هذا الرجل أيتها الروح القذرة. ما إن نطق هذه الكلمات حتى انبعثت مجموعة من الأصوات الشيطانية، بعضها ثاقب وحاد، وبعضها عميق وأجش؛ بعضها وديع كصوت امرأة، وبعضها قاس كصوت منشار يقطع الصخور؛ بعضها ساخر وهازئ، وبعضها يتوسل بخنوع وذل الفقراء؛ بعضها متغطرس، وبعضها متأفف ويئنّ؛ بعضها يثرثر مثل أطفال يتعلّمون كلماتهم الأولى، وبعضها يصرخ مثل أشباح في محنة؛ لكنهم جميعاً كانوا يتوسلون لأن يسمح لهم يسوع بالبقاء، لأن كلمة واحدة منه يمكنها أن تخرجهم من جسد هذا الرجل. وتوسلت تلك الأرواح الشرّيرة، لا تطردنا. فسألها يسوع المسيح، قولي لي إذاً، إلى أين تريدين أن تذهبي. تصادف الآن مرور قطيع كبير من الخنازير كان يرعى في منحدرات الجبل، فتوسلت الأرواح الشريرة إلى يسوع المسيح وقالت: اسمح لنا أن ندخل تلك الخنازير. فكّر يسوع قليلاً وقرّر أن هذا

هو الحلّ المثالي، فلا بد أن الخنازير تنتمي إلى الأغيار، غير اليهود، لأن لحم الخنزير نجس ويُحرّم على اليهود تناوله، ولم يخطر بباله قط بأنه عندما يتناول أولئك الأغيار لحم تلك الخنازير فإنهم سيتناولون الشياطين التي في داخلها أيضاً ويصبحون ممسوسين، ولم يتكهن قط بالأحداث المؤسفة التي ستعقب ذلك، لكن الحقيقة هي أنه حتى ابن الربّ الذي لم يكن معتاداً على مثل هذه القرابة السامية، لا يستطيع أن يرى على رقعة شطرنج جميع العواقب التي قد تنجم عن القيام بحركة واحدة أو اتخاذ قرار واحد. وبحماسة شديدة، راهنت الأرواح الشرّيرة التي كانت تنتظر ردّ يسوع المسيح، وعندما قَبِل وسمح لها بالانتقال إلى أجساد تلك الخنازير، راحت تهلل وتطلق هتافات تشي بالانتصار، واستقرت على الفور في تلك الحيوانات. إمّا نتيجة الصدمة التي أصيبت بها نتيجة ذلك، أو لأنها لم تكن تريد أن تسكنها الشياطين، هاجت الخنازير وماجت وألقت بنفسها من فوق منحدر صخري شاهق، الألفا خنزير جميعها، ثم سقطت في البحيرة وغرقت. يتعذر وصف الغضب الذي تملك راعي الخنازير، تلك الحيوانات البريئة. ففي لحظة كانت هذه الحيوانات المسكينة ترعى بهدوء وسكينة، تنبش ما يمكنها العثور عليه في التربة الناعمة من جذور وديدان، وتحرّك بمخالبها الأعشاب المتناثرة فوق سطح الأرض الجافة، وفي اللحظة التالية، أضحت في أسفل الوادي ثم راحت تعوم في الماء. يا له من مشهد محزن، فقد نفقت بعض الخنازير، وطفا بعضها على سطح الماء، ويبدو أن بعضها الآخر قد غاب عن الوعي لكنها كانت تبذل آخر ما تبقى لها من جهد شجاع كي تُبقي أذنيها طافيتين فوق سطح الماء، لأنه كما يعرف الجميع، فإن هذه المخلوقات لا تستطيع أن تغلق طبلات أذنيها، فما إن تدخل فيها كمية من الماء، حتى تغرق على الفور. بعد أن اعتراه

الغضب، راح راعي الخنازير يلقي بالحجارة على يسوع ورفيقيه وجرى وراءهم يطالبهم بالتعويض لما اقترفته أيديهم، مبلغاً معيناً لكلّ رأس مضروباً بألفي رأس، وهو مبلغ يسهل حسابه، لكن ليس من السهل تسديده لأن صيّادي السمك لا يكسبون إلّا القليل من المال، ويقتاتون على القليل من الطعام، فضلاً عن أن يسوع لا يمكنه أن يدّعي بأنه صيّاد سمك. لكن يسوع الناصري قرّر أن يواجه راعي الخنازير الغاضب ليوضّح له بأنه لا يوجد في هذا العالم شرّ أعظم من شرّ الشيطان، وأنه بالمقارنة مع إبليس، فإنّ ألفي خنزير ليست شيئاً، وأننا نتعرض جميعنا لخسارات في هذه الحياة، ماذية كانت أم معنوية، فاصبروا يا أخوتي. كان يسوع المسيح مستعداً ليعظهم بذلك. لكن آخر شيء كان يعقوب ويوحنا يريدانه، هو مواجهة رعاة الخنازير الغاضبين لأن أيّ بادرة لإبداء مشاعر صداقة أو نوايا حسنة لن تؤدي إلى تهدئة حدة غضب هذا الراعي الفظ ونواياه في الانتقام. استسلم يسوع أخيراً لما قاله يعقوب ويوحنا اللذان أصبحا أكثر إقناعاً عندما بدأت الأحجار تنهال حولهم، فأطلقوا سيقانهم للريح وركضوا أسفل المنحدر نحو حافة الماء، ثم قفزوا إلى مركبهم وراحوا يجذّفون بأسرع ما أوتوا من قوة حتى أصبحوا في مأمن. وكقاعدة عامة، فإن رعاة الخنازير لا يعملون في صيد السمك، ولو كان لدى الراعي الذي راح يطاردهم مركباً، لما بقي ليسوع المسيح ورفيقيه أي أثر. قال يعقوب لقد نفقت بعض الخنازير، وأُنقذت روح، والرابح هو الربّ. نظر إليه يسوع الذي كانت أفكاره سارحة في مكان آخر، في شيء كان الأخوان يتطلعان إليه ويرغبان في سماعه ومناقشته، ذاك الوحي الغريب الذي أطلقته الشياطين بأن يسوع المسيح هو ابن الربّ. لكن المسيح التفت إلى الضفة التي هربوا منها، وراح يحدّق في المياه التي طفت الخنازير على سطحها تدفعها مويجات البحيرة. ألفا حيوان

بريء. اعتراه قلق شديد، وراح يبحث عن منفذ حتى لم يعد بإمكانه أن يتمالك نفسه وصاح، الشياطين، أين هي الشياطين، ثم أطلق ضحكة مجلجلة نحو السماء، وقال، اسمع يا ربّي، إمّا أنك أسأت اختيار هذا الابن الذي يتعين عليه أن ينفذ خططك بحسب ما قالته تلك الشياطين، أو أن هناك شيئاً مفقوداً في قوتك، وإلّا لكان بمقدرتك أن تهزم الشيطان. ماذا تقول، سأله يوحنا، مذعوراً من هذا التحدي الذي لا يمكن تصوّره. أقول إن الشياطين التي كانت تتلبّس ذلك الرجل أصبحت حرّة الآن، لأن الشياطين يا صديقي لا تموت، كما نعرف، وحتى الربّ لا يستطيع أن يقضي عليها، وإزاء كلّ ما فعلته من خير، كان بوسعي أيضاً أن أضرب البحيرة بسيف. بدأ عدد كبير من الناس يتجمعون عند الشاطئ، وقفز بعضهم إلى الماء لسحب الخنازير العائمة التي أمكنهم الوصول إليها، بينما قفز آخرون إلى مراكبهم وانطلقوا لجمع أكبر عدد منها.

في تلك الليلة، في بيت سمعان وأندراوس القريب من الكنيس، تجمّع الأصدقاء الخمسة سرّاً لمناقشة الرؤيا الخارقة التي أظهرتها الشياطين بأن يسوع المسيح هو ابن الربّ. في حيرة من أمرهم إزاء ما حدث، اتفقوا على ألّا يتكلّموا في هذا الأمر إلّا بعد غروب الشمس، وقد حانت الآن اللحظة ليعربوا عما يجول في خلدهم. بدأ يسوع يقول، إن المرء لا يستطيع أن يثق بالأب الزائف. كان من الواضح أنه يشير إلى الشيطان. فقال أندراوس، إن الحق والباطل يخرجان من نفس الشفتين ولا يتركان أي أثر، ولا يتوقّف الشيطان عن كونه شيطاناً فقط لأنه من الممكن أنه يقول الحقيقة. ثم قال سمعان، إننا نعرف أنك لست رجلاً عادياً، ففي البداية، السمك الذي ساعدتنا في اصطياده، ثمّ العاصفة التي كادت تقضي علينا، ثمّ الماء الذي حوّلته إلى نبيذ، ثمّ الزانية التي أنقذتها من الرجم حتى الموت، والآن هذه الشياطين التي طردتها من

داخل ذلك الرجل الممسوس. فأجاب يسوع المسيح، أنا لست الشخص الوحيد الذي يستطيع إخراج الشياطين من الناس. فقال يعقوب هذا صحيح، لكنك أول من خاطبوك بأنك ابن الربّ. هذا ليس أمراً جيداً أيضاً، لأنهم ليسوا هم الذين تعرضوا للمهانة بل أنا. فقاطعه يوحنا وقال، ليست الفكرة هنا، فقد كنت موجوداً وسمعت كلّ شيء، فلماذا لم تخبرنا بأنك ابن الربّ. لكني لست متيقناً من أنني ابن الربّ. كيف عرف الشيطان إذا لم تكن أنت تعرف. سؤال وجيه، لكنّهم هم من يستطيع الإجابة على هذا السؤال. ماذا تقصد بـ «هم». أقصد الربّ الذي يدّعي الشيطان إني ابنه، ولا يمكن أن يكون هناك أحد أخبر الشيطان إلّا هو. ساد صمت كما لو أنّ كلّ واحد منهم يمنح القوى وقتاً كافياً للإعلان عن نفسها، حتى سأل سمعان أخيراً، ماذا يوجد بينك وبين الربّ. أطلق المسيح زفرة وقال، هذا هو السؤال الذي كنت أخشى أن تسأله. من كان يصدّق أن يكون ابن الربّ صيّاد سمك. لقد أوضحت بأنني لست على يقين بعد بأنني ابن الربّ. حسناً، من أنت إذاً. غطّى يسوع المسيح وجهه بيديه، وتساءل كيف يمكنه أن يبدأ بالاعتراف الذي يريدون أن يسمعوه منه، وبغتة، بدت حياته حياة شخص آخر. ربما كان الأمر كذلك، وإذا كانت الشياطين تقول الحقيقة، فإن لكلّ شيء حدث معنى مختلفاً، وقد بدأت بعض تلك الأحداث تتضح الآن في ضوء ذلك. أنزل يديه، ونظر إلى أصدقائه الواحد تلو الآخر بنظرات تشي بالتوسل، كما لو أنه يطلب منهم أن يثقوا به أكثر من أن أيّ رجل يحقّ له أن يطلب منهم ذلك. وبعد فترة صمت طويلة، قال لهم، لقد رأيت الربّ. لم ينبس أحد منهم بكلمة، انتظروا. أطرق بعينيه وواصل كلامه، لقد رأيته في الصحراء، وقال لي إنه عندما تحين الساعة، فإنه سيمنحني القوة والمجد مقابل حياتي، لكنّه لم يذكر قط أنني ابنه. سادت فترة

أخرى من الصمت. وكيف ظهر لك الربّ، سأل يعقوب. في هيئة غيمة، عامود من دخان. أنت متأكّد من أنها لم تكن ناراً. لا، لم تكن ناراً، إنما دخان، ولم يقل لي شيئاً آخر سوى أنه سيعود لرؤيتي في اللحظة المناسبة. أي لحظة تلك. لا أعرف حقاً، ربما كان يقصد اللحظة التي يجب أن أضحّي فيها بحياتي. وماذا عن هذه القوّة والمجد، متى سيمنحك إياهما. من يعرف. صمت مرة أخرى. بالرغم من شدة الحرارة في الداخل كانوا جميعاً يرتجفون. ثمّ سأل سمعان، هل أنت هو *المسيح المخلص*، الذي يجب أن ندعوه ابن الربّ لأنك جئت لتخلّص شعب الربّ من العبودية. أنا، هو *المسيح المخلص*. لا يمكن تصديق شيء أكثر من أنك ابن الربّ، قال أندراوس بعصبية. فقال يعقوب، *المسيح المخلص* أم ابن الربّ، إن ما لا أستطيع فهمه هو كيف عرف الشيطان ذلك، ولم يبح الربّ بذلك حتى لك. ثم قال يوحنا متفكّراً، أتساءل ما هي العلاقة السرية بين الشيطان والربّ. خائفين من معرفة هذه الحقيقة، أخذوا يرمقون بعضهم بعضاً بشيء من الاضطراب. ثم سأل سمعان يسوع، ماذا ستفعل. فأجاب المسيح، الشيء الوحيد الذي يمكنني أن أفعله هو أن أنتظر حتى تحين ساعتي.

ها هي ذي تقترب بسرعة، لكن حتى تحين الساعة، ستتاح للمسيح فرصتان أخريان لإظهار قدراته الإعجازية، مع أنه قد يكون من الأفضل أن نسدل ستاراً على الثانية، لأنها كانت خطأً فادحاً ارتكبه وأدّت إلى موت شجرة تين بريئة من الشرّ كما كان حال تلك الخنازير التي ألقت بها الشياطين في مياه البحيرة. وكانت المعجزة الأولى تلك هي التي جلبت انتباه كهنة أورشليم والتي قد تُحفر بحروف من ذهب على باب الهيكل لأن شيئاً من هذا لم يُر من قبل، وفي الحقيقة لن يرى من بعد. ويختلف المؤرخون عن سبب تجمع عدة أعراق وأجناس مختلفة من

البشر في تلك المنطقة التي كان موقعها بالتحديد مثار جدل أيضاً. ويدّعي بعض المؤرخين أن هذا التجمّع ناجم عن حجّ تقليدي لا تُعرف أُصوله ونشأته بوضوح؛ ويزعم آخرون أن الناس تجمعّوا في ذاك المكان بسبب إشاعة، كُذِبّت لاحقاً، مفادها أن مبعوثاً جاء من روما ليعلن عن تخفيض الضرائب، ويجادل بعض المؤرخين الذين لم يقدموا هم أنفسهم أيّ فرضيات، بأنّ السذج فقط هم الذين يصدّقون بأن هناك تخفيضاً ضريبياً يفيد دافعي الضرائب، أما الحجّاج من ذوي الأصول الغامضة، فيمكن التحقق منهم بسهولة إذا بذل الذين تروق لهم تخيّلات كهذه شيئاً من الجهد، وأجروا بحثاً صغيراً. ومما لا جدال فيه فإن حوالي أربعة أو خمسة آلاف شخص جاؤوا إلى تلك البقعة، ماعدا النساء والأطفال، ثم اكتشفوا أنه لا يوجد لديهم طعام. كيف يمكن لهؤلاء الناس الحذرين الذين تعوّدوا على الانتقال أن يسافروا من دون التزود بالطعام، حتى في رحلة قصيرة كهذه، حتى يجدوا أنفسهم بغتة أنهم لا يمتلكون كسرة خبز أو قطعة لحم، أمر لا يستطيع أحد تفسيره. لكن الحقائق حقائق، والحقائق تقول إن عدداً يتراوح بين اثني عشر ألف وخمسة عشر ألف شخص، هذه المرة معهم نساء وأطفال، خرجوا للسفر ولم يتزودوا بالطعام، وساروا ساعات وساعات وجازفوا بأن يتهاووا على الطريق من شدة الضعف والإعياء، إلّا إذا حالفهم الحظ وصادفوا عابر سبيل وتصدق عليهم وأنقذهم. ولم يعد في قدرة الأطفال الذين هم عادة أول من يشتكي ويتذمر في أيّ محنة الاحتمال فراح بعضهم يبكي ويصرخ، أمّاه، أنا جائع، ولم يعد الوضع يُحتمل. وصادف أن يسوع المسيح ومريم المجدلية برفقة سمعان وأندراوس ويعقوب ويوحنا الذين بدأوا يرافقون يسوع أينما ذهب منذ حادثة الخنازير وما أسفرت عنه، كانوا مع هذه المجموعة من الناس، لكنهم

بخلاف الآخرين، كانوا مزودين بالخبز والسمك. إن تناول الطعام في وسط هؤلاء البشر لا يدلّ على أنانية خالصة فحسب، بل يعرّض من يتناوله أمامهم كذلك إلى خطر التهجم عليه لأن الضرورات تبيح المحظورات، وإن أكثر أشكال العدالة فعالية، كما علّمنا قابيل، هو ما ننفذه نحن بأيدينا. لم يتخيّل يسوع لوهلة أنه سيتمكن من مساعدة هذه الأعداد الكبيرة الجائعة، لكن يعقوب ويوحنا قالا له، إذا كان بمقدورك أن تُخرج شياطين من جسم رجل، فلا بد أنك تستطيع أن توفر لهؤلاء المساكين الطعام الذي يحتاجون إليه. كيف يمكنني أن أفعل ذلك ونحن لا نملك إلّا كمية قليلة من الطعام الذي أحضرناه لأنفسنا. بما أنك ابن الربّ فلا بد أنك تستطيع أن تفعل شيئاً. نظر المسيح إلى مريم المجدلية التي قالت له، لا رجعة في ذلك الآن. كان وجهها مفعماً بالشفقة، مع أن يسوع المسيح لم يعرف هل هو المقصود بهذه الشفقة أم تلك الجموع الجائعة المرهقة. فقد أخذ الأرغفة الستّة التي أحضروها معهم، وقسّم كلّ رغيف إلى قطعتين، وأعطاهما لرفاقه، ثمّ فعل ذات الشيء بالسمكات الستّ، وأبقى له رغيفاً وسمكة، وقال اتبعوني وافعلوا كما أفعل. إننا نعرف ما فعله، لكننا لن نعرف قط كيف فعل ذلك. فقد ذهب من شخص إلى شخص، وهو يقسّم الخبز والسمك ويوزعه عليهم، فحصل كلّ واحد منهم على رغيف كامل وسمكة كاملة. وفعلت مريم المجدلية وأصدقاء المسيح الأربعة ذات الشيء، وطافوا على الجمع مثل ريح رحيمة تهبّ فوق حقل مزروع ترفع سيقان الذرة المتدلية، الواحدة تلو الأخرى، على صوت حفيف الأوراق التي هي الآن أفواه تمضغ وتشكر. إنه *المسيح المنتظر*، قال بعضهم. وأصرّ آخرون، إنه ساحر، لكنّ لم يخطر ببال أحد في هذه الجموع أن يسأل هل يمكن أن يكون

هو ابن الربّ. فقال لهم يسوع المسيح، ليسمع أولئك الذين لهم آذان، إذا لم تقسّم، فلن تتضاعف.

كان من حقّ المسيح فقط أن يعلّم هذه القاعدة عندما تتاح له الفرصة. لكنّه كان مخطئاً لو أنه طبقّها بحذافيرها في المكان غير المناسب، كما حدث لشجرة التين التي ذكرناها آنفاً. فقد كان يسير في البرية عندما شعر بالجوع. وعندما رأى شجرة تين خضراء من بعيد، ذهب إليها ليرى إن كانت مثمرة. وعندما اقترب منها، لم يجد سوى أوراق لأن موسم التين لم يحن بعد. عندها قال المسيح للشجرة، لن تنمو ثمار أخرى على أغصانك. فجفّت شجرة التين على الفور، فقالت له مريم المجدلية التي كانت معه، يجب أن تعطي أولئك المحتاجين لكن لا تطلب شيئاً من الذين لا يملكون شيئاً ليعطونك إياه. مفعماً بالندم، حاول يسوع المسيح أن يعيد شجرة التين إلى الحياة، لكنّها يبست وماتت.

صباح سديمي. نهض صيّاد السمك من على حصيرته، وراح ينظر إلى البياض من خلال شق في الباب، وقال لزوجته، لن أُنزل المركب اليوم إلى البحيرة، ففي هذا الضباب الكثيف، حتى السمك يضل طريقه. واعترت جميع الصيّادين الآخرين، من ضفة إلى أخرى، نفس مشاعر ذلك الصياد، واستخدموا كلماته ذاتها تقريباً، وهم في حيرة من أمرهم من تشكل هذا الضباب الذي يندر حدوثه في هذا الوقت من السنة. رجل واحد فقط، ليست مهنته صيد السمك بالرغم من أنه يعيش مع صيّادي السمك ويعمل معهم، توجّه إلى باب البيت ورأى أنّ هذا هو اليوم الذي طالما انتظره. نظر إلى السماء المكفهرة وقال، سأخرج إلى الصيد. من وراء كتفه، سألته مريم المجدلية، هل عليك أن تذهب. فأجاب يسوع المسيح، طالما انتظرت هذا اليوم. ألن تتناول شيئاً. العيون تصوم عندما تُفتح في الصباح، لكنّه عانقها، وقال، أخيراً، سأعرف من أنا وماذا يُنتظر مني. وبثقة مفاجئة، لأنه لم يكن بوسعه رؤية حتى قدميه في هذا الضباب الكثيف، هبط المنحدر ووصل إلى حافة الماء، ثم ركب أحد تلك المراكب الراسية هناك، وراح يجدّف نحو الفضاء اللا مرئي في وسط البحيرة. إن الصوت المنبعث من المجاديف وهي تحتك على جانبي المركب والمويجات المتشكلة فوق سطح الماء، أبقت

الصيّادين صاحين مع أن زوجاتهم قلن لهم، إذا لم تتمكنوا من الخروج إلى الصيد، فحاولوا على الأقل أن تناموا قليلاً. بقلق واضطراب شديدين، راح القرويّون يحدّقون في الضباب الكثيف نحو البحيرة بانتظار أن تتوقف تلك الضوضاء المنبعثة من المجاديف حتى يتمكنوا من العودة إلى بيوتهم وإغلاق أبوابهم بالعوارض الخشبية والأقفال، وكانوا يعرفون جيداً أن الذي في الضباب هو الذي يظنون أنه هو، وقد قرّر أن يهبّ في ذلك الاتجاه، لأن هبّة واحدة منه يمكنها أن تطرحهم أرضاً. مكّن الضباب يسوع المسيح من المرور، إلّا أن عينيه لم تتمكنا من رؤية أكثر من طرف المجدافين ومؤخّرة المركب، بلوحه الخشبي البسيط الذي يُستخدم كمقعد، أما ما تبقى منه فقد شكلّ جداراً من الفراغ، في البداية، باهت ورمادي. عندما بدأ المركب يقترب من مقصده. انتشر نور أحال الضباب إلى لون أبيض براق يرتعش كأنّه يبحث عن صوت في الصمت. تحرّك القارب إلى داخل دائرة الضوء، ثم توقّف. وصل إلى منتصف البحيرة. كان الربّ جالساً في المقعد في مؤخّرة القارب.

بخلاف المرة الأولى، لم يظهر الربّ في هيئة غيمة أو عامود من الدخان لأنهما كانا سيتبددان ويصبحان هباء منثوراً في وسط هذا الضباب. هذه المرة، كان يبدو في هيئة رجل ضخم، متقدم في السن، بلحية عظيمة مسترسلة فوق صدره، لا يغطي شيء رأسه، وشعره منسدل طليقاً. وكان وجهه عريضاً قوياً، وشفتاه مكتنزتين لا تكادان تتحركان عندما بدأ يتكلم. كان يرتدي ثوباً مثل يهودي غني، سترة أرجوانية طويلة تحت رداء أزرق بأكمام طويلة موشى بجدائل من الذهب، وكان الخفّ السميك الذي ينتعله يدلّ على أنه يمشي كثيراً، كثير الأسفار. عندما يذهب، سنسأل أنفسنا، كيف كان شعره، لكنه لم

يستطع أن يتذكر هل هو أبيض أم أسود أم بني، لكن من عمره، فلا بدّ أنه أبيض، لكن أشخاصاً يستغرق شعرهم فترة طويلة حتى يبيّض، وقد يكون أحدهم. رفع يسوع المسيح المجدافين ووضعهما داخل المركب كما لو أنه يهيئ نفسه لبدء حديث طويل، ثم قال، ها أنا هنا. ببطء وبانتظام، راح الربّ يمسّد طيّات الثوب فوق ركبتيه، ثم أضاف، حسناً، ها نحن هنا. كان الصوت يشي بابتسامة مع أن شفتيه لم تكادا تتحرّكان، وارتعشت شعرات شاربه ولحيته الطويلة مثل اهتزاز جرس. قال يسوع المسيح، لقد جئت لأعرف من أنا وماذا عليّ أن أفعل لأنجز الجزء المتعلق بي من العهد. فقال الربّ، هذان سؤالان، دعنا نجيب على كل منهما على حدة، من أين تحبّ أن نبدأ. بالسؤال الأول، قال المسيح، وكرر السؤال، من أنا. ألا تعرف. كنت أظن أنني أعرف، كنت أظن أنني ابن أبي. أي أبٍ تقصد. أبي، يوسف النجار بن إلي، أم هو يعقوب، لم أعد متأكّداً. تقصد يوسف النجار الذي صُلب. لم أكن أعرف أنه يوجد لديّ أب آخر. خطأ مأساوي من جانب الرومان، فقد مات ذلك الأب المسكين وهو بريء لأنه لم يرتكب أي جريمة. قلت ذلك الأب، إذاً يوجد أب آخر. إني فخور بك، أستطيع أن أرى أنّك فتى ذكي ولماح. لا حاجة للذكاء، لأن الشيطان هو الذي أخبرني. هل أقمت علاقة مع الشيطان. لا، لم أقم علاقة مع الشيطان، لأن الشيطان هو الذي جاء يبحث عني. وماذا سمعت من شفتيه. بأنني ابنك. هزّ الربّ رأسه ببطء موافقاً وقال له، نعم، أنت ابني. لكن كيف يمكن أن يكون إنسان ابن الربّ. إن كنتَ ابن الربّ، فأنت لست إنساناً. لكني إنسان، أتنفّس وآكل وأنام وأحبّ كالإنسان، لذلك فأنا إنسان وسأموت كإنسان. في حالتك لست متيقناً تماماً. ماذا تقصد. هذا هو السؤال الثاني، لكن أمامنا وقت كاف، ماذا أجبت الشيطان عندما قال لك إنّك

ابني. لم أجب، بل انتظرت حتى يحين اليوم الذي أقابلك فيه، ثمّ أخرجت الشياطين من جسم ذلك الرجل الممسوس الذي كان يعذّبه، الرجل الذي كان يطلق على نفسه اسم جحفل ويقول إنه عدة أشخاص. أين هم الآن. لا أعرف. قلت إنّك أخرجت تلك الشياطين. بالتأكيد، إنك تعرف أكثر مني بأنه عندما تُطرد شياطين من جسد، فلا أحد يعرف إلى أين تذهب. وما الذي يجعلك تظن أنني أعرف بأمور الشيطان. لأنك الربّ، فلا بد أنك تعرف كلّ شيء. إلى حد ما، إلى حد ما فقط. ما هو هذا الحد. الحد الذي يصبح فيه من المهم التظاهر بأنني لا أعرف. على الأقل لا بد أنك تعرف كيف أصبحت ابنك ولماذا. يمكنني أن أرى بأنّك أصبحت أكثر ثقة، ولن أقول نافد الصبر عما كنت عليه في المرة الأولى التي رأيتك فيها. كنت آنذاك فتى وخجولاً، لكني كبرت الآن. وألست خائفاً. لا. ستصبح خائفاً، لأن الخوف يأتي دائماً حتى إلى ابن الربّ. أتقصد أنه يوجد لديك آخرون. أي آخرون. أبناء طبعاً. لا، لا أحتاج إلّا إلى ابن واحد. وكيف أصبحتُ ابنك. ألم تخبرك أمّك. وهل تعرف أمّي. لقد أرسلت لها ملاكاً شرح لها هذه الأمور، وكنت أظن أنها أخبرتك. ومتى جاء ذلك الملاك إلى أمّي. دعني أرى، ما لم أكن مخطئاً، كان ذلك بعد أن غادرت البيت في المرّة الثانية، وقبل أن تحوّل الماء بإعجوبة إلى نبيذ في قانا. إذاً كانت أمّي تعرف ولم تقل لي شيئاً، وعندما قلت لها إني رأيتك في الصحراء لم تصدقني، لكن لا بدّ أنها أدركت أنني كنت أقول الصدق بعد أن ظهر لها الملاك، مع أنها لم تبح لي بذلك. تعرف كيف هنّ النساء، فأنت تعيش مع واحدة منهن، ولديهن حسّاسيتهن ووساوسهن الصغيرة. أي حسّاسيات ووساوس. دعني أشرح لك، لقد مزجتُ بذرتي ببذرة أبيك قبل أن تحبل بك أمك، كانت أسهل طريقة وأقلّها بروزاً. إن كانت البذور قد اختلطت،

فكيف يمكنك أن تكون متيقناً من أنني ابنك. أوافقك على أنّه ليس من الحكمة الشعور بالثقة التامة بكل شيء، لكني واثق من وجود بعض المزايا في أن تكون الربّ. ولماذا تريد ابناً. لا يوجد لديّ ابن في السماء، لذلك أردت أن يكون لي ابن على الأرض، وهو أمر غير مألوف حتى في الأديان التي يوجد فيها آلهة وإلهات يستطيع أحدهم إنجاب أطفال للآخر، ورأينا بعضهم ينزلون إلى الأرض، ربما بهدف تغيير المكان والمشهد، وفي الوقت نفسه، فإنهم يفيدون البشرية بخلق أبطال وأعاجيب أخرى. ولماذا أردت الابن الذي هو أنا. ليس من أجل تغيير المشهد. لماذا إذن. لأنني أحتاج إلى أحد يساعدني هنا على الأرض. لكن بما أنك الربّ، فمن المؤكد أنك لست بحاجة إلى مساعدة. هذا هو السؤال الثاني.

في فترة الصمت التي أعقبت ذلك، يستطيع المرء أن يسمع في خضمّ الضباب، مع أنه لا يستطيع أن يعرف من أي اتجاه، صوت جلبة رجل يسبح نحو المركب. ومن اللهاث المنبعث يمكن تقدير أنه ليس سبّاحاً ماهراً وعلى وشك أن يصاب بالإعياء. خيّل للمسيح أنه رأى الربّ يبتسم وشعر بأنه يتعمّد أن يمنح السبّاح مزيداً من الوقت حتى يصل إلى دائرة الهواء النقي المحيط بالقارب. ظهر السبّاح فجأة على ميمنة القارب. كان يسوع المسيح ينظر إلى ميسرة القارب ورأى طيفاً مظلماً خيّل إليه في البداية أنه خنزير، أذناه منبثقتان خارج الماء، لكن بعد عدة ضربات أخرى تبين له أنه رجل أو مخلوق بهيئة إنسان. أدار الربّ رأسه باتجاه السبّاح، لا بدافع فضول كسول، إنما باهتمام حقيقي كما لو أنه يشجعه على أن يبذل جهداً أخيراً واحداً. وكان لهذه الالتفاتة، ربما لأنها صدرت من الربّ، تأثير فوري، فأصبحت الضربات النهائية سريعة ومنتظمة كما لو أنّ السبّاح لم يسبح كلّ تلك المسافة من

الشاطئ. كانت يداه اللتان أمسكتا حافة القارب، مع أن نصف رأسه كان لا يزال في الماء، ضخمتين وقويتين بأظافر قوية، يدا شخص له جسم لا بد أنه فارع الطول، قوي، ومتقدم في العمر، مثل الربّ. ترنّح المركب قليلاً، وبرز رأس السبّاح من الماء، ثمّ جذعه، وتناثرت منه قطرات الماء في كل مكان، ثمّ برزت ساقاه. حوت لوياثان يصعد من الأعماق. تبين ليسوع أنه *الراعي*، وقد عاد للظهور بعد كل هذه السنين. لقد جئتُ لأنضم إليكما، قال، وجلس على طرف القارب، على مسافة متساوية بين يسوع المسيح وبين الربّ. ومن الغرابة أن المركب لم يمل إلى جانبه هذه المرة، كما لو أن الراعي لا وزن له، أو أنه كان مرفوعاً ولم يكن جالساً في واقع الحال. لقد جئت للانضمام إليكما، كرر قائلاً، وآمل أن أكون قد وصلت في الوقت المناسب لأشارككما في الحديث. كنا نتحدث لكننا لم نصل إلى لبّ الموضوع بعد، أجابه الربّ، ثم التفت نحو يسوع المسيح وقال له، هذا هو الشيطان الذي كنا نتحدث عنه. نقلّ المسيح عينيه من واحد إلى الآخر، ورأى أنه بدون لحية الربّ، فقد يظن المرء أنهما توأم، مع أن الشيطان كان أصغر سناً والتجاعيد على وجهه أقل. فقال المسيح، إنني أعرفه جيداً، فقد عشت معه أربع سنوات وكان يُعرف باسم *الراعي*. فأجابه الربّ، كان يجب أن تعيش مع أحد، لم يكن بالإمكان أن تعيش معي، ولم تكن تريد أن تعيش مع أسرتك، لذلك لم يبق أحد غير الشيطان. هل جاء يبحث عني، أم أنك من أرسله إليّ. لا هذه ولا تلك، لنقل إننا اتفقنا على أن ذلك كان أفضل حلّ. ألهذا السبب، عندما تكلّم من خلال الرجل الممسوس الذي غادره، دعاني ابنك. تماماً. هذا يعني أنكما كلاكما أبقيتماني في الظلام. كما يحدث لجميع البشر. لكنك قلت إنني لا أنتمي إلى البشر. هذا صحيح، لكنك كنت ما يمكن تسميته تقنياً جُسّدت.

والآن ماذا تريدان مني. أنا من يريد منك شيئاً، لا هو. لكن كلاكما هنا وقد لاحظت أنك لم تتفاجأ بظهور *الراعي*، لا بدّ أنك كنت تتوقّع مجيئه. ليس تماماً، بالرغم من أنه من حيث المبدأ على المرء أن يتوقّع ظهور الشيطان دائماً. لكن إذا كانت المسألة التي علينا أن نحلّها تخصنا وحدنا، فماذا يفعل هنا ولماذا لا تطرده. يمكن للمرء أن يطرد الرعاع الذين يعملون في خدمة الشيطان إذا أصبحوا مزعجين بالكلمة أو بالفعل، لكن ليس إبليس نفسه. إذاً هو موجود هنا لأن الحديث يتعلق به أيضاً. يا بني، لا تنس ما سأقوله لك أبداً، كلّ ما يتعلّق بالربّ يتعلّق بالشيطان أيضاً. لقد سمع *الراعي* الذي سنطلق عليه هذا الاسم في بعض الأحيان، بدلاً من أن نذكره باسمه الحقيقي، سمع ذلك من دون أن يبدو أنه يتنصت أو يبدي اهتماماً، كما لو كان في تناقض مع إعلان الربّ البالغ الأهمية. وسرعان ما تبين أنّ عدم انتباهه لم يكن حقيقياً، لأنه عندما قال يسوع المسيح، دعونا ننتقل إلى السؤال الثاني، شنّف الراعي الكبير أذنيه في الحال.

أخذ الربّ نَفَساً عميقاً، وتطلع إلى الضباب الكثيف حوله، وهمهم بنبرة أحد اكتشف للتو اكتشافاً مهماً، هذا ليس كما هو الحال عندما تكون في الصحراء، ثم التفت إلى المسيح، توقّف قليلاً، ثمّ بدأ يتكلم كأنه يسلم نفسه إلى المحتوم، باستياء، لقد وُضع ابني في قلوب الرجال الذين خلقهم الربّ، بالطبع فأنا أشير إلى نفسي، لكن هذا الاستياء هو إحدى الصفات التي تجعل الإنسان في صورتي ومثالي، أسكنتها في قلبي، وبدلاً من أن يضعف ازداد قوة مع الزمن وأصبح أكثر إلحاحاً وإصراراً. توقّف الربّ لوهلة ليفكّر بإمعان في هذه الديباجة قبل أن يتابع كلامه، خلال الأربعة آلاف سنة وأربع سنوات الأخيرة كنت ربّ اليهود، وهم قوم مشاكس وصعب في طبيعته، لكن بصورة عامة، كانت

الأمور تسير معهم على ما يرام تقريباً، وقد بدأوا يأخذونني بجدية الآن، ومن المرجح أنهم سيواصلون ذلك في المستقبل المنظور. فقال له يسوع، إذاً أنت راضٍ. أنا راضٍ ولست راضياً، أو بالأحرى، كنت سأكون راضياً لولا قلبي المضطرب الذي يقول لي دائماً، لقد أحرزت شيئاً جيداً بعد أربعة آلاف سنة من الاختبارات والمحن لن تتمكن القرابين على المذابح، مهما بلغت، من تعويضها، لأنك لا تزال ربّ عدد قليل من البشر الذين يحتلّون جزءاً صغيراً جداً من هذا العالم الذي خلقته بكلّ ما عليه من أشياء، لذلك، قل لي يا بني هل يتعين عليّ أن أكون راضياً تماماً عن هذا الوضع الكئيب. فأجاب المسيح، لم أخلق أي عالم بنفسي، لذلك لست في موقع يمكنني من إطلاق حكم. صحيح، لا تستطيع أن تطلق حكماً، لكنك تستطيع أن تساعد. كيف يمكنني أن أساعد. في نشر كلمتي، في مساعدتي لأن أصبح ربّ عدد أكبر من البشر. لم أفهم قصدك. إذا قمت بدورك، بمعنى آخر، الدور الذي رسمته لك في خطتي، فإن لديّ ثقة تامة بأنه خلال القرون الستّة القادمة أو زهاء ذلك، على الرغم من كلّ الصعوبات والعقبات التي سنواجهها، فإني لن أصبح ربّ اليهود فقط إنما ربّ الذين سنطلق عليهم أيضاً كاثوليك، من اليونانية. وما هو هذا الدور الذي رسمته لي في خطتك. دور الشهيد، يا بني، دور الضحيّة الذي هو أفضل دور على الإطلاق من أجل تكاثر أيّ دين وإثارة الحماسة. جعل الربّ كلمتي شهيد وضحيّة تبدوان مثل الحليب والعسل على لسانه، لكن المسيح أحسّ بقشعريرة مفاجئة في أوصاله، كما لو أنّ الضباب قد أطبق عليه من كل جانب، بينما راح إبليس يرمقه بنظرات غامضة امتزج فيها الفضول العلمي والشعور بالكراهية.

لقد وعدتني بالقوة والمجد، قال يسوع المسيح متلعثماً وهو يرتجف

من البرد. وأنا أنوي أن أفي بهذا الوعد، لكن تذكّر اتفاقنا، فإنك ستنالهما بعد أن تموت. وماذا سأستفيد إذا نلت القوّة والمجد بعد أن أموت. لن تكون ميتاً بالمعنى التام للكلمة، فلكونك ابني فإنك ستكون معي، أو في داخلي، لم أحسم أمري بعد بهذا الأمر. ألم تقرّر بعد كيف لن أكون ميتاً. صحيح، فإنك ستصبح مثلاً مبجّلاً في الكنائس وعلى المذابح إلى درجة أن البشر سينسون أنّني أنا الأول باعتباري الربّ، لكن هذا لا يهم، يمكننا أن نتقاسم الوفرة، ينبغي ألّا يكون هناك نقص في أي شيء. نظر يسوع المسيح إلى *الراعي* ورآه يبتسم ففهم. لقد فهمت الآن لماذا إبليس موجود هنا، فإذا انتشرت سلطتك وشملت عدداً أكبر من البشر في أماكن أخرى، فإن قوّته ستنتشر أيضاً لأن أرضه ستكون مثل أرضك. كلامك سليم يا بني، وأنا سعيد بأنك سريع البديهة، لأن معظم البشر يتجاهلون الحقيقة بأنّ شياطين أحد الأديان لا تستطيع أن تعمل في دين آخر، تماماً مثل أيّ إله يواجه إلهاً آخر، لا يستطيع أن يهزمه ولا يمكن أن يُهزم أمامه. وكيف سيكون موتي. ينبغي أن يكون موت شهيد مؤلم، وإذا كان بالإمكان، مخزياً، الأمر الذي يجعل المؤمنين يزدادون تفانياً وإيماناً. ادخل في صلب الموضوع وقل لي أي ميتة يمكنني أن أتوقّعها. موت مؤلم ومخز على الصليب. مثل أبي. إنك تنسى بأنّي أنا أبوك. لو كانت لي حرية الاختيار لاخترته هو بالرغم من وسمه بالخزي. لكن تم الاختيار ولا رأي لك في ذلك. أريد أن ننهي عهدنا وألّا تعود لي صلة بك، فأنا أريد أن أعيش مثل أيّ إنسان آخر. كلمات فارغة يا بني، ألا ترى بأنّك تحت سلطتي، وأن كلّ هذه الوثائق التي نطلق عليها مواثيق واتفاقيات وعهود أو عقود يمكن تقليصها إلى بند واحد، حتى لا نهدر المزيد من الورق والحبر، بند يقول بصراحة إن كلّ ما في الشريعة السماوية ضروري، حتى

الاستثناءات، وبما أنك، يا بني، استثناء، فإنك ضروري تماماً كالشريعة التي أنا واضعها. لكن بالقدرة التي تملكها، ألن يكون الأمر أسهل وأكثر صدقاً لو أنك خرجت أنت وغزوت تلك البلدان والأقوام الأخرى بنفسك. للأسف، لا أستطيع ذلك، فحسب الاتفاق الملزم بين الآلهة، يمنع التدخّل مباشرة، فهل يمكنك أن تتخيّلني في وسط ساحة عامة، محاطاً بالأغيار والوثنيين، وأنا أحاول إقناعهم أن إلههم زائف وأنا هو إلههم الحقيقي؛ إن هذا شيء لا يفعله إله لإله آخر، فضلاً عن ذلك، لا يحبّ إله أن يأتي إله آخر ويتصرف في بيته ما يحرّمه في بيته هو، لذلك فإنه يستخدم بعض البشر للقيام بذلك بالنيابة عنه. نعم يا بني، فالإنسان مجرد قطعة من الخشب يمكن استخدامها في أيّ شيء، منذ اللحظة التي يولد فيها حتى اللحظة التي يموت فيها، فهو مستعدّ دائماً للطاعة؛ أرسله فيذهب، قل له توقّف فيتوقّف، اطلب منه أن ينسحب فينسحب، بالسلام أو بالحرب، بشكل عام، فإن البشر هم أفضل شيء حدث للآلهة. والخشب الذي صُنعت منه، بما أنني أنتمي إلى البشر، كيف ستستخدمه بما أنني ابنك. ستكون الملعقة التي أغمسها في البشرية وأخرجها مملوءة بالناس الذين يؤمنون بالإله الجديد الذي أنوي أن أكونه. ثم سآكلهم. لست بحاجة إلى أن آكل الذين يأكلون أنفسهم.

عاد يسوع المسيح وأنزل مجدافيه في الماء، وقال، الوداع، سأعود الآن إلى البيت، وبوسعكما أن تعودا كما أتيتما، أنت ستعود سباحة، وأنت بالاختفاء بنفس الغموض الذي ظهرت فيه. لم يحرّك الربّ ولا إبليس ساكناً، فأضاف المسيح ساخراً، إذاً تفضّلان العودة بالقارب، وهذا أفضل، سأعود بكما إلى الشاطئ بنفسي ليرى الجميع كيف أن الربّ وإبليس متشابهان وعلى وفاق. وجّه المسيح القارب نحو الاتجاه الذي جاء منه، وراح يجذّف بقوة، ودخل في لجة الضباب الذي كان

كثيفاً جداً فلم يعد يرى الربّ أو وجه إبليس. أحسّ يسوع المسيح بالحيوية والسعادة والقوة على نحو غير معتاد. كانت مقدمة المركب ترتفع مع كلّ ضربة بالمجداف مثل رأس حصان في سباق، وراح يجدّف بقوة أكبر حتى اقتربوا من الشاطئ كثيراً، وتساءل كيف ستكون ردة فعل الناس عندما يقول لهم إن صاحب اللحية هو الربّ، والآخر هو إبليس. ألقى يسوع نظرة من فوق كتفه إلى الشاطئ أمامه، فرأى نوراً، فقال لقد وصلنا، وواصل التجديف، متوقّعاً أن ينزلق المركب في أيّ لحظة فوق طبقة الطين السميكة، وأن يسمع صوت احتكاك الحصى الصغيرة في الأسفل، لكن مقدمة المركب كانت تشير إلى أنه كان لا يزال في وسط البحيرة. أما النور، فقد كان نفس دائرة الضوء السحرية، الفخّ البراق الذي خيّل ليسوع المسيح بأنه كان قد تجاوزه. خفض رأسه، وشبك ذراعيه فوق ركبتيه من شدة الإعياء، وقد وضع رسغاً فوق الآخر، كما لو أنه ينتظر أن تُقيَّد يداه، حتى إنه نسي أن يسحب المجدافين، وأصبح على قناعة بأن الإقدام على أيّ عمل آخر سيكون عقيماً. لكنّه لن يكون أول من يتحدث. لن يقرّ بالهزيمة بصوت مرتفع ويطلب المغفرة لأنه تحدّى مشيئة الربّ، وكذلك مصالح إبليس بشكل غير مباشر، إبليس الذي سيكون هو المستفيد من نتائج خطته. كانت فترة الصمت قصيرة. لا يزال جالساً على المقعد، راح الربّ يسوّي طيّات ثوبه وقلنسوة رأسه، ثمّ بجدية وهمية، مثل قاضٍ على وشك أن يصدر حكمه، قال، لنبدأ من جديد، لنعد إلى حيث كشفت لك أنّك في قوّتي، لأنك حتى ترضخ لهذه الحقيقة، فإنك تضيّع وقتي ووقتك. فقال المسيح موافقاً، لنبدأ من جديد، وأضاف محذّراً، أرفض أن أجترح معجزات أخرى، ومن دون معجزات فإن خطتك ستبوء بالفشل، لأن رذاذاً من السماء فقط لن يروي عطشاً حقيقياً. ستكون محقّاً إذا لم

تكن قادراً على صنع معجزات. ألا أمتلك القدرة. يا لها من فكرة، إني أصنع معجزات كبيرة وصغيرة في وجودك كي تجني الفوائد بالنيابة عني، لكنك تؤمن بالخرافات، وتعتقد بأن صانع المعجزة يجب أن يكون واقفاً بجانب سرير المريض حتى تتم المعجزة، لكني إذا أردت ذلك، رجل على سرير الموت وحيداً، لا يوجد بجانبه أحد، لا طبيب ولا ممرضة ولا قريب محبوب يراه أو يسمعه؛ إذا أردت، إني أقول لك، فإن الرجل سيعيش وسيستمر في العيش كأن شيئاً لم يحدث له. إذاً لماذا لا تفعل ذلك. لأنه سيظن أنّه شفي بوسائله الخاصة، وسوف يخرج إلى الناس ويتبجّح بالقول إنني لم أمت، ومع كلّ الغرور الموجود في هذا العالم الذي خلقته، لا توجد لديّ النية للتشجيع على مثل هذا الهراء. إذاً فإن كلّ معجزاتي هي معجزاتك. إن كلّ ما فعلته وما ستفعله، وحتى لو واصلت معارضة مشيئتي وإرادتي، وخرجت إلى العالم وأنكرت أنك ابن الربّ، فإني سأصنع معجزات كثيرة في الأماكن التي تمرّ فيها حتى تضطر إلى قبول امتنان الذين يشكرونك، وبذلك فهم يشكرونني أنا. إذاً لا مندوحة من ذلك. على الإطلاق، ولا تؤدي دور الحمل الذي أُخذ ليذبح كضحيّة وهو يقاوم ويثغو على نحو يثير الشفقة، لأن مصيرك قد حُتم، والسيف ينتظر. ألنا هو ذلك الحمل. إنك حمل الربّ، ابني، الذي سيحمله الربّ بنفسه إلى المذبح الذي نعدّه هنا.

التفت يسوع المسيح إلى *الراعي*، لا طلباً للمساعدة، إنما للحصول على إشارة، لأن فهم الراعي للعالم لا بد أن يكون مختلفاً، وهو ليس من البشر ولم يكن قط، أو إلهاً، لذلك فإن نظرة معينة أو حاجباً مرفوعاً قد يوحي بإجابة تمكّن يسوع المسيح من تخليص نفسه، على الأقل مؤقتاً، من هذا الوضع الصعب. لكن كلّ ما قرأه في عيني *الراعي* كان

نفس الكلمات التي قالها له الراعي عندما طرده من القطيع وقال له إنك لم تتعلّم شيئاً، هيا اغرب عن وجهي. أدرك المسيح الآن أن عصيان الربّ مرة لا يكفي، فبعد أن رفض أن يقدم على مذبحه الحمل قرباناً، يجب عليه كذلك أن يرفض أن يكون حمله، فلا يستطيع المرء أن يقول للربّ نعم ثم يقول له لا، كما لو أنّ نعم ولا هما اليد اليسرى واليد اليمنى، والعمل الجيد الوحيد هو الذي تقوم به كلتا اليدين. لأنه على الرغم من جميع مظاهر القوّة التي يظهرها، الكون والنجوم، والبرق والرعد والأصوات والنيران على قمم الجبال، لم يجبرك الربّ على أن تذبح الحمل، ولم يكن طموحك أن تقتل الحيوان، ولا يمكن أن تمتصّ كلّ الرمال في الصحراء دمه؛ انظر كيف أنه وصل إلينا، ذاك الخيط القرمزي الذي سيتبعنا أينما ذهبنا، أنت والربّ وأنا. قال المسيح للربّ، سأقول للناس إنني ابنك، الابن الوحيد للربّ، لكني لا أظن أن هذا يكفي لتوسيع مملكتك حتى في أرضك كما ترجو. أخيراً بدأت تتكلّم كابن حقيقي، فقد تخلّيت عن أساليب التمرّد المتعبة التي بدأت تثير حنقي بها؛ لقد بدأت تفكّر كما أفكّر، لذلك اعلم أنه مهما كان عرقهم أو لونهم أو عقيدتهم أو فلسفتهم، فإن شيئاً واحداً يجمعهم كلّهم، شيئاً واحداً فقط، ولن يجرؤ أحد منهم على قول هذا الشيء، سواء أكان فقيراً أم غنياً، عجوزاً أم شاباً، حكيماً أم جاهلاً، ولا علاقة لي به. وماذا يمكن أن يكون، سأله المسيح باهتمام. جميع البشر، أجاب الربّ، كأنه يعطي حكمة مهمة، مهما كانوا وحيثما كانوا ومهما فعلوا، فهم آثمون، لأن الخطيئة لا تنفصل عن الإنسان، كما أن الإنسان لا ينفصل عن الخطيئة، مثل قطعة نقدية معدنية، اقلبها وما ستراه هو الخطيئة. لم تجب على سؤالي. ها هو جوابي، إن الكلمة الوحيدة التي لا يستطيع إنسان أن يقولها والتي لا تنطبق عليه هي كلمة

التوبة، لأن كل واحد منهم استسلم لإغراء ما، واعتنق فكرة شريرة، وخرق قاعدة، وارتكب جريمة، خطيرة كانت أم بسيطة، أو ردّ روحاً محتاجة، أو أهمل واجباً، أو ازدرى ديناً وأتباعه، أو ابتعد عن الربّ؛ لجميع هؤلاء البشر يجب أن تقول فقط، توبوا، توبوا، توبوا. لكن لماذا تضحّي بحياة ابنك من أجل شيء صغير، وكلّ ما عليك أن تفعله هو أن ترسل نبياً. لقد ولّى الزمن الذي يستمع فيه الناس إلى الأنبياء، وأصبح يتعين الآن إعطاؤهم جرعة أقوى من الدواء، المعالجة بالصدمة، ملامسة قلوب البشر وإثارة مشاعرهم. كأن يتدلّى ابن الربّ من صليب. نعم، لمَ لا. وماذا يفترض أن أقول أيضاً لهؤلاء الناس غير أن أحثّهم على التوبة إذا ملّوا سماع رسالتك وأصبحوا يعيرونك إذناً صماء. نعم، أوافقك الرأي، قد لا يكون كافياً أن تطلب منهم التوبة، لذلك عليك أن تستخدم مخيّلتك، وألّا تقدم أعذاراً، انظر إلى الطريقة المخادعة التي تجنّبت من خلالها تقديم حملك قرباناً لي. كان ذلك سهلاً لأنه لا يوجد لدى الحيوان شيء يتوب من أجله. إجابة حاذقة لكنها خالية من أي معنى، مع أن للكلمات الخالية من المعنى سحرها أيضاً، يجب أن يُترك الناس في حيرة من أمرهم، أن يخافوا لأنّهم لا يفهمون وأن هذا عيبهم. إذاً يجب أن أختلق لهم قصصاً. نعم، قصص، أمثال، حكايات أخلاقية، حتى لو كانت تهدف إلى تحريف الشريعة المقدّسة بعض الشيء، لا تلق بالاً لذلك، إذ يُعجب الخجولون بأنفسهم عندما تمنح لهم بعض الامتيازات والحقوق، وقد أعجبت أنا نفسي بالطريقة التي أنقذت فيها تلك الزانية من الموت، وتذكّر أنني أنا الذي وضع هذا العقاب في الوصايا التي أمرت بها. إنها لدلالة سيئة عندما تبدأ تسمح للبشر العبث بوصاياك. فقط عندما يناسبني ذلك ويكون مفيداً، ويجب ألّا تنسى ما قلته لك عن الشريعة واستثناءاتها لأن الأمر الذي أريده

يصبح ضرورياً في الحال. لقد قلت إنني يجب أن أموت على الصليب. هذه مشيئتي. نظر المسيح برِيبة إلى *الراعي* الذي كان يبدو مشغولاً، كما لو أنه يتأمّل لحظة في المستقبل، غير قادر على تصديق عينيه. خفض يسوع ذراعيه وقال، إذاً افعل بي كما تشاء.

كان الربّ على وشك أن يبتهج، وهمّ لينهض واقفاً على قدميه ويعانق ابنه المحبوب، لكن يسوع أوقفه بحركة من يده وقال، بشرط واحد. تعرف جيّداً أنك لا تستطيع أن تضع شروطاً، أجابه الربّ غاضباً. إذاً لندعوه رجاء وليس شرطاً، رجاء إنسان بسيط حُكم عليه بالموت. قل ما هو. بما أنك الربّ فلا يمكنك أن تقول إلّا الحقيقة عندما تُسأل سؤالاً، وبما أنك الربّ، فإنك تعرف الماضي والحاضر وما يكمن بينهما وما سيجلبه المستقبل. هذا صحيح، فأنا الزمن والحق والحياة. إذن قل لي، باسم كلّ ما تدّعي أنك هو، ماذا سيجلب المستقبل بعد موتي، ماذا سيتضمن من أشياء لن يتضمنها إذا رفضت أن أضحّي بنفسي لكي تنفذ رغبتك في أن تحكم كل أصقاع الأرض. كما لو كان مقيداً بكلماته، حاول الربّ بفتور التقليل من أهمية السؤال، وقال، يا بني، إن المستقبل لانهائي، وإن تلخيص ذلك سيأخذ وقتاً طويلاً. منذ متى نحن هنا في وسط البحيرة يغلّفنا الضباب، سأل المسيح، يوم، شهر، سنة، حسناً إذاً، دعنا نمضي سنة أخرى، شهراً آخر، أو يوماً آخر، دع إبليس يذهب إذا أراد، لأن حصته، في جميع الأحوال، مضمونة، وإذا كانت نسب الفوائد متساوية، كما يبدو ذلك عادلاً، فكلما ازدهر الربّ أكثر، ازدهر الشيطان. سأبقى، قال *الراعي*، وكانت تلك أول كلمات ينطق بها منذ أن كشف عن هويته. سأبقى، كرر قائلاً، وأضاف، أستطيع أن أرى أشياء في المستقبل لكني لست متيقناً دائماً ممّا إذا كان ما أراه صحيحاً أم زائفاً، بعبارة أخرى، يمكنني أن أرى أكاذيبي كما هي، أي

حقائقي، لكنّي لا أعرف إلى أي مدى أن حقائق الآخرين هي أكاذيبهم. لعل هذه الكلمات الملتوية ستكون أكثر وضوحاً لو أنه تحدث أكثر عن المستقبل الذي يراه، لكنّه صمت فجأة، كما لو أنه قال أكثر مما ينبغي أن يقوله. فقال المسيح الذي ظلت عيناه مثبتتين على الربّ، بسخرية حزينة، لماذا تدّعي بأنك لا تعرف ما تعرفه، فقد أدركت أنّني سأسأل هذا السؤال، وأنت تعرف جيداً أنك ستقول لي ما أريد أن أسمعه، لذلك لا تؤجّل وقت موتي أكثر. لقد بدأت تموت منذ اللحظة التي ولدت فيها. صحيح، لكني أموت الآن بسرعة أكثر. نظر الربّ إلى المسيح بتعابير لو ظهرت على وجه شخص لو وصفناه بأنه محترم، وأصبح تصرفه يشبه تصرف البشر. ومع أن ذلك لم يكن يبدو أن له علاقة بالشيء الآخر، اقترب الضباب أكثر من القارب، وأحاط به مثل جدار كي لا تصل إلى العالم كلمات الربّ عن نتائج التضحية بيسوع المسيح الذي يدّعي بأنه ابنه من مريم، أما أبوه الحقيقي فهو يوسف، إذا طبقنا القانون غير المدون الذي يطلب منا ألّا نؤمن إلّا بما نراه، مع أننا نعرف جميعاً، نحن البشر، لا نرى الأشياء دائماً بالطريقة نفسها، ولا ريب في أن هذا ساعد على الحفاظ على السلامة العقلية النسبية للنوع.

قال له الربّ، ستنشأ كنيسة، مجتمع ديني تؤسسه أنت أو باسمك، والنتيجة واحدة، وستقوم بنشر هذه الكنيسة في أنحاء العالم، وسيطلق عليها اسم الكنيسة الكاثوليكية، لأنها ستكون عالمية، لكن من المحزن أن هذا لن يحول دون نشوء نزاعات وسوء تفاهم بين الذين يرون أنك، لا بل يرونني أنا، زعيمهم الروحي ولن يدوم ذلك أكثر من عدّة آلاف من السنين، لأنني كنت هنا قبلك وسأظل هنا بعد أن تتوقف عن كونك ما أنت، وما ستكون. تكلّم بمزيد من الوضوح، قال المسيح. مستحيل،

قال الربّ، فإن كلمات البشر تشبه الظلال، ولا تستطيع الظلال أن تفسّر النور، وبين الظلّ والنور ينتصب الجسد الظليل الذي تولد منه الكلمات. لقد سألتك عن المستقبل. إني أتحدّث عن المستقبل. ما أريد معرفته هو كيف سيعيش الناس الذين سيأتون بعدي. هل تقصد أتباعك. نعم، هل سيكونون أكثر سعادة. ليس بالمعنى الدقيق للكلمة، لكن سيكون عندهم أمل بأن يحققوا السعادة في الأعلى، في السماء حيث أحكم حتى الخلود، وحيث يأملون أن يعيشوا معي إلى الأبد. أهذا هو كلّ شيء. بالتأكيد، فليس أمراً يسيراً أن تعيش في كنف الربّ. صغيرة، أو عظيمة، أو كلّ شيء، لن نعرف ذلك إلّا يوم الحكم النهائي، عندما تحكم على البشر حسب أعمالهم الصالحة أم الطالحة، وحتى يحين ذلك الوقت، فإنك ستقيم وحيداً في السماء. ملائكتي وكبار ملائكتي معي. لكنّ لا يوجد هناك بشر. صحيح، لذلك يجب أن تُصلب لتأتي لعندي. أريد أن أعرف المزيد، قال المسيح، محاولاً بصعوبة أن يبعد الصورة العقلية عن نفسه وهو يتدلّى من صليب، ميتاً، يكسوه الدم. كيف سيؤمن الناس بي ويتبعونني، فمن المؤكد أن ما سأقوله لهم وما سيقوله لهم الذين سيأتون بعدي باسمي لن يكون كافياً، خذ مثلاً الأغيار والرومان الذين يعبدون آلهة أخرى، فلا أظن أن تتوقّع أن أصدّق أنهم سيتخلّون عنها حتى ليعبدونني. لا ليعبدوك بل ليعبدونني أنا. لكن ألم تقل إننا أنا وأنت سنصبح الشيء ذاته، دعنا لا نتلاعب بالألفاظ، أجب على سؤالي فقط. كل من عنده إيمان سيأتي إلينا. لهذا السبب فقط، بهذه السهولة التي قلتها الآن. إن الآلهة الأخرى ستقاوم. بالطبع وستحاربها أنت. لا تكن سخيفاً، فالحروب لا تجري إلّا على الأرض، أما السماء فهي أبديّة ومسالمة، وسيحقق البشر قدرهم حيثما كانوا. أتقصد أن البشر سيموتون في سبيلك وفي سبيلي. إن البشر يموتون دائماً في سبيل الآلهة، حتى

في سبيل آلهة غير حقيقية وآلهة زائفة. هل يمكن أن تكذب الآلهة. يمكنها ذلك. وأنت الإله الواحد الأحد الحقيقي بينهم. نعم، أنا الإله الواحد الأحد الحقيقي فقط. وبالرغم من ذلك، فإنك لا تستطيع أن تمنع البشر من الموت في سبيلك حيث ينبغي أنهم ولدو ليعيشوا على الأرض وليس في السماء حيث لا توجد مباهج الحياة لتقدمها لهم. هذه المباهج زائفة أيضاً، لأنهم جاؤوا من خطيئة أصلية، اسأل صديقك *الراعي* ليشرح لك ما حدث. إن كانت هناك أسرار لا تتقاسمها مع الشيطان، فأرجو أن تكون إحداها التي عرفتها منه، بالرغم من أنه قال إنني لم أتعلّم شيئاً. خيّم صمت، فهذه هي المرة الأولى التي يواجه فيها الربّ والشيطان أحدهما الآخر، كلّ منهما أعطى الانطباع بأنه على وشك أن يتكلّم، لكن أحدهما لم يقل شيئاً. فقال المسيح، إني أنتظر. تنتظر ماذا، سأله الربّ، كما لو كان شارداً. انتظر أن تقول لي كم سيكلف انتصارك على الآلهة الأخرى من الموت والمعاناة، كم من الموت والمعاناة ستحتاج في المعارك التي سيتقاتل فيها البشر باسمك وباسمي. إنك تصرّ على أنك تعرف. أنا أعرف.

إذاً، ستقام الكنيسة التي ذكرتها، ولكي تكون دعائمها متينة فإنها ستُحفر في اللحم، وستُصنع جدرانها من إسمنت النكران والدموع والمعاناة والألم، ومن جميع أشكال الموت التي يمكن تصورها. أخيراً بدأت تتكلّم كي أفهم، تابع كلامك. لنبدأ بشخص تعرفه وتحبّه، صيّاد السمك سمعان الذي ستدعوه بطرس، فإنه سيُصلب مثلك، لكن رأساً على عقب، وأندراوس أيضاً سيُصلب على صليب في شكل X، وابن زبدي المعروف باسم يعقوب، سيُقطع رأسه. وماذا عن يوحنا ومريم المجدلية. سيموتان لأسباب طبيعية عندما تحين ساعتهما، لكنك ستتّخذ أصدقاء آخرين ورسلاً وحواريين لن ينجوا من التعذيب، مثل فيليبوس

الذي سيُربط إلى صليب ويُرجم حتى الموت، وبَرْثُلماي الذي سيُسلخ جلده وهو حيّ يرزق، وتوما الذي سيُطعن بالرماح حتى الموت، ومتّى الذي لم أعد أذكر تفاصيل موته، وسمعان آخر سيُنشر جسده بالمنشار إلى نصفين، ويهوذا الذي سيُضرب حتى الموت، وسيُرجم يعقوب، وسيُقطع رأس ماتياس بالفأس، وسيشنق يهوذا الاسخريوطي نفسه من شجرة تين. هل سيموت جميع هؤلاء الرجال من أجلك، سأل المسيح. لو صغت السؤال بهذه الطريقة، فالجواب نعم، فإنهم سيموتون من أجلي. وماذا بعد ذلك. ثمّ، يا بني، كما قلت لك، سيتبع ذلك حكاية لانهائية من الحديد والدم، من النار والرماد، بحر لانهائي من الحزن والدموع. قل لي، أريد أن أعرف كلّ شيء. أطلق الربّ زفرة، وبنبرة رتيبة كالتي يختار فيها المرء أن يكبت رحمة، بدأ يعدد قائمة: أداالبيرت من براغ، سيُقتل بقناة رمح ذات سبع شعاب؛ وسيُضرب أدريان بالمطرقة على سندان حتى الموت؛ وستُحرق أفرا من أوغسبرغ على خازوق؛ وسيُحرق أغابيتوس من برينيست على خازوق وهو معلق من قدميه؛ وستُبقر بطن أغنس من روما؛ وستُصلب أغريكولا من بولونيا وستخوزق على مسامير؛ وستُطعن أغودا من صقليا بالحراب ستّ مرات؛ وسيُضرب ألفيج من كانتربري حتى الموت بعظم ساق ثور؛ وستُحرق أناستاسيا من سيرنيلوم على خازوق وسيُقطع ثدياها؛ وسيُشنق أناستاسيوس من سالونا ويُقطع رأسه؛ وستُنزع أحشاء أنسانوس من سيينا؛ وسيُسحل أنطونيوس من باسنيرس وسيقطع إرباً؛ وسيُرجم أنطوني من ريفولي وسيُحرق حيّاً؛ وسيُضرب أبوليناريس من رافينا بالعصي حتى الموت؛ وستُحرق أبولونيا من الإسكندرية على خازوق بعد اقتلاع أسنانها؛ وسيُقطع رأس أوغستا من تريفيزو وستحُرق على خازوق؛ وستُغرق أوريا من أوستيا وسيربط حجر رحى حول رقبتها؛

وستنزف أوريا من سوريا حتى تموت بعد أن تُجلس قسراً على كرسي مغطّى بالمسامير؛ وستُرمى أوتا بالسهام؛ وسيُقطع رأس بابيلاس من انطاكية؛ وستموت باربرة من نيكوميديا بنفس الطريقة؛ وسيُرجم بارناباس القبرصي وسيُحرق على خازوق؛ وستُخنق بياتريس من روما؛ وسيُطعن بنيغنوس من ديبوحنا بالرماح حتى الموت؛ وسيُلقى ببليس من سيباست فوق مسامير حديدية؛ وستُطعن بلاندنا من ليون بقرني ثور هائج؛ وسيُقتل كاليستوس بعد أن يُعلق حجر رحى حول رقبته؛ وسيُطعن كاسيان من إمولا بخنجر على يد تلامذته؛ وسيُدفن كاستولوس وهو حي؛ وسيُقطع رأس كاثرين من الإسكندرية؛ وسيُقطع رأس سيسيليا من روما، وستُعذّب كريستينا من بولسينا مرات كثيرة بأحجار رحى وبرمي السهام والأفاعي عليها؛ وسيُقطع رأس كلاروس من ناستيس، وسيُقتل كلاروس من فيينا بنفس الطريقة، وسيُقتل كليمنت غرقاً بربط مرساة حول رقبته، وسيُقطع رأس كريسبين وكريسبينيان من سويسمونس، وستُبقر بطن كوكافاس من برشلونة، وسيُقطع رأس سيبيريان من قرطاج، وسيُقتل سيريكوس من تارسوس على يد القاضي الذي دق رأسه على درج المحكمة، ثم قال الربّ، وهلم جراً، كلهم متشابهون تقريباً، مع بعض الاختلافات والتشذيبات البسيطة التي سيستغرق شرحها إلى الأبد، لذلك أرى أن نتوقف هنا. لا، تابع، قال المسيح. فواصل الربّ على مضض، مختصراً كلما أمكنه ذلك، سيُقطع رأس دوناتوس من آريزو؛ وستُسلخ فروة رأس إليفيوس من رامبيلون؛ وستُحرق إميريتا وهي على قيد الحياة؛ وسيُقطع رأس إميليان من تريفي؛ وسيقيد إميراموس من ريغينسبيرغ على درجات سلّم وسيُقتل؛ وسيُقطع رأس إنغراتيا من ساراغوسا؛ وسيمدد إراسموس من غايتا الذي يدعى أيضاً ألمو على رافعة؛ وسيُقطع رأس إسكبيكولوس؛ وسيُرجم

إسكيل من السويد حتى الموت؛ وسيُقطع رأس يلاليا من ميردا؛ وسيُقتل يوفيميا من شالسيدون بالسيف؛ وسيُقطع رأس يتروبيوس من سيتيس بالفأس؛ وسيُطعن فايان ويُدق جسده بالمسامير؛ وسيُقطع رأس فيث من أجين، وستُقطع رؤوس فليستاس وسبعة أبناء له بالسيف؛ ونفس الشيء سيحدث لفيليكس وأخيه أداوكتوس؛ وسيُقطع رأس فرريولوس من بيسانكون؛ وسيُضرب فيدليس من سيغمارينغين حتى الموت بعصا ذات مسامير؛ وسيُقطع رأس فيرمينوس من بامبلونا، وكذلك فلافيا دوميسيلا، وسيلقى فورتاناس من إفورا نفس المصير؛ وسيُحرق فروكتوسوس من تاراغون على خازوق؛ وسيُقطع رأس غاوديتيوس من فرنسا؛ ونفس الشيء سيحدث لغيلاسيوس بمسامير حديدية؛ وسيغتال غينغولف من بيرغندي عشيق زوجته؛ وسيُقتل جيرارد ساغريدامن بودابست بالرماح؛ وسيُقطع رأس غيرين من كولونيا، وسيموت التوأم غيرفاس ويروتاس بنفس الطريقة؛ وسيموت غودلفا وغيستيليس خنقاً؛ وسيُقطع رأس غراتوس من أوستا، وسيُضرب هيرينينيغيلد بالعصي حتى الموت؛ وسيُطعن هيرو بالسيف، وسيُقتل هيبوليتوس بسحله وراء حصان؛ وسيُقتل إغناطيوس من أزيفيدو على يد الكالفينيين الذين ليسوا كاثوليك؛ وسيُقطع رأس جانواريوس من نابولي بعد أن يلقى بها إلى الوحوش البرّية، ثم يلقى بها في فرن؛ وستُحرق جان دارك؛ وسيُقطع رأس جون دي بريتو؛ وسيُقطع رأس جون فيشر، وستم إغراق جون من نيبوموك في نهر فلتافا؛ وسيُطعن جون من برادو في رأسه؛ وسيُقطع ثديا جوليا من كورسيكا قبل أن تُصلب؛ وسيُقطع رأس جوليانا من نيكوميديا؛ وجستا وروفينا من إشبيلية، الأول سيُقتل على عجلة وسيتم خنق الآخر؛ وسيُلقى بجوستينا من أنطاكية في قدر من القطران المغلي ثم يُقطع رأسها؛ وسيُقطع رأس جوستس وباستور

دي هيناريس؛ وسيُقطع رأس كيليان من ورزبيرغ؛ وسيُحرق لورانس على مشواة؛ وسيُقطع رأس ليجير من أوتون بعد أن تُسمل عيناه ويُقطع لسانه؛ وسيُلقى بليوكاديا من توليدو إلى حتفها من فوق جرف عال؛ وسيُقطع رأس ليفينوس من غينت بعد أن يُقطع لسانه؛ وسيُقطع رأس لونجينوس؛ وسيُقطع رأس لوسي من سيراكوس بعد أن تُسمل عينيها؛ وسيُخنق لودميليا من براغ؛ وسيُقطع رأس ماجينوس من تاراغون بمنجل مسنّن؛ وستُبقر بطن ماماس من كابودوسيا، وستُقتل مانويل وسابيل واسماعيل بإدخال مسمار حديدي في كلّ حلمة من حلماتها وسيُدق قضيب حديدي داخل رأسه من الأذن إلى الأذن، وستقطع رؤوسهم هم الثلاثة؛ وستُقتل مارغريت من أنطاكية بشعلة وبمشط حديدي؛ وستُخنق ماريا غوريتي، وسيُقتل ماريوس الفارسي بالسيف وستبتر يداه، وسيُقطع رأس مارتينا من روما، وشهداء المغرب، بيرارد من كاربيو، وبطرس من غيميغنانو، وأوتو، وأدجوتو، وأكورسيو الذين ستُقطع رؤوسهم، والشهداء من اليابان، حيث سيُصلب جميع من هم في السادسة والعشرين من العمر وسيُقتلون بالحراب وسيُحرقون أحياء؛ وسيُقتل موريس من أغوان بالسيف؛ وسيُضرب ميناراد من آينسيديلن بالعصي حتى الموت؛ وسيُقتل ميناس من الإسكندرية بالسيف أيضاً؛ وسيُقطع رأس ميركوريوس من كابادوسيا؛ وسيُقتل نيكاسيوس من ريمس بالطريقة ذاتها؛ وستموت أوديليا من هوي برميها بالسهام؛ وسيُقطع رأس بانيراس؛ وسيُقتل بانتاليون من نيكوميديا بنفس الطريقة؛ وسيُصلب بافنودوس، وسيُقتل باتروكلوس من ترويس وسويست بنفس الطريقة؛ وسيموت بولص من ترسوس الذي ستدين له بأول كنيسة لك بذات الطريقة؛ وسيُسحل بيلاغوس وسيُقطع إرباً؛ وسيُقتل بيربيتوا وجاريتها فيليسيتي من قرطاجنة بواسطة ثور هائج؛ وسيُقتل بطرس من رايتس

بالسيف؛ وسيُضرب رأس بطرس من فيرونا بسيف مقوس قصير ويُغرز خنجر في صدره؛ وستُرمى فيلومينا بالسهام وسيُلقي بها في البحر؛ وستُسلخ فروة رأس بياتون من تروناي، وسيُطعن بولكارب وسيُحرق حيّاً؛ وستلتهم الأسود بريسكا من روما؛ وربما لقي بروسيسوس ومارتينيان نفس المصير؛ وتغُرز مسامير في رأس كوينتينوس وفي أجزاء أخرى في جسمه؛ وستُسلخ فروة رأس كويرينوس من روين، وسيُقطع رأس كويتريا من كويمبرا على يد أبيها، وستُقتل رين من ميسك بالسيف؛ وسيُضرب رينود من دورتموند بمطرقة حتى الموت؛ وستُحرق ريستيتوتا من نابولي فوق عامود؛ وسيُقتل رولند بالسيف، وسيُخنق رومانوس من أنطاكية حتى الموت بعد أن يقطع لسانه، هل يكفي ذلك، سأل الربّ المسيح. فردّ يسوع المسيح، يجب أن تسأل نفسك هذا السؤال، فواصل الربّ، وسيُقطع رأس سابنيان من سين، وسيُرجم سابينوس من أسيس حتى الموت؛ وسيُجَرّ ساتيرنينوس من تولوز بواسطة ثور حتى يلقى حتفه؛ وسيُثقب جسد سيباستيان بالسهام؛ وسيُقطع رأس سيكوندوس من أستي، وسيُقتل سيرفاتيوس من تونغريس وماستريخت بضربة على الرأس بعصا خشبية؛ وسيُقتل سيفيروس من برشلونة بمسامير تُدَق داخل رأسه؛ وسيُقطع رأس سيدويل من إكستر؛ وسيُلقى بسيغيسموند ملك برغندي في البئر؛ وسيُقطع رأس سيكستوس؛ وسيرُجم ستيفن حتى الموت؛ وسيُقطع رأس سيمفوريان من أوتون؛ وسيُرجم تاريسيوس حتى الموت؛ وسيُمزّق ذيكلا من إكونيوم وسيُحرق حيّاً؛ وسيُحرق ثيودور على خازوق، وسيُغرز سيف في جمجمة توماس بيكيت من كانتيربيري؛ وسيُقطع رأس توماس مور؛ وسيُنشر ثيرسوس بالمنشار إلى قسمين، وسيُقطع رأس تيبورتيوس؛ وسيُرجم تيموثي من إفيسوس حتى الموت؛ وسيُقتل توركواتوس وسبعة

وعشرون شخصاً على يد الجنرال موكا عند أبواب غويمارايس؛ وسيُقطع رأس ترويبز من بيسا؛ وسيلقى أوربانوس وفاليريا من ليموغس، وفاليريان وفينانتيوس من كاميرينو نفس المصير؛ وسيُقطع رأس فيكتور؛ وسيُقطع رأس فيكتور من مارسيليا؛ وسيُقطع رأس فيكتوريا من روما بعد اقتلاع لسانها؛ وسيُعذّب فنسينت من ساراغوسا حتى الموت بحجر رحى وبشبكة ومسامير؛ وسيُضرب فيرجيليوس من ترينت حتى الموت بعصا خشبية؛ وسيُقتل فيتاليس من رافينا ويلغيفورتيس أو ليفرايد أو يتروبيا بالسيف، وستُصلب العذراء ذات اللحية، وما إلى هنالك، وجميعهم سيلقون مصيراً مماثلاً.

كفى، قال المسيح، من هم الآخرون الذين تقصدهم. هل تريد حقاً أن تعرف. نعم. أعني أولئك الذين سينجون من الاستشهاد وسيموتون لأسباب طبيعية بعد أن يكونوا قد ذاقوا عذاب العالم، الجسد والشيطان، ولكي يتغلّبوا عليها، يجب أن يكبحوا شهواتهم بالصوم والصلاة؛ وثمة حالة طريفة لشخصٍ يدعى جون شورن الذي سيمضي وقتاً طويلاً وهو جاثٍ على ركبتيه يصلي حتى تمتلئ ركبتاه بالبثور، وسيقول البعض إن هذا سيثير اهتمامك، فقد احتجز الشيطان داخل حذائه الطويل، ها ها ها. أنا داخل حذاء طويل، قال *الراعي* بازدراء، إنها حكايات خرافية لأن الحذاء الذي بإمكانه أن يحتجزني يجب أن يكون واسعاً بسعة العالم، كما أريد أن أرى من بقدرته أن ينتعل ذاك الحذاء ثم يخلعه. ربما بالصوم والصلاة، قال المسيح. فأجاب الربّ، يجب عليهم أيضاً أن يميتوا الجسد بالألم وبالدم وبالوسخ بتوبات لا حصر لها، ويقمصان من الشعر والجلد بالسوط، ولن يغتسل بعضهم أبداً، وسيلقي آخرون بأنفسهم فوق نبات العليق، وسيتدحرجون في الثلج، وسيكبتون الرغبات الجسدية التي هي من عمل الشيطان الذي

يثير هذه الإغراءات لإغواء الأرواح حتى تنحرف عن الطريق المستقيم الضيّق الذي يفضي إلى السماء، فيرسل لهم رؤى لنساء عاريات ووحوش مرعبة ومخلوقات كريهة لأن الشهوة والخوف سلاحان يستخدمهما الشيطان لتعذيب البشرية البائسة. هل هذا صحيح، سأل المسيح *الراعي* الذي أجاب، لقد أخذت ما لم يرده الربّ، الجسد بكلّ مباهجه وأحزانه وشبابه وشيخوخته، وازدهاره واعتلاله، لكن غير صحيح أن الخوف هو أحد أسلحتي، فأنا لا أذكر أنني اخترعت الخطيئة والعقاب أو الرعب الذي يثيرانه. صه، قال الربّ، فالخطيئة والشيطان هما صنوان. فسأل المسيح، ما هو ذلك الشيء. غيابي. كيف يمكنك تفسير غيابك، هل لأنك تنسحب أم لأن البشر يهجرونك. أنا لا أنسحب أبداً، أبداً. ومع ذلك، فإنك تترك البشر يهجرونك. إن الذين يهجرونني يأتون ليبحثوا عني. وعندما لا يجدونك، أظن أنّك تنحي باللائمة على الشيطان. لا، أنا لا أحمّله المسؤولية، أنا من يتحمل تبعة ذلك لأنني لا أستطيع أن أصل إلى الذين يبحثون عني، كلمات نطقها الربّ بكآبة حزينة غير متوقّعة، كما لو أنه اكتشف فجأة حدوداً لقوّته. فقال المسيح، تابع كلامك.

وهناك آخرون، تابع الربّ كلامه ببطء، يتوجهون إلى البريّة حيث يعتكفون في الكهوف والمغارات، لا يرافقهم أحد سوى الحيوانات، ويختار آخرون حياة التنسك، ويصعد آخرون فوق عامود عال ويقبعون فوقه لسنوات، وآخرون، هنا انخفض صوته ثم تلاشى لأنه كان يتأمّل الآن موكباً لانهائياً من البشر، آلاف وآلاف من الرجال والنساء من أرجاء المعمورة يدخلون أديرة، القليل منها مجرد مبانٍ بسيطة، والكثير منها مبانٍ واسعة فخمة، ستبقى هناك حتى تصلي لك ولي من الصباح حتى الليل، ويشعلون الشموع ويصلون ويحملون جميعاً نفس الرسالة

وذات المصير، يعبدوننا ثم يموتون واسمي واسمك يتردد على شفاههم، وسيطلقون على أنفسهم اسم البنديكتيين والسيسترسيانين والكارثيسيانين والأوغسطينيين والجلبرتيين والترينيتاريايين والفرنسيسكان والدومنيكانيين والكابوتشينيين والكرمليين واليسوعيين، وسأحبّ كثيراً أن يرددوا دائماً كلمة يا ربي. هنا قاطعه الشيطان وقال للمسيح، لاحظ مما قاله أنه توجد طريقتان يفارق المرء فيهما حياته، بالشهادة أو بالنكران، ألا يكفي أن ينتظر هؤلاء البشر حتى تحين ساعتهم، بل عليهم أن يسرعوا من أجل استقبال موتهم، يُصلبوا، وتُبقر بطونهم وتنتزع أحشاؤهم، وتُقطع رؤوسهم، ويُحرقون على الخازوق، ويُرجمون، ويموتون غرقاً، ويُسحلون، ويقطعون إرباً إرباً، وتُسلخ جلودهم وهم أحياء، ويُطعنون بالرماح، ويدفنون وهم على قيد الحياة، وتشطر أجسادهم بالمناشير، ويُرمون بالنبال، وتُشوّه أجسادهم وتُبتر، ويعذّبون، أو يموتون في زنزاناتهم أو في الأقبية الملحقة بالكاتدرائيات، وفي الأروقة ذات الأعمدة المسقوفة التي تشيّد حول أفنية الأديرة، يكفّرون عن ذنوبهم ويكبحون شهوات الجسد التي منحها لهم الربّ، الجسد الذي لولاه لما وجد مكان آخر يضعون فيه أرواحهم؛ إن هذه العقوبات لم يخترعها الشيطان الذي يكلّمك الآن. هل هذا كلّ شيء، سأل المسيح الربّ. لا، هناك الحروب والمذابح. لا حاجة لأن تحدّثني عن المذابح، فقد كدت أهلك في إحداها، وأفكّر في الأمر الآن وآسف لأني لم أمت فيها لأني لو مت فيها لأنقذت من الصلب الذي ينتظرني. أنا الذي جعل أباك الآخر يذهب إلى المكان الذي سمع فيه حديث الجنود لذلك، فأنا الذي أنقذ حياتك. لقد أنقذت حياتي حتى تأمر بموتي بالطريقة التي تسرك وتناسبك، كأنك تقتلني مرّتين. إن الغاية تبرّر الوسيلة يا بني. مما حكيته لي حتى الآن يمكنني أن أصدّقه، إنكار

الذات، أروقة الأديرة، المعاناة، الموت، والآن حروب ومذابح، ما هي هذه الحروب. حرب بعد أخرى لا تنتهي، خاصة الحروب التي تشنّ ضدّك وضدّي باسم إله لم يظهر بعد. كيف يمكن أن يكون هناك إله لم يظهر بعد، فأيّ إله حقيقي يعيش إلى أبد الآبدين. أعرف أنه يصعب فهم أو شرح ذلك، لكن ما أقوله لك سيحدث، وسيتمرد إله علينا وعلى أتباعنا، أمم بكاملها، لا، إن الكلمات تعجز عن وصف المذابح التي ستحدث في ذلك الوقت، ثمّ إراقة الدماء والمذابح، تخيّل المذبح المخصص لي في أورشليم، لكن بآلاف الأضعاف، ويصبح البشر هم القرابين بدلاً من الحيوانات التي يضحى بها من أجلي، حتى ذلك الحين، لن تعرف كيف يمكن أن تبدو تلك الحملات الصليبية. الحملات الصليبية، ما هذه، ولماذا تشير إليها في الماضي إن لم تكن قد وقعت بعد. تذكّر، أنا الزمن، وبالنسبة لي فإن كلّ ما سيحدث قد حدث فعلاً، وكلّ ما حدث سيظل يحدث كلّ يوم. حدّثني أكثر عن الحملات الصليبية. حسناً يا بني، إن هذه المنطقة التي نجد فيها أنفسنا الآن، بما فيها أورشليم وأراضٍ أخرى إلى الشمال والغرب، سيغزوها أتباع الإله الذي ذكرته لك والذي سيكون بطيئاً في مجيئه، وسيبذل أتباعنا كلّ ما بوسعهم لطردهم من الأماكن التي جبتها أنت والتي أزورها باستمرار. ألم تُبذل جهود كبيرة لتخليص هذه الأرض من الرومان. لا تصرف انتباهي عن الموضوع، إني أتحدّث عن المستقبل. حسناً، تابع إذن. بالإضافة إلى ذلك، فقد ولدتَ وعُشتَ ومتَّ هنا. لم أمت بعد. لا أهمية لذلك، لأني كما قلت لك الآن، فإن ما سيحدث وما حدث هما ذات الشيء بالنسبة لي، وأرجو ألّا تقاطعني، وإلّا سأصمت ولن أقول شيئاً. حسناً، سأصمت. إذن، ستطلق الأجيال القادمة على هذه المنطقة اسم الأماكن المقدّسة لأنك ولدتَ وعشتَ ومتّ فيها، لذلك ليس من

الملائم أن يسقط مهد الدين الذي تمثّله أنت في أيدي الكفّار، وقد برّر ذلك زحف جيوش عظيمة من الغرب وحاربت حوالي مئتي سنة لكي تغزو تلك المنطقة وتحافظ على الدين المسيحي، وعلى المغارة التي ولدتَ فيها والتلّة التي ستموت عليها، وإني أذكر أهم المعالم فقط. وهل هذه الجيوش هي الحملات الصليبية. صحيح. وهل تمكنت من غزو ما كانت تسعى إليه. لا، لكنّهم قتلوا وذبحوا أعداداً كبيرة من البشر. وماذا عن الصليبيين أنفسهم. لقد خسروا أعداداً كبيرة أيضاً، إن لم يكن أكثر. وستكون إراقة الدماء هذه باسمنا. سيدخلون في المعركة وهم يهتفون هذه مشيئة الربّ. ولا ريب في أنهم سيموتون وهم يرددون هذه مشيئة الربّ. يا لها من وسيلة رائعة لإنهاء حياتهم. إن هذه التضحية لا تستحق كلّ هذا. لكي ينقذ المرء روحه يا بني، يجب أن يضحي بالجسد. وأنت أيها *الراعي*، ماذا تقول عن هذه الأحداث المدهشة التي ستأتي. لا يمكن لأحد يتمتع بعقل سليم أن يقول بأنّ الشيطان هو المسؤول عن كل ذلك، أو سيكون هو المسؤول عن كلّ هذه الدماء التي تراق وكلّ هذا الموت إلّا إذا أثار أحد الأوغاد هذا الافتراء الشرّير واتهمني بأنني أنا من أنجب الإله الذي سيعارض الإله الجالس هنا. لا، لستَ أنت المسؤول، وإذا أنحى أحد باللائمة عليك، فما عليك إلّا أن تجيبه بأنه إذا كان الشيطان زائفاً لما استطاع أن يخلق إلهاً حقيقياً. من إذاً سيخلق هذا الإله العدو، سأل *الراعي*. كان المسيح في حيرة من أمره ولم يحر جواباً، وظل الربّ الذي لم يقل شيئاً صامتاً، لكن صوتاً هبط من السديم، وقال، ربما كان هذا الربّ والربّ الذي سيأتي هما الربّ ذاته. تظاهر يسوع المسيح والربّ والشيطان بأنهم لم يسمعوا شيئاً، لكنهم لم يتمالكوا أنفسهم من أن ينظر أحدهم إلى الآخر بذعر، فالخوف المشترك يوحّد كذلك الأعداء بسهولة.

مرّ الوقت، لم يصدر صوت من داخل السديم مرة أخرى. ثم سأل يسوع المسيح بصوت شخص يتوقّع أن يسمع رداً إيجابياً، لا شيء أكثر. تردّد الربّ، ثمّ قال بصوت متعب، لا تزال هناك محاكم التفتيش، لكن إذا لم يكن لديك مانع دعنا نناقش ذلك في وقت آخر. ما هي محاكم التفتيش. إن محاكم التفتيش قصّة طويلة أخرى. حدّثني عنها. من الأفضل ألّا تعرف عنها شيئاً، لأن ذلك سيجعلك تندم على الأشياء المتعلقة بالغد. وألا تشعر أنت بذلك. لكون الربّ ربّاً، فإنه لا يشعر بالندم. حسناً، بما أنني أحمل عبء أنني سأموت من أجلك، يمكنني أيضاً أن أتحمّل الندم الذي يجب أن يكون ندمك. لقد أردت أن أحميك. لم تفعل شيئاً آخر منذ اليوم الذي ولدتُ فيه. مثل معظم الأبناء، فأنت ابن عاق. لنتوقف عن كلّ ذلك، وحدّثني عن محاكم التفتيش. إن محاكم التفتيش، التي تُعرف أيضاً كذلك بمحكمة المكتب المقدس، شرّ لا بدّ منه، وسوف نستخدم هذه المحكمة كأداة قاسية للقضاء على المرض الذي سيهاجم جسد كنيستك باستمرار في شكل بدع شرّيرة وعواقبها الضارّة المؤذية، فضلاً عن عدد من الانحرافات الطبيعية والأخلاقية التي لو جُمعت معاً دون اعتبار لترتيب أهميتها فإنها ستشمل اللوثريين والكالفينيين والمولنيين والمتهودين وقوم لوط والسحرة؛ ويعود بعض هذه الأوبئة إلى المستقبل، وقد يسود بعضها الآخر في جميع الأزمان. إذا كانت محاكم التفتيش شرّاً لا بدّ منه كما تقول، فكيف يمكنها أن تقضي على كل هذه البدع. إن محاكم التفتيش هي قوّة شرطة، محكمة، لذلك فإنها ستلاحق وتحاكم أعداءها وستحكم عليهم كما تفعل أيّ قوّة شرطة. تحكم عليهم بماذا. بالسجن، بالنفي، بالخازوق. هل قلت الخازوق. نعم، في الأيام القادمة، ستُحرق آلاف مؤلفة من الرجال والنساء على الخازوق. لقد ذكرتُ بعضهم سابقاً.

إنهم سيُحرقون أحياء لأنهم يؤمنون بك، وسيُحرق آخرون لأنهم سيشكّكون بك. ألا يُسمح بالتشكيك بي. لا. مع أنه يسمح لنا بأن نشكك بجوبيتر، إله الرومان. أنا الربّ الوحيد وأنت ابني. تقول إن الآلاف سيموتون. مئات الآلاف من الرجال والنساء، وسيملأ الأرض الكثير من الأنين والبكاء، والكثير من الصراخ والألم، وسوف يحجب الدخان المنبعث من الجثث المتفحّمة ضوء الشمس، وسيئزّ لحم البشر فوق الفحم المشتعل، وستكون الرائحة المنبعثة كريهة ومقزّزة. وهل كلّ هذا خطأي. لا، لست أنت الملام، إن قضيتك تقتضي ذلك. أبتي، خذ منّي هذه الكأس. إن قوّتي ومجدك يتطلبان أن تشربها حتى آخر قطرة. لا أريد هذا المجد. لكنّي أريد القوّة. بدأ الضباب ينقشع، وأصبح بالإمكان رؤية الماء المحيط بالقارب، مياه سلسة داكنة لا تزعجها المويجات التي تحدثها الريح أو هزّة من زعنفة سمكة عابرة. ثمّ قاطعه الشيطان وقال، يجب أن يكون الواحد إلهاً كي يريق كلّ هذه الدماء.

حلّ الضباب مرة أخرى، ثمة شيء آخر على وشك أن يحدث، وحي، أو حزن جديد، أو ندم جديد. لكن *الراعي* هو الذي تكلّم، فقال مخاطباً الربّ، عندي اقتراح. فأجاب الربّ بدهشة، اقتراح منك، وماذا يمكن أن يكون هذا الاقتراح. كانت نبرة صوته تشي بالسخرية والزجر من شأنها أن تُسكت الآخرين، لكنه يعرف الشيطان منذ أمد بعيد. بحث *الراعي* عن الكلمات المناسبة قبل أن يوضح ما يريد قوله، لقد استمعت إلى كلّ ما قيل هنا على هذا المركب، ومع أنني رأيت بنفسي ومضات من النور والظلام في المستقبل فإني لم أكن أدرك قط بأنّ النور منبعث من محارق، والظلام منشأه أكداس هائلة من الأجساد. هل هذا يزعجك. ينبغي ألّا يزعجني لأنني الشيطان، والشيطان يستفيد من الموت أكثر مما تستفيده أنت، وغني عن القول إن جهنم مكتظة بالبشر

أكثر من الجنة. إذاً لماذا تتذمر. أنا لا أتذمر إنما أقدّم اقتراحاً. هيا أسرع، فلا يمكنني أن أبقى هنا إلى الأبد. لا أحد يعرف أكثر منك أن للشيطان قلباً أيضاً. نعم، لكنّك لا تجيد استخدامه. سأستخدمه اليوم للإقرار بقوتك التي أتمنى أن تمتد حتى آخر بقاع الكرة الأرضية من دون الحاجة إلى هذا القدر الهائل من الموت، وبما أنك تصرّ على أنّ كلّ ما يحبطك وينكر وجودك مبعثه الشرّ الذي أمثّله وأتحكم به في هذا العالم، فإني أقترح أن تستقبلني في مملكتك السماوية، وأن تُفتدى آثامي السابقة بتلك التي لن أرتكبها في المستقبل، وأن تقبل طاعتي كما كنت في تلك الأيام السعيدة عندما كنت واحداً من ملائكتك المختارين، عندما دعوتني إبليس، حامل النور، قبل أن يلتهم طموحي روحي لأن أصبح نظيراً لك وأتمرد عليك. وهل تتفضل وتقول لي لماذا عليّ أن أعفو عنك وأستقبلك في مملكتي. لأنك إذا منحتني عفوك فسيتوقّف الشرّ، ولن يتعين على ابنك أن يموت، وستمتدّ مملكتك وتنتشر إلى ما بعد أرض العبرانيين حتى تشمل الكرة الأرضية برمتها، وستسود الدنيا النوايا الحسنة، وسأصبح بين أدنى الملائكة التي ظلت متمسكة بإيمانها بك، أكثر إيماناً منها جميعاً، وبعد أن أتوب وأمجدّك، سينتهي كلّ شيء ولن يعود كما كان من قبل، وسيصبح كلّ شيء كما يجب أن يكون دائماً. إني أعرف دائماً أنك تمتلك موهبة تضليل الأرواح، لكنّي لم أسمعك قط تتحدث بكلّ هذه الثقة والفصاحة التي تكاد أن تقنعني. إذاً لن تقبل ولن تعفو عني. لا، لن أقبل ولن أعفو عنك، بل أفضّل أن تكون كما أنت، وإذا كان بالإمكان أن تزداد سوءاً. لكن لماذا. لأن الخير الذي أمثّله أنا لا يمكن أن يكون له وجود بدون الشرّ الذي تمثّله أنت، فإذا انتهيت أنت، فإني سأنتهي أنا أيضاً، فلولا الشيطان هو الشيطان فلا يمكن أن يكون الربّ هو الربّ. هل هذه كلمتك الأخيرة.

كلمتي الأولى والأخيرة، الأولى لأنها المرة الأولى التي أقولها، والأخيرة لأني لا أنوي أن أكررها. هزّ *الراعي* كتفيه استهجاناً، وقال ليسوع المسيح، لا تسمح بأن يقال إن الشيطان لم يغو الربّ. وعندما نهض ووقف على قدميه، كان يهمّ بأن يضع ساقاً على جانب القارب، لكنه توقّف وقال ليسوع، ثمة شيء لي في مخلاتك. لم يتذكر يسوع المسيح بأنه أخذ مخلاته معه إلى المركب، لكنه رآها هناك متكومة عند قدميه. فسأله، وما هو ذلك الشيء. عندما فتح المخلاة لم يجد فيها شيئاً سوى الطاسة السوداء القديمة التي أحضرها معه من الناصرة. ها هي، ها هي، قال الشيطان وأمسك الطاسة بكلتا يديه، ثم قال، ذات يوم ستعود إليك مرة أخرى، لكنك لن تعرف أنها معك. دسّ *الراعي* الطاسة في ثوبه الخشن ونزل إلى الماء. ومن دون أن يلتفت إلى الربّ، قال، كما لو أنه يخاطب جمهوراً غير مرئي، الوداع إلى الأبد، بما أن هذا ما أمر به. وراح يسوع يتابع بعينيه الراعي الذي راح يسبح ببطء ليختفي في وسط الضباب. ومن مسافة بعيدة، عاد يبدو مثل خنزير بأذنين مستدقتين، وكان يلهث، لكن لن يجد أي شخص له أذن مرهفة السمع صعوبة في سماع نبرة خوف في لهاثه، لا الخوف من الغرق، يا لها من فكرة لأن الشيطان، كما علمنا، ليس له نهاية، إنما سيعيش إلى الأبد. اختفى *الراعي* وراء حافّة الضباب المكسورة عندما انطلق صوت الربّ فجأة مودعاً، وقال، سأرسل لك رجلاً يدعى يوحنا ليساعدك، لكن عليك أن تثبت له من أنت. تطلّع المسيح حوله، لكنه لم يجد الربّ. عندئذ انقشع الضباب واختفى، وعادت البحيرة لتصبح صافية رقراقة من الجبل إلى الجبل، ولم ير أي دليل على وجود شيطان في الماء، ولا إشارة على وجود الربّ في الهواء.

على الشاطئ الذي انطلق منه، رأى يسوع المسيح جموعاً غفيرة من

الناس ورأى وراءهم خياماً كثيرة. كان من الواضح أنه مخيم لأشخاص لا يقيمون في هذه المنطقة، وبما أنه لم يكن عندهم مكان يأوون إليه، فقد حلّ بهم المقام هنا. بفضول، أنزل المجدافين إلى الماء وراح يجذّف بذلك الاتجاه. وعندما نظر من فوق كتفه، رأى مراكب تُدفع إلى الماء، وعندما أمعن النظر، رأى سمعان وأندراوس ويعقوب ويوحنا وأشخاصاً آخرين لا يعرفهم. راحوا يجذّفون بقوة حتى اقتربوا منه وأصبح بإمكان أحدهم أن يسمع الآخر. صاح سمعان، أين كنت. كان من الواضح أنه لم يكن يريد أن يعرف أين كان، لكنّ كان عليه أن يبدأ من نقطة ما. هنا في البحيرة، أجابه يسوع المسيح، جواب فارغ مثل السؤال، لا يشكل بداية جيدة في هذا الفصل الجديد من حياة ابن الربّ ومريم ويوسف. ثمّ صعد سمعان إلى مركب المسيح، وانكشف الأمر المستحيل وغير المفهوم. ثم سأله سمعان هل تعرف كم مضى عليك هنا في هذا الضباب بينما كنا نحاول جاهدين أن ندفع مراكبنا إلى البحيرة لكن رياحاً عاتية كانت تصدنا. فأجابه المسيح، اليوم كله. وعندما رأى التجهم على وجه سمعان، أضاف، طوال النهار والليل. فصاح سمعان، أربعين يوماً، ثمّ خفض صوته، وقال، بقيت في البحيرة أربعين يوماً، ولم ينقشع الضباب طوال ذلك الوقت، كأنه يخفي عنا شيئاً، ماذا كنت تفعل هناك، فلم نتمكن من اصطياد سمكة واحدة في هذه المياه منذ أربعين يوماً. أعطى المسيح أحد المجدافين إلى سمعان، وراحا يجذّفان ويتحدّثان بتناغم، كتفاً لكتف، يتحركان بسرعة مثالية لتبادل الثقة. ثم قال المسيح قبل أن تقترب منهما المراكب الأخرى، لقد كنت مع الربّ، وأصبحت أعرف ما يخبئه لي المستقبل، والفترة التي سأعيشها والحياة التي تنتظرني بعد هذه الحياة. كيف شكله، أقصد، كيف يبدو الربّ. لا يظهر الربّ في شكل واحد فقط، فقد يظهر في شكل غيمة،

أو في هيئة عامود من الدخان، بل حتى في هيئة يهودي ثري، لكنك عندما تسمع صوته، فإنك تعرفه. وماذا قال لك. قال لي إني ابنه. إذاً كان الشيطان محقاً خلال ذلك العمل مع الخنازير. كان الشيطان أيضاً هنا في المركب وسمع كلّ شيء، ويبدو أنه يعرف عنّي ما يعرفه الربّ، وكان يخيّل إليّ أحياناً أنه يعرف أكثر مما يعرفه الربّ نفسه. وأين. أين ماذا. أين كانا. كان الشيطان على أحد جانبي المركب، بين المكان الذي تجلس فيه الآن وبين المقعد في مؤخّرة المركب حيث كان يجلس الربّ. وماذا قال لك الربّ. قال إنني ابنه وبأنني سأُصلب. إن كنت ستذهب إلى الجبال لتقاتل مع المتمردين فإننا سنأتي معك. ستأتون معي، لكن ليس إلى الجبال، ولن نحارب قيصر بالسلاح، بل سنجعل الربّ ينتصر بالكلمات. بالكلمات وحدها. وكذلك بأن نكون قدوة جيدة، وأن نضحي بحياتنا إذا دعت الضرورة. هل هذه كلمات أبيك. من الآن فصاعداً فإن جميع كلماتي هي كلماته، وكلّ من يؤمن به يجب أن يؤمن بي، لأنه يستحيل الإيمان بالأب من دون الإيمان بالابن، لأن الطريق الجديد الذي اختاره الأب لا يمكن أن يبدأ إلّا معي، أنا ابنه. عندما تقول إننا سنأتي معك، من تقصد. أقصدك أنت أولاً وقبل كل شيء، ثمّ شقيقك أندراوس، وابنَيْ زبدي، يعقوب ويوحنا، وأتذكّر الآن بأن الربّ قال بأنّه سيرسل رجلاً يدعى يوحنا لكي يساعدني لكنه لا يمكن أن يكون نفس يوحنا. لسنا بحاجة إلى أشخاص آخرين، فهذا ليس موكباً من مواكب هيرودس الرسمية. سيأتي آخرون، ربما ينتظر بعضهم هناك إشارة الربّ، الإشارة التي سيظهرها من خلالي لتجعلهم يؤمنون بي ويتبعونني. ماذا ستقول للناس. سأقول لهم إنهم يجب أن يتوبوا ويكفّروا عن خطاياهم وذنوبهم ويعدّون أنفسهم لعصر جديد للربّ الذي على وشك أن يبزغ، عصر سيذلّ فيه سيفه الملتهب أولئك

الذين رفضوا كلمته المقدّسة وذمّوها. لكنّ هل عليك أن تقول لهم إنك ابن الربّ. سأقول لهم إن أبي دعاني ابنه، وإنني حملت تلك الكلمة في قلبي منذ اليوم الذي ولدت فيه، لكن الربّ جاء بنفسه الآن ليقول لي إنني ابنه، والأب لا يجعل المرء ينسى الآخر، لكن الأب الذي يصدر الأوامر اليوم هو الربّ، لذلك يجب أن نطيعه. اترك لي هذا الأمر، قال سمعان الذي وضع مجدافه وانتقل إلى مقدمة القارب، وراح يصيح بصوت مرتفع، هوشعنا، ابن الربّ يقترب، هو الذي أمضى أربعين يوماً فوق الماء يكلّم أبيه وها هو يعود إلينا الآن لكي نتوب ونهيّئ أنفسنا. لا تذكر أن الشيطان كان معنا أيضاً، قال له يسوع المسيح بسرعة، خشية أن يواجه مصاعب إذا عُرف هذا الأمر. أطلق سمعان صيحة أخرى، أعلى هذه المرة، مثيراً حماسة عظيمة بين الجموع المحتشدة على الشاطئ، ثمّ عاد بسرعة إلى مقعده، وقال للمسيح، سأجذّف الآن، قف في مقدمة القارب لكن لا تقل شيئاً، ولا حتى كلمة واحدة حتى نبلغ الشاطئ. وهكذا وصلا، المسيح يقف عند مقدمة القارب بثوبه المهترئ ومخلاته الفارغة معلقة على كتفه، ذراعاه نصف مرفوعتين كما لو أنه يريد أن يحيي أو يبارك أحداً لكن بخجل شديد لعدم وجود ثقة كافية في نفسه. كان من بين الذين ينتظرون وصوله، ثلاثة رجال متلهفين للقائه فخاضوا في الماء حتى خاصرتهم. عندما وصلوا إلى القارب أخيراً، بدأوا يتدافعون، وحاول أحدهم أن يلمس ثوب المسيح بيده، لا لأنه صدّق ما قاله سمعان، إنما لأن لغز هذا الرجل الذي مكث في البحيرة أربعين يوماً سحره، كما لو كان يبحث عن الربّ في الصحراء، وقد عاد الآن من جبل السديم البارد ذاك حيث قد يكون قد رأى الربّ أم لم يره. وغني عن القول، فإن جميع الناس في القرى القريبة راحوا يلهجون بهذه القصة، وتجمّع الناس على الشاطئ وهرعوا لرؤية هذه

الظاهرة الجوية الغريبة بأمّ أعينهم، وعندما سمعوا أن رجلاً قد ضاع في وسط ذلك الضباب الكثيف، قالوا، يا له من مسكين.

انزلق القارب بنعومة إلى الشاطئ كما لو كان محمولاً على أجنحة ملائكة. ساعد سمعان المسيح في النزول إلى اليابسة، ودفع الرجال الثلاثة بانزعاج فقفزوا إلى الماء. فقال له يسوع المسيح، دعهم وشأنهم، ففي أحد الأيام سيسمعون بخبر موتي، وسيشعرون بالأسف لأنهم ليسوا هناك ليحملوا جثماني، فدعهم يرافقونني وأنا على قيد الحياة. ارتقى المسيح هضبة وسأل رفاقه، أين هي مريم. ما إن سألهم حتى رآها كأنّ صوت اسمها أطلقها من العدم. ففي لحظة كانت مختفية، وفي اللحظة التالية ظهرت. أنا هنا، يا يسوع. تعالي وقفي إلى جانبي، وأنت كذلك يا سمعان وأندراوس ويا يعقوب ويوحنا، ابنا زبدي، لأنكم جميعكم صدّقتموني، صدّقتموني عندما لم أكن قادراً على إخباركم بأني أنا ابن الربّ، الابن الذي ناداه الربّ، الأب الذي أمضى معه أربعين يوماً في البحيرة قبل أن أعود وأخبركم بأن ساعة الربّ قد أزفت، وأنكم يجب أن تتوبوا قبل أن يجمع الشيطان أكواز الذرة النتنة التي سقطت من الحصاد الذي يجمعه الربّ في حضنه، لأنكم أنتم أكواز الذرة تلك، الأكواز النتنة التي تسقط من عناق الربّ المحبّ إذا أخطأتم. سرت همهمة بين الجمع، مرّت فوق رؤوسهم مثل مويجات فوق سطح الماء. كان عدد من الموجودين قد سمعوا عن المعجزات التي اجترحها هذا الرجل، وقد رآها بعضهم بأمّ أعينهم أو أنهم كانوا المستفيدين منها. لقد أكلتُ ذلك الخبز والسمك، قال أحدهم. وأنا شربتُ ذلك النبيذ، قال آخر. كنتُ جار تلك الزانية، قال ثالث. لكن مهما بلغت تلك العجائب من روعة، فقد بهتت في تلك اللحظة السامية التي أعلن فيها يسوع المسيح أنه ابن الربّ، ولذلك فهو الربّ نفسه، وحي بعيد عن تلك

المعجزات الأخرى بُعد السماء عن الأرض، مع أننا نعرف أنه لم تقس المسافة بينهما حتى يومنا هذا. صوت انبثق من بين الجموع وقال، أثبت لنا أنك ابن الربّ، عندها سأتبعك. إنك ستتبعني إلى الأبد إن لم يكن قلبك مقفلاً داخل صدرك، إنك تسأل عن البرهان الذي تدركه أحاسيسك، حسناً، سأعطيك برهاناً يرضيهم، لكن عقلك سينكره، وبالرغم من أنك ستكون ممزّقاً بين العقل والأحاسيس، فلن يكون أمامك خيار إلّا أن تأتي إليّ من خلال قلبك. فردّ الرجل، ماذا يعني ذلك، فأنا لم أفهم كلمة واحدة مما قلته. فسأله يسوع المسيح، ما اسمك. توما. اقترب يا توما، تعال معي إلى حافة الماء وانظر إليّ كيف أصنع طيوراً من الطين؛ أترى كم هي سهلة، فأنا أجعل الجسم والجناحين والرأس والمنقار في قالب، ثم أضع هاتين الحجرتين الصغيرتين كعينين، وأسوّي الريش الطويل من أجل الذيل، وأجعل الساقين متوازنتين ثم المخالب، وعندما يتم ذلك، سأصنع أحد عشر طيراً آخر، انظر هنا، واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة، خمسة، ستّة، سبعة، ثمانية، تسعة، عشرة، أحد عشر، اثنا عشر طيراً، جميعها من الطين، تفكّر فقط، حتى إننا نستطيع أن نطلق عليها أسماء، هذا سمعان، وهذا يعقوب، وهذا أندراوس، وهذا يوحنا وسيدعى هذا، إذا لم تمانع، توما، أما بالنسبة للآخرين، فإننا سننتظر حتى تظهر أسماؤهم، فغالباً ما تتأخر الأسماء على الطريق وتصل متأخرة، والآن انظر، إرم الشبكة على طيوري الصغيرة كي لا تطير وتهرب لأنها ستطير بعيداً إن لم نكن حذرين. هل تحاول أن تقول لي إن الطيور ستطير هاربة إذا رُفعت هذه الشبكة عنها، سأله توما. نعم، إذا رُفعت الشبكة فإنها ستطير وتبتعد. أهذا هو البرهان الذي تظن أنه سيقنعني. نعم ولا. ماذا تقصد بنعم ولا. إن أفضل برهان لك هو ألّا ترفع الشبكة، لأنك

تظن أن الطيور ستهرب إذا رفعتها. لكن الطيور المصنوعة من الطين لا يمكنها أن تطير. إن آدم، أبونا الأول، قد صُنع من الطين وأنت أحد أحفاده. إنه الربّ هو الذي منح آدم الحياة. لا تشكّ أكثر من ذلك يا توما، وارفع الشبكة، لأنني أنا ابن الربّ. حسناً، إذا كان هذا رأيك فإني سأفعل ذلك، لكنّي أعدك بأن هذه الطيور لن تطير. وبسرعة رفع توما الشبكة فتحررت الطيور وطارت، وراحت تغرد، ثم دارت دورتين فوق الجموع المندهشة قبل أن تختفي في السماء. ثم قال يسوع المسيح، انظر يا توما، لقد ذهب طيرك. فأجاب توما، لا، أيها الربّ، أنا هو الطير، وجثا عند قدميه.

اندفع بعض الرجال في الجمع إلى الأمام، وحذت بعض النساء وراءهم حذوهم. اقتربوا وقدموا له أسماءهم. أنا فيليبوس، ورأى المسيح أحجاراً وصليباً. وأنا برثولماوس، ورأى المسيح جسداً مسلوخاً. وأنا متّى، ورأى المسيح جثّة بين الهمج. وأنا سمعان، ورأى المسيح المنشار الذي سيشطر جسده. وأنا يعقوب بن حلفى، ورأى المسيح أنه يُرجم حتى الموت. وأنا يهوذا تداوس، ورأى المسيح عصا مرفوعة فوق رأس الرجل. وأنا يهوذا الإسخريوطي، ورثى المسيح لحاله، ورآه يشنق نفسه على غصن شجرة تين. ثمّ دعا المسيح الآخرين وقال لهم، الآن وقد تجمعّنا كلّنا هنا، فقد أزفت الساعة، والتفت إلى سمعان، شقيق أندراوس، وقال له بما أن سمعان معنا، فستُعرف أنت باسم سمعان بطرس. أداروا ظهورهم نحو البحيرة، وسار الرجال، تتبعهم النساء اللاتي لم تُعرف أسماء معظمهن، وهذا ليس مهماً لأن أسماء معظمهن مريم، وستجيب ما تبقى من النساء عندما يسمعن هذا الاسم، فما على الرجل إلّا أن ينادي، يا امرأة، أو يا مريم، حتى يرفعن جميعهن رؤوسهن ويهرعن إليه.

راح يسوع المسيح وحواريوه ينتقلون من قرية إلى قرية، وتكلّم الربّ من خلال يسوع المسيح، وهذا ما قاله: لقد آن الأوان حتى يقيم الربّ مملكته، فتوبوا وآمنوا بالبشرى. عندما سمع الناس ذلك، لم يجدوا فرقاً بين الزمان الذي يدور دورة كاملة وبين انتهاء الزمن، فآمنوا بنهاية العالم حيث أصبح بالإمكان قياس الزمن أخيراً الذي لا بد أنه أخذ يقترب بسرعة. وشكروا الربّ لأنه رحمهم وأرسل لهم تحذيراً مسبقاً عن مصيرهم من خلال شخص يدّعي بأنه ابنه، وهو ادّعاء قد يكون صحيحاً، بعد أن رأوه يصنع معجزات وأعاجيب أينما ذهب، بشرط أن يبدي الذين يريدون أن يساعدهم إيماناً راسخاً، كما حدث مع الرجل الأبرص الذي جاء إلى يسوع المسيح وجثا أمامه وقال له متوسلاً: إن كنت تشاء، فأنت قادر على شفائي. فأشفق عليه يسوع المسيح ومدّ يده ولمسه وقال له: إني أشاء، فاشف. وفي الحال زال عنه البرص وشفي، وبرأ الرجل الذي كان الناس يتحاشونه ويبتعدون عنه خوفاً منه. أما الشفاء الرائع الآخر الذي تم على يديه فقد كان شفاء الرجل المشلول. فقد تجمّع عدد كبير من الناس عند دار المسيح، حتى لم يبق مكان لأحد ولا حتى أمام الباب، فأخذ يحدّثهم بكلام الربّ، وجاء بعض الناس وأحضروا إليه مشلولاً يحملونه. وعندما عجزوا عن إيصال

المشلول، كشفوا السقف فوق البيت الذي يوجد فيه المسيح والذي قد يكون بيت سمعان المعروف أيضاً باسم بطرس. مدفوعاً بإيمان الناس المتجمعين، قال المسيح للمشلول: يا بني، مغفورة لك ذنوبك. وصادف أن كان هناك بعض الفقهاء المرتابين الذين يدأبون على إيجاد أي سبب للشكوى منه والمستعدين دائماً للاستشهاد بالشريعة المقدّسة. عندما سمعوا ما قاله يسوع المسيح، احتجّوا وقالوا كيف يجرؤ على قول أمور كهذه، إنه يكفر، فمن بوسعه أن يغفر الذنوب إلّا الربّ. فسألهم المسيح، أيهما أسهل، أن أقول لهذا المشلول: مغفورة لك ذنوبك أو أن أقول له: قم واحمل فراشك وامش. ومن دون أن ينتظر رداً منهم، تابع قائلاً: لكني سأثبت لكم أن الذي صار بشراً يملك السلطة على الأرض لأن يغفر الذنوب وأنا أقول، والتفت إلى المشلول، أنا آمرك، قم واحمل فراشك واذهب إلى دارك. عندما سمع الرجل هذه الكلمات، نهض ووقف على قدميه على الفور بأعجوبة، وحمل فراشه على كتفيه، وغادر شاكراً الربّ.

من الواضح أننا لا نسعى جميعنا لأن تحصل لنا معجزة، لأننا نتعوّد، مع مرور الوقت، على تحمّل أوجاعنا وآلامنا الصغيرة ونتعلّم كيف نتعايش معها، ولا نفكّر كثيراً بأن نستنجد بالقوى الإلهية. لكن ارتكاب الخطايا أمر مختلف تماماً، لأنها تنخر فينا وتعذّبنا. فالخطيئة، بخلاف ساق مشلولة أو ذراع مشلولة أو ما يسببه الجذام من خراب في جسدنا، تتقيح وتعتمل في داخلنا، ويعرف الربّ عن أي شيء يتحدّث عندما قال ليسوع المسيح إن لكلّ إنسان خطيئة واحدة على الأقل، إن لم يكن أكثر، لذلك عليه أن يتوب. وبما أن هذا العالم قد شارف على نهايته واقترب ملكوت الربّ، فبدلاً من أن ندخل إليها بعد أن نستعيد أجسادنا بطرائق إعجازية، ينبغي أن نولي انتباهاً لأرواحنا، نطهّرها

بالتوبة ونشفيها بالمغفرة. لأنه إذا كان المشلول من كفر ناحوم قد أمضى معظم حياته في الفراش لأنه ارتكب خطيئة، لأن المرض كما نعرف جميعاً سببه الخطيئة، لذلك، فإننا نستطيع أن نخلص بأمان إلى أن الشيء الرئيسي، حتى ننعم بصحة جيدة، فضلاً عن الخلود الذي قد يكون أقصى درجات النقاء والصفاء، هو ألّا تكون هناك أي خطيئة، إمّا من الجهل المبارك أو من الإنكار المطلق، إمّا في الفكر أو في العمل. لكن لا يظنن أحد بأنّ مسيحنا قد قطع كل تلك المسافات ليبدد قوّته في شفاء المرضى ويهدر سلطته ليغفر الذنوب التي أودعها الربّ فيه، بالرغم من أنه، ربما كان من الأفضل أن يصبح هو الدواء الشافي لكل داء على أن يقول إنه يفعل ذلك من أجل الرب، واقتراب نهاية الزمن وحثّ الناس على التوبة. ولكي لا يهدر الخاطئون وقتاً كبيراً في الصراع مع أنفسهم لاتخاذ القرار الصعب للاعتراف بأنني ارتكبت خطيئة، فقد وضع الربّ بعض التهديدات المرعبة في فم يسوع المسيح على النحو التالي: إني أقول لكم الحق، فإن بعض الموجودين هنا لن يموتوا حتى يروا الذي صار بشراً آتياً في مملكته. تخيّل تأثير هذه الكلمات المدمّر على الذين جاؤوا من جميع الأماكن لاتّباع المسيح راجين أن يقودهم مباشرة إلى الجنة الجديدة التي سيقيمها الربّ على الأرض والتي ستختلف عن جنة عدن التي سينعمون فيها بعد أن يكّفروا عن الخطيئة التي ارتكبها آدم، بالصلاة وإماتة الجسد والتوبة. ولما كانت معظم هذه الأرواح المطمئنة تنتمي إلى الطبقة العاملة من حفاري الطرق والحرفيين وصيّادي السمك والنساء من الطبقة الدنيا، جازف المسيح ذات يوم عندما منحه الربّ قدراً أكبر من الحرية، وارتجل خطاباً أصاب جمهوره بالدهشة، فتدفّقت دموع الفرح ابتهاجاً بقدوم فرصة الخلاص، وقال لهم يسوع المسيح، هنيئاً للمساكين في الروح لأن لهم مملكة الربّ. هنيئاً

لمن يجوعون ويعطشون إلى الصلاح لأنهم يشبعون. هنيئاً لمن يبكون الآن لأنهم سيضحكون. لكن الربّ أدرك ما يحدث، ومع أن الأوان قد فات للتراجع عما قاله المسيح، دفعه لأن يقول كلمات أخرى حوّلت دموع الفرح إلى كرب وحزن، فقال: هنيئاً لمن يضطهدهم الناس من أجل الصلاح لأن لهم نصيباً في مملكة الربّ. هنيئاً لكم إذا رفضوكم وشتموكم وافتروا عليكم لأنكم أتباعي. عندما أنهى يسوع المسيح كلامه هذا، كما لو أنّ روحه سقطت عند قدميه، لأن كلّ العذاب والموت الذي تنبّأ به الربّ في البحيرة لاحت أمامه في تلك اللحظة. مُخَدّرين بالخوف، رأى الجمع المسيح يجثو على ركبتيه، وسجد وصلّى بصمت. لم يتصوّر أحد من الموجودين أن يطلب مغفرتهم، هو، ابن الربّ، القادر على مغفرة خطايا الآخرين. في تلك الليلة، وفي الخيمة التي يقيم فيها مع مريم المجدلية، قال يسوع المسيح، أنا هو الراعي الصالح، والراعي الصالح يضحّي بنفسه في سبيل الأبرياء والأشرار، الناجين والضائعين، الذين ولدوا والذين لم يولدوا بعد، الذين سينقذونني من هذه الخطيئة، لأنني أرى نفسي الآن كما رأيت أبي ذات يوم، فقد كان مسؤولاً عن عشرين روح، أما أنا، فإني مسؤول عن عشرين ألف روح. أجهشت مريم المجدلية في البكاء، محاولة مواساة يسوع وقالت إنك لم تفعل ذلك. فأصرّ قائلاً، إن هذا يزيد الأمر سوءاً. وكما لو أنها عرفت ما بدأنا نفهمه شيئاً فشيئاً، قالت، إن الربّ هو الذي يرسم طريق القدر ويقرر من سيطرق تلك الطريق، وقد اختارك لتفتح طريقاً بين طرق عديدة باسمه، لكنك لن تسير فوق تلك الطريق أو تقيم معبداً، لأن الآخرين هم الذين سيشيدونه على دمك وجسدك، وعليك أن تقبل القدر الذي اختاره لك، لأن كلّ بادرة وحركة قد حُددت، والكلمات التي ستقولها تنتظرك في الأماكن التي ستذهب إليها، وهناك

ستجد المشلول الذي ستشفي أطرافه، والأعمى الذي ستعيد له بصره، والأطرش الذي ستمنحه القدرة على السمع والذي سيسمع ما ستقوله، والميت الذي ستبعثه حياً. لكن لا طاقة لي على الموت. لم تجرّب بعد. حاولتُ، لكن شجرة التين لم تعد إليها الحياة. يجب أن تتمنّى ما يشاءه الربّ، مع أنه لا يمكنه أن يحرمك مما تتمنّاه. يجب أن يخلّصني من هذا العبء، هذا كلّ ما أطلبه. إنك تطلب المستحيل يا يسوع، لأن الشيء الوحيد الذي لا يستطيع أن يفعله الربّ هو ألّا يحبّ نفسه. كيف عرفتِ ذلك. إن النساء يرين الأشياء بصورة مختلفة، ربما لأن أجسادنا مختلفة. نعم، لا بد أن هذا هو التفسير الصحيح.

وبما أن الأرض فسيحة جداً لا يمكن لقوّة رجل واحد أن تغطيها، حتى في بقعة صغيرة مثل فلسطين، فقد قرّر يسوع المسيح، في صبيحة أحد الأيام، أن يرسل حوارييه، اثنان اثنان، ليعلنوا في أرجاء المدن والبلدات والقرى عن قدوم مملكة الربّ، وليعلّموا ويعظوا مثله في الأماكن التي يذهبون إليها. وهكذا، بعد أن وجد نفسه وحيداً مع مريم المجدلية لأن النساء الأخريات قد ذهبن مع الرجال الآخرين، خطر له أنه بما أنهما سيذهبان إلى بيت عنيا القريبة من أورشليم، فقد يصطادان عصفورين بحجر واحد، إذا غفرتم لنا استخدام هذا التعبير، وزيارة شقيق مريم وشقيقتها. لقد آن الأوان كي يتصالحوا، ثم يذهبان إلى أورشليم معاً، لأن المسيح دعا إلى عقد اجتماع مع حوارييه في بيت عنيا بعد ثلاثة أشهر. لا يوجد الشيء الكثير الذي يمكن أن يقوله المرء عن أعمال الحواريين الاثني عشر في أرض إسرائيل، أولاً، لأننا، بالرغم من التفاصيل القليلة المتعلقة بحياتهم وظروف موتهم، فلم يتح لنا أن نحكي قصتهم هنا، وثانياً، لأنه لم تُقدم لهم أي مهمة سوى تكرار، ومع أن كلّ واحد منهم قدمها بطريقته، نصائح معلّمهم، وهذا

يعني أنهم كانوا يعلّمون ما كان يعلّمه هو، ويعالجون الناس بقدر ما بوسعهم. لكن من المؤسف أن يسوع المسيح منعهم من الذهاب إلى الأغيار، غير اليهود، أو من دخول مدن السامريّين. إن هذا التعصّب المفاجئ والمدهش لشخص متعلّم حرمهم من فرصة نشر رسالتهم، لأننا إذا أخذنا في الاعتبار نية الربّ بتوسيع مجال سلطانه، إن عاجلاً أم آجلاً، فلن تصل رسالته إلى السامريّين فحسب، بل كذلك إلى الأغيار إن وجدوا في هذه المنطقة، أو في أي منطقة أخرى. فأمر يسوع المسيح تلامذته بشفاء المرضى وإحياء الموتى وشفاء البرص وطرد الشياطين، لكن باستثناء إشارة أو إشارتين غامضتين، لا يوجد دليل واضح على أنهم صنعوا أياً من هذه المعجزات، وهذا يثبت أن الربّ لا يثق بأي شخص، مهما بلغت التوصية به. عندما اجتمعوا بيسوع المسيح، لا بد أنه كان لدى الحواريين الاثني عشر شيء يريدون قوله له عن النتائج التي توصلوا إليها في مواعظهم عن ضرورة التوبة، لكن ربما ذُكر شيء عن الشفاء، بالإضافة إلى طرد بعض الشياطين غير المؤذية التي لا تحتاج إلى الكثير من الإقناع حتى تنتقل من روح إلى أخرى. لكن لا بد أن التلاميذ أخبروا يسوع المسيح كيف أن الناس كانوا يطردونهم في أحيان كثيرة، أو أنهم كانوا يقابلون بعدائية على الطرق التي لا يمر منها أغيار، أو في المدن التي لا يقطنها سامريّون، وما كان عليهم إلّا أن ينفضوا عن أقدامهم التراب عندما يغادرون، كما لو أن السبب هو التراب الذي يطأ فوقه الجميع. لكن يسوع المسيح قال لهم هذا ما يجب أن تفعلوه في حالات كهذه، كشهادة ضد الذين رفضوا أن يسمعوا، وهو أمر يبعث على الأسى لأن ما رُفض سماعه هو كلمة الربّ نفسها. فقال لهم يسوع المسيح، لا تقلقوا لما ستقولونه، لأن الوحي سيهبط عليكم

عندما تحتاجون إليه. لكن ربما لم تكن الأمور تسير هكذا، لأن سلامة العقيدة يجب أن تأتي قبل تنفيذها شخصياً.

رائحة عطر ورد مقطوف حديثاً ملأت الهواء. كانت الطرق نظيفة وممهدة كأنّ الملائكة كانت تسير أمامهما وترشّ الندى في طريقهما ثمّ تفركها بالغار ونبات الآس. تحاشى يسوع المسيح ومريم المجدلية الخانات والمسافرين الآخرين على الطريق، لأنهما لم يرغبا في أن يراهما أحد يعرفهما، لا لأن يسوع كان يريد التهرب من واجبه، وهو ليس بالأمر السهل تحت عين الربّ اليقظة، لكن يبدو أن الربّ قرّر أن يمنحه متنفساً، لأنه لم يصادف في طريقه مصابين بالبرص يتوسلون إليه لأن يشفيهم، أو أشخاصاً تتلبسهم أرواح يجب طردها، وكانت القرى التي يعبرونها تنعم بسلام الربّ، كأنهما أحرزا تقدّماً على طريق التوبة. كانا ينامان أينما تصادف وجودهما، ولم يكن أحدهما يجد الراحة إلّا في حضن الآخر، وتكون السماء أحياناً سقفهما وعين الربّ الهائلة سوداء لكن الأنوار تتناثر فيها، وكانت انعكاسات العيون المرفوعة إلى السماء، جيلاً بعد جيل، تسأل الصمت وتستمع إلى الجواب الوحيد الذي يعطيه الصمت. وعندما ستصبح مريم المجدلية وحيدة في هذا العالم، ستحاول تذكر تلك الأيام وتلك الليالي، لكنّها ستجد صعوبة متزايدة في نسيان ذكرياتها المتعلقة بالحزن والمرارة، كما لو أنها تحاول عبثاً حماية جزيرة حبّ من هجوم بحر هائج ومن وحوشه. إن الساعة تدنو، لكنْ عندما ينظر المرء إلى السماء وإلى الأرض، فإنه لا يرى إشارة مرئية تدّل على دنوها كما يطير طير في السماء الفسيحة من دون أن يلاحظ الصقر وهو ينقض بسرعة كبيرة مثل صخرة تهوي، ناشباً مخالبه. يترك المسيح ومريم المجدلية اللذان يغنيان وهما يسيران، انطباعاً لدى المسافرين الآخرين الذين يقولون لأنفسهم، يا لهما من

زوجين سعيدين، وحتى الآن، لا يبدو أن هناك شيئاً أكثر صحّة من ذلك. ثمّ وصلا إلى أريحا، وأمضيا يومين كاملين حتى وصلا إلى بيت عنيا، من شدة الحرارة ولعدم وجود ظلّ يفيئان إليه راحت مريم المجدلية تتساءل كيف سيستقبلها شقيقها وشقيتها بعد كل هذا الوقت، لا سيما أنها غادرت البيت لتعمل مومساً. تساءلت، لعلهما يظنان أنني متّ، بل لعلهما يتمنيان أنني متّ حقاً. حاول المسيح أن يثنيها عن التفكير بهذه الأفكار، لأن الزمن كفيل بأن يشفي كلّ شيء، ونسي أن الجرح الذي سببته له أسرته لا يزال ناكئاً ونازفاً. عندما دخلا بيت عنيا، كانت مريم تغطّي نصف وجهها كي لا يعرفها أهل القرية. فوبّخها يسوع المسيح بلطف وقال، لماذا تخبئين ماضيك الذي أصبح وراءك ولم يعد له وجود. صحيح أنني لست المرأة التي كنت، لكنني ما أزال مقيدة بالمرأة المجللة بالعار. أنت الآن من أنت فقط، وأنت معي. شكراً للرب، لكن سيأتي يوم سيأخذك فيه منّي. خفضت مريم حجابها وأبانت وجهها، لكن لم يقل أحد من المارة، انظروا، ها هي أخت لعازر التي هربت لتعيش مومساً.

قالت، هذا هو البيت، لكنها لم تستطع أن تقرع الباب أو تعلن عن قدومها. دفع المسيح الباب غير المغلق قليلاً وصاح، هل يوجد أحد في البيت، فجاءه صوت امرأة، من هناك. عندما قالت تلك الكلمات ظهرت عند الباب. إنها مارثا، الأخت التوأم لمريم المجدلية، لكنها لم تعد تشبهها كثيراً الآن لأن العمر ترك آثاره على مارثا، ربما بسبب صعوبة الحياة التي تعيشها، أو ربما بسبب المزاج والشكل. كان أول ما لاحظته هو عينا المسيح وقسمات وجهه، كأن غيمة داكنة انقشعت في الحال، فأصبح وجهه مشعاً، لكنها عندما التفتت إلى أختها، أبدت شيئاً من التحفظ، وأظهر تجّهمها قدراً من الاستياء. من هو هذا الرجل الذي

معها، لا بد أنها تساءلت بينها وبين نفسها، أو ربما، ما الذي جعله يرافقها وهو في هذه الطلة المشرقة، لكنها حاولت أن تعرف عنه أكثر من رائحته، لكنها لم تستطع. ربما كان ذلك بدل أن تسأل أختها، كيف حالك يا أختي، أو ماذا تفعلين هنا، لكن كلّ ما قالته، من هو هذا الذي الرجل معك. ابتسم المسيح، واتجهت ابتسامته مباشرة إلى قلب مارثا واخترقته مثل سهم ومكث فيه، مما جعله يتألم برضاء. فقال لها، أنا يسوع المسيح من الناصرة وأنا مع أختك. نفس الكلمات، لكن مع ما يلزم من التعديل، كما يقول الرومان، كتلك الكلمات التي قالها عندما قال لأخيه يعقوب عند البحيرة، اسمها مريم المجدلية وهي معي. فتحت مارثا الباب على مصراعيه، وقالت، تفضل، خذ راحتك. لكن لم يكن واضحاً إلى أي منهما توجّه كلامها. ما إن أصبحا داخل الفناء حتى أمسكت مريم المجدلية بذراع أختها، وقالت لها، إني أنتمي إلى هذا البيت بقدر ما تنتمين إليه أنتِ، وأنا أنتمي إلى هذا الرجل الذي لا ينتمي إليك، وأنا صريحة معك، لذلك لا تبجحي كثيراً بفضيلتك أو تدينني العمل الشرير الذي قمت به، لقد أتيت إلى هنا بسلام، وبسلام أرجو أن أبقى. فأجابتها مارثا، سأستقبلك كأختي، وكنت أتطلع إلى اليوم الذي أستطيع أن أرحب فيه بك بكل محبة. كانت ستواصل كلامها لكن فكرة طرأت لها فجأة، فلم تكن متأكدة مما إذا كان الرجل الذي يرافق أختها يعرف شيئاً عن الحياة التي كانت تعيشها أختها، وربما لا تزال تعيشها. تضرّج وجهها خجلاً، حتى تكلّم المسيح أخيراً حتى تعرف مارثا ما كانت تريد أن تعرفه لأنه لا تصعب معرفة ما يفكّر به الناس. فقال لها إن الربّ يحكم علينا جميعاً، وهو يفعل ذلك بطريقة مختلفة كلّ يوم، وحسب ما نكونُ كلّ يوم، فإذا أراد الربّ أن يحكم عليك في هذه اللحظة يا مارثا، فلا تتصوري أنك ستكونين مختلفة في

نظره عن مريم. أرجو أن توضح لي ذلك فلم أفهم ما قلته. لا توجد كلمات أكثر مما قيلت، لكن احفظي كلماتي في قلبك وكرّريها في نفسك كلما نظرت إلى أختك. أما زلتِ. تقصدين أنني ما زلت عاهرة، سألتها مريم المجدلية بفظاظة، غير عابئة بمجاملة أختها. أجفلت مارثا، ورفعت يديها إلى وجهها وقالت، لا، لا أريد أن أعرف، فكلمات يسوع المسيح تكفي. ولم تتمكن من حبس دموعها فانفجرت في البكاء. اقتربت منها مريم وضمتها بين ذراعيها، في حين ظلت مارثا تردد وهي تبكي، أي حياة هذه، أي حياة هذه. لكن ليس بوسع المرء أن يتأكد هل كانت تقصد حياتها هي أم حياة أختها. أين لعازر، سألتها مريم. إنه في الكنيس. كيف حاله هذه الأيام. لا تزال تنتابه نوبات الاختناق تلك، وما عدا ذلك، فإن صحته ليست سيئة. أرادت أن تضيف بامتعاض بأن مريم لم تكن تبدي اهتماماً به لأنه طوال سنوات غيابها الآثم، لم تسأل هذه الأخت المسرفة، المسرفة في وقتها وفي جسدها، عن أسرتها، ولم تسأل مرة واحدة عن شقيقهما الذي كانت صحته على غير ما يرام، لكنها التفتت إلى يسوع المسيح الذي لاحظ نظرات العداء بينهما، وقالت، إن شقيقنا ينسخ الكتب في الكنيس وهذا أقصى ما يمكن أن يفعله وهو في حالته الصحية السيئة. كانت نبرتها تشي بشخص غير قادر على فهم كيف يمكن أن يعيش شخص دون أن يشغل نفسه بعمل مفيد من الصباح حتى المساء. فسألها يسوع المسيح، وما هو مرض لعازر. تصيبه نوبات اختناق كأنّ قلبه سيتوقّف عن الخفقان، ثمّ يشحب وجهه، هل تظن أنه سيموت. صمتت مارثا قبل أن تضيف من دون تفكير، إنه يصغرنا سناً. لعلها فوجئت بشباب يسوع المسيح. مرة أخرى ساورها القلق، وداهمتها آلام الغيرة التي جلبت الكلمات إلى شفتيها، الكلمات التي بدت غريبة وهي تصدر من مارثا، بينما كانت مريم المجدلية التي

كان عليها أن تقولها، واقفة هناك. فقالت مارثا ليسوع المسيح، لا بد أنك مرهق، اجلس ودعني أغسل قدميك. وعندما أصبحت مريم وحدها مع يسوع المسيح، قالت بشيء من الدعابة، يبدو أننا أختان خُلقنا لنحبك. فأجابها المسيح، إن مارثا حزينة لأنها لم تجد في الحياة مسرات كثيرة، مستاءة لأنها تفكّر بأنه لا توجد عدالة في السماء عندما تكافأ امرأة ساقطة ولا تُثاب امرأة مستقيمة مثلها. إن الربّ سيكافئها بسبل أخرى. ربما، لكن ليس من حق الربّ الذي خلق العالم أن يحرم النساء من ثمار خلقه. مثل العلاقة الجسدية مع الرجال. طبعاً، كما عرفتَ أنت المرأة، وماذا ترغب أكثر لأنك أنت ابن الربّ. إن الذي يضطجع بجانبك ليس ابن الربّ إنما ابن يوسف. بصراحة، منذ أن دخلت حياتي، لم أشعر قط بأنني أستلقي مع ابن إله. تقصدين الربّ. كم أتمنى ألّا تكون.

أرسلت مارثا ابن جارتها الصغيرة وحمّلته رسالة إلى لعازر تقول له فيها إن مريم عادت إلى البيت. لقد فعلت ذلك بعد الكثير من التردد، لأنها لم تكن تريد أن يعرف أحد بأن شقيقتهما سيئة السمعة قد عادت إلى القرية لأن الألسن ستلوك في سيرتها مرة أخرى بعد كلّ هذا الوقت. كيف ستقابل الناس في الشارع في اليوم التالي، بل كيف ستجد الشجاعة لتخرج مع أختها، لأنه يصعب تجاهل جاراتها وصديقاتها، وتخشى أن تقول لهن هذه هي أختي مريم؛ أتذكرونها، لقد عادت إلى البيت حتى تتلقى نظرات وتعليقات خبيثة. طبعاً نتذكّرها، ومن لا يتذكّر مريم، نرجو ألّا تزعج هذه التفاصيل المملة القارئ، لأن قصّة الربّ ليست كلّها إلهية. كانت مارثا تحاول أن تكبت هذه الأفكار المتشددة عندما وصل لعازر الذي عانق مريم ولم يقل لها شيئاً سوى، أهلاً بك في بيتك يا أختي، ووضع حزن كلّ تلك السنوات من الفراق والقلق

الصامت جانباً. أما مارثا التي أحسّت بأنها يجب أن تتظاهر بالشجاعة، فقد أشارت إلى يسوع المسيح وقالت لأخيها، هذا يسوع المسيح، نسيبنا. تبادل الرجلان إيماءة وديّة، ثمّ جلسا يتحادثان، بينما راحت المرأتان تعدّان الطعام معاً كما كانتا تفعلان في الماضي. بعد أن تناولوا طعامهم، خرج لعازر ويسوع المسيح إلى الفناء لتنشق هواء الليل العليل بينما ظلت الأختان في البيت لترتيب ومدّ الحصر التي سينامون عليها، بعد أن أصبحوا أربعة الآن. حدّق يسوع المسيح طويلاً في النجوم الأولى التي بدت في السماء والتي كانت لا تزال مضيئة، ثم سأل لعازر أخيراً، هل تعاني من الألم كثيراً، فأجابه لعازر بهدوء يثير الدهشة، نعم، إني أعاني كثيراً. فقال له يسوع المسيح، إن ألمك سينتهي. لا شكّ في ذلك، عندما أموت. لا، أقصد قريباً جداً. لم أكن أعرف أنك طبيب. يا أخي، لو كنت طبيباً، لما تمكنت من معالجتك. ولا يمكنك حتى لو لم تكن. لقد شفيتَ، دمدم يسوع المسيح بصوت خفيض، وأمسك بيده. فأحسّ لعازر بأن المرض انسلّ من جسمه مثل ماء عكر امتصته الشمس. وبدأ يتنفس بسهولة أكبر، وازداد نبضه قوة، وسأله بعصبية وهو في حيرة مما يحدث، بصوت أجش، ماذا يجري، من أنت، طبيب. فابتسم يسوع المسيح وقال، أنا لست طبيباً. باسم الربّ قل لي من أنت. لا تذكر اسم الربّ عبثاً. لكن من أنا حتى يصير بي هكذا. اسأل مريم فهي تخبرك. لا داعي لسؤال أحد. عندما سمعت مارثا ومريم فجأة الأصوات المرتفعة، هرعتا ووقفتا عند الباب، لأنه خيّل إليهما أن الرجلين يتشاجران، لكن سرعان ما تبين لهما أنهما مخطئتان. نور أزرق من السماء، وأشار لعازر الذي كان يرتجف إلى يسوع المسيح وقال، من هو هذا الرجل الذي لم يفعل شيئاً سوى أن لمسني وقال لقد شفيت واختفى المرض. توجهت مارثا إلى أخيها لتهدئ من روعه

وتساءلت كيف يمكنه أن يبرأ بعد أن كان يرتجف من قمة رأسه حتى أخمص قدميه، لكن لعازر أبعدها عنه وقال، مريم، أنت من أحضرته إلى هنا، قولي لنا من هو. ودون أن تتحرك من أمام الباب، قالت مريم المجدلية، إنه يسوع المسيح من الناصرة، ابن الربّ. ومع أن هذه المنطقة حباها الربّ بالرسالات النبوية والتجليات الرؤوية منذ أزمان غابرة، فقد كان من الطبيعي ألّا يصدق لعازر ومارثا ذلك، فإن الأمر الوحيد الذي يجب أن تقرّ به هو أنك شفيت بمعجزة، والأمر الآخر هو أنك يجب أن تعرف أن الرجل الذي لمس يدك هو ابن الربّ. وبمقدرة الإيمان والحبّ أن يحققا الشيء الكثير، مع أن البعض يدّعون بأنه ليس من الضروري أن يترافقا معاً لتحقيق ما يحققانه. ثم ألقت مارثا بنفسها باكية بين ذراعي يسوع المسيح، لكنها خشيت من جرأتها هذه فتهاوت على الأرض، وشحب وجهها، ودمدمت لنفسها، وأنا غسلت قدميك. لم يتحرّك لعازر من الخوف، بل يمكننا القول إنه إذا لم يكن هذا الوحي المفاجئ قد قتله، فلأن تصرف أخته الذي يوحي بالحب في الوقت المناسب هو الذي منحه قلباً جديداً. مبتسماً، عانقه يسوع المسيح، وقال له، لا تتفاجأ إذا وجدت أن ابن الربّ هو ابن الإنسان، بصراحة، فإن الربّ لا يختاره أحد كما يختار الرجال نساءهم وتختار النساء رجالهن. هذه الكلمات الأخيرة كانت موجّهة إلى مريم المجدلية، لكن يسوع المسيح أدرك أن ذلك لن يؤدي إلّا إلى زيادة حزن مارثا ووحدتها البائسة. هذا هو الفرق بين الربّ وابنه، فالربّ يفعل ذلك عمداً، لكن ابنه يفعل ذلك بدافع الإهمال، وهو أمر إنساني بحت. لا تهتم، ستقام الأفراح اليوم في هذا البيت، وتستطيع مارثا أن تعود إلى تنهّداتها غداً، لكن عزاءها الوحيد هو أنها ستكون متأكدة من أحداً لن يجرؤ على أن يتحدث بالسوء عن ماضي أختها في شوارع بيت عنيا

وساحاتها وأسواقها، وستخبرهم بأن الرجل الذي معها هو الذي أبرأ لعازر من مرضه من دون استعمال مراهم أو منقوع أعشاب. كانوا جالسين في البيت عندما قال لعازر، تدور إشاعات عن رجل من الجليل يطوف ويصنع أعاجيب ومعجزات، لكن لم يذكر أحد بأنه ابن الربّ. فقال يسوع المسيح، إن بعض الأخبار تنتقل أسرع من أخرى. أنت هو ذلك الرجل. قلتها بنفسك. ثمّ حكى يسوع المسيح قصّته من بدايتها، لكنه لم يقل كلّ شيء، فلم يذكر قصة *الراعي* ولم يذكر شيئاً عن الربّ سوى أنه ظهر له ليقول له، أنت ابني. لولا تلك الشائعات عن المعجزات التي تحوّلت الآن إلى حقيقة بدليل هذه المعجزة الأخيرة، ولولا قوّة الإيمان والحبّ، لما تمكن يسوع من إقناع لعازر ومارثا بأن الرجل الذي سيشاركهما بعد قليل حصيرة مع أختهما مجبول من روح قدسية، لأنه باللحم والدم عانق يسوع المسيح هذه المرأة التي عانقت رجالاً كثيرين من دون الخوف من الربّ، ودعونا نغفر لمارثا كبرياءها الروحي الذي جعلها تدمدم تحت الغطاء الذي سحبته فوق رأسها حتى لا ترى أو تسمع، إني أستحقّه أكثر منها.

في اليوم التالي، انتشر الخبر كالنار في الهشيم، وشكر أهالي بيت عنيا الربّ، وحتى الأرواح الجافّة التي ارتابت في البداية والتي كانت تردد بأن الأرض صغيرة ولا تحتمل مثل هذه المعجزات والعجائب، فقد أُرغمت على تغيير رأيها عندما رأوا لعازر الذي شُفي بأعجوبة والذي يجب ألّا يقال بأنّه بدأ يشيع ذلك للآخرين لأنه كان طيب القلب إلى حد أنه كان من الممكن أن يعرّفه على آخرين. اجتمع عدد آخر من الأشخاص أمام باب البيت بدافع الفضول لرؤية صانع المعجزة بأم أعينهم الذي يمكن السماح لهم بأن يلمسوه، برهان أخير حاسم. وجاء كذلك مرضى وعجزة في جموع ضخمة، بعضهم يسيرون على

أقدامهم، وبعضهم يُحملون على نقالات أو على ظهور أقاربهم، حتى امتلأ الزقاق الضيّق الذي يسكن فيه لعازر وأخته. عندما أدرك يسوع المسيح حقيقة الأمر، بعث بكلمة بأنه سيخاطب الناس في ساحة القرية وعليهم الذهاب إليها وأنه سيلحق بهم بعد قليل. لكن من يمسك بيده عصفوراً لن يكون أحمق ويفلته ويدعه يطير. بهذا المفهوم، لم يتزحزح أحد من مكانه، فاضطر يسوع المسيح إلى الخروج ومغادرة البيت مثل الآخرين، من دون جلبة أو أبهة أو مراسم، ومن دون أن تحدث أيّ هزّات في السماء أو على الأرض. ها أنا هنا، قال، محاولاً أن يتكلم بشكل طبيعي، لكن كلماته كانت كافية لأن يركع جميع سكان القرية ويطلبوا الرحمة. أنقذنا، صاح بعضهم. اشفنا، توسل آخرون. وشفى المسيح رجلاً لم يستطع أن يتوسل إليه لأنه كان أبكم، لكنّ يسوع أرسل الآخرين لأنه لم يكن لديهم إيمان قوي، وطلب منهم أن يعودوا في يوم آخر، لكن عليهم أولاً أن يتوبوا عن خطاياهم لأننا نعرف أن مملكة الربّ أصبحت قائمة والزمن على وشك أن ينتهي. أأنت ابن الربّ، سألوه، فأجاب المسيح بالألغاز، لو لم أكن ذلك لجعلكم الربّ بكماً ولم يسمح لكم أن تسألوا هذا السؤال.

بدأ إقامته في قرية بيت عنيا بهذه الأعاجيب العظيمة، بانتظار اجتماعه مع حوارييه الذين كانوا لا يزالون يجوبون في أراضٍ بعيدة. وغني عن القول إن الناس بدأوا يتوافدون بسرعة من البلدات والقرى المجاورة عندما سمعوا بأن الرجل الذي صنع المعجزات في الشمال موجود الآن في بيت عنيا. ولم يستطع المسيح مغادرة بيت لعازر لأن الناس كانوا يتدفقون إليه من كل حدب وصوب كأنه أصبح محجاً، لكنه لم يستقبلهم، إنما أمرهم بأن يذهبوا ويتجمعوا فوق تلّ خارج القرية حيث سيلقي عليهم موعظة التوبة ويشفي المرضى. وسرعان ما وصلت

الأخبار إلى أورشليم فازدادت أعداد الناس، حتى بدأ المسيح يتساءل هل يبقى هناك معرضاً نفسه لإمكانية حدوث اضطرابات، وهو أمر شائع عندما تخرج الجموع عن السيطرة. في البداية بدأ أناس بسيطون يأتون من أورشليم طلباً للشفاء، لكن لم تمض فترة طويلة حتى بدأ أناس من جميع الطبقات الاجتماعية يتوافدون، بمن فيهم الفريسيون والكتبة الذين لم يكونوا يصدّقون أنّ أحداً يتمتع بعقل سليم يجرؤ على أن يعلن على الملأ بأنه ابن الربّ. فعادوا إلى أورشليم غاضبين، مشوشين، لأن المسيح لم يعطهم جواباً مباشراً عندما سألوه. وعندما كانوا يضغطون عليه ويسألونه عن أبوّته، كان يجيبهم أنا ابن الإنسان، وإذا صادف وقال الأب عندما يشير إلى الربّ، كان من الواضح أنه يقصد الربّ لأنه أب الجميع لا أبوه فقط، وظلت المسألة المزعجة لقوى الشفاء التي مارسها من دون اللجوء إلى الخداع أو إلى السحر تحيرهم. فقد كان كلّ ما يقوله بضع كلمات بسيطة مثل، امش، انهض، تكلّم، انظر، اشف، وفي الحال توهّج جلد المصاب بالبرص مثل الندى في ضوء الصباح عندما لمسه المسيح بأطراف أصابعه، وفجأة أصبح الأبكم الذي كان يتلعثم ثملاً بالكلمات، وقفز المشلول من الفراش وراح يرقص مبتهجاً، ولم يصدّق الأعمى أن عينيه أصبحتا تريان مرة أخرى، وبدأ الأعرج يركض سعيداً، ثمّ تظاهر ممازحاً بأنه عاد يعرج لكنه سرعان ما انطلق وراح يجري ثانية. وكان يسوع المسيح يكرر على أسماعهم توبوا، توبوا، وكان ذلك كلّ ما طلبه منهم. لكن كبار كهنة الهيكل الذين كان بعضهم قد سمع عن اضطرابات وقلاقل أثارها أنبياء وعرّافون في الماضي، فقد قرّروا أنه يجب منع حدوث اضطرابات دينية وسياسية واجتماعية أخرى، وقرّروا أنهم يجب أن يعيروا انتباههم لكلّ ما يقوله أو يفعله هذا الجليلي، وإذا دعت الضرورة إلى اجتثاث الشرّ من جذوره

والقضاء عليه. وكما قال الحاخام الأكبر، فإن هذا الرجل لا يمكن أن يخدعني، فإن ابن الإنسان هو ابن الربّ. لم يذهب المسيح ليبذر في أورشليم، بل بقي في بيت عنيا حيث كان يصنع ويشحذ المنجل الذي سيقطع به.

ثمّ بدأ الحواريون يتوافدون على بيت عنيا، اثنان اثنان، اثنان اليوم، اثنان في الغد، بل حتى أربعة إذا تصادف والتقوا في الطريق. وباستثناء تفاصيل قليلة بسيطة، كانوا يحكون القصّة نفسها، قصّة رجل قدم من الصحراء وتنبّأ بالأسلوب التقليدي، كما لو كان يحرّك صخوراً بصوته وجبالاً كاملة بذراعيه، يتكلّم عن العقاب الذي ينتظر الناس وعن قدوم المسيح الوشيك. لم يره الحواريون قط لأنه كان دائم الحلّ والترحال، يتنقل من مكان إلى آخر، لذلك لم يتمكنوا من الحصول على معلوماتهم من ذلك النبي مباشرة الذي كانوا يريدون الوصول إليه، لكن الأشهر الثلاثة كانت على وشك أن تنتهي ولم يرغبوا في التأخر عن لقائهم به. سألهم يسوع هل يعرفون اسم النبي، فقالوا له إنه يدعى يوحنا. إذاً هو هنا، قال يسوع. لم يفهم أصدقاؤه ما يقصده، ما عدا مريم المجدلية التي عرفت كلّ شيء بعد ذلك. لقد أراد يسوع أن يذهب ويبحث عن يوحنا الذي كان من المؤكد يبحث عنه أيضاً، لكن من بين الحواريين الاثني عشر، لم يكن توما ويهوذا الأسخريوطي قد وصلا بعد، وبما أنه لم تكن لديهم معلومات أخرى عنهما، فقد أثار تأخيرهما شيئاً من القلق. لكن تبين أن تأخرهما مبرر لأن هذين الحواريين لم يريا يوحنا فحسب، إنما كلّماه أيضاً. خرج الآخرون من خيمهم المنصوبة خارج قرية بيت عنيا لسماع ما سيقوله توما ويهوذا الأسخريوطي، وتحلّقوا في دائرة في فناء بيت لعازر، ثم جاءت مارثا ومريم ونساء أخريات. تكلّم يهوذا الأسخريوطي ثم تبعه توما، وشرحا كيف أن يوحنا

كان في البريّة عندما تلقى كلمة الربّ، وذهب إلى ضفة نهر الأردن ليعمّد ويعظ بالتوبة من أجل المغفرة عن الذنوب. وتدفقت الجموع إليه للعمادة، وقد وبّخهم بصيحات عالية أثارت الذعر في نفوس الجميع، يا أولاد الأفاعي، من الذي أنذركم لتهربوا من الغضب الآتي. اعملوا أعمالاً تدّل على أنكم تبتم فعلاً؛ ولا تفكروا وتقولوا في أنفسكم: إبراهيم هو أبونا، لأني أقول لكم: إن الربّ قادر أن يقيم من هذه الحجارة أولاداً لإبراهيم. الفأس الآن في وضع الاستعداد على جذور الشجر، فكل شجرة لا تثمر ثمراً جيداً تُقطع وتُرمى في النار، فسأله الجمع والخوف يملأ قلوبهم، وماذا نعمل، فأجاب يوحنا، من عنده ثوبان يجب أن يعطي من ليس عنده، ومن عنده طعام يجب أن يعمل كذلك. وقال يوحنا لجباة الضرائب، لا تأخذوا أكثر مما فُرض لكم، ولا تظنن أن القانون عادل لأنكم تدعونه القانون. وقال للجنود الذين سألوه، وماذا عنا، ماذا يجب أن نفعل، فقال لهم، لا تظلموا أحداً، ولا تفتروا على أحد، واقنعوا بمرتبكم. هنا صمت توما الذي كان قد بدأ الكلام، وبدأ يهوذا الأسخريوطي يتكلّم، سأل الشعب يوحنا عمّا إذا كان هو المسيح المنتظر، فقال لهم، أنا أغطسكم في الماء كعلامة على أنكم تبتم، ولكن الذي يجيء بعدي هو أقوى مني، وأنا لا أستحق أن أحمل حذاءه، هو يغطسكم في الروح القدوس والنار، والمذرة بيده فينقي بيدره، ويجمع قمحه إلى المخزن، أما التبن فيحرقه بنار لا تنطفئ. وصمت يهوذا الأسخريوطي وانتظر الجمع يسوع المسيح حتى يتكلم، لكن المسيح الذي كان يرسم بإصبعه خطوطاً مبهمة على الأرض، بدا أنه ينتظر. ثمّ قال بطرس، إذاً أنت هو المسيح المنتظر الذي تنبأ يوحنا بقدومه، فأجابه يسوع، وهو لا يزال يرسم خطوطاً في التراب، لقد قلتها أنت، لا أنا، فقد قال لي الربّ إنني ابنه. صمت

قليلاً، ثمّ أنهى كلامه بالقول، سأذهب وأبحث عن يوحنا. سنذهب معك، قال ابن زبدي الذي كان اسمه أيضاً يوحنا، لكن يسوع هزّ رأسه ببطء، وقال، سيرافقني توما ويهوذا فقط لأنهما رأياه، والتفت إلى يهوذا وسأله، صف لي شكله. فقال يهوذا إنه أطول منك، وأكثر امتلاء، وله لحية طويلة خشنة، ويرتدي ثوباً من وبر الإبل، ويضع حول وسطه حزاماً من الجلد، ويقول الناس إنه يأكل في البريّة الجراد والعسل البري. فقال يسوع، يبدو أنه يشبه المسيح المنتظر أكثر مني، ونهض من الدائرة المتحلقة حوله.

انطلق الرجال الثلاثة في وقت مبكر من صباح اليوم التالي. كانوا يعرفون أن يوحنا لا يمكث في المكان نفسه أكثر من بضعة أيام ومن المرجح أن يجدوه وهو يعمّد الناس على ضفة نهر الأردن، فهبطوا من بيت عنيا إلى مكان يدعى بيت بره على حافة البحر الميت ليتوجهوا بعدها إلى أعلى النهر باتجاه بحيرة طبريا، وشمالاً إلى منبع النهر إذا دعت الضرورة. لكن رحلتهم كانت أقصر مما تخيّلوا، لأنهم وجدوا يوحنا وحده في بيت بره، كما لو كان في انتظارهم. لمحوا الرجل من بعيد. جسد ضئيل جالس على ضفة النهر تحيط به صخور متجهّمة تشبه الجماجم، ووديان تشبه جروحاً ناكئة، وإلى اليمين، تحت أشعة الشمس والسماء الصافية، يقبع البحر الميت المشؤوم، يتوهج سطحه الرهيب مثل نحاس مذاب. وعندما أصبحوا على مرمى حجر منه، سأل يسوع رفاقه، أهذا هو. ظلّل التلميذان أعينهما بأيديهما، وأمعنوا النظر ثم أجابوا، إمّا هو أو توأمه. انتظرا هنا حتى أعود ولا تقتربا، قال لهما يسوع المسيح، وراح يهبط إلى النهر. جلس توما ويهوذا فوق التربة الجافة، وراحا يراقبان يسوع يسير مبتعداً حتى غاب عندما ارتفعت الأرض وانخفضت. وعندما وصل إلى ضفة النهر رأياه يقترب من يوحنا

الذي لم يبارح مكانه طوال هذا الوقت. نرجو أننا لم نخطئ به، قال توما. كان علينا أن نقترب أكثر، قال يهوذا الأسخريوطي. لكن يسوع تأكّد من أنه هو منذ أن وقعت عيناه عليه. في الأسفل، نهض يوحنا على قدميه، ونظر إلى يسوع المسيح يسير نحوه. ماذا سيقول أحدهما للآخر، تساءل يهوذا الأسخريوطي. قد يخبرنا وقد لا يخبرنا، قال توما. من بعيد بدا أن الرجلين أصبحا يقفان وجهاً لوجه ويتحدّثان بحماسة من إيماءاتهما وحركاتهما بعصيهما، ثم توجها إلى حافة الماء حيث اختفيا وراء حاجز ناتئ. لكن يهوذا وتوما كانا يعرفان ماذا يجري هناك، لأن يوحنا كان قد عمّدهما أيضاً. فقد خاضا في النهر حتى وصلت الماء إلى وسطهما. سيغرف يوحنا الآن قليلاً من الماء في راحتي يديه ويرفعهما إلى السماء، ثمّ يلقي بالماء فوق رأس يسوع المسيح، وهو يردد، إني أعمّدك بهذا الماء لعله يغذّي نارك، وعندما سينتهي، سيخرج يوحنا ويسوع من النهر، وسيأخذ كل منهما عصاه، ويودّع أحدهما الآخر بعناق. وسيبدأ يوحنا يسير على طول النهر شمالاً، بينما يعود يسوع إلينا. وقف توما ويهوذا الأسخريوطي ينتظرانه، ثم ظهر وسار أمامهما صامتاً نحو بيت عنيا. سار التلميذان وراءه وأحسّا بشيء من التجاهل. ولإرضاء فضولهما، لم يتمالك توما نفسه، متجاهلاً إيماءة يهوذا، وسأل يسوع المسيح، ألن تخبرنا ما قاله لك يوحنا. فأجابه يسوع، سأخبركما عندما يحين الوقت. هل قال لك إنّك أنت المسيح المنتظر. عندما يحين الوقت، كرّر يسوع، وتساءل التلميذان هل يعني ذلك أنّه لم يحن الوقت بعد لظهور المسيح المنتظر.

مريم المجدلية فقط هي التي عرفت ما حدث في ذلك اليوم. لم يذكر إلّا القليل، كما أباح لها يسوع المسيح. لم نكد نلتقي حتى أراد يوحنا أن يعرف هل أنا الذي جاء أم علينا أن ننتظر أحداً آخر. وماذا

قلت له. قلت له لقد استرد الأعمى بصره، ومشى الأعرج، وشفي الأبرص، وسمع الأطرش، وتم وعظ الفقراء بالإنجيل. وماذا قال. ليس على يسوع المسيح أن يفعل الكثير طالما أنه يفعل ما يُنتظر منه. هل هذا ما قاله. نعم، كانت تلك كلماته. وما الشيء المنتظر من المسيح. هذا ما سألته. وماذا أجابك، قال يجب أن أعرف بنفسي. وماذا قال أيضاً. هذا كلّ ما قاله، ثم أخذني إلى النهر وعمّدني، ثم انصرف. ما الكلمات التي رددها ليعمّدك. قال أعمّدك بالماء لعله يغذّي نارك. بعد هذا الحديث مع مريم المجدلية، لم ينبس يسوع المسيح بكلمة واحدة طوال أسبوع. ثم غادر بيت لعازر وانضم إلى تلامذته خارج بيت عنيا، حيث نصب خيمة منعزلة عن الآخرين وأمضى سحابة اليوم وحيداً، حتى إنه لم يسمح لمريم المجدلية بدخول الخيمة. لم يكن يغادر الخيمة إلّا في الليل ويتوجّه إلى الجبل. وكان تلامذته يتبعونه أحياناً خلسة بحجة حمايته من الوحوش البرّية مع أنه لم تكن هناك وحوش برّية في تلك البقاع، ويختار بقعة مريحة يجلس فيها. لم يكن يحدّق في السماء، بل ينظر إلى الأمام كأنه ينتظر أحداً ليظهر من ظلّ الوادي الكئيب أو من حول سفح هضبة. كان القمر ينشر ضياءه، لذلك، كان بإمكانه رؤية أي شخص قد يظهر من بعيد، لكن لم يظهر أحد. وعند بزوغ أول ضوء للنهار، كان يسوع المسيح يعود إلى الخيمة. وكان يتناول قليلاً من الطعام الذي يحضره له يوحنا ويهوذا الأسخريوطي تباعاً، ولم يبذل أي محاولة للردّ على تحيتهما له. وفي إحدى المرات، طرد بطرس بحدّة عندما سأله هل أن كلّ شيء يسير على ما يرام، وهل لديه أوامر يريد أن يعطيها لهم. لم يكن بطرس مخطئاً تماماً، لكنه لم يتكلّم في الوقت المناسب، لأن يسوع خرج من الخيمة في وضح النهار بعد ثمانية أيام، وانضم إلى تلاميذه وشاركهم الطعام. وعندما أنهوا طعامهم، قال لهم

ستتوجه غداً إلى أورشليم، إلى الهيكل حيث ستفعلون كما أفعل، لأن الوقت حان حتى يعرف ابن الربّ ما الفائدة التي سيجنيها من بيت أبيه، وحتى يفعل يسوع المسيح ما ينتظر منه. أراد التلاميذ سماع المزيد، لكنه لم يقل لهم شيئاً سوى، لن تنتظروا طويلاً حتى تعرفوا. لم يعتد تلامذته على سماعه يكلّمهم بهذه الطريقة أو رؤيته متجهماً هكذا، فلم يعد يسوع المسيح الهادئ الرقيق الذي عرفوه، الذي يتوجّه حيثما شاء الربّ دون أن يشتكي أو يتذمر. ظروف مجهولة هي التي أدت إلى هذا التغيير، مهما كان الشيء الذي جعله يعزل نفسه عن تلامذته ويطوف وحيداً فوق الهضبة وفي الوادي كما لو أن شياطين الليل قد تلبسته، يبحث عن شيء لا يعرف أحد ما هو. قال بطرس لنفسه، أكبر التلاميذ سناً، إنه ليس من العدل أن يطلب منهم يسوع المسيح الذهاب إلى أورشليم بهذه الطريقة، كما لو كانوا خدماً له وينحصر عملهم في جلب الأشياء وحملها، والذهاب والقدوم من دون توضيح السبب، فاحتج وقال، إننا نعترف بسلطتك، وإننا مستعدون لطاعتك بالكلمة والعمل، لأنك ابن الربّ وابن الإنسان في آن معاً، لكن ليس من الحقّ أن تعاملنا مثل أطفال طائشين لا يتحملون مسؤولية، أو كرجال مسنين ضعفاء، لا تبوح لنا بشيء، وتأمرنا من دون أن تسألنا رأينا أو حتى دون أن تسمح لنا بأن نتخذ قراراتنا. اغفروا لي جميعكم، قال لهم يسوع المسيح، لأنني أنا نفسي لا أعرف ما الذي دعاني لأن أتوجّه إلى أورشليم، وكلّ ما طُلب مني هو أن أذهب إليها، لا أكثر ولا أقل، وليس عليكم أن ترافقونني. من الذي طلب منك أن تذهب إلى أورشليم. صوت في رأسي يقول لي ما يجب أن أفعله وما لا أفعله. لقد تغيّرتَ كثيراً منذ لقائك بيوحنا. نعم، جعلني أدرك أن أجلب السلام، لكن على المرء أن يحمل السيف أيضاً. إذا كانت مملكة الربّ وشيكة فما الداعي إلى حمل

السيف، سأله أندراوس. لأن الربّ لم يوحِ برسالته بأي وسيلة. ستأتي مملكته، لقد جرّبنا السلام، ولنجرّب الآن السيف، والربّ سيختار، لكنّي أكرّر، لا يتوجب عليكم أن ترافقونني. فقال له يوحنا، إنك تعلم أننا ستتبعك حيثما ذهبت. فأجابه يسوع، لا تقسم به، فالذين سيأتون معي سيتعلمون.

في صباح اليوم التالي، توجّه يسوع المسيح إلى بيت لعازر ليودعه ويودع مارثا وليقول لهما أيضاً إنّه سيعود ليقيم مع تلامذته بعد أن ذهب إلى الصحراء. فقالت مارثا إن شقيقها ذهب إلى الكنيس. فانطلق يسوع المسيح وتلامذته إلى أورشليم، وتبعتهم مريم المجدلية والنساء الأخريات اللاتي رافقنهم حتى آخر بيت في بيت عنيا، حيث توقفن ورحن يلوّحن بأيديهن مسرورات مع أن الرجال لم يلتفتوا إلى الوراء ولا مرة واحدة. كانت السماء غائمة وتنذر بهطول أمطار، وربما لهذا السبب لم يكن يسير على الطريق إلّا عدد قليل من الناس، فقد قرر الذين ليس لديهم عمل مهم في أورشليم البقاء في بيوتهم وانتظار إشارة من السماء. سار الرجال الثلاثة عشر، وغطّت الجبال غيوم رمادية كثيفة كما لو كانت السماء والأرض ستلتقيان معاً في النهاية، السابك والمسبوك، الذكر والأنثى، المحدّب والمقعر. وصلوا إلى بوابة المدينة، وبالرغم من أن الطريق كان خاوياً، فقد رأوا الجمع المعتاد هناك، وانتظروا طويلاً قبل أن يصلوا إلى الهيكل. لكن الأمور لم تسر بالطريقة المعهودة. إن ظهور ثلاثة عشر رجلاً، جميعهم حفاة تقريباً، يحملون عصياً غليظة، ولهم لحى مسترسلة، يعتمرون أغطية سوداء ثقيلة ويرتدون أثواباً مهلهلة، جعل الجمع المجفل يتراجع إلى الوراء وراح الناس يتساءلون في ما بينهم، من هم هؤلاء الرجال ومن أين أتوا ومن هو ذلك الشخص الذي يتقدمهم. لم يعرف أحد الجواب حتى قال

رجل جاء من الجليل، إنه يسوع المسيح من الناصرة الذي يدّعي بأنه ابن الربّ ويصنع معجزات. وإلى أين سيذهبون، سأل آخرون. ولمّا كانت الوسيلة الوحيدة لمعرفة ذلك تكمن في تتبعهم، سار عدد كبير منهم وراءهم، وعندما وصلوا إلى مدخل الهيكل، ازداد عددهم من ثلاثة عشر إلى أكثر من ألف شخص، وانتظر الناس لرؤية ماذا سيحدث. سار يسوع المسيح إلى حيث يجلس الصرّافون وقال لحوارييه، إلى هنا جئنا لنعمل، وبهذه الكلمات، راح يقلب الطاولات ويوبخ جميع الذين يبيعون ويشترون، وأحدث بذلك جلبة كبيرة فلم تعد تُسمع كلماته لكن بما أن صوته كان جهورياً، سُمع يقول، مكتوب أن بيتي سيُدعى بيت الصلاة، لكنكم جعلتموه وكراً للصوص. واستمرّ يقلب الطاولات ويبعثر العملات المعدنية في كل مكان، فأدخل ذلك بهجة عظيمة إلى نفوس الناس المتجمهرين الذين اندفعوا لجمع هذا المنّ. وحذا الحواريون حذو يسوع المسيح، فألقوا طاولات بائعي الحمام على الأرض فانطلقت الطيور من أقفاصها وحلّقت فوق سماء الهيكل، وحامت حول الدخان المنبعث من المذبح حيث لن تُحرق بعد الآن، لأن منقذها قد وصل. فهرع حرّاس الهيكل إلى المكان، مدججين بالعصي لمعاقبة مثيري الشغب والقبض عليهم أو طردهم، فوجدوا أنفسهم أمام ثلاثة عشر رجلاً أشداء من الجليل يحملون عصياً غليظة يطرحون أرضاً كلّ من تجاسر واقترب. هيا تعالوا، تعالوا، جميعكم، واشعروا بقدرة الربّ، صاحوا وهاجموا الحرّاس، وحطّموا كلّ ما يقع تحت بصرهم، وأضرموا النار في الخيام. وسرعان ما تصاعد عمود آخر من الدخان في الهواء، وسُمع صوت يصيح، نادوا الجنود الرومان، لكن لم يستجب أحد، لأنه مهما حدث، فإن القانون لا يسمح للرومان بدخول الهيكل. وهرع إلى المكان عدد أكبر من الحرّاس، هذه المرة، مدججين

بالسيوف والرماح، ثم انضم إليهم عدد من الصرافين وبائعي الحمام الذين قرّروا ألّا يتركوا حماية ممتلكاتهم للغرباء، وهكذا، شيئاً فشيئاً، سيطر الحرّاس على الوضع، وإذا كان هذا العراك قد أدخل السرور إلى الربّ كما فعلت الحروب الصليبية التي ستأتي، فإنه يبدو أنه لم يفعل الكثير لمساعدته. وكان هذا هو الحال عندما ظهر كبير الكهنة في أعلى الدرج يرافقه جميع الكهنة الآخرين والأحبار والكتبة الذين استدعوا بسرعة، وبصوت قوي يعادل قوة صوت يسوع المسيح، قال، دعوه وشأنه هذه المرة، لكن إذا أرانا وجهه مرة أخرى فإننا سنقطعه ونرميه كما نقطع الأعشاب الضارة التي تهدد بخنق محصول الحنطة عند الحصاد. ثم قال أندراوس ليسوع الذي قاتل إلى جانبه، كنت جاداً عندما قلت إنك ستجلب السيف بدلاً من السلام، لكن العصي ليست مفيدة كما هي السيوف. فأجابه يسوع، إن ذلك يتوقف على من يستخدم العصا. وماذا سنفعل الآن، سأله أندراوس. فأجاب يسوع، دعونا نعود إلى بيت عنيا، فليست السيوف هي ما نحتاج إليه، إنما نحتاج إلى العزيمة. انسحبوا بشكل منظّم، عصيهم موجهة إلى الجمع الذي كان يطلق عليهم صيحات ساخرة، وسرعان ما تبعه تلامذته بأمان إلى خارج أورشليم، وتراجعوا بسرعة، مُستنزفين، حتى إن بعضهم أصيب بجروح.

عندما وصلوا إلى بيت عنيا، لاحظوا أن الأشخاص الذين كانوا واقفين عند عتبات بيوتهم ينظرون إليهم بشفقة، لكن الحواريين قالوا لأنفسهم إن هذا أمر طبيعي، من الحالة المزرية التي عادوا فيها من المعركة. وعرفوا السبب الحقيقي من التجهم المرتسم على وجوههم عندما وصلوا إلى الزقاق الذي يوجد فيه بيت لعازر وشعروا بأن مأساة قد وقعت. سار يسوع أمامهم بسرعة ودخل فناء البيت، وأفسح الناس

المتجمّعون هناك طريقاً كي يمر وانطلقت من أفواههم زفرات وتنهيدات حزينة. ومن الداخل، تناهى إليهم صوت بكاء ونواح. آه يا أخي الحبيب. سُمع صوت مارثا تبكي. آه يا أخي الحبيب، سُمع صوت مريم تنوح. كان لعازر ممدداً على فراش على الأرض كأنه نائم، لكنّه لم يكن نائماً، إنما ميت. فقد كان يعاني طوال حياته من ضعف قلبه، ثمّ شُفي كما رأى جميع سكان بيت عنيا، أما الآن، فقد كان ساكناً كما لو أنه تمثال من رخام، هامداً كما لو أنه انتقل إلى الخلود. وستظهر أولى علامات التعفّن بسرعة، مما يزيد من ألم المتحلقين حول الجثمان. وكما لو أنّ القوّة قد انتقلت فجأة من ساقيه، جثا يسوع المسيح على ركبتيه وراح يبكي. كيف حدث ذلك، كيف حدث ذلك، الكلمات التي لا تني تقفز إلى شفاهنا عندما نواجه أمراً جللاً. نسأل أنفسنا كيف حدث ذلك، محاولة عقيمة مستميتة لتأجيل اللحظة السيئة التي سنقبل فيها الحقيقة. نسأل كيف حدث ذلك، كما لو أننا نستطيع أن نستبدل الحياة بالموت، نستبدل ما ينبغي أن يكون بما هو كائن. من أعماق حزنها قالت مارثا ليسوع، لو كنتَ هنا، لما مات أخي، ولكن حتى في هذا الوقت، فإني أعرف أيضاً أن كلّ ما تطلبه من الربّ يعطيك إياه، فقد منحك القدرة على أن تفتح عيني الأعمى، وتشفي الأبرص، وتجعل الأبكم يتكلم، فضلاً عن كلّ العجائب الأخرى التي تقبع في مشيئتك، وتنتظر كلمتك. فقال لها يسوع، سيقوم شقيقك. فأجابت مارثا، أعرف أنه سيقوم يوم القيامة، في اليوم الآخر. وقف يسوع وقد تملكته قوّة لانهائية. في تلك اللحظة عرف أن بمقدرته أن يفعل أي شيء، أن يُبعد شبح الموت عن هذا الجسد، أن يعيد إليه الحياة، ويعيد إليه النطق والحركة والضحك وحتى الدموع، لكن ليس الحزن. فقال أنا هو القيامة والحياة. من آمن بي ولو مات فسيحيا، ومن كان حياً وآمن بي فلن

يموت أبداً. ثم سأل مارثا، هل تؤمنين بهذا، فقالت له، نعم يا سيد، إني أؤمن بأنك يسوع المسيح ابن الربّ الذي ننتظر قدومه إلى العالم. ثم استتب كل شيء، القوّة والمشيئة لاستخدام هذه القوّة، وما كان على يسوع إلّا أن يمدّ ذراعيه على جانبي ذلك الجسد الذي هجرته روحه، ويصيح بأعلى صوته، يا لعازر، اخرج. فخرج لعازر من الموت، لأن تلك كانت مشيئة الربّ. في تلك اللحظة الأخيرة، وضعت مريم المجدلية يدها على كتف يسوع المسيح، وقالت، لم يرتكب أحد هذا القدر من الإثم في حياته كي يستحقّ أن يموت مرّتين، فأنزل يسوع ذراعيه وخرج ليبكي.

مثل عاصفة شديدة مثلجة، أطفأ موت لعازر الحماسة في قلب يوحنا، وأشعلها في قلب يسوع المسيح. فقد أضحت الحماسة التي تخدم الربّ وتخدم البشر شيئاً واحداً. بعد مضي الأيام القليلة الأولى على الحداد، وبعد أن بدأت الحياة العادية تعود إلى مجراها الطبيعي رويداً رويداً، ذهب بطرس وأندراوس ليكلّما يسوع المسيح. سألاه عمّا يزمع القيام به، وسألاه هل عليهما أن يذهبا ويعظا الناس في المدن والقرى أم يعودا إلى أورشليم لبدء هجوم آخر، لأن الحواريين بدأوا يشعرون بعدم الارتياح، وكانوا متلهّفين للقيام بأي شيء. فقالوا يشتكون، لم نتخلّ عن ممتلكاتنا وأعمالنا وأسرنا حتى نجلس هكذا طوال النهار لا نفعل شيئاً. نظر إليهم يسوع المسيح كما لو أن ضباباً يغلفهم، واستمع إليهم كما لو أنه يجد صعوبة في تمييز أصواتهم في وسط جوقة من الصيحات المتنافرة. بعد صمت طويل، قال لهم، يجب أن يتحلّوا بالصبر، ويجب أن ينتظروا قليلاً، فهو لا يزال يفكّر، ويشعر بأنّ شيئاً على وشك أن يحدث سيقرّر مصيرهم جميعاً إلى الأبد، وطمأنهم بأنه سينضم إليهم قريباً في المخيم، فاحتار بطرس وأندراوس، بسبب بقاء الأختين وحدهما ولم يقررا ماذا سيفعلانه. لستَ بحاجة إلى أن تعود من أجلنا، قال بطرس الذي لم يكن يعرف أن يسوع المسيح

يتنازعه واجبان، الأول تجاه الرجال والنساء الذين تركوا كلّ شيء ليتبعوه، والثاني، في هذا البيت تجاه الأختين. واجبات متشابهة لكنها متباينة، مثل وجه ومرآة. كان شبح لعازر لا يزال حاضراً وكان يرفض أن يبتعد، في الكلمات القاسية التي قالتها له مارثا التي لم تتمكن من أن تغفر لمريم لأنها حالت دون عودة شقيقهما إلى الحياة، ولم تستطع أن تغفر للمسيح لأنه لم يستخدم قوّته التي منحها له الربّ. وكان لعازر موجوداً أيضاً في دموع مريم التي بعد أن أعيد شقيقها إلى الحياة من الموت مرة ثانية، أصبح عليها أن تعيش نادمة إلى الأبد لأنها لم تنقذه من موته الأول. ومثل وجود هائل يملأ كلّ فضاء، كان لعازر أيضاً في روح المسيح المضطربة التي كانت الخيول تجرها في أربعة اتجاهات، أو أربعة حبال ملتفّة حول رافعات تمزّقه إرباً إرباً ببطء، وكانت أيدي الربّ والشيطان تتسلى بالبقايا، إلهياً وشيطانياً.

وقف البائسون والمرضى الذين كانوا يرجون الشفاء عند عتبة باب البيت الذي كان بيت لعازر ذات يوم. وكانت مارثا تخرج بين الحين والآخر وتبعدهم كما لو أن لسان حالها يقول، بما أنه لم يكن هناك خلاص لأخي، فلن يكون لكم خلاص. لكنّهم كانوا يعودون ويتدافعون حتى تمكّنوا من الوصول إلى يسوع المسيح الذي كان يشفيهم ويصرفهم من دون أن يقول لهم توبوا، لأن الشفاء أشبه بولادة جديدة، لأن المولود الجديد يخلو من الذنوب وليس عليه أن يتوب. لكن إعادة الولادة الجسدية، إذا أمكننا أن ندعوها كذلك، مع أنها كانت رحيمة للغاية، فقد تركت شعوراً ممضاً في قلب المسيح، لأنها كانت مجرد عملية تهدف إلى تأجيل الأمر المحتوم، فالذي يغادر اليوم وهو ينعم بصحة جيدة وسعيد سيعود غداً مليئاً بويلات جديدة لا علاج لها. وشعر المسيح بالاكتئاب فقالت له مارثا ذات يوم، لا تمت من أجلي لأن ذلك

سيكون أشبه بخسارة ثانية لعازر، وبكت مريم المجدلية تحت غطائهما مثل حيوان جريح في الظلام، إنك بحاجة إليّ الآن أكثر من أي وقت مضى، لكنّي لن أستطيع أن أصل إليك، إذا أقفلت على نفسك وراء باب يفوق القدرة البشرية. فأجاب المسيح مارثا، إن موتي سيشمل كلّ ميتات لعازر الذي سيظل ميتاً ولن يعود إلى الحياة أبداً. وقال لمريم، حتى لو لم تتمكني من الدخول، فلا تتركيني، وحتى لو لم تتمكني من رؤيتي، مدّي إليّ يدك، وإلّا فإني سأنسى الحياة أو أنها ستنساني. وبعد بضعة أيام، ذهب للانضمام إلى تلاميذه ورافقته مريم المجدلية. وقالت له، سأنظر إلى ظلّك إن لم تشأ أن أنظر إليك. فأجابها، أرجو أن تكوني حيثما يوجد ظلّي إذا كانت عيناك هناك. كان أحدهما يحبّ الآخر، وكانا يتبادلان هذه العبارات المفعمة بالحبّ، لا لأنها كانت جميلة وحقيقية، إنما لأن الظلال كانت تطبق على بعضها، وقد آن الأوان لأن يعدّا نفسيهما لظلام الغياب النهائي.

وصلت إلى المخيم أخبار بأنّ يوحنا المعمدان قد سُجن. ولم يُعرف شيء سوى أنه اعتُقل، وأن هيرودس هو الذي أمر بسجنه. وخيّل إلى يسوع المسيح وتلامذته أن تنبؤات يوحنا بقدوم المسيح المنتظر التي دأب على ترديدها أثناء المعمودية هي التي أثارت غضب هيرودس. من سيأتي بعدي سيعمّدكم في النار، وبين اللعنات، يا أولاد الأفاعي، من الذي أنذركم لتهربوا من الغضب الآتي. قال المسيح لحوارييه إنهم يجب أن يستعدوا لجميع أساليب الاضطهاد، لأن إشاعات بدأت تنتشر بأنهم يعظون نفس الرسالة، وإذا فكّر هيرودس جيداً، فإنه سيلاحق ابن النجار الذي يدّعي أنه ابن الربّ، وأتباعه لأنهم رأس التنين الثاني والأكثر قوّة الذين يهدّدون بالإطاحة به عن العرش. قد لا يكون الخبر السيئ أفضل من عدم وجود أي خبر، لكنّهم تلقوا هذا الخبر برصانة وشجاعة رجال

ينتظرون ويأملون في كلّ شيء، لكن لم يفعلوا شيئاً في الآونة الأخيرة. فتساءلوا بين أنفسهم، وتساءل المسيح أيضاً، ماذا يجب عمله الآن. هل يقفون صفاً واحداً ويقاومون شرّ هيرودس، أم يتفرقون في أرجاء المدن والقرى، أم يلجأوا إلى البريّة حيث يمكنهم تناول العسل البري والجراد كما فعل يوحنا المعمدان قبل أن ينطلق ليبشر بمجد المسيح. لكن لم تكن هناك دلائل على وصول جنود هيرودس إلى بيت عنيا لذبح المزيد من الأبرياء. وعندما كان يسوع المسيح وحواريوه يفكّرون بالبدائل المختلفة، بلغهم خبر آخر يفيد بأن رأس يوحنا المعمدان قد قُطع، وأن لا علاقة لقطع رأسه بقدوم المسيح المنتظر أو بمملكة الربّ، إنما لأن يوحنا أثار غضب هيرودس لأنه تكلّم عن الزنا الذي أُدين به الملك نفسه بعد زواجه من هيرودية، ابنة عمه وامرأة أخيه بينما كان زوجها لا يزال حياً يرزق. جلب خبر موت يوحنا الدموع إلى عيون الرجال والنساء، وحزن كل من في المخيم، لكن أحداً لم يصدّق بأنّه قُتل لهذا السبب. واستشاط يهوذا الأسخريوطي الذي قد تتذكّرونه والذي عمّده يوحنا، غضباً وقال، لا بد أن هناك دافعاً أقوى وراء قرار هيرودس. كيف يمكن أن يحدث ذلك، سأل الأشخاص المتجمعين هناك، بمن فيهم النساء، لقد كان يوحنا يقول إن المسيح سيأتي لتخليص البشرية، وقتلوه لأنه دان زواج زنى بين العم وابنة أخيه، في حين أن الزنا هو تقليد شائع في تلك الأسرة منذ عهد هيرودس الأول. وصاح، كيف يمكن أن يكون ذلك، بينما أمر الربّ نفسه يوحنا بأن يعلن عن قدوم المسيح المنتظر، لا بدّ أن يكون هو الربّ، لأنه لا يمكن أن يحدث شيء بدون مشيئته، لذلك هل يستطيع أحد يعرف الربّ أكثر مني أن يفسر لي لماذا يسمح بأن تفشل خطته هذه على الأرض، وقبل أن تقولوا لي إن الربّ يعلم

حتى لو كنا نحن لا نعلم، فدعوني أقول لكم إنّني أصرّ على أنني أعرف ما يعرفه الربّ.

سرت رعشة في نفوس جميع الذين كانوا يستمعون خوفاً من أن ينزل الربّ غضبه على هذا الرجل الوقح، ويُنزل غضبه عليهم لأنهم لم يعاقبوا هذا الكافر على الفور. لكن بما أنه لم يكن هناك أحد يمكنه الردّ على يهوذا سوى المسيح، الأقرب إلى الخالق الأعظم الذي تم التشكيك في حكمته. لو كان هذا ديناً آخر والظروف مختلفة، فربما لم يتجاوز الأمر ابتسامة غامضة من يسوع المسيح التي بالرغم من أنها كانت فاترة وعابرة، فقد كانت تشي بأمور كثيرة، مفاجأة ومداراة وفضول، مع أن المفاجأة كانت قصيرة، والمداراة تنازل، والفضول ساخر بعض الشيء. عندما اختفت الابتسامة، خلّفت وراءها شحوباً مميتاً. وجه بدا فجأة ضامراً شديد الشحوب، كما لو أنّه رأى صورة قدره. وبصوت يخلو من أي تعبير، قال المسيح أخيراً، لتنسحب النساء. كانت مريم المجدلية أول من نهضت ووقفت على قدميها. ثمّ، بعد أن شكّل الصمت ببطء جدراناً وسقفاً ليجمعهم في أعمق كهف على وجه البسيطة، قال يسوع المسيح، ليسأل يوحنا الربّ لماذا سمح لرجل يتنبّأ بمثل هذه النبوءات الجيدة أن يموت لسبب تافه للغاية. همّ يهوذا الأسخريوطي ليتكلّم، لكن يسوع المسيح رفع يده لإسكاته وقال، أرى الآن بأنّني يجب أن أخبركم ماذا تعلّمتُ من الربّ. علت الأصوات عندما بدأ الحواريون يتكلمون بعصبية في ما بينهم، خائفين مما سيسمعونه. اتخذ يهوذا وحده موقف التحدي الذي بدأ كلّ ذلك. فقال لهم المسيح، إني أعرف مستقبلي ومستقبلكم ومستقبل الأجيال القادمة، وأعرف نية الربّ وتصميمه، وسنتكلّم عن هذه الأمور لأنها تخصنا جميعاً. فسأله بطرس، هل يمكننا أن نعرف ما كشفه لك الربّ، وهل

من الأفضل أن تحتفظ بذلك لنفسك. لو شاء الربّ لأسكتني في هذه اللحظة. إذاً فهو لا يعبأ إن بقيت صامتاً أم تكلّمت، فالأمر سيّان، وإذا تكلّم من خلالك، فإنه سيظل يتكلم من خلالك، حتى لو كنت تظن أنك تعارض مشيئته، كما هو الحال الآن. هل تعرف يا بطرس أنني سأُصلب. نعم، لقد أخبرتني بذلك. لكنّي لم أخبرك بأنّك أنت أيضاً وأندراوس وفيليبوس هنا ستُصلبون، وأنّ برثولماوس سيُسلخ جلده وهو حيّ، وأن متّى سيُذبح على يد الهمج، وأن رأس يعقوب ابن زبدي سيُقطع، وأن يعقوب ابن حلفي سيُرجم حتى الموت، وأن توما سيُقتل بالطعن بالرمح، وأن جمجمة يهوذا تداوس ستُسحق، وأن سمعان سيُنشر بالمنشار إلى نصفين. إنكم لا تعرفون هذه الأمور، لكني أخبركم بها جميعاً الآن. تلقوا هذه الكلمات بصمت، فلم يعد هناك سبب آخر للخوف من المستقبل بعد أن كشف لهم، كما لو أن يسوع المسيح قال لهم أخيراً، إنكم ستموتون، فأجابوا بصوت واحد، وما الضير في ذلك، إننا نعرف. لكن يوحنا ويهوذا الأسخريوطي لم يسمعا ما سيحدث لهما، فسألاه، وماذا عنا، فقال المسيح، أنت يا يوحنا، ستعيش حتى الشيخوخة وستموت ميتة طبيعية، أما أنت يا يهوذا، فابتعد عن أشجار التين لأنك ستشنق نفسك من إحداها بعد فترة قريبة. إذاً سنموت بسببك، سأل صوت، لكن لم يُعرف من الذي تكلّم. فأجاب المسيح، بسبب الربّ. وماذا يريد الربّ، سأل يوحنا. إنه يريد عدداً أكبر مما لديه الآن، إنه يريد العالم كله. لكن إذا كان الربّ هو ربّ الكون، فكيف لا يملك العالم كله، ليس منذ البارحة فقط، أو بدءاً من الغد، إنما منذ بداية الزمن، سأل توما. فأجابه يسوع المسيح، هذا ما لا يمكنني أن أخبرك به. لكنك إذا كنت تحتفظ بكلّ هذه الأشياء في قلبك منذ مدة طويلة، فلماذا تخبرنا الآن. لأن لعازر الذي شفيته، مات، ويوحنا

المعمدان الذي تنبأ بقدومي، قُتل، والآن لحق بنا الموت. فقال بطرس، جميع المخلوقات ستموت. سيموت كثيرون في المستقبل بسبب الربّ ومشيئته. وإذ شاء الربّ فسيكون ذلك لسبب مقدّس. سيموتون لأنهم ولدوا، لا قبل ولا بعد. هل سينعمون بحياة أبديّة، سأل متّى. نعم، لكن الظرف سيكون أخف. فقال بطرس، إن كان ابن الربّ قد قال ما قاله، فقد أنكر نفسه. فأجاب المسيح، إنك مخطئ، فابن الربّ وحده يُسمح له بأن يقول مثل هذه الأمور، والكفر على شفتيك هو كلمة الربّ على شفتي. فقال بطرس، إنك تتكلّم كما لو أن علينا أن نختار بينك وبين الربّ. عليك أن تختار دائماً بين ربّ وربّ، ومثلك ومثل جميع الرجال الآخرين، فأنا في الوسط. إذاً ماذا تريدنا أن نفعل. ساعدوا في أن يحمي موتي حياة الأجيال القادمة. لكنّك لا تستطيع أن تعارض مشيئة الربّ. لا، لكنّي أستطيع أن أحاول على الأقل. إنك آمن لأنك ابن الربّ، أما نحن فإننا سنفقد أرواحنا. لا، لأنك إذا أطعتني، فإنك ستبقى تطيع الربّ. كان بالوسع رؤية حافة قمر أحمر في أفق البريّة البعيدة. تكلّم، قال أندراوس، لكن المسيح انتظر حتى ظهر القمر بكامله، قرص أحمر قان ضخم، من الأرض. عندها تكلّم المسيح وقال لهم، يجب أن يموت ابن الربّ على الصليب حتى تتحقق مشيئة الأب، لكننا إذا استبدلناه بإنسان عادي، فلن يكون الربّ قادراً على أن يضحي بابنه. هل تتمنّى أن يأخذ أحدنا مكانك، سأله بطرس. لا، أنا بنفسي سآخذ مكان الابن. من أجل حبّ الربّ، أوضح: إنسان عادي أعلن بأنه ملك اليهود جاء ليحرّض الناس على الإطاحة بعرش هيرودس وطرد الرومان من الأرض، وكلّ ما أطلبه منكم هو أن يذهب أحدكم في الحال إلى الهيكل ويقول إنني أنا ذاك الرجل، وإذا كانت العدالة سريعة، فربما لن يكون هناك وقت لعدالة الربّ في الإبقاء على الرجل،

كما لم توقف فأس الجلاد قطع رأس يوحنا المعمدان. خيّم الصمت على الجميع، لكن ليس لفترة طويلة، فسرعان ما انطلقت جلبة من الاستياء والاحتجاج وعدم التصديق. إذا كنت ابن الربّ فيجب أن تموت كابن الربّ، صاح صوت. بعد أن أكلت خبزك، فكيف لي أن أنكرك الآن، ناح آخر. وقال آخر، من المؤكد فإن الذي كتب عليه أن يكون ملك الكون لا يمكن أن يرغب في أن يكون ملك اليهود. الموت لكل من يجرؤ على أن يتحرك من هنا لينكرك، هدّد آخر. في تلك اللحظة انطلق صوت يهوذا الإسخريوطي وعلا فوق الضجيج وقال، أنا سأذهب. أمسكوه، وبدؤوا يستلّون الخناجر من أرديتهم. عندها قال المسيح، أتركوه وشأنه ولا تؤذوه. ثمّ صعد وعانق يهوذا وقبّله على خديه وقال له، اذهب، فساعتي في يدك. ومن دون أن ينبس بكلمة، ألقى يهوذا الأسخريوطي حاشية عباءته على كتفه واختفى في سواد الليل.

عند الفجر، جاء حراس الهيكل برفقة جنود هيرودس لاعتقال يسوع المسيح. بعد أن حاصروا المخيم خلسة، تقدمت مفرزة صغيرة مسلّحة بالسيوف والرماح، وصاح قائد الجنود، أين هو ذاك الرجل الذي يدّعي أنه ملك اليهود. ثم صاح ثانية، ليتقدم الرجل الذي يدّعي أنه ملك اليهود. فخرج يسوع المسيح من خيمته مع مريم المجدلية وهي تبكي، وقال لهم: أنا هو ملك اليهود. فتقدم منه جندي وقيّد يديه، وهمس في أذنه، مع أنك الآن سجيني، فإذا أصبحت ملكي فتذكّر أنني أنفذ أوامر ملك آخر، وأنك إذا طلبت مني أن أعتقله، فإني سأطيعك كما أطيعه الآن. فقال له المسيح، إن الملك لا يعتقل ملكاً آخر، ولا يقتل الربّ رباً آخر، لذلك خُلق البشر العاديون، كي يبقى الاعتقال والقتل لهم. وربطوا كذلك حبلاً حول قدميه كي لا يهرب، وقال المسيح لنفسه، لقد فات الأوان، فقد هربتُ للتو. ثمّ أطلقت مريم المجدلية صيحة كما لو

أنّ قلبها قد تحطم، فقال لها المسيح، إنكِ ستبكين عليّ، وستبكين أيتها النساء عندما ستأتي مثل هذه الساعة على رجالكن أو عليكن، لكن اعرفن أنه من أجل كلّ دمعة تذرفنها، فإن ألف دمعة ستُذرف في الأزمان القادمة لو لم أمت هكذا، ثم التفت إلى قائد الجنود، وقال له أطلق سراح هؤلاء الرجال الذين معي، لأني أنا هو ملك اليهود لا هم، ودخل وسط الجنود على الفور. كانت الشمس في الأعلى تلقي بأشعتها فوق سقوف بيوت بيت عنيا، عندما بدأت الجموع، يسوع المسيح يسير في المقدمة بين جنديين يمسكان بطرفي الحبل المربوط حول رسغيه، تتسلّق الطريق المفضي إلى أورشليم. وفي الخلف، كان يسير تلامذته ونساؤهم. كان الرجال غاضبين والنساء ينشجن، لكن غضب الرجال ودموع النساء لم يكن يجدي نفعاً. ماذا سنفعل الآن، تساءلوا، هل نهاجم الجنود ليهرب المسيح. قد نفقد حياتنا في معركة كهذه، أم هل نتفرّق قبل أن يأمروا باعتقالنا نحن أيضاً. كالمستجير من الرمضاء بالنار، لم يفعلوا شيئاً، وظلوا يسيرون وراء حاشية الجنود من بعيد. ثم توقّف الموكب، فتساءلوا هل أُلغي الأمر وهل ستفك الحبال التي تقيد يدي وقدمي يسوع المسيح، لكن من السذاجة التفكير بذلك. لكن عقدة أخرى حُلّت من حياة يهوذا الأسخريوطي. فقد كان التلميذ الذي نفّذ أمنية سيّده الأخيرة يتدلّى من غصن شجرة تين بجانب الطريق الذي سيمرّ منه موكب يسوع المسيح. وأمر قائد الجنود بقطع الحبل وإنزال الجثمان. لا يزال جسده دافئاً، قال أحدهما. ربما كان يهوذا الأسخريوطي جالساً على الشجرة والأنشوطة ملتفة حول رقبته ينتظر بأناة ظهور المسيح من بعيد حتى يفلت الغصن، ويكون بذلك قد أدى واجبه أخيراً ورحل بسلام. اقترب المسيح، ولم يحاول الجنود منعه. وقف وراح يحدّق في وجه يهوذا الذي التوى بهذا الموت المفاجئ. لا يزال

جسده دافئاً، كرر الجندي، وخطر ليسوع المسيح بأنه يستطيع أن يفعل ليهوذا ما لم يستطيع أن يفعله لعازر، وهو أن يعيده إلى الحياة، حتى يموت الرجل في يوم آخر وفي مكان آخر من تلقاء نفسه، بعيداً وغامضاً، بدلاً من أن يكون الرمز المحزن للخيانة. لكن، كما نعرف، لا يمتلك أحد القدرة على إعادة الناس إلى الحياة إلّا ابن الربّ، لا ملك اليهود الذي يسير هنا، معنوياته محطّمة، ويداه وقدماه مقيدة. قال قائد الجنود لرجاله، اتركوا الجثة هناك حتى يدفنه أهالي بيت عنيا، إذا لم تنهشه العقبان أولاً، لكن فتشوه فربما يحمل شيئاً ذا قيمة. فتّشه الجنود لكنهم لم يجدوا شيئاً، وقال أحد الجنود، لا يوجد معه ولا حتى قطعة معدنية واحدة. لا عجب من ذلك، لأن المسؤول عن أموال الجماعة هو متّى الذي كان يعرف عمله جيداً، بعد أن عمل جابياً للضرائب في تلك الأيام التي كان يدعى فيها ليفي. ألم يدفعوا له نقوداً لقاء خيانته، سأل يسوع المسيح، فأجاب متّى الذي سمعه، لقد أرادوا ذلك، لكنّه قال إنّه معتاد على تصفية حساباته، وهذا ما فعله، فقد صفّى حساباته. استمر الموكب، وبدأ بعض التلاميذ يتباطؤون في الخلف ينظرون بشفقة وأسف إلى الجثمان المدلّى، حتى قال يوحنا، لنتركه هنا فهو ليس واحداً منا. فسارع يهوذا الآخر الذي يدعى أيضاً تداوس ليصحح ما قاله، وقال، إن شئنا أم أبينا فإنه سيكون واحداً منا، قد لا نعرف ماذا نفعل له، لكنّه سيظل واحداً منا. هيا بنا، قال بطرس، هذا ليس مكاننا، هنا عند قدمي يهوذا الأسخريوطي. أنت محقّ، قال توما، يجب أن يكون مكاننا إلى جانب يسوع المسيح، لكن ذلك المكان كان فارغاً.

أخيراً، دخلوا أورشليم، واقتيد يسوع المسيح ليمثل أمام رئيس الأحبار وكبار الكهنة والكتبة. سعيداً برؤيته هناك، قال له رئيس

الأحبار، لقد حذرتك لكنك رفضت أن تنصت، ولن ينقذك كبرياؤك اليوم وأكاذيبك ستلعنك. أي أكاذيب، سأله يسوع المسيح. أولاً، أنك ملك اليهود. لكني أنا ملك اليهود. وثانياً، بأنك ابن الربّ. ومن قال لك إنني أدّعي أنني ابن الربّ. الجميع يقولون ذلك. لا تعبأ بما يقولونه، فأنا ملك اليهود. إذاً أنت تعترف بأنك لست ابن الربّ. كم مرة عليّ أن أكرر بأنني أنا ملك اليهود. انتبه لما تقوله، فعبارة كهذه كفيلة بأن يحكم عليك بالموت. إني أتمسك بما قلته. حسناً، ستمثل أمام الحاكم الروماني المتلهف لرؤية الرجل الذي يريد أن يطيح به عن العرش وينتزع كل هذه الأراضي من سلطة القيصر. اقتاد الجنود يسوع المسيح إلى قصر بيلاطس. وسرعان ما انتشر خبر القبض على الرجل الذي ادّعى أنه ملك اليهود، الرجل الذي ضرب صرّافي العملة وأضرم النار في أكشاكهم، فهرع الناس لرؤية من هو هذا الملك الذي اقتيد في الشوارع حتى يراه جميع الناس، وقد قُيِّدت يداه كما تُقيَّد يدا لصّ. وكما يحدث دائماً، بما أن أحداً لا يشبه الآخر في هذا العالم، فقد رثا بعض الناس لحال يسوع المسيح، ولم يشفق عليه بعضهم الآخر، وقال بعضهم أطلقوا سراح الرجل فهو مجنون، بينما اعتقد آخرون أن إنزال العقاب لارتكاب جريمة يشكّل تحذيراً للآخرين. كان عدد الذين ينادون بإطلاق سراحه يماثل عدد الذين يطالبون بمعاقبته. أصيب التلاميذ الذين اختلطوا مع الجمع بالذهول. وكان بوسعك تمييز النساء بينهم بسهولة من دموعهن، لكن امرأة واحدة لم تكن تبكي، وهي مريم المجدلية التي حزنت بصمت.

لم تكن المسافة بين بيت رئيس الأحبار وقصر الحاكم بعيدة، لكن خُيِّل للمسيح أنه لن يصل إليه أبداً، لا بسبب صرخات الاستهزاء التي أطلقها الناس المتجمهرين والتي تعبّر عن انزعاجهم لرؤية الهيئة المزرية

والحزينة لملك، بل لأنه كان متحمساً للالتزام بموعده مع الموت، خشية أن يرى الربّ هذا الطريق ويقول، ماذا يجري هنا، هل تراجعت عما اتفقنا عليه. عند باب القصر، تسلّم الجنود الرومان السجين، بينما بقي جنود هيرودس وحرّاس الهيكل في الخارج بانتظار صدور القرار. وما عدا حفنة من الأحبار، لم يُسمح لأحد أن يرافق المسيح إلى القصر. جالساً على عرشه، راح الحاكم بيلاطس، وهذا اسمه، يتفحص الرجل الماثل أمامه الذي كان يبدو مثل شحاذ، له لحية كثيفة حافي القدمين، وثوبه الملوّث ببقع قديمة وجديدة، البقع الجديدة من فواكه ناضجة، خلقتها الآلهة لأكلها لا لإظهار الكراهية وترك آثار بالخزي. ماثلاً أمام بيلاطس، انتظر السجين، مرفوع الرأس، عيناه مثبّتتان على نقطة بينه وبين الحاكم. لم يكن بيلاطس يعرف إلّا نوعين من المجرمين، ذلك النوع الذي يخفض عينيه، والنوع الذي يحدّق تحدياً. الأول يحتقره، والثاني يستفزه، وفي كلتا الحالتين لم يكن يهدر وقتاً في إصدار حكمه. أما هذا الرجل الماثل أمامه، فقد كان يبدو أنه غير مكترث لما حوله، وشديد الثقة بنفسه إلى حد أنه قد يكون شخصية ملكية، في الحقيقة وفي القانون، ضحيّة سوء فهم محزن سيستعيد قريباً تاجه وصولجانه وعباءته. فقرّر بيلاطس أخيراً أن السجين ينتمي إلى الفئة الثانية، فبدأ يستجوبه على الفور. ما اسمك. أنا يسوع ابن يوسف، ولدتُ في بيت لحم في منطقة يهودا، لكن بما أنني عشت في الناصرة في الجليل، فإنني أُعرف باسم يسوع الناصري. من هو أبوك. لقد أخبرتك للتو، اسمه يوسف. ما مهنته. نجار. إذاً، هلّا شرحت لي كيف يمكن لنجار يدعى يوسف أن يكون أب ملك. إذا كان يمكن لملك أن ينجب نجارين، فلمَ لا يمكن لنجار أن ينجب ملكاً. لدى سماع ذلك، تدخّل أحد الأحبار، وقال، لا تنس يا بيلاطس أن هذا الرجل يدّعي أنه

أيضاً ابن الربّ. هذا غير صحيح، فأنا لست إلّا ابن الإنسان، قال يسوع المسيح. لكن الحبر تابع كلامه، لا تدعه يخدعك يا بيلاطس، ففي ديننا، فإن ابن الإنسان وابن الربّ هو الشيء ذاته. فلوّح بيلاطس بيده بلا مبالاة، وقال لو أعلن عن نفسه بأنه ابن جوبيتر، مع أنه لن يكون أول من يدّعي ذلك، لأصبح للأمر أهمية، لكن سواء أكان ابن إلهك أم لم يكن فهي مسألة ليست ذات أهمية. إذاً احكم عليه لأنه يدّعي أنه ملك اليهود، عندها سنغادر ونحن راضين. فقال بيلاطس بحدّة، إذا كان ذلك سيرضيني أنا. انتظر يسوع المسيح انتهاء هذا الحوار، واستئناف الاستجواب. من تقول أنت، سأل بيلاطس يسوع المسيح. أنا من أنا، ملك اليهود. وكملك لليهود ماذا تأمل في أن تكسب. كلّ ما يمكن أن يتوقّعه أي ملك. اضرب لنا مثلاً. أن يحكم ويحمي شعبه. يحمه من ماذا. من أي شيء يهدّده. ومن أي شخص. ممن يعارضه. إذا فهمتك جيداً، فإنك ستدافع عنه ضدّ روما. نعم. ولكي تحميه فإنك ستحارب الرومان. لا توجد وسيلة أخرى. وستطرد الرومان من هذه الأراضي. وشيء أعقب شيئاً آخر. إذاً فأنت عدو القيصر. أنا ملك اليهود. اعترف بأنك عدو القيصر. أنا ملك اليهود ولن أقول أكثر من ذلك. رفع رئيس الأحبار يديه إلى السماء دلالة الانتصار، وقال، أرأيت يا بيلاطس، إنه يعترف، ولا يمكنك أن تنقذ حياة شخص يعلن كراهيته لك وللقيصر على الملأ. زفر بيلاطس غضباً، ووبّخ رئيس الأحبار، وقال له، اسكت. ثمّ التفت إلى المسيح وسأله، هل هناك شيء آخر تريد أن تقوله. لا شيء، قال المسيح. إذاً لا يوجد أمامي خيار إلّا أن أصدر حكماً عليك. افعل ما يجب أن تفعله. كيف تتمنّى أن تموت. لقد قرّرت للتو. كيف. على الصليب. حسناً، فإنك ستُصلب. بحثت عينا يسوع المسيح عن عيني بيلاطس، والتقت بعينيه أخيراً وسأل هل يمكنني أن

أطلب منك معروفاً. ما دام لا يتدخّل في الحكم الذي أصدرته الآن. أن تطلب منهم أن يضعوا لوحة فوق رأسي تقول من أنا وماذا أنا حتى يراها الجميع. لا شيء آخر. لا شيء آخر. أومأ بيلاطس لأحد مساعديه فأحضر أدوات الكتابة، وكتب بيلاطس بيده، *يسوع المسيح من الناصرة ملك اليهود*. فأدرك رئيس الأحبار الذي أفاق من سعادته ما يحدث، وقال محتجّاً، لا تكتب ملك اليهود، إنما اكتب هذا المسيح الناصري ادّعى بأنه ملك اليهود. منزعجاً من نفسه، أسف بيلاطس لأنه لم يطلق سراح السجين بتحذير، لأن أكثر القضاة يقظة يستطيع أن يرى أنّ هذا الرجل لا يشكل تهديداً لأحد، ناهيك عن القيصر، والتفت إلى رئيس الأحبار وقال له بجفاف، لا تتدخّل، لقد كتبت ما كتبته، وأشار إلى الجنود لأخذ الرجل المدان وطلب ماء ليغسل يديه، كما كان يفعل بعد أن يصدر حكمه.

اقتادوا المسيح إلى تل يعرف باسم الجمجمة أو الجلجثة. وبالرغم من بنيته القوية، سرعان ما وهنت ساقاه تحت ثقل الصليب، وطلب القائد الروماني المسؤول من رجل كان قد توقّف لينظر أن يساعد السجين للتخفيف من عبئه. وواصلت الجموع الصياح وتوجيه الشتائم له وعبارات السخرية، لكن، بين الحين والآخر، كان أحدهم يطلق عبارات تدعو إلى الرحمة. أما حواريوه، فراحوا يسيرون مذهولين. أوقفت امرأة بطرس وقالت له، أنت أيضاً كنت مع يسوع المسيح الجليلي، لكنّه أنكر وقال، يا امرأة أنا لا أعرفه، وحاول الاختفاء بين الجموع، لكن المرأة نفسها رأته مرة أخرى وسألته، ألم تكن مع المسيح، ومرة أخرى أنكر بطرس، وأقسم بأنه لا يعرف الرجل. ولما كان رقم ثلاثة هو رقم مفضّل عند الربّ، فقد تعرض بطرس للتحدي للمرّة الثالثة، وللمرّة الثالثة أقسم وقال، لا أعرف هذا الرجل. وذهبت

النساء إلى الجلجثة مع المسيح، يسرن على الجانبين، لكن مريم المجدلية التي ظلت واقفة أقرب من الجميع، لم يُسمح لها بأن تقترب منه، ودفعها الجنود جانباً كما كانوا يبعدون الجميع عن الصلبان الثلاثة التي نُصبت، عُلِّق على اثنين منها رجلان مجرمان يئنان من الألم، وأصبح الصليب الثالث جاهزاً الآن لكي يُعلق عليه الرجل الثالث، طويلاً ومنتصباً مثل عمود يسند السماء. أمر الجنود يسوع المسيح بأن يستلقي ومدّوا ذراعيه على العارضة. وعندما بدأوا يدقون أول مسمار ثقبوا لحم رسغه بين عظمتين. شعور مفاجئ بالدوخة أعاده إلى الوراء في الزمن، وشعر بالألم الذي شعر به والده من قبل، ورأى نفسه كما رآه على الصليب في صفورية. ثمّ دقّوا مسماراً في رسغه الآخر، فأحسّ بتمزق لحمه لأول مرة عندما بدأ الجنود يرفعون العارضة إلى قمة الصليب، فتدلّى وزنه كله من عظام هشّة. ثم دفعوا ساقيه إلى الأعلى ودقوا مسماراً آخر في كاحليه. ولم يبق الآن شيء سوى انتظار الموت.

بدأ يسوع المسيح يموت ببطء، وبدأت الحياة تنحسر منه، تنحسر. عندما فُتحت أبواب السماء فجأة على مصراعيها وظهر الربّ مرتدياً نفس الرداء الذي كان يرتديه في المركب، دوّت كلماته في أرجاء الأرض، هذا هو ابني الحبيب الذي يفرحني. أدرك المسيح عندئذ بأنه خُدع، كما أن الحمل الذي يقاد إلى المذبح للتضحية به كان مخدوعاً، وأن حياته قد رسم لها أن تموت منذ البداية. متذكراً نهر الدم والمعاناة التي ستتدفّق من خاصرته وتُغرق الكرة الأرضية، صاح نحو السماء المفتوحة حيث يمكن رؤية الربّ وهو يبتسم، أيها البشر، اغفروا له، لأنه لا يعرف ماذا فعل. ثمّ بدأ يتلاشى في وسط حلم، ووجد نفسه في الناصرة، ورأى أباه يهزّ كتفيه ويبتسم ويقول له، كما أنني لا أستطيع أن أسألك كلّ الأسئلة، فلا يمكنك أن تعطيني كلّ الأجوبة. كان لا يزال فيه

رمق عندما أحسّ بإسفنجة منقوعة بالماء والخلّ تبلل شفتيه. نظر إلى الأسفل، ورأى رجلاً يسير مبتعداً يحمل دلواً وعصا على كتفه. لكن ما لم يره يسوع المسيح على الأرض، الطاسة السوداء التي كان دمه ينقط فيها.

هذا الكتاب

... ثمّ بدأ يتلاشى في وسط حلم، ووجد نفسه في الناصرة، ورأى أباه يهزّ كتفيه ويبتسم ويقول له، كما أنني لا أستطيع أن أسألك كلّ الأسئلة، فلا يمكنك أن تعطيني كلّ الأجوبة. كان لا يزال فيه رمق عندما أحسّ باسفنجة منقوعة بالماء والخلّ تبلل شفتيه. نظر إلى الأسفل، ورأى رجلاً يسير مبتعداً يحمل دلواً وعصا على كتفه. لكن ما لم يره يسوع المسيح على الأرض، الطاسة السوداء التي كان دمه ينقط فيها.


ISBN 978-9933353247

